تفسير النور

من سورة الأعراف إلى سورة يونس

تأليف
الشيخ محسن قراءتي

المجلد الثالث

دار المؤرخ العربي
بيروت

مكتبة
مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)

moamenquraish.blogspot.com

تفسير النور

من سورة الأعراف إلى سورة يونس

تأليف

الشيخ محسن قراءتي

ترجمة

حسين صافي

مراجعة الترجمة

محمد حسن زراقط

المجلد الثالث

دار المؤرخ العربي

بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

طبع هذا الكتاب بالتعاون مع
المركز الثقافي للدروس القرآنية

دار المؤرخ العربي

بيروت - حارة حريك - قرب جامع الحسنين - فوق صيدلية دياب - ط ٢
تلفاكس: ٥٤١٤٣١ - ٠١ - هاتف: ٥٤٤٨٠٥ - ٠١ - ص.ب: ٢٤/١٢٤
البريد الإلكتروني al_mouarekh@hotmail.com
www.al-mouarekh.com

سُورَةُ الأَعْرَافِ

السورة: ٧ الجزء: ٨ ـ ٩

عدد الآيات: ٢٠٦

ملامح سورة الأعراف

هذه السورة من السور المكية، آياتها ستّ ومائتان، سمّيت بهذا الاسم لسردها قصّة أصحاب الأعراف في الآيات ٤٦ ـ ٤٨.

هي ثالث سورة تستفتح بالحروف المقطّعة، وأوّل سور السجود في القرآن، فقد اختتمت بآية تتضمّن سجدة مندوبة.

من مجموع عدد سور القرآن الكريم التي تبلغ ١١٤ سورة، نزلت ٨٦ سورة في مكة، والسور المكية ـ في الغالب ـ تتناول موضوعات أصول العقائد، ومحاربة الشرك، والعناية بمنزلة الإنسان، ودعم موقعه في عالم الخلق... إلخ.

بدورها، تتناول هذه السورة قصة النبي آدم عليه السلام مع إبليس، وقصص الأنبياء نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام، كما تبيّن أصول ومبادئ دعوة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وتشرح مشاهد يوم القيامة والتوبة وإصلاح النفس، كما تتطرّق لموضوع العرش والميزان وعالم الذرّ وميثاق الله تعالى مع الإنسان، وتتحدّث كذلك عن عظمة القرآن الكريم ثمّ تشير إلى أصحاب الأعراف.

❖ ❖ ❖

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾

إشارات:

□ يبلغ عدد سور القرآن الكريم التي تستفتح بالحروف المقطعة ٢٩ سورة، منها ما يستهلّ بـ «ألم» وأخرى بالحرف «ص»... وهكذا، أمّا هذه السورة فهي تبدأ بالحروف «ألمص» وربّما كان ذلك تعبيراً عن أنّ هذه السورة تتوافر على ما هو موجود في السور الأخرى مجتمعة[1].

التعاليم:

١ ـ القرآن كتاب عظيم، (لاحظ أنّ كلمة ﴿كِتَٰبٌ﴾ جاءت في صيغة التنكير).

٢ ـ العناية بالقرآن الكريم وسبر مفاهيمه السامية تجلب للإنسان سعة الصدر وتجلي عنه الحرج والضيق، ﴿كِتَٰبٌ... فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾.

٣ ـ الرسالة والدعوة رهنٌ برحابة الصدر وانشراحه، ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾.

٤ ـ لا تبتئس من لجاج الكفّار وعنادهم، فمسؤوليتك هي إنذارهم لا إكراههم، ﴿لِتُنذِرَ﴾.

كان النبي الأكرم ﷺ يشعر بالضيق والحزن تجاه قومه لأنهم لا يؤمنون بالدعوة ويكذّبون بالقرآن، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليعزّي بها رسوله الأمين ويشدّ من أزره.

٥ ـ نُذُر الأنبياء موجّهة إلى كلّ الناس، ولكن وحدهم المؤمنون الذين يستوعبون الدرس فيرعوون، ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن.

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

إشارات:

- بيّنت الآية السابقة مسؤولية النبي الأكرم ﷺ في توجيه الإنذار والتحذير من عواقب عدم الإيمان، فيما توضّح هذه الآية مسؤولية الأمّة في وجوب الطاعة والانصياع لتلك التحذيرات. تلك الآية طالبت النبي ﷺ أن يكون صدره واسعاً رحباً، وهذه الآية تطالب الأمّة بالانقياد لنُذُر نبيّها. إذن، خطاب الآية السابقة موجّه إلى النبي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، وخطاب هذه الآية موجّه إلى الأمّة ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾.
- ورد عن النبي الأعظم ﷺ قوله: «**فإذا التَبَست عليكم الفِتَن كقطع الليل المظلِم فعليكم بالقرآن... مَن جعله أمامه قاده إلى الجنّة ومَن جَعَله خلفه ساقه إلى النّار**»[1]. وفي السياق نفسه، يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**ففي اتّباع ماجاءكم من الله الفوز العظيم وفي تركه الخطأ المبين**»[2].

التعاليم:

١ ـ اتّباع آيات الله، مدعاة لكمال الإنسانيّة ورشادها، ﴿اتَّبِعُوا... رَّبِّكُمْ﴾.

٢ ـ من مستلزمات الربوبيّة والتربية الإلٰهيّة، نزول الأحكام، والإرشادات، والنُّذُر، ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٣ ـ عاقبة اتّباع الإنسان أوامر الوحي هي دخوله حصن الولاية الإلٰهيّة، وفي تركها خضوع لولاية البشر، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾.

٤ ـ لا ريب في أنّ بذل الطاعة للآخرين والانقياد لهم، هو بمثابة القبول بولايتهم. تأمّل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ فهو عزّ وجلّ لم يقل: «لا تتّبعوا من دوني أحداً».

---

(١) تفسير «الاثني عشري». (٢) تفسير نور الثقلين.

٥ ـ من لم يرتضِ لنفسه ولاية الله الواحد الأحد، ﴿رَبِّكُمْ﴾ فسوف يضطرّ إلى إرضاء أولياء عدّة، ﴿أَوْلِيَآءَ﴾.

٦ ـ نادراً ما يتّعظ الإنسان، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾

إشارات:

- «**القَرية**» هنا تعني موضع اجتماع الناس أو أيّ منطقة آهلة، مدينة كانت أو رستاقاً.
- «**بيات**» عند الليل، و«**قائلون**» من «**القيلولة**»، وهي نوم نصف النهار أو الاستراحة نصف النهار وإن لم يكن معها نوم، ومنها «**الإقالة**» والتي تعني الفسخ، وتقايل البيّعين، تفاسخا صفقتهما ذلك أنّ المشتري يرتاح من مشكلات الصفقة.
- لكلّ ظالم يوم يواجه فيه عذاب الله وسخطه، فيعترف حينئذٍ بما اقترفته يداه، ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ولكن لات ساعة مندم؛ إذ لن يكون لاعترافه أثر. كما نقرأ في آية أخرى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[1].

التعاليم:

١ ـ كثيرة هي البلاد التي هلكت بعذاب الله وبأسه، ﴿وَكَم﴾.

٢ ـ فلنتّعظ من التجارب المريرة التي مرَّ بها غيرنا، ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾.

٣ ـ يصف القرآن الكريم هلاك القرى بدلاً من هلاك البشر، بأنّه إمعانٌ منه في تصوير هول العذاب، ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾.

(١) سورة غافر: الآيتان ٨٤ ـ ٨٥.

٤ ـ وقوع العذاب الإلٰهيّ لا يقتصر على يوم القيامة فقط؛ إذ ليس بمستبعد أن نشاهد أمثلة له في هذه الدنيا أيضاً، ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾.

٥ ـ من يتولّى غير الله، حقّ عليه عذابه وقهره، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ... وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾.

٦ ـ إحدى السنن الإلٰهيّة إهلاك الأمة التي تعصي الله وتتبع غيره، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ... وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾.

٧ ـ إرادة الله تقلب الأمور رأساً على عقب، ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾.

٨ ـ أحياناً ينزل عذاب الله تعالى بغتةً ودون سابق إنذار، وبذلك يسلب المرء فرصة المبادرة، ﴿بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾

٩ ـ عذاب القيلولة يكون مباغتاً وأشدّ وطأة وإيذاء، ﴿بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾.

١٠ ـ عند اليسار تطلق الشعارات جزافاً، ولكن حين يدلهمّ الخطب تخرس الألسن، ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ...﴾.

١١ ـ الأخطار والملمّات تسحق كبرياء الإنسان، وتزيح حجب الغفلة عن بصيرته وتوقظ ضميره من سباته، ﴿إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

١٢ ـ إذا لم تمتثل اليوم بإرادتك وتخضع، فسوف تضطرّ ذات يوم إلى الركوع، ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

١٣ ـ طاعة غير الله تعالى والتمرّد على نهج الأنبياء (كما جاء في الآيتين السابقتين) ظلم، ﴿كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾
فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾﴾

إشارات:

- تضمّنت الآية السابقة إشارات إلى العقوبة الدنيوية، وهذه الآية تتحدّث عن الحساب في اليوم الآخر وعذاب القيامة، من خلال تكرار القول بحتميّة

المساءلة والحساب في ذلك اليوم، والتأكيد على أنّ هذه المساءلة سوف لن تقتصر على الناس فحسب، بل ستشمل الأنبياء أيضاً. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[(١)].

❑ **سؤال:** عمّ سيُسئل الإنسان في يوم القيامة؟

أ ـ عن النّعم، ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[(٢)] لقد ورد في روايات متعدّدة أنّ «**النعيم حبّنا أهل البيت وموالاتنا، يسأل الله عنه عباده بعد التوحيد والنبوة، ولأنّ العبد إذا وافاه بذلك أدّاه إلى نعيم الجنّة الذي لا يزول**»[(٣)].

ب ـ يُسأل عن القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام. قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «**ثمّ أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وبأهل بيتي**»[(٤)]؟

ج ـ عمّا اقترفوه، ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(٥)].

د ـ عن الأعضاء والجوارح، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[(٦)].

هـ ـ عمّا إذا جاءتهم الرسل أم لا، ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ...﴾[(٧)].

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يُسأل أئمة الدين عمّا كان جواب أقوامهم على دعوتهم، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ...﴾[(٨)].

و ـ يُسأل الإنسان عن عمره وشبابه في ما أفناهما.

ز ـ عمّا كسبت يداه. وكذلك ورد في الروايات أنّه لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة من بين يدي الله حتى يسأله عن أربع خصال: «**شبابك في ما أبليته**

---

(١) سورة المائدة: الآية ١٠٩.
(٢) سورة التكاثر: الآية ٨.
(٣) وسائل الشيعة، ج ٢٤، ص٢٩٩.
(٤) تفسير الفرقان.
(٥) سورة الحجر: الآيتان ٩٢ ـ ٩٣.
(٦) سورة الإسراء: الآية ٣٦.
(٧) سورة الأنعام: الآية ١٣٠.
(٨) سورة المائدة: الآية ١٠٩.

وعمرك في ما أفنيتَه ومالك ممّا اكتسبته وفي ما أنفقتَه»(١).

سؤال: إذن، تؤكّد هذه الآية الكريمة أنّ سؤال جميع البشر أمرٌ مفروغ منه، غير أنّنا نلحظ في بعض الآيات، كالآية ٣٩ من سورة الرحمن، أنّه في يوم القيامة، لن يُسأل أحد من الجنّ أو الإنس عمّا ارتكب من معاصٍ وذنوب، ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾، فكيف يمكن التوفيق بين هذه الآيات؟

الجواب: يوم القيامة يوم طويل له مواقف ومشاهد كثيرة، ولكلّ موقف أحداثه الخاصّة به، ففي موقف يختم الله على فم الإنسان فلا يقوى على الكلام، بعد ذلك يأتي موقف يُرفع فيه هذا الختم ويشرع الجميع بالاستغاثة، والأنين، والاعتراف بذنوبهم، ثمّ موقف آخر يُسأل فيه الجميع عن أعمالهم، وفي غيره يكون فيه الصمت سيّد الموقف ولا يُسأل أحد.

- يقول الرسول الأكرم ﷺ: **«كُلّكم راعٍ وكُلّكم مسؤول عن رَعيّته، فالإمام يُسأل عن النّاس، والرّجل يُسأل عن أهله، والمرأة تُسأل عن بيت زوجها، والعبد يُسأل عن مال سيّده»**(٢).

التعاليم:

١ ـ في يوم القيامة سوف يُسأل القادة والأمم (من الجنّ والإنس)، الأخيار والأشرار، العلماء والأتباع، ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

٢ ـ تنطوي المساءلة في يوم القيامة، بنحوٍ ما، على الاستشهاد والإقرار والتقريع وربّما، أحياناً، التكريم والتقدير، ذلك أنّ الله تعالى لا يخفى عليه شيء حتى يرفع غموضه بالسؤال، ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ... فَلَنَقُصَّنَّ﴾.

٣ ـ علم الله سبحانه وتعالى عظيم ودقيق تدلّ عليه كلمة «بعلم» التي وردت في صيغة التنكير.

---

(١) الكافي، ج ٢، ص١٣٥؛ بحار الأنوار، ج ٧، ص٢٥٩.

(٢) تفسير الدرّ المنثور.

٤ ـ علم الله تعالى يتمّ بحضوره ومراقبته دون أيّ واسطة، ﴿بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾

إشارات:

- **«الميزان»**، هو الوسيلة المتعارفة لقياس الوزن، ولكلّ شيء وسيلة خاصة لقياسه، مثلاً، الشاقول لقياس درجة انحناء الجدار، والمحرار لقياس درجة الحرارة والبرودة، والكيلوغرام لقياس وزن الفاكهة، والمتر لقياس الأقمشة، وعلى النحو نفسه، فإنّ الإنسان الكامل هو الميزان الذي يقاس به الإنسان العادي.
- في يوم القيامة سيكون الحقّ تعالى هو الميزان، وتكون الحاكميّة في ذلك اليوم له وحده جلّ وعلا، ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾[(١)]، وسيكون ذلك هو اليوم الحقّ، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾[(٢)]، وأيضاً الميزان هو الحقّ، ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾.
- يقول الإمام الصادق عليه السلام في تفسيره الآية ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾[(٣)] **«والموازين الأنبياء والأوصياء، ومن الخلق من يدخل الجنّة بغير حساب»**[(٤)]. كما نقرأ في الزيارة المطلقة للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: **«السّلام على ميزان الأعمال[(٥)]»**.
- وعن الإمام علي عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ... وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ قال: **«فإنّما يعني الحساب بوزن الحسنات والسيّئات، والحسنات ثِقلُ الميزان والسيّئات خفّة الميزان»**[(٦)].

التعاليم:

١ ـ الله تبارك وتعالى يريد لعبده أن يصل إلى الحقّ وأن يؤمن بالعقائد الصحيحة ويتبنّى السلوك اللائق والسليم، ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾.

---

(١) سورة الكهف: الآية ٤٤.
(٢) سورة النبأ: الآية ٣٩.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.
(٤) الميزان في تفسير القرآن.
(٥) بحار الأنوار، ج ٩٧، ص٢٨٧.
(٦) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٤١.

٢ ـ لكلٍّ موازين ومعايير عدّة لمحاسبته، ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾.
٣ ـ الأمل بتحقيق السعادة والثواب بلا عمل إنّما هو أملٌ كاذب، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ... ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

إشارات:

□ «الخسارة» هي ضياع الرأسمال والربح، بينما «الضرر» هو ضياع الربح دون الرأسمال.

التعاليم:

١ ـ بالنسبة إلى الإنسان توجد أدوات ووسائل عدّة متاحة لقياسه، ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾.
٢ ـ قلّة الأعمال الصالحة تعتبر خسارة لصاحبها في يوم القيامة، فما بالك أن يأتي خالي الوفاض، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ... خَسِرُوٓا۟﴾.
٣ ـ الدنيا سوقٌ، الإيمان فيها «ربح» والجحود والكفر «خسارة». فالإعراض عن الاستدلال ودعوة الأنبياء هو في الواقع محو للفطرة الإنسانيّة وظلم للنفس، ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾.
٤ ـ تجاهل آيات الله والتنكّر لها إنّما هو ظلم بحقّها، ﴿كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾، نعم، من غمط حقّ أيّ شيء ولم يراع حدوده، فقد ظلمه، وبديهي أنّ عاقبة الظلم هو الخسران والهلاك.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾

التعاليم:

١ ـ التذكير بنعم الله تعالى والاهتمام بها، تفتح الباب أمام تفتّق المعرفة والمحبة، والتسليم لله، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ﴾.
٢ ـ حقّ الانتفاع بخيرات الأرض متاح لجميع البشر وليس لفئة بعينها، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٣ ـ لقد منّ الله تعالى على عباده بأن خلق لهم الأرض وهيّأ الأسباب المناسبة (من دوران حول نفسها وحول الشمس، ودرجات الحرارة المعتدلة، والضياء المناسب، وجذب المياه ونفورها، والنباتات، ومعالجة الفضلات، وتحوّل الخضروات والفواكه... إلخ) لينعم الإنسان على ثراها بعيشة هانئة تؤمّن له كلّ احتياجاته وتوفّر له مستلزمات بقائه، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾.

٤ ـ قوانين الطبيعة مخلوقة بشكل يسمح للإنسان بالسيطرة عليها وتسخيرها لصالحه. ولولا أن مكّن الله تعالى الإنسان من هذه القوانين لما استطاع إخضاعها بقدرته الذاتيّة والاستفادة منها، ﴿مَكَّنَّٰكُمْ﴾.

٥ ـ الأرض مسخّرة للإنسان من أجل أن يسمو بنفسه نحو الكمال والعلى، وفي الوقت ذاته ليؤمّن معيشته، ﴿مَكَّنَّٰكُمْ﴾، وللشاعر الإيرانيّ الشهير سعدي الشيرازي بيت جميل في هذا المعنى يقول فيه:

السحاب، والرياح، والضباب، والشمس، والفلك، كلّهم في حركة دائمة من أجل أن تظفر أنت برغيفك ولا تسقط في الغفلة(١).

٦ ـ ينبغي للنعم أن تمهّد للشكر لا أن تكون عامل غفلة وانغماس في الملذات، ﴿تَشْكُرُونَ﴾.

٧ ـ الإنسان جاحد كفور، وقد تحدّث القرآن الكريم مراراً وتكراراً عن كفران معظم الناس بالنعم وغفلتهم وجحودهم، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ وصفت الآية السابقة المُكنة المادّية للإنسان وسلطانه على الأرض، فيما

---

(١) البيت بالفارسية:

ابر وباد ومه خورشيد وفلك در كارند   تا تو نانى به كف آرى وبه غفلت نخورى

تتحدّث هذه الآية الكريمة عن المنزلة المعنوية للإنسان والتي جعلت الملائكة كلّها تسجد له.

- إذا كانت الملائكة قد خضعت لأمر الله تعالى في السجود لآدم، فهل يستنكف الإنسان من إطاعة أمر الله تعالى والسجود له؟
- توجّه الآية الكريمة خطابها مرّتين إلى جميع الناس، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ ﴿صَوَّرْنَٰكُمْ﴾، ثمّ تستتبع ذلك بذكر السجود لآدم عليه السلام، وتفسير ذلك ربّما يكون أنّ كلّ إنسان لديه القابلية والاستعداد لأن تجسد له الملائكة.
- يسرد القرآن الكريم هنا وعلى مدى ١٤ آية قصّة آدم عليه السلام.
- جاء في الروايات أنّ رجلاً يهوديًا سأل الإمام أمير المؤمنين عليًا عليه السلام أنّ الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فهل حظي محمد بمثل ذلك؟

فقال عليه السلام: **«قد كان ذلك، ولئن أسجد الله لآدم ملائكته، فإن ذلك لما أودع الله عزّ وجلّ صلبه من الأنوار والشرف، إذ كان هو الوعاء، ولم يكن سجودهم عبادة له، وإنما كان سجودهم طاعة لأمر الله عزّ وجلّ وتكرمة وتحية، مثل السلام من الإنسان على الإنسان، واعترافاً لآدم بالفضيلة، وقد أعطى الله محمداً صلى الله عليه وآله أفضل من ذلك، وهو أنّ الله صلّى عليه، وأمر ملائكته أن يصلّوا عليه، وتَعبّدَ جميع خلقه بالصلاة عليه إلى يوم القيامة، فقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾، فلا يصلّي عليه أحد في حياته ولا بعد وفاته إلّا صلّى الله عليه بذلك عشراً وأعطاه من الحسنات عشراً، بكل صلاة عليه، ولا يصلّي عليه أحد بعد وفاته إلّا وهو يعلم بذلك ويردّ على المصلّي والمسلّم مثل ذلك، ثم إن الله عزّ وجلّ جعل استجابة دعاء أمته فيما يسألون ربّهم جلّ ثناؤه موقوفة حتى يصلّوا في دعائهم عليه، فهذا أكبر وأعظم مما أعطى الله آدم»**[1].

التعاليم:

١ ـ خَلقُ الإنسان تمّ على مراحل عدّة، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾.

---

(١) الطبرسي، الاحتجاج، ج ١، ص٢٠٤.

٢ ـ يملك الإنسان من الاستعداد والجدارة ما يمكّنه من تبوّؤ منزلة تجعل الملائكة تجسد له، ﴿ٱسۡجُدُواْ لِآدَمَ﴾.

٣ ـ السجود لغير الله لا يعدّ شِركاً إذا كان بأمره سبحانه وتعالى، ﴿قُلۡنَا... ٱسۡجُدُواْ لِآدَمَ﴾.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾

إشارات:

- إنّ سبب سجود الملائكة لآدم عليه السلام كان أمر الله تعالى والجدارة الذاتيّة للإنسان وليس نوعه البشريّ وتركيبة وجوده.

- الشيطان هو أوّل من لجأ إلى القياس والمغالطة لتبرير تمرّده على أمر الله تعالى حين قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، هذا على الرغم من أنّه يترتّب على كلّ منهما أثر خاص، غير أنّ الشيطان بهذا الادّعاء الواهي، قد أعلن عصيانه وتمرّده على أمر الله العزيز الحكيم بدلاً من الامتثال لهذا الأمر والالتفات إلى المكانة الراقية التي يحظى بها الإنسان عند الله تعالى، ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾[١] لجهة أنّه مسكون بروح الله، ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[٢]. ولا يختلف الحال مع الكثير من بني البشر، إذ نجدهم يرفضون، في أحيان كثيرة، بعض الأحكام والتعاليم الدينيّة ذلك لأنّهم قايسوها بعقولهم القاصرة، وحين يعجزون عن اكتشاف السبب أو الحكمة وراء تشريعها، سرعان ما يرفضونها دونما مسوّغ أو مبرّر، أو في بعض الحالات، يلجأون إلى القياس بين موضوعات متشابهة فيما بينها، فيصدرون حكماً واحداً بشأنها جميعاً، من هنا كان القياس في استنباط الأحكام مرفوضاً، ولطالما انتقد الإمام الصادق عليه السلام أبا حنيفة بسبب لجوئه إلى هذا الأسلوب في الاستنباط[٣].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢) سورة الحجر: الآية ٢٩.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

التعاليم:

١ ـ التحقيق والمحاكمة أوّلاً، ومن ثمّ إصدار الحكم، ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾.

٢ ـ الشيطان هو مؤسّس التمرّد والمعصية، ﴿مَا مَنَعَكَ... إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؛ لأنّه كان أوّل المتمرّدين والعاصين.

٣ ـ العقوبة بدون شرح الأسباب أمر مستهجن، وما لم يتمّ شرح الحكم أو الموضوع فلا تجوز العقوبة، ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ... إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

٤ ـ لقد تمرّد الشيطان على الله تعالى وليس على الإنسان، ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؛ وقد ورد في آية أخرى ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾(١).

٥ ـ الشيطان أيضاً عليه تكاليف، كما الإنسان، وهو مخيّر، ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ...﴾.

٦ ـ طاعة الله تعالى هي المعيار، لا السنّ، أو الجنس، أو السابقة، أو غير ذلك، ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ...﴾.

٧ ـ عند المقاضاة يجب منح المجرمين أيضاً فرصة الدفاع عن أنفسهم، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

٨ ـ تجاهل البعد الروحي للإنسان، والتركيز على البعد المادّي فقط (أي الجسم) كما يفعل المادّيون، هو نهج شيطاني، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

٩ ـ النظرة الاستعلائية للمخلوق قد تجرّه إلى معاندة الخالق ومعارضته، ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

١٠ ـ لا يكفي الإذعان لخالقيّة الله تعالى ما لم يقترن بالطاعة له والتسليم لأمره، ﴿خَلَقْتَنِي... وَخَلَقْتَهُۥ﴾: الشيطان كان مذعناً بخالقية الله تعالى، لكنّه لم يقرنها بالطاعة.

١١ ـ العنصرية من الرذائل الشيطانية، ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾.

١٢ ـ لقد عمل الشيطان برأيه في مقابل الأمر الصريح والصحيح لله تعالى، أي إنّه اجتهد في مقابل النصّ، ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ... خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾.

---

(١) سورة الكهف: الآية ٥٠.

١٣ ـ استعان الشيطان بالقياس الذي ليس له أساس علمي، سوى أنّه يقوم على الظنّ، ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

□ قال الإمام علي عليه السلام: **«فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل، وجهده الجهيد، وكان قد عبد الله ستّة آلاف سنة، لا يُدرى أمن سنيّ الدنيا** (٣٦٥ يوماً) **أم من سنيّ الآخرة** (حيث كلّ يوم منها بخمسين ألف سنة دنيوية)، **عن كبر ساعةٍ واحدة»**[١].

□ وعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: **«يُحشر المتكبّرون يوم القيامة كالذرّ، يلحقهم الصّغار حتى يؤتى بهم إلى سجن جهنم»**[٢] وعنه أيضاً صلى الله عليه وآله: **«من تواضع لله رفعه، ومن تكبّر وضعه»**[٣].

كما جاء في رواية أخرى: **«أصول الكفر ثلاثة: الحرص، والاستكبار، والحسد»**[٤].

التعاليم:

١ ـ خطورة التكبّر لا تهدّد الفرد العادي فحسب، بل حتى من له مكانة راقية وكان جليس الملائكة في الملأ الأعلى، وأفنى سنوات وقروناً من عمره في العبادة، ﴿فَٱهْبِطْ... فَٱخْرُجْ﴾.

٢ ـ لم يُنجِ الشيطان علمه ولا معرفته بالله تعالى ولا طول عبادته، فالنجاة كلّ النجاة في التسليم لله، ﴿تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ﴾.

٣ ـ الكِبر والغرور إزاء أوامر الله تعالى، مدعاة لحبط الأعمال، ﴿فَٱهْبِطْ... فَٱخْرُجْ﴾.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

(٢) تفسير المراغي.

(٣) المحجّة البيضاء، ج ٦، ص٢١٥.

(٤) الكافي، ج ٢، باب اصول الكفر.

٤ ـ أحياناً، لحظة كِبر وتمرّد في مقابل أمر الله تعالى، يكون ثمنها السقوط إلى الأبد، ﴿تَتَكَبَّرَ فِيهَا... فَٱخْرُجْ﴾.

٥ ـ عاقبة الكِبر والاستعلاء هي الصغار والذلّة. نعم، إنّ جواب ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ هو ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

- لقد طلب إبليس من الله تعالى أن يمهله إلى يوم القيامة، ولكن هذه الآية لا توضّح أمد المهلة التي أعطيت لإبليس؛ غير أنّ الآية ٣٨ من سورة الحجر والآيتين ٨١ و٨٢ من سورة ص تشير إلى أنّه أُمهل مدّة طويلة، ولكن لا تصل إلى يوم القيامة ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾، قال بعضهم: إنّ الشيطان حيّ إلى ما شاء الله[١].
- سؤال: لماذا أمهل الله تعالى إبليس اللعين؟

الجواب: إمهال العاصين هو من السنن الإلٰهيّة الثابتة، والهدف منه ابتلاء الإنسان واختباره، مضافاً إلى أنّه ينبغي إتاحة أسباب الخير والشرّ حتى يختار الإنسان طريقه بحرّية تامّة وبملء إرادته، وإبليس لا يُكره الإنسان على الانحراف، وإنّما يوسوس له فقط، كما ورد بيان ذلك في سورة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾.

التعاليم:

١ ـ حتى إبليس لم ييأس من تحقيق أمنيته، ﴿قَالَ فَأَنظِرْنِىٓ﴾.

٢ ـ الشيطان أيضاً يعلم أنّ العمر هو بأمر الله وإرادته، ﴿قَالَ فَأَنظِرْنِىٓ﴾.

٣ ـ طول العمر ليس دائماً ذا قيمة، فالشيطان عمّر طويلاً ولكن ماذا كانت النتيجة، ﴿أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

---

(١) تفسير العيّاشي.

٤ ـ إبليس أيضاً كان يؤمن بالله، ﴿خَلَقْتَنِى﴾ وبالمعاد، ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

٥ ـ أحياناً يستجيب الله تعالى لأدعية الكافرين أيضاً، ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

- جاء في الروايات: **«أنّ الشيطان لمّا قال هذا الكلام رقّت قلوب الملائكة على البشر، فقالوا: يا إلهنا كيف يتخلّص الإنسان من الشيطان مع كونه مستولياً عليه من هذه الجهات الأربع، فأوحى الله تعالى إليهم أنّه بقي للإنسان جهتان: الفوق والتحت، فإذا رفع يديه إلى فوق في الدعاء على سبيل الخضوع، أو وضع جبهته على الأرض على سبيل الخشوع غفرت له ذنب سبعين سنة»**[(١)].

- عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قال: **«لمّا أعطى الله تعالى إبليس ما أعطاه من القوّة قال آدم** عليه السلام**: يا ربّ سلّطت إبليس على ولدي وأجريته فيهم مجرى الدم في العروق، وأعطيته ما أعطيته فما لي ولولدي؟ فقال: لك ولولدك السيّئة بواحدة، والحسنة بعشر أمثالها، قال: ربِّ زدني، قال: التوبة مبسوطة إلى أن تبلغ النفس الحلقوم، فقال: يا ربّ زدني، قال: أغفر ولا أبالي، قال: حسبي»**[(٢)].

- عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام قال: ﴿لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ **معناه أهوّن عليهم أمر الآخرة،** ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ **آمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم،** ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ **أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة** ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ **بتحبيب اللذّات إليهم وتغليب الشهوات على قلوبهم»**[(٣)].

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي.

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) تفسير كنز الدقائق.

□ بدايةً يسعى الشيطان إلى سلب الإنسان إيمانه، وإذا عجز عن ذلك، فتح أمامه أبواب النفاق والارتداد، وإذا لم يفلح، ألقى في نفسه الشكّ والريبة ليسوقه نحو المعصية حتى يحرمه لذّة الإيمان والعبادة، ويهوّل عليه فعل الخيرات لينفّره منها.

□ جاء في العديد من الروايات أنّ أهل البيت عليهم السلام وولاية علي عليه السلام هم الصراط المستقيم[1].

التعاليم:

١ ـ تبرير العصيان وارتكاب المعاصي بالقضاء والقدر الإلٰهيّ هو من عمل الشيطان، ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾.

٢ ـ طلب إبليس المهلةَ هو من أجل الانتقام وليس التوبة، ﴿أَنظِرْنِيٓ... لَأَقْعُدَنَّ﴾.

٣ ـ لقد أظهر إبليس الصلف والعناد إزاء الله تعالى بدلاً من الشكر، ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ... لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾.

٤ ـ ينظر الشيطان إلى الإنسان على أنّه مخلوق انفعالي سريع الغواية، ﴿...لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾.

٥ ـ الشيطان هو العدوّ اللدود للإنسان، ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾، وفي موضع آخر يقول: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2].

٦ ـ حتى إبليس يقرّ ويعترف بأنّ طريق الله هو الصراط المستقيم، ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

٧ ـ أساليب إبليس في الإغواء والخداع عديدة ومتنوّعة، ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ...﴾.

٨ ـ الشيطان يعرف الصراط المستقيم، ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وأساليب الوسوسة، والهجوم، والغلبة ﴿لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ...﴾، وكذلك يعرف الشاكرين والجاحدين، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.

---

(١) تفسير الفرقان.
(٢) سورة ص: الآية ٨٢.

٩ ـ هدف الشيطان وأمنيته هو جحود الإنسان، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ لذا فاتّباع الشيطان هو بمثابة جحود بالله تعالى، والإنسان الشاكر هو على الصراط المستقيم.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

- يا للعجب، ويا للهول، كم من مصائب وويلات ﴿فَٱهْبِطْ... فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أسفرت عنها لحظة كِبر وغرور ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾. كلّ هذا الذلّ والسقوط للمتكبّر لأنّه رفض الاعتذار والاعتراف بخطئه، وبدلاً من ذلك أقسم على إغواء البشر.
- «**مَذؤوم**» أي مذموم وهي مشتقة من «ذأم» بمعنى العيب الشديد. «**مَدحور**» من «الدحر» وهو الطرد والإبعاد المقرون بالذلّة.
- كان أبو حنيفة يؤمن بثلاث عقائد: العقيدة الأولى، أنّ أفعال العباد هي من الله وأنّ الإنسان غير مختار في أفعاله، والعقيدة الثانية أنّه يمكن رؤية الله تعالى، والعقيدة الثالثة أنّ إبليس لن يُحرق في جهنّم لأنّه مخلوق من نار، والنار لا تُحرق نفسها. وكان بهلول، وهو تلميذ الإمام الصادق عليه السلام، يريد أن يفنّد هذه العقائد فرمى بحجر على جبين أبي حنيفة فشدخه، فسارع أبو حنيفة إلى الخليفة يشكو بهلولاً، فأرسل الخليفة في طلبه ليسأله عن سبب فعلته فأجابه بهلول: «لم أفعل ذلك بل الله فعل كما يدّعي هو، والثانية أنّه كاذب ما لم يُرنا ألم رأسه، والثالثة هي أنّ الإنسان من طين، ولذا، لا يؤثّر الطين (الحجر) على الطين (الإنسان)»[1]!

التعاليم:

١ ـ صحيح أنّ إبليس يكمن للإنسان أثناء سيره في الطريق المستقيم ولا يكفّ عن

(١) تفسير «الإثني عشري».

إغوائه إلّا أنّ العاصي هو من يتبع خطى الشيطان ليصبح في النهاية من أهل جهنّم، ﴿لَّمَن تَبِعَكَ﴾.

٢ ـ المنحرفون كثر لدرجة أنّهم يملأون جهنّم ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾، وما أقلّ الأخيار الأطهار الشاكرين، كما تؤكّد على ذلك الآية ١٠: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

٣ ـ عاقبة اتّباع خطوات الشيطان رفقته في جهنّم، ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

- مرّت علينا آية شبيهة بهذه في سورة البقرة هي الآية ٣٥.
- عن عبد السلام بن صالح الهروي قال: قلت للإمام الرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله أخبرني عن الشجرة التي أكل منها آدم وحواء ما كانت فقد اختلف الناس فيها فمنهم من يروي أنّها الحنطة ومنهم من يروي أنّها العنب ومنهم من يروي أنّها شجرة الحسد فقال عليه السلام: «**كلّ ذلك حقّ**»، فقلت: فما معنى هذه الوجوه على اختلافها فقال: «**يا أبا الصلت إنّ شجرة الجنّة تحمل أنواعاً فكانت شجرة الحنطة وفيها عنب وليست كشجرة الدنيا**»[(١)].
- شاء الله تبارك وتعالى أن يكون الإنسان خليفته على الأرض، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[(٢)]، ومن أجل أن يُبرز للآخرين جدارة الإنسان ولياقته علّمه من لدنه بعض الحقائق وأمر الملائكة بالسجود له وأدخله الجنّة، ثمّ أناط به أوّل تكليف ليبدأ رحلة التعهّد والمسؤولية والاختيار، وتبعتها عقوبة مخالفة التكليف والهبوط إلى الأرض، لتنطلق بعد ذلك مسيرة التكامل، وكان العلم الإلٰهيّ هو الأساس والقاعدة في كلّ هذه المراحل المتسلسلة، ولنا في كلام سيّد الوصيين الإمام علي عليه السلام خير دليل؛ فبعد أن يوضّح هذه المراحل حتى هبوط الإنسان

---

(١) عيون الأخبار، ج ١، ص٣٠٦.
(٢) سورة البقرة: الآية ٣٠.

على الأرض، يقول: «**بل نفذهم علمه، وأحصاهم عدده، ووسعهم عدله، وغمرهم فضله، مع تقصيرهم عن كُنه ما هو أهله**»[١].

□ ذهب المفسّرون مذاهب مختلفة في المراد من الآية الكريمة من «الجنّة» التي سكن آدم فيها؛ فبعضهم يقول: إنّها الجنّة الموعودة، وأنّ الخلود فيها هو لمن استحقّها بعمله الصالح، وليس الأمر كذلك في غيرها، بدليل أنّ النبي الكريم ﷺ قد دخلها ليلة أُسري به، ثمّ خرج، وقد سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن جنّة آدم أيّ الجنان قال: «**جنّة من جنّات الدنيا يطلع عليها شمس وقمر**»[٢]؛ ذلك لأنّه لا يوجد في الجنّة الموعودة تكليف ولا أمر ولا نهي.

التعاليم:

١ ـ في البداية، ينبغي فتح أبواب الحلال والطرق الصحيحة، بعد ذلك يتمّ التحذير من الحالات المحرّمة، ﴿فَكُلَا... وَلَا تَقْرَبَا﴾؟

٢ ـ الاقتراب من الدوائر المحرّمة في الأحكام الإلٰهيّة، يجرّ إلى السقوط في المعاصي، ﴿وَلَا تَقْرَبَا... فَتَكُونَا﴾.

٣ ـ في ظلّ وجود طريق مجاز وحلال ﴿فَكُلَا﴾ يصبح اللّجوء إلى الطرق المحرّمة ظلماً للنفس، ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

□ لقد وسوس الشيطان لآدم وحواء وقال لهما: إنّكما إذا أكلتما من هذه الشجرة فسوف تصبحان ملكين أو تكونان من الخالدين، وأنّ الله لا يريد لكما ذلك، لذلك أمركما أن لا تأكلا من الشجرة.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٩١.

(٢) تفسير «الاثني عشري».

□ أمّا لماذا لم يلتزم آدم بنهي الله إياه وأكل من الشجرة الممنوعة، فجواب ذلك نجده في الآية ٢١، وهو أنّ هذا النهي لم يكن نهياً تحريمياً بل كان نهياً إرشادياً يحمل صفة الكراهة وترك الأولى لا التحريم، كأن ينهى الطبيب مثلاً مريضه عن أكل طعام معيّن، ويحذّره أنّه إذا تناول هذا الطعام فسوف تسوء حالته الصحية، وتترتّب على ذلك آثار ومضاعفات خطيرة ولكن ليست محرّمة.

□ يقول عبد الله بن سنان: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: **«قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: إنّ الله ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كلتيهما؛ فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شرّ من البهائم»**[1].

نعم، يتباين بنو البشر في المرتبة والفضل، والحال نفسه عند جنس الملائكة، إذن، لا يمكن القول إنّ أيّ إنسان من بني البشر هو أشرف مرتبة وأرقى فضلاً من جميع الملائكة والعكس أيضاً صحيح[2].

□ في الحقيقة، إنّ الله تبارك وتعالى لم يخلق الشيطان بجوهر خبيث، بل خلقه وهيّأ له كلّ أسباب التكامل والارتقاء، ثمّ هداه في عالم الوجود، لكنّ الشيطان لم يشأ مواصلة طريق الهداية، فانحرف وسقط في وادي الرذيلة، ولو كان ذا جوهر خبيث منذ البداية، لما كان لتسبيحه وتقديسه لسنوات طويلة أيّ معنى. وكذلك الحال مع فرعون وابن ملجم... ، حيث لم يخلقهم الله تعالى على ما كانوا عليه، إذ كانوا يملكون كلّ مقومات الأهلية والرشاد والاعتلاء الإنساني، لكنّهم انحرفوا عن الطريق القويم بمحض إرادتهم واختيارهم[3].

□ سؤال: لعلّ أحدهم يسأل: لماذا سلّط الله تعالى الشيطان على الإنسان؟

الجواب: إنّ علاقة الشيطان بالإنسان ودرجة تأثيره على بني البشر، ليست أقلّ من تأثير الغرائز الشهوانية الحيوانيّة على الإنسان. لقد وهب الله تبارك وتعالى

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص٢٠٩. (٢) تفسير أطيب البيان، ج ١، ص٥١٢.

(٣) العلّامة محمد تقي جعفري، شرح ديوان «مثنوى معنوي»، ج ٥، ص٢٠٧.

بني آدم العقل وملكة التفكّر والضمير الحيّ في مقابل الغرائز التي يملكونها، وجعلها وسائل بيد الإنسان لتنظيم تلك الغرائز وتعديلها.

مضافاً إلى أنّ الشيطان ليس له سلطان على الإنسان، فهو لا يسلبه إرادته وحريّته، كما يصرّح هو بذلك ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم﴾[1]؛ فكلّ ما يفعله الشيطان هو إثارة تلك الغرائز الحيوانيّة، وإذا أراد التأثير عليها، لجأ إلى القوى الداخليّة في الإنسان، عنيت، الغرائز والأوهام والوساوس، لمواجهة قوّتي العقل والضمير اللتين تدفعان بالإنسان دائماً صوب أفعال الخير والإحسان[2].

التعاليم:

١ ـ لا أحد، بما في ذلك الأخيار، بمنأى عن وساوس الشيطان، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾؛ لكنّه ليس له سلطان على المخلصين، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3].

٢ ـ أقصى ما يذهب إليه الشيطان هو الوسوسة وليس الإكراه، فهو يُري الإنسان طريق الانحراف؛ لكنّه لا يُكرهه على اتّباعه، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾.

٣ ـ عاقبة ارتكاب المعاصي والمحرّمات هي الفضيحة، ﴿لِيُبْدِيَ... سَوْءَٰتِهِمَا﴾.

٤ ـ من جملة أهداف الشيطان الفضائح، ونزع الحجاب، والتعرّي، ﴿لِيُبْدِيَ... مَا وُۥرِيَ﴾.

٥ ـ الشيطان يضلّ الإنسان عبر الآمال العريضة، ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا... إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾. (إنّ أمنية الإنسان هي أن يعيش عيشة أبدية في أجواء ملائكية هانئة، لهذا السبب يوسوس له الشيطان قائلاً: إذا أكلت من هذه الشجرة فسوف تحقّق أمنيتك في حياة أبدية خالية من أيّ اضطرابات أو

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

(٢) العلّامة محمد تقي جعفري، شرح ديوان «مثنوى معنوي»، ج ٥، ص٢٠٧.

(٣) سورة الحجر: الآية ٤٠.

مضايقات، ويوسوس له من خلال استغلال غرائز الإنسان ونزوعه إلى الرفاهية والخلود).

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾

إشارات:

□ لم يكن النبي آدم وزوجه حوّاء في البداية يثقان بإبليس، لكنّ الأخير توسّل بالأيمان المغلّظة لكي يبرهن لهما على صدقه[1]. سأل الخليفة العباسي المأمون الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قائلاً: يا ابن رسول الله أليس من قولك إنّ الأنبياء معصومون، قال: «بلى» قال: فما معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ فقال عليه السلام: **«إنّ الله تبارك وتعالى قال لآدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، وأشار لهما إلى شجرة الحنطة ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولم يقل لهما: لا تأكلا من هذه الشجرة ولا مما كان من جنسها، فلم يقربا تلك الشجرة ولم يأكلا منها وإنّما أكلا من غيرها لما أن وسوس الشيطان إليهما ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾، وإنّما ينهاكما أن تقربا غيرها ولم ينهكما عن الأكل منها ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، ولم يكن آدم وحواء شاهدا قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ فأكلا منها ثقة بيمينه بالله وكان ذلك من آدم قبل النبوة ولم يكن ذلك بذنب كبير استحقّ به دخول النار وإنّما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم، فلما اجتباه الله تعالى وجعله نبياً كان معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة»**[2]. وهكذا، فإنّ أول أيمان كاذبة نطق بها الشيطان اللعين.

□ جاء في القرآن الكريم أنّ المنافقين أيضاً من الذين يحلفون كذباً[3]. وبطبيعة

---

(١) **«قاسمهما»** من باب المفاعلة، ربّما يكون من قبيل التأكيد

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص١٩٦.

(٣) سورة التوبة: الآيات ٥٦، ٦٢، ٧٤ و١٠٧.

الحال، أنّ من يحلف باستمرار أيضاً لا يصلح لقيادة المجتمع، ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾[١].

التعاليم:

١ ـ الأيمان الكاذبة من عمل الشيطان، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾.

٢ ـ من الخطأ الركون إلى أيّ يمين، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾.

٣ ـ يستغلّ الأعداء معتقداتنا لخدمة مصالحهم، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾.

٤ ـ أحياناً يظهر العدو بمظهر المشفق الذي يسعى إلى الخير فيخترق معتقداتنا ويحقّق مآربه الدنيئة، ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾، كما فعل إخوة يوسف حين جاؤوا إلى أبيهم بمظهر المشفق الرؤوف ليأخذوا يوسف ويفرّقوا الأب عن ابنه وقالوا له: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾[٢].

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

□ «**دلّى**» من مادّة «**تدلية**»، وتعني إرسال الدلو في البئر بحبل تدريجياً، وهذه ـ في حقيقتها ـ كناية لطيفة عن أنّ الشيطان أنزل بحبل مكره وخداعه آدم وزوجته من مقامهما الرفيع، وأرسلهما إلى قعر بئر المشكلات والابتعاد عن الرحمة الإلٰهيّة.

□ «**يخصفان**» مشتقة من الفعل «**خصف**»، وتعني في الأصل ضمّ شيء إلى شيء آخر، والجمع، ثمّ أطلق على ترقيع النعل أو الثوب الممزّق وخياطته فقيل: خصف النعل أو الثوب، أي جمع الأجزاء المتفرقة وضمّ بعضها إلى الآخر.

□ الخطاب الإلٰهيّ لآدم وزوجه جاء بكلمة ﴿وَنَادَاهُمَا﴾، والنداء في اللغة يكون

(١) سورة القلم: الآية ١٠. (٢) سورة يوسف: الآية ١١.

للشخص البعيد، لكأنّ آدم وحواء عندما أكلا من الشجرة المحرّمة قد ابتعدا عن دائرة القرب الإلٰهيّ.

- يقول عدد من المفسّرين منهم الشريف المرتضى، والطبرسي، وأبو الفتوح الرازي: إنّ طرد آدم من الجنّة وهبوطه إلى الأرض كان من باب المصلحة وليس العقوبة أو الجزاء[1].

التعاليم:

١ ـ المرأة والرجل كلاهما في مرمى سهام الوساوس الشيطانية، ﴿فَدَلَّـٰهُمَا﴾.

٢ ـ سلاح الشيطان هو الخداع والغرور، ﴿بِغُرُورٍ﴾.

٣ ـ الاستسلام لوساوس الشيطان هو كمن يمسك بحبل متدلّ رفيع وقصير فيسقط في بئر المعاصي، ﴿فَدَلَّـٰهُمَا﴾.

٤ ـ تكمن الخطورة في تجاهل التعاليم والإرشادات الإلٰهيّة، سواء أكانت المعصية صغيرة أم كبيرة .﴿فَلَمَّا ذَاقَا﴾، بالنسبة إلى ارتكاب المعصية، ليس المطروح هو صِغَر الذنب أو عظمته، بل صلف صاحبه وجرأته على الله. إذ لربّما أطاح ذنب صغير بصاحبه في هاوية الافتضاح والسقوط.

٥ ـ العري وظهور السوأة هو نمط من العقوبات الإلٰهيّة، (وليس مظهراً من مظاهر الرقي والحضارة)، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا...﴾.

٦ ـ أحياناً يكون السقوط خطوة خطوة. تبدأ الخطوة الأولى مع ظهور الأفكار المنحرفة، ﴿فَدَلَّـٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾، والثانية، ارتكاب النواهي وتناول الأطعمة المحرّمة، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ لتنتهي بصاحبها في نهاية المطاف إلى الانحدار والعري، ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

٧ ـ قبح العري وكرامة اللباس مبدأ مغروس في فطرة الإنسان، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾.

٨ ـ اللباس ذو قيمة وفضل، مهما كان بسيطاً، ﴿وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾

---

(١) تفسير «الاثني عشري».

٩ ـ أحكام الله تبارك وتعالى وأوامره ونواهيه ونُذُره كلّها تصبّ باتجاه اعتلاء الإنسان وتربيته، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا﴾.

١٠ ـ بعد أن أكل آدم وحواء عليهما السلام من الشجرة المحرّمة، أُبعِدا عن مقامهما السامي. لاحظ أنّه عزّ وجلّ يقول: ﴿تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾، ولم يقل: «**هذه الشجرة**».

١١ ـ لا يوبّخ الله تعالى أحداً دون أن يتمّ الحجّة عليه، «**ألم أنهكما... أَقُل لكما**».

١٢ ـ لا بدّ لنا ونحن نسلك طريق الله أن نعرف من هم أعداؤنا، ﴿عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

١٣ ـ عداوة الشيطان لبني البشر واضحة وجليّة، غير أنّ الإنسان يتعامى عن خطورة هذه العداوة، ﴿عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾

إشارات:

- من المعلوم أنّ الشيطان والنبي آدم عليه السلام كليهما ارتكبا معصية، غير أنّ معصية الشيطان الأمرّ (ترك السجود لآدم) جاءت من باب الاعتراض على عدالة الله وحكمته (والعياذ بالله)، وبالتالي الاستكبار على هذا الأمر والتبرير بأنّ جنسه أشرف وأرقى من جنس بني آدم، وظلّ على عناده ولم يعبّر عن ندمه على ما فعله، بينما سارع آدم وحواء إلى الاعتراف بغلطتهما، وطلبا العفو والصفح على ما بدر منهما من تقصير[1].

التعاليم:

١ ـ يجب أن ندعو الله تعالى ليعيننا على ظلمنا أنفسَنا، وفي المقابل أن نكفّر عن سيّئاتنا، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ...﴾.

٢ ـ لقد اشترك آدم وحواء في المعصية وفي الاعتراف بها والتكفير عنها، ﴿قَالَا رَبَّنَآ﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

٣ ـ كلّ معصية هي ظلم للنفس، لأنّ معصية الله تبارك وتعالى هي، في الحقيقة، اعتراض على الكمال والسعادة الحقّة، ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.

٤ ـ من آداب الدعاء والاستغفار، الاعتراف بالذنب أوّلاً، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.

٥ ـ أوّل ما يرجوه الإنسان من خالقه هو أن يشمله بعفوه ورحمته، ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾.

٦ ـ المغفرة الإلٰهيّة هي غاية ما يتمنّاه المذنب، ثمّ تليها الأمنيات الأخرى، ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾.

٧ ـ عناية الله ولطفه ورأفته تحول دون الخسران الأبدي للإنسان، ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا...﴾.

﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

❑ كلمة «اهبطوا» إمّا أن تكون خطاباً موجّهاً إلى آدم وحواء وإبليس معاً أو آدم وحواء وذرّيّتهما. طبعاً يوجد خطاب خاص إلى إبليس في موضع آخر ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾(١)، وكذلك يخاطب الله تعالى آدم وحواء في آية أخرى بالقول: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾(٢)، فإذا كان مكان الهبوط بالنسبة إلى هؤلاء واحداً، فلا يستبعد حينئذٍ أن يكون الخطاب ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ لهم جميعاً.

❑ المقصود بـ«الهبوط»، هو النزول على الأرض، وذلك بقرينة العبارة التالية التي تقول: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾.

❑ على الرغم من قبول الله تبارك وتعالى توبةَ آدم وحواء ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾(٣) إلّا

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣.
(٢) سورة طه: الآية ١٢٣.
(٣) سورة البقرة: الآية ٣٧.

أنّهما لم يستطيعا التخلّص من الأثر الوضعي للمعصية. والأثر الوضعي لترك الأولى هو خروجهما من موضعهما في الجنّة وهبوطهما على الأرض، ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا يمكن التخلّص من الآثار الوضعيّة للمعصية، ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ﴾.

٢ ـ أعمال الوالدين أحياناً تترك تأثيراتها على هبوط الجيل أو سقوطه، ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ...﴾.

٣ ـ جنّة آدم وحواء هي مكان غير الأرض أشرف منها وأسمى، ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾.

٤ ـ الدنيا دار تنازع وصراع، وساحة لتزاحم المصالح والغرائز الأمر الذي يؤدّي إلى اصطراع البشر مع بعضهم البعض، ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾.

٥ ـ الاستمتاع بمنافع الحياة الدنيا ليس أبدياً، ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾.

٦ ـ بعد الموت سيُبعَث الإنسان من جديد، ﴿وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾؛ لقد اغتمّ آدم لأنّه ظنّ أن لا عودة له إلى الجنّة والحياة الأبدية، فقال الله تعالى: إنّه بعد هذه الحياة الدنيا سيعود إلى جنّة الخلد.

٧ ـ أمد وانتهاء الحياة الدنيوية للبشر مجهولان، (كلمة «حين» جاءت في صيغة التنكير).

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾

إشارات:

□ بعد أن تنقل الآية الكريمة قصة آدم عليه السلام، يوجّه الله تبارك وتعالى خطابه إلى بني البشر كافة من ذرّية آدم أربع مرات (في هذه الآية والآيات ٢٧ و٣١ و٣٥) حيث يوصيهم جلّ وعلا بجملة من الأمور من قبيل: أن يلبسوا لباس التقوى، وألّا ينخدعوا بوساوس الشيطان وألاعيبه، مضافاً إلى وصايا في مراعاة

الأطعمة والأشربة والاحتراز من التبذير والإسراف، وأخيراً تصديق دعوة الأنبياء.

- «الريش»، هو ما يستر جسم الطير، إذ إنّه يعتبر لباساً طبيعياً وكذلك ينطوي على مفهوم الزينة والجمال، كما أطلق المفسّرون وأهل اللغة كلمة الريش على اللباس الذي يعدّ بمثابة زينة للإنسان.
- جميع النعم بيد الله تعالى، يفيض بها على عباده من خزائن الغيب، إذ يقول عزّ من قائل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[١]. ويقول أيضاً: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾[٢]، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ...﴾[٣].

إذن، فالمقصود بنزول اللباس من قبل الله تعالى هو خلقه ووضعه في متناول الإنسان. ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾

- «لباس التّقوى» كناية عن حجاب التقوى، والتواضع، والطهر، والعفاف الذي يستر الإنسان، كما يشمل الخشية من الله وطاعته وكذلك العفّة والحياء والعمل الصالح[٤].

التعاليم:

١ ـ الاهتمام بالنعم الإلٰهيّة مدعاة لحبّ الله والابتعاد عن الغفلة، ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ... لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

٢ ـ يكون اللباس نعمة إلٰهيّة حين يواري عورة الإنسان ويستر جسمه، ﴿يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾.

٣ ـ صحيح أنّ صناعة اللباس هي نتيجة تضافر جهود الإنسان مع العوامل الطبيعية، إلّا أنّ أمر كلّ ذلك بيد الله تعالى، ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾.

٤ ـ اللباس والمواراة من الله، ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي﴾، لكنّ العري والتعرية من الشيطان، ﴿فَوَسْوَسَ... لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا﴾.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢١.
(٢) سورة الحديد: الآية ٢٥.
(٣) سورة الزمر: الآية ٦.
(٤) تفسير منهج الصادقين.

٥ ـ اللباس نعمة إلٰهيّة، ﴿لِبَاسًا يُوَٰرِى﴾، والعري ونزع اللباس عقوبة المعصية، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

٦ ـ يحب الله سبحانه وتعالى أن يتزيّن عبده بالألبسة والثياب الجميلة، ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا... وَرِيشًا﴾؛ لا بأس بالتزيّن ولبس الثياب الجميلة ما لم يبلغ ذلك حدود الإسراف والتبذير.

٧ ـ يجب أن يقترن البعد المعنوي بالبعد المادّي، التقوى إلى جانب الزينة، ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، وإلّا فسوف يصبح اللباس وسيلة للإسراف، والكِبر، والفساد، والتظاهر، والهوس بالموضة، والشهوة والتباهي، وما شابه ذلك.

٨ ـ كما إنّ اللباس يستر عيوب البدن وعورته، ويقيه البرد والحرّ، وهو مظهر للزينة، فإنّ لباس التقوى أيضاً يحفظ روح الإنسان من العيوب المعنوية ويحصّنه ضدّ المعاصي ويعدّ زينة معنوية كبرى للإنسان، ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

٩ ـ يُنبت من الأرض القطن، ويُخرج من الحيوان الصوف، ويُنتج من لعاب دودة القز الحرير، هذه كلّها آيات الله سبحانه وتعالى، ومدعاة لتنبّه الإنسان ويقظته، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

- أشارت الآية السابقة إلى اللباس باعتباره نعمة، وهنا تتضمّن الآية الكريمة تحذيراً للإنسان ودعوته لمراقبة الشيطان وكيده لئلا ينزع عنه اللباس والنعم كما نزعهما عن أبويه آدم وحواء.
- صحيح أنّ الشيطان يوسوس لأهل الإيمان ويدفع بهم إلى المزالق، إلّا أنّه ليس له سلطان عليهم أو ولاية، ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾[1]؛ ذلك أنّ المؤمن

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

ينجو إذا ما تاب والتجأ إلى الله تعالى. لذا فليس للشيطان سلطان إلّا على الكافرين.

- إذا كنّا لا نرى الشيطان وجنوده وأعوانه فليس معنى ذلك أنّه لا يرانا، فهو حاضر في كلّ مكان تهيّأت فيه ظروف المعصية وأدواتها، لينفث سموم الفتنة، ويلقي شباك الحيلة والخداع.

التعاليم:

١ ـ فلنأخذ العبرة من تاريخ الآخرين ومآلهم، ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم﴾.

٢ ـ لا يظنّ المرء أنّه محصّن ضدّ الانحراف، فالنبي آدم عليه السلام سجدت له الملائكة وأُخرج من الجنّة بسبب وقوعه في حبائل الشيطان، ﴿أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم...﴾.

٣ ـ العري ونزع الحجاب سبب خروج الإنسان من دائرة القرب الإلهيّ، ﴿أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم... يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾.

٤ ـ أيّ خطة أو دعاية تؤدّي إلى التعرّي فهي تستلهم من الشيطان، ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ... يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾.

٥ ـ هدف الشيطان أن يتعرّى الرجل والمرأة أمام بعضهما، ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾.

٦ ـ الشيطان ليس وحيداً، بل له جنود وأعوان، ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾كما ورد في موضع آخر: ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ﴾[1].

٧ ـ إذا كنّا لا نرى الشيطان فلا يعني ذلك أن نغفل عنه، علينا أن نكون يقظين دائماً، ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ... لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾، فخداع الشيطان هو بسبب عدم ظهوره للعيان.

٨ ـ التعرّي علامة على عدم إيمان الفرد وتسلّط الشيطان عليه، ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا... أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٩٥.

٩ ـ سلطان الشيطان على الإنسان سببه أعمال الإنسان نفسه، ﴿أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١٠ ـ قضت سنّة الله تعالى أن يكون للشيطان سلطان على الكافرين والمنكرين، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١١ ـ الإيمان بالله سبحانه يمنع ولاية الشيطان وحاكميّته على الإنسان، ﴿أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

- قالت طائفة من المفسّرين: إنّ هذه الآية هي إشارة إلى ما كان شائعاً عند المشركين في الجاهلية وهو الطواف حول بيت الله المعظم عراة «رجالاً ونساءً» واحتجوا على ذلك بأنّهم إنّما يفعلون ذلك تقليداً لآبائهم وأجدادهم، وبأنّ الله تعالى، بحسب زعمهم، أمر بذلك، أي الطواف عراة!

- المفسدون يقلّدون أجدادهم في موبقاتهم، ثمّ ينسبون شركهم إلى الله تعالى قائلين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾[1]، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾[2]، إذن، اعتقد هؤلاء أنّها إرادة الله أن أصبحوا مشركين، وكانوا يظنّون أنّه ما دام الله قد أمهلهم فذلك يعني أنّه (والعياذ بالله) إمّا أن يكون راضياً عن ارتكابهم للفواحش والقبائح، أو أنّه أمر بها.

- في هذه الآية يعزو أصحاب الموبقات ارتكابهم الفواحشَ إلى أسلافهم ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾، ومن ثمّ ينسبونها إلى الله ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، ولعلّ مردّ ذلك هو أنّ عمل الآباء والأجداد أهمّ لديهم من أمر الله.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٨. (٢) سورة النحل: الآية ٣٥.

التعاليم:

١ ـ تبرير الذنب أعظم من الذنب نفسه، وهو يشير إلى سلطة الشيطان ونفوذه على مرتكب الذنب، ﴿أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ... قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾؛ سواء أكان التبرير اجتماعياً (تقليد الأجداد) أم دينياً (أمر الله بارتكاب الموبقات).

٢ ـ البقاء على النهج القبيح والخاطئ للآباء والابتداع في الدين، دلالة واضحة على تولّي الشيطان وعدم الإيمان، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ... وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾.

٣ ـ فساد بعض الأعمال وقبحها واضح ومغروس في الفطرة الإنسانية، ﴿فَٰحِشَةً﴾؛ (لاحظ أنّ كلمة «فاحشة» تطلق على المعاصي التي يكون قبحها بديهياً وبيّناً).

٤ ـ أحياناً تصبح الأفعال القبيحة للإنسان سنّة تتوارثها الأجيال من بعده، لذلك، يحمل المنحرفون في هذه الحالة وزر انحراف الأجيال اللّاحقة، ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾.

٥ ـ نهج الأسلاف ليس دائماً جديراً بالتقدير والفضل، لذلك، لا يجوز تقليدهم في مثل هذه الحالات، ﴿قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾.

٦ ـ لم يأمر الله تعالى بالمنكر في أيّ وقت مطلقاً، ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ﴾.

(لاحظ أنّ جواب الفعل الماضي جاء في صيغة الفعل المضارع ليفيد الاستمرارية).

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾

إشارات:

- «القِسط» في إزاء التمييز، ويعني، إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، وليس لغيره.
- تطرح الآية الكريمة مفاهيم عدّة مثل التربية ﴿رَبِّي﴾، والعدل ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾،

والعبادة ﴿وَأَقِيمُواْ﴾، والجماعة ﴿وُجُوهَكُمْ﴾، والوحدة ﴿مَسْجِدٍ﴾، والدعاء ﴿وَٱدْعُوهُ﴾، والنيّة والإخلاص ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ﴾، والحشر والقيامة ﴿تَعُودُونَ﴾.

- يعتقد المرحوم الطبرسي أنّ عبارة ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هو أمر بالدعاء والابتهال والتضرّع الخالص إلى الله تعالى بعد الصلاة. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**تسبيح الزهراء عليها السلام بعد كلّ فريضة أفضل من ألف ركعة**»[١].

- المعاد هو معاد جسماني. فكما إنّ ذرات التراب تجتمع في الإنسان عن طريق تناوله الطعام، فكذلك يجمع الله تعالى العظام البالية في يوم القيامة، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾. إنّ الذي خلقكم من خلية أحادية وحيمن، هو نفسه سيجمع بقاياكم في يوم القيامة. وقد جاء في الرواية أنّ المقصود بالآية الكريمة ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ هو أنّه كما كنتم عليه تكونون، من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدىء عليه خلقه وإن عمل بأعمال أهل السعادة، ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدىء خلقه عليه وإن عمل بأعمال أهل الشقاء، «**المؤمن على إيمانه والكافر على كفره**»[٢].

- ونقرأ في الحديث النبوي الشريف: «**يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً**: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾»[٣].

التعاليم:

١ ـ الإنسان مأمور بالقسط والعدل، ﴿أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾، والفواحش والأعمال القبيحة بعيدة عن دائرة القسط، ﴿لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ... قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾.

٢ ـ الالتزام الخالص بالدين مدعاة لنشر القسط والعدل، ﴿أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾.

٣ ـ ورد النهي عن التمييز في الآية الكريمة جنباً إلى جنب العبادة، كما إنّ العبادة

---

(١) تفسير «الاثني عشري».
(٢) تفسير مجمع البيان.
(٣) تفسير الفرقان.

والصلاة تكتسبان قيمة أكبر إذا اقترنتا بإقامة العدل والقسط، ﴿بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟﴾.

٤ ـ التربية السليمة متاحة في النظام العادل، والقسط هو من شؤون الربوبيّة الإلٰهيّة، ﴿أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾.

٥ ـ الدين يحمل للإنسان أبعاداً اجتماعيّة وعبادية وعقدية، ﴿أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟... وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

٦ ـ المسجد هو قاعدة الإخلاص، لا الرياء والشرك، ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

٧ ـ أحد شروط الدعاء توفّر النيّة الخالصة، ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

٨ ـ الاهتمام بعقيدة المعاد والإيمان بها حافز للإنسان لإقامة القسط والإخلاص، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

٩ ـ الخلق الأول دليل على إمكان حدوث المعاد، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الهداية هي من عند الله تبارك وتعالى، ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾، غير أنّ خيار الضلالة هو سوء تقدير الإنسان واختياره، ﴿ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾.

٢ ـ ما لم ينقطع الحبل مع الله، بإمكان المرء أن يتغلّب على وساوس الشيطان بالتوبة وذكر الله، ﴿مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾[1]، ولكن إذا انقطع هذا الحبل فسيكون مصيره السقوط في شَرَك الشيطان وسلطانه وحينئذٍ لات حين مناص، ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾.

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.

٣ ـ الإنسان مخيّر، وله أن يختار الولاية الإلٰهيّة أو ولاية الشيطان، ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾.

٤ ـ المنحرفون لا يملكون رؤية واقعية فهم يحلّقون في الخيال، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

٥ ـ الانحراف الفكري والجهل المركّب (أن يكون الإنسان ضالاً ويحسب نفسه من المهتدين) من أقبح الانحرافات، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، وجاء في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[١].

﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

- لعلّه يمكن القول إنّ الخطاب ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ أينما جاء في القرآن الكريم فهو موجّه إلى جميع البشر من جميع الأديان ويعدّ من مشتركاتهم.
- أطلق القرآن الكريم لفظ «زينة» على المال والبنين، إذ يقول: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٢]؛ لذا ربّما كان مراد الآية الكريمة هو أن يأخذ المرء المال والبنين معه حين يقصد المسجد، ليفكّ بماله الضائقة الاقتصاديّة للمسلمين، ومن خلال اصطحاب أبنائه إلى المساجد والاجتماعات يقوم بحلّ المشاكل التربوية للجيل القادم.
- في الروايات، إنّ من أمثلة الزينة هي لبس أجود الثياب عند الصلاة والمشط عند كلّ فريضة ونافلة، ورفع اليدين عند كلّ ركوع وسجود، والصلاة في العيدين والجمعة[٣].

---

(١) سورة الكهف: الآيتان ١٠٣ ـ ١٠٤. (٢) سورة الكهف: الآية ٤٦.

(٣) تفاسير نور الثقلين؛ منهج الصادقين؛ الاثني عشري.

□ كان الحسن بن علي عليه السلام إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه فقيل له: في ذلك، فقال: «**إنّ الله جميل يحبّ الجمال فأتجمّل لربّي**»، وقرأ الآية[١].

□ إنّ الله تبارك وتعالى يحبّ التزيّن، وإلّا لما أمر به، ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾، فالإسلام دين الفطرة، وفطرة الإنسان مجبولة على حبّ الزينة والتمتّع بها.

□ التزيّن من أجل الذهاب إلى المسجد بمثابة احترام لعباد الله وعبادة الله وعامل جذب وترغيب عملي للآخرين.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**أترى الله أعطى من أعطى من كرامته عليه، ومنع من منع من هوان به عليه، لا، ولكنّ المال مال الله يضعه عند الرجل ودائع وجوّز لهم أن يأكلوا قصداً، ويشربوا قصداً، ويلبسوا قصداً، وينكحوا قصداً، ويركبوا قصداً، ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين، ويلمّوا به شعثهم، فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالاً، ويشرب حلالاً، ويركب حلالاً، وينكح حلالاً، ومن عدا ذلك كان عليه حراماً**»، ثم قال: «﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾»[٢].

□ نعم، إنّ التزيّن والالتذاذ بالطعام أمرٌ طبيعي جُبلت عليه فطرة الإنسان، ولكن في الظروف التي يغصّ المجتمع بالمحتاجين والمحرومين، ينبغي للإنسان أن لا ينسى التعاطف معهم وتقديم العون لهم. وهذا يفسّر لنا التفاوت في الثياب التي كان الإمام الصادق عليه السلام يرتديها، إذ كان الناس يعيشون في بحبوحة ويسار، عن تلك التي كان الإمام علي عليه السلام يرتديها عندما كان الناس يعانون لظى العيش وشظفه، وذلك لاختلاف الظروف الاجتماعيّة في كلا العصرين[٣].

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**من سأل الناس شيئاً وعنده ما يقوته يومه فهو من المسرفين**»[٤].

□ الإسراف في الأكل والتخمة أمرٌ مذموم، وهو بعد، منشأ العديد من الأمراض الجسمية والروحية، ويبعث على قسوة القلب، ويحرم صاحبه من لذّة العبادة.

---

(١) تفسير مجمع البيان.
(٢) تفسير الصافي.
(٣) تفسير «الإثني عشري».
(٤) تفسير الفرقان.

ويقول النبي الأكرم ﷺ: «**المعدة بيت كلّ داء**». وقد قال طبيب نصراني بعد أن سمع تلك الآية وهذا الحديث: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً[١].

□ وعن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**إنّما الإسراف في ما أتلف المال وأضرّ بالبدن**»[٢] وجاء في رواية أخرى: «**ليس في النفقة في سبيل الله سرف، وما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف، وإن كان قليلاً**»[٣].

التعاليم:

١ ـ المسجد هو بيت المسلمين ويجب أن يكون مزيّناً وفي أبهى صور الجمال والجاذبية، ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

٢ ـ أفضل وأجمل الثياب لأشرف الأماكن، ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

٣ ـ يهتمّ الإسلام بباطن الصلاة، ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[٤]، وبظاهرها على السّواء. ﴿زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، إذن، فالإسلام يجمع بين الظاهر والباطن وبين الدنيا والآخرة.

٤ ـ الزينة لها قيمة وفضل في الصلاة الفردية، لكنّها تنطوي على قيمة خاصّة في المجتمع والمسجد أيضاً، ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

٥ ـ الصلاة أوّلاً ثمّ الطعام، ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾، الاهتمام بالروح والقيّم المعنوية أوّلاً، ثمّ الاهتمام بحاجات الجسم ومتطلباته.

٦ ـ المقتصد هو حبيب الله، والتمتّع بالزينة والطعام يجب أن لا يشوبه إسراف أو تبذير، ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

إشارات:

□ تقرّر هذه الآية حليّة الزينة لابن آدم. ويذكر القرآن الكريم أنّ من أمثلة الزينة

(١) تفسير مجمع البيان.

(٢) الكافي، ج ٦، ص٤٩٩.

(٣) تفسير منهج الصادقين.

(٤) سورة المؤمنون: الآية ٢.

التي منّ الله بها على عباده، النجوم التي تزيّن السماوات لتسرّ الناظرين، ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾[1] بيد أنّ حبّ التزيّن يجب أن لا يدفع الإنسان إلى التهلكة، وذلك بأنّ يلتزم خط الاعتدال لا يحيد عنه، من هنا حرّم القرآن الكريم على المرأة التبرّج أو إظهار زينتها لغير زوجها ومحارمها، ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾[2].

- روي عن عثمان بن مظعون أنّه أتى الرسول الكريم ﷺ، وقال: غلبني حديث النفس، عزمت على أن أختصي، فقال: **«مهلاً يا عثمان إنّ خصاء أمتي الصيام»**، قال: فإن نفسي تحدثني بالترهّب، قال: **«إن ترهّب أمتي القعود في المساجد لانتظار الصلاة»** فقال: تحدّثني نفسي بالسياحة، فقال: **«سياحة أمّتي الغزو، والحج، والعمرة»**، فقال: إنّ نفسي تحدّثني أن أخرج ممّا أملك، فقال: **«الأولى أن تكفي نفسك وعيالك وأن ترحم اليتيم والمسكين فتعطيه أفضل من ذلك»**، فقال: إنّ نفسي تحدّثني أن أطلّق خولة فقال: **«إنّ الهجرة في أمتي هجرة ما حرّم الله»**، قال: فإنّ نفسي تحدّثني أن لا أغشاها. قال: **«إنّ المسلم إذا غشي أهله أو ما ملكت يمينه فإن لم يصب من وقعته تلك ولداً كان له وصيف في الجنّة، وإذا كان له ولد مات قبله أو بعده كان له قرّة عين وفرح يوم القيامة، وإن مات قبل أن يبلغ الحنث كان له شفيعاً ورحمةً يوم القيامة»**، قال: فإنّ نفسي تحدّثني أن لا آكل اللحم، قال: **«مهلاً إنّي آكل اللحم إذا وجدته ولو سألت الله أن يطعمنيه كل يوم فعله»**، قال: فإنّ نفسي تحدّثني أن لا أمس الطيب، قال: **«مهلاً فإنّ جبريل أمرني بالطيب غباً وقال: لا تتركه يوم الجمعة»**، ثم قال: **«يا عثمان لا ترغب عن سنّتي فإن من رغب عن سنّتي ومات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي»**[3].

- وفي احتجاج أمير المؤمنين علي عليه السلام على عاصم بن زياد حين لبس العباء وترك المُلاء، وشكاه أخوه الربيع بن زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قد غمّ

---

(١) سورة الحجر: الآية ١٦.
(٢) سورة النور: الآية ٣١.
(٣) الفخر الرازي، التفسير الكبير.

أهله وأحزن وُلده بذلك فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **«عليّ بعاصم بن زياد» فجيء** به فلمّا رآه عبس في وجهه فقال له: **«أما استحييت من أهلك أما رحمت وُلدك أترى الله أحلّ لك الطيّبات وهو يكره أخذك منها أنت أهون على الله من ذلك أوليس الله يقول: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾؟ أوليس الله يقول: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ إلى قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ فبالله لابتذال نِعم الله بالفعال أحبّ إليه من ابتذالها بالمقال، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾**، فقال عاصم: يا أمير المؤمنين، فعلى ما اقتصرت في مطعمك على الجشوبة، وفي ملبسك على الخشونة، فقال: **«ويحك إنّ الله عز وجل فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيّغ بالفقير فقره»**[1].

- وحينما صار الأمر إلى محاججة جيش الخوارج المتعصّبين اختار الإمام علي عليه السلام ابن عباس ليحاجج أولئك القوم فأوصاه أن يلبس أجود ثيابه ويتطيّب ويمتطي فرساً جميلاً[2].

- قال بعض المفسّرين في تفسير الآية الكريمة: إنّ رزق الدنيا وزينتها مقرونان بأنواع المكاره، فيما لا ينغّص رزق الآخرة وزينتها أيّ مكروه فهي خالصة رائقة.

التعاليم:

١ - النبي الكريم هو المسؤول عن محاربة البدع، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ﴾.

٢ - الإسلام يحرّم الزهد المفرط، والتصوّف، والرهبنة، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ﴾.

٣ - الأصل في التمتّع بالزينة والطيبات هو الإباحة، ما لم يكن ثمّة مانع أو استثناء خاص يدلّل على الحرمة، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ﴾.

٤ - الاعتدال في التمتّع بالزينة وتشجيع الناس على ذلك، ذو قيمة كبيرة، ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾؛ ذلك أنّ الزينة تُنسب إلى الله تبارك وتعالى.

---

(١) الكافي، ج ١، ص٤١٠.
(٢) تفسير منهج الصادقين.

٥ ـ سلوك طريق الله تعالى لا يتمّ بترك المسائل الحلال الطيبة بل بالتمتّع بها بصورة صحيحة ومراعاة مبادئ القسط والعدل، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ...﴾.

٦ ـ ينسجم الدين الإسلامي مع الفطرة الإنسانيّة وشرعة الاعتدال، فهو يلبّي الاحتياجات الطبيعية للإنسان، فيحلّ ما هو مفيد، وينهى عمّا يتسبّب بالضرر والأذى، ﴿مَنْ حَرَّمَ... أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾.

٧ ـ الزينة مطلوبة للإنسان، شأنها شأن الغذاء. (لاحظ أنّ الآية الكريمة ذكرت الزينة إلى جانب الأطعمة) ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ... وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾.

٨ ـ الغاية الأساس من خلق النعم هي تمتّع المؤمنين بها، وإن كان ذلك يشمل الكافرين أيضاً، ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وفي آية أخرى يقول ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(١).

٩ ـ يتساوى المؤمن والكافر في التمتّع بنعم الدنيا، إلّا أنّ نعيم الآخرة هو من نصيب المؤمنين وحدهم، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾.

١٠ ـ للعلم والعلماء منزلة خاصة عند الله سبحانه وتعالى، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

إشارات:

□ **«الفواحش»** جمع **«فاحشة»**، ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، كالزنا، وكانت العرب في الجاهلية تأتي الزنا سرّاً ولا ترى قبحاً في ذلك، فنزلت الآية الكريمة لتؤكّد على حرمته سرّاً وجهاراً.

□ **«الإثم»**، هو اسم لمطلق الذنب سواء أكان كبيراً أم صغيراً والذي يوجب

---

(١) سورة الكهف: الآية ٧.

انحطاط الإنسان وسقوطه، و«البَغي»، يراد منه في الغالب التعدّي لغصب حقوق الآخرين ولهذا يكون مفهومه مساوياً لمفهوم الظلم. والآية الكريمة هنا تستعرض أنواع المعاصي العقدية واللفظية.

❑ وجاء في الروايات في تفسير قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أنّ المراد بما بطن من الآثام هو القبول بولاية أئمّة الجور[1].

❑ وقد روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: **«من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السموات والأرض»**[2].

❑ وقد سأل زرارة الإمام الصادق عليه السلام ما حجّة الله على عباده؟ فقال: **«أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عند ما لا يعلمون»**[3].

التعاليم:

١ ـ المحرّمات الإلٰهيّة هي من أجل تربية الإنسان، وتكامله، واعتلائه، ﴿حَرَّمَ رَبِّيَ﴾.

٢ ـ آفاق الحلال رحبة وواسعة، بينما دائرة المحرّمات ضيّقة ومحدودة وقد ذُكرت في القرآن الكريم والروايات، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ... وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٣ ـ المعصية هي المعصية، وهي تنطوي على قبح ذاتي وعقلي، وإن لم يدرك الناس ذلك، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾.

٤ ـ لا يملك المشركون استدلالات تعضد عقيدتهم، ﴿لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.

٥ ـ في الدعوة والنهي عن المنكر، ينبغي أولاً استعراض الخيارات الحلال والمعروفة، ثمّ يتبع ذلك النهي عن المنكرات والمحرّمات؛ (فالآية السابقة بيّنت ما أحلّ الله تعالى، ثمّ تبعتها هذه الآية في استعراض المحرّمات)، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ... إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
(٣) تفسير الفرقان.

٦ ـ البرهان والاستدلال لطف إلهي يفيض على عقل الإنسان وروحه، ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.

٧ ـ نسبة أيّ شيء إلى الله تبارك وتعالى يجب أن تستند إلى العلم والبرهان، ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، لذا، فإنّ أيّ ادّعاء حول الوجود يجب أن يتكئ على البرهان والمنطق.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

إشارات:

- استناداً إلى هذا التصريح القرآني، ليس الإنسان وحده ذا نهاية وأجل مسمّى، بل إنّ ذلك يصدق أيضاً على الدول والشعوب والأمم والحضارات.

التعاليم:

١ ـ لنحترز من المحرّمات ولا تغرّنا الدنيا بمناصبها وألقابها، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ... وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

٢ ـ لا وجود للصدفة في عالم الوجود، فكلّ التحوّلات تحدث في إطار التدبير والنظم الإلٰهيّ الدقيق والمدروس. وبالتالي فإنّ الأمم تحكمها سنن وقوانين، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

٣ ـ كلّ شيء في متناولنا آيل إلى الزوال، الفرص والإمكانات، وما دام الأمر كذلك، أليس الأجدر بنا إذن أن نوظّف ما هو متاح لنا على أفضل وجه، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾؟

٤ ـ لا يظنّ الظالم أنّ إمهال الله تعالى له من إشارات لطفه عليه، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ ذلك أنّ تلك المهلة ستصل إن عاجلاً أو آجلاً إلى نهايتها، كما ورد في آية أخرى ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾[1].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٥٩.

٥ ـ لا ييأس المجاهدون في سبيل الله بسبب تسلّط الطغاة، بل عليهم أن يكافحوا لأنّ الطغاة أيضاً إلى زوال، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

٦ ـ جرت سنّة التاريخ على ظهور الأمم وامتحانها ومن ثمّ زوالها، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

□ يتعلّق «**الخوف**» والفزع بقضايا المستقبل، وهو في إزاء الأمن والاطمئنان، أمّا «**الحزن**» فهو يرتبط بالماضي وما فات الإنسان، ويقابل كلمة الفرح والسرور(١).

التعاليم:

١ ـ من السنن الإلٰهيّة إرسال الرسل ليبيّنوا الوحي الإلٰهيّ، ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ... يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾.

٢ ـ إذا كان للكلام أن يترك التأثير المنشود، فلا بدّ للداعية أن يولد من رحم المجتمع، ﴿مِّنكُمْ﴾.

٣ ـ يتمتّع الإنسان بالإرادة والحرّية، ومصيره مرتبط بعقيدته وعمله، ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾.

٤ ـ لا بدّ للمتّقي الورع أن يكون مصلحاً وذا نشاطات إيجابية، لا منزوياً وانعزالياً، ﴿ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾.

٥ ـ التقوى وتهذيب النفس لا بد أن يكونا في المرتبة الأولى ومن ثمّ يأتي إصلاح الآخرين، إذ ينبغي للمصلح أن يكون ورعاً ذا تقوى، ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾.

---

(١) التحقيق في كلمات القرآن.

٦ ـ المؤمنون وأتباع الأنبياء المخلصون هم المتّقون المصلحون. تقول الآية الكريمة: ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ... فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾، ولم تقل: «فمن آمن بهم».

٧ ـ الأمن الحقيقي يتأتّى في ظلّ التقوى والإصلاح، ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

٨ ـ عاقبة التكذيب، والكِبر، والتمرّد على دعوة الأنبياء هو عذاب خالد في نار جهنّم، ﴿وَاسْتَكْبَرُوا... أَصْحَابُ النَّارِ... فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

- عادةً يكون المقصود بالافتراء على الله في آيات القرآن هو الشرك به[1]. بطبيعة الحال، إنّ التحليل والتحريم دون برهان أيضاً بدعة وافتراءٌ على الله، وكذا تكذيب الأنبياء الذي يعدّ بمثابة افتراء على الله.

- لقد ورد ذكر «أظلم الناس» في ١٥ موضعاً من القرآن الكريم وبتعابير مختلفة، وهؤلاء هم الذين يظلمون أنفسهم ويظلمون مجتمعهم في آنٍ معاً، وتعود فروع هذا الظلم إلى جذر واحد ألا وهو الشرك، والكفر، والعناد[2].

- عبارة ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾، تشمل الرزق، والحياة، والموت، والسعادة، والشقاوة في الدنيا وجزاء الأعمال في يوم القيامة، وكلّ هذه المقدّرات مدوّنة على اللوح المحفوظ عند مليك مقتدر[3].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٥، ص١٨٤.

(٣) تفسير «الاثني عشري».

التعاليم:

١ ـ من أعظم الظلم الذي يرتكبه الإنسان هو الافتراء على الله تعالى، والتكذيب بآياته، والابتداع في الدين، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾.

٢ ـ كلّ إنسان ينال نصيباً محتوماً ومسجّلاً في هذه الدنيا، ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾.

٣ ـ يوجد ملائكة خاصّون مكلّفون بقبض الأرواح، ﴿رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾.

٤ ـ الروح تمثّل كلّ الحقيقة الإنسانيّة لأنّ الآية تقول: ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ وليس «**يتوفّون أنفسهم**».

٥ ـ عندما تتراءى للإنسان علائم الموت، يستيقظ من سبات الغفلة، ويبدأ حديثه مع الملائكة المكلّفين بقبض روحه، ولكن فات أوان ذلك؟ ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا... قَالُوا﴾.

٦ ـ مرحلة استجواب الإنسان تبدأ منذ اللحظة الأولى لموته، ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾.

٧ ـ أوّل ما يُسأل العبد في يوم القيامة عن معبوده ومن هو، ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾؟

٨ ـ كلّ شيء، عدا الله، سراب، والمشركون عند الموت يذعنون ببطلان ما كانوا يعبدون من دون الله تبارك وتعالى، ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾.

٩ ـ ضمير الإنسان أوّل قاض في يوم القيامة، ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

إشارات:

☐ من المشاهد المفزعة في يوم القيامة، الحوار الذي يدور بين أصحاب النار،

لاسيّما مع رؤوس الكفر الذين أضلّوهم ودفعوا بهم إلى هذا المصير، ولهذا السبب تتبدّل الصداقات الحميمة بين المجرمين في جهنّم إلى عداوات، ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1]، وفي مشهد آخر يرجون من خزنة جهنّم أن يسمحوا لهم برؤية الذين أضلّوهم ليدوسوهم تحت أقدامهم، ﴿أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾[2]. وفي مشهد ثالث يعتبرون أنّ طاعة كبرائهم هي التي أودت بهم إلى هذا السقوط والمصير الأسود، ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[3]، ولكن على الرغم من ذلك، إلّا أنّ الإنسان مخيّر، يمتلك إرادة حرّة، بمعنى، ليس له أن ينسب انحرافه وضلاله إلى الآخرين وحدهم.

- ورد في مجمع البيان، أنّ الإمام أبا عبد الله الصادق عليه السلام قال في قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾: **يعني أئمّة الجور**»[4].

- في يوم القيامة، يضاعف الله تبارك وتعالى العذاب لأئمة الجور وأتباعهم، فالآية الكريمة وفي معرض ردّها على طلب المجرمين بمضاعفة العذاب لأئمتهم الذين أضلّوهم تقول: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ عذابٌ لأئمّة الجور على ضلالهم وعذابٌ لهم على إضلالهم أتباعهم. أمّا مضاعفة العذاب لأتباعهم فلأنّهم ضلّوا وبضلالهم ساعدوا على تقوية شوكة أئمة الجور وترسيخ باطلهم.

التعاليم:

١ ـ في الجنّة لا مكان للأحقاد والعداوات، بل سلام ووئام ومحبّة، في حين ترى أهل النار يتخاصمون فيما بينهم ويلعن بعضهم بعضاً، ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾، كما ورد في الآية ٢٥ من سورة العنكبوت: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

٢ ـ الجنّ أيضاً مكلّفون، كما البشر، وللمذنبين من الجانبين مصير واحد، وهو

(١) سورة الزخرف: الآية ٦٧.
(٢) سورة فصّلت: الآية ٢٩.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٦٧.
(٤) تفسير نور الثقلين.

دخول جهنّم، ﴿الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ... لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾.

٣ ـ لا يدخل الكفار بأجمعهم في النار دفعة واحدة، بل يدخل الفوج بعد الفوج بصورة متعاقبة، فيكون فيهم سابق ومسبوق، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ﴾.

٤ ـ كلّ دعم، أو محبة، أو ولاية غير إلٰهيّة تتبدّل في الآخرة أحقاداً، وعداوات، ولعنات، ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾.

٥ ـ في يوم القيامة يسعى الجميع إلى إلقاء سبب انحرافه على عاتق الآخرين، أو أن يجد شريكاً يقاسمه ذنوبه، ﴿هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾.

٦ ـ أحياناً يتعرّض الإنسان إلى عقوبات لا يعلم هو نفسه بها، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

إشارات:

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«أمّا المؤمنون فترفع أعمالهم وأرواحهم إلى السماء فتفتح لهم أبوابها، وأمّا الكافر فيصعد بعمله وروحه حتى إذا بلغ إلى السماء نادى منادٍ اهبطوا به إلى سجّين»**[1].

□ **«الجَمَل»**، يعني البعير الذي خرجت أسنانه حديثاً، ولكن أحد معاني الجمل هو الحبل القوي والمتين الذي تربط به السفن أيضاً. وحيث إنّ المقصود هنا استحالة دخول الكفّار الجنّة، فإنّ المعنى الأوّل هو الأنسب أي عبور الجمل من ثقب الإبرة. ونقرأ في تفسير «الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل» أيضاً أنّ كلمة «الجمل» تستعمل أكثر في المعنى الأول، وذلك:

(١) تفسير مجمع البيان.

أوّلاً: إنّ في أحاديث أئمّة الإسلام كذلك تعابير تناسب التفسير الأول.

ثانياً: ورد في إنجيل لوقا الباب ١٨ الجملة ٢٤ و٢٥ ما يلي: إنّ عيسى قال: «ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله لأنّ دخول الجمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله»[1].

- ربّما يُستشفّ من ظاهر الآية ٤٠ بأنّ الجنّة في السماء، والدخول إليها يجب أن يكون من أبواب السماء[2].

- عن أمير المؤمنين علي ﷺ أنّه قال: **«تفتح أبواب السماء في خمسة مواقيت: عند نزول الغيث، وعند الزحف، وعند الأذان، وعند قراءة القرآن مع زوال الشمس، وعند طلوع الفجر»**[3].

- تفتح أبواب الرحمة في السماء والأرض للمؤمنين المتّقين، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4]، وعلى العكس من ذلك، تغلق أبواب السماء والأرض بوجه الكفّار المعاندين والمكذّبين، ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ...﴾.

التعاليم:

١ ـ في يوم القيامة يرى أئمة الضلال أتباعهم شركاءهم في العذاب، ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ...﴾.

٢ ـ سلوك الإنسان وأعماله تلعب دوراً مؤثّراً في نزول الرحمة الإلهيّة أو امتناعها، ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ...﴾.

٣ ـ التكذيب بآيات الله والتنكّر لتعاليم الدين ومعارفه هو سبب انغلاق جميع أبواب الرحمة وعدم دخول الجنّة، ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ... وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

٤ ـ جرت سنّة الله على حرمان المجرمين من رحمته في يوم القيامة، ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ... وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

---

(١) إنجيل لوقا، الباب ١٨، الآية ٢٤.
(٢) تفسير الميزان؛ والتفسير الكبير.
(٣) تفسير نور الثقلين.
(٤) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

إشارات:

❏ «**مِهاد**» جمع «**مَهد**» وهو الفراش. والتعبير بالمهاد هو من باب الاستهزاء والسخرية بأهل جهنّم، ويعني أن فراشهم ومستقرّهم جهنّم[١] «**غواش**» جمع «**غاشية**»، وهي كل ما يغشاك، أي يجلّلك، كما تطلق على الخيمة أيضاً.

❏ نلاحظ أنّ الله تبارك وتعالى في الآية ٣٧ من هذه السورة المباركة سمّى المعاندين والمعرضين بالكفّار، وفي الآية ٤٠ سمّاهم بالمجرمين، وهنا يسمّيهم بالظالمين، وتفسير ذلك هو أنّ من يكذّب بآيات الله تعالى يستحقّ كلّ هذه المواصفات والألقاب. علاوة على أنّ الآية ٢٥٤ من سورة البقرة تقول: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

❏ روي أنّ النبي ﷺ تلا هذه الآية ثمّ قال: «**هي طبقات من فوقه وطبقات من تحته، لا يدري ما فوقه أكثر أو ما تحته، غير أنّه ترفعه الطبقات السفلى وتضعه الطبقات العليا، ويضيق فيما بينهما حتّى يكون بمنزلة الزج في القدح**». وعنه أيضاً: «**يكسى الكافر لوحين من نار جهنّم في قبره، فذلك قوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾**»[٢].

التعاليم:

١ ـ تحيط جهنّم بالكافرين من كلّ جانب، فلهم من غطاء ووطاء وفراش ولحاف، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن... غَوَاشٍ﴾، كما ورد في آيات أخرى ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[٣]، ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾[٤]، و﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾[٥].

---

(١) تفسير في ظلال القرآن.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، عند تفسير الآية.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٥٤.

(٤) سورة الزمر: الآية ١٦.

(٥) سورة العنكبوت: الآية ٥٥.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الجنّة الخالدة هي ثواب التواكب بين الإيمان والعمل الصالح، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.

٢ ـ نعم، القيام بجميع الأعمال الصالحة أفضل، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولكن عملياً التكليف على قدر وسع الإنسان وطاقته، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

٣ ـ لا يكلّف الإسلام الإنسان فوق طاقته، ﴿وُسْعَهَا﴾؛ وجاء في آية أخرى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1]، و﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[2].

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

إشارات:

- «الغِلّ» هو في الأصل نفوذ الشيء خفية وسرّاً، ولهذا يقال للحسد والحقد والعداوة، الذي يتسلّل إلى النفس الإنسانيّة بصورة خفية: «الغلّ».

- مرّ علينا في ما مضى من الآيات أنّ أهل جهنّم يتلاعنون ويتخاصمون في النار، وهنا تقول الآية الكريمة: إنّ أهل الجنّة لا يضمرون لبعضهم أيّ عداوة إذ يغسل الله صدورهم من أوضار الحسد والحقد، ويملأها سلاماً وصفاءً ومحبّة، فلا حقد ولا حسد ولا ضغينة بسبب تفاضل منازلهم وتباين درجاتهم في الجنّة.

□ إنّ أنهار الجنّة فيّاضة ومتدفقة وجارية، لأنّ الله تعالى يقول: أنهار جارية بدلاً من جريان الماء، كما ورد عن النبي الأكرم ﷺ أنّ أنهار الجنّة تجري من تحت مساكنهم[(١)].

□ بحسب ما ورد في الأحاديث، فإنّ **«ما من أحد إلّا وله منزل في الجنّة ومنزل في النار، فأمّا الكافر فيرث المؤمن منزله في النار، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنّة، فذلك قول: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»**[(٢)]. يُستفاد من هذا الحديث أنّ أبواب السعادة والشقاء مفتوحة أمام جميع الناس قاطبة، وأنّه لم يُخلق أحد يوم خلق وهو من أهل الجنّة أو من أهل النار، بل يمتلك الجميع قابلية الوصول إلى كلا هذين المنزلين، وإنّما إراداتهم هي التي تحدّد وتقرّر مصيرهم[(٣)].

□ قال رسول الله ﷺ للناس في يوم غدير خم: **«معاشر النّاس سلّموا على علي بإمرة المؤمنين»** وقولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[(٤)].

□ قال الإمام علي الهادي عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾: **«إذا كان يوم القيامة دُعي بالنبي ﷺ وبأمير المؤمنين وبالأئمّة من ولده عليهم السلام فيُنصَبون للناس فإذا رأتهم شيعتهم قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾**، يعني هدانا الله في ولاية أمير المؤمنين والأئمّة من وُلده عليهم السلام[(٥)].

التعاليم:

١ ـ الحياة الخالية من الحقد والحسد، هي حياة الجنّة، ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾.

٢ ـ نقاء السريرة والعلن يجتمعان معاً في الجنّة، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٨، ص١٦٠.
(٢) تفسير نور الثقلين.
(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
(٤) تفسير نور الثقلين.
(٥) تفسير «الاثني عشري»؛ الكافي، ج ١، ص٤١٨.

٣ ـ أهل الجنّة منشغلون بذكر الله تعالى وحمده، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٤ ـ أهل الجنّة يشكرون الله تعالى على ألطافه عليهم، وهم لا يغترّون بهدايته لهم، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا﴾.

٥ ـ لا يتكئ أهل الجنّة على أعمالهم بل على هداية الله ولطفه، ﴿هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

٦ ـ عناصر العقل، والعلم، والمثابرة، وحدها لا تكفي لهداية الإنسان ما لم تظلّلها العناية الإلٰهيّة، ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

٧ ـ الأنبياء وسيلة الهداية، وهدايتهم مقترنة بالحقّ. هم، كلامهم، عملهم، نهجهم، ووعودهم كلّها حقّ في حقّ، ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

٨ ـ الطريق إلى الجنّة يمرّ عبر العمل لا التمنّي والأحلام، ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**لا تكن ممّن يرجو الآخرة بغير العمل**»[١].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

إشارات:

❑ ذهب المفسّرون مذاهب عدّة في تحديد هويّة مؤذّن يوم القيامة، منها أنّه الله تعالى، أو إسرافيل، أو جبرائيل، أو خزنة جهنّم، أو حرّاس الجنّة. ولكن في المقابل، تقول الروايات الشيعية[٢] وبعض روايات أهل العامّة (مثل روايات الحاكم الحسكاني): إنّ المؤذّن هو الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. كما إنّه عليه السلام كان مؤذّناً في الدنيا مختاراً من قبل الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله، إذ بعد فتح مكّة كُلّف من قبل الرسول أن يتلو الآيات الأولى من سورة البراءة على مسامع الناس في موسم الحج وإعلان البراءة من المشركين في الدنيا، وكذلك سوف يكون مؤذّناً في الآخرة وسيقرأ إعلان البراءة من

(١) نهج البلاغة، الحكمة ١٥٠.
(٢) تفسير نور الثقلين.

الكافرين في يوم القيامة[١]. كما إنّه سوف يلقي التحيّة على أهل الجنّة[٢].

□ ونقرأ في قصّة معركة بدر أن النّبي الكريم ﷺ مع بعض أصحابه وقفوا على «القليب» وقد ألقيت فيه أجساد قتلى المشركين، فناداهم بأسمائهم، وقال: **«هلّا أطعتم الله ورسوله، لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقاً»**، فقال عمر: يا رسول الله، تكلّم أجساداً لا روح فيها... فقال ﷺ: **«والذي نفس محمّد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»**. وقد حصل الموقف نفسه مع الإمام علي عليه السلام حين عاد من قتال الخوارج، فوقف عند مصارع قتلاهم وخاطبهم بالآية الكريمة نفسها[٣].

التعاليم:

١ ـ في يوم القيامة، يدور حوار بين أهل الجنّة وأهل النار، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ...﴾، ويبدو من سياق الآيات أنّ أوضاع الجنّة والنار على نحوٍ بحيث يمكن لأهل الجنّة بعد أن يستقرّوا فيها الاطلاع على أخبار أهل النار.

٢ ـ في يوم القيامة سوف يجد المؤمنون والكافرون وعود الله تعالى قد تحقّقت، ﴿قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾.

٣ ـ في يوم القيامة يأخذ أهل الجنّة، مدفوعين من قبل الله تعالى، اعترافات من أهل النار وذلك إيغالاً في زيادة العار والضغط عليهم[٤]، ﴿قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥﴾

إشارات:

□ طريق الله هو طريق التوحيد، والتسليم، والإيمان، والهجرة، والجهاد. ويريد الظالمون عبر إثارة الشبهات والوساوس، وبثّ الدعاية لإضعاف المعنويات، ونشر البدع والخرافات وكذلك التصدّي لقادة الحقّ، وإشاعة اليأس، ووضع

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) تفسير «الاثني عشري».

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الميزان في تفسير القرآن.

العراقيل، أقول: يريد الظالمون أن يصدّوا عن سبيل الله تبارك وتعالى، أو أن يحرفوا مساره.

التعاليم:

١ ـ كلّ صدٍّ عن سبيل الله أو حرفٍ عنه، يعدّ ظلماً، ﴿لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾، ولا شكّ أنّ الظلم المعرفي هو أعظم الظلم، ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ لو قدّر للعدو لحارب جهاراً وصدّ عن سبيل الحقّ، ﴿يَصُدُّونَ﴾، ولقام برسم الخطط وحاك المؤامرات ليحرف الحقّ عن مساره، ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾.

٣ ـ الظالمون، والصادّون عن سبيل الحقّ، والمفسدون في الدين، والمنكرون يومَ القيامة، جميعهم أهل جهنّم، (في ضوء الآية الحاليّة والسابقة).

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

إشارات:

- ربّما كان المقصود بـ «الحجاب» في هذه الآية هو الجدار الذي ورد ذكره في الآية ١٣ من سورة الحديد الذي يفصل بين أهل الجنّة وأهل النار، إذ يكون في خارجه العذاب، وفي باطنه الرحمة، ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾[1].

- **«الأعراف»** جمع «عُرف»، وهو في اللغة الموضع أو المكان المرتفع. هذه الآية هي الوحيدة في القرآن الكريم التي تتحدّث عن الأعراف وأصحاب الأعراف، ولذلك سمّيت السورة بهذا الاسم.

- لو تأمّلنا الروايات والتفاسير لوجدنا دائرة واسعة من الآراء المتنوّعة حول

---

(١) المصدر نفسه.

تفسير أصحاب الأعراف، فمنهم من يعرّفهم على أنّهم أولياء الله يقفون على مكان مرتفع يفصل بين الجنّة والنار ويتعرّفون على الناس بسيماهم، فينظرون إلى أهل الجنّة، ويحيّونهم، ويسلّمون عليهم، وفي الوقت ذاته، يفزعون لمصير أهل النار ويتعوّذون بالله من منازلهم، ولكن ثمّة من يقول: إنّهم جماعة من المؤمنين الضعفاء، استوت حسناتهم وسيّئاتهم، فقصرت بهم حسناتهم عن الجنّة، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار فجُعلوا على الأعراف، وهم ينتظرون رحمة الله وفضله، (كما يُستشفّ ذلك من الآية ١٠٦ من سورة التوبة).

ربّما أمكن القول إنّ أولياء الله هم المحور الرئيس للأعراف، وأنّ الأشخاص الضعفاء يقفون على الأطراف. فالمحسنون يدخلون الجنّة، والمجرمون يُكبّون على وجوههم في النار، ويعلق بين هؤلاء وأولئك جماعة من المتوسّطين أو الضعفاء المعسرين ينتظرون مصيرهم النهائي، بيد أنّ أولياء الله الواقفين على الأعراف يبادرون إلى نجدتهم، لينتشلوهم من محنتهم، ويشفعوا لهم. هذا بإيجاز ما يُستفاد من مجموع آراء المفسّرين ونصوص الروايات.

- كما نقرأ في الروايات أنّ أصحاب الأعراف هم قوم قتلوا في سبيل الله في معصية آبائهم، فمنعهم من النار قتلهم في سبيل الله، ومنعهم من الجنّة معصية آبائهم[١]، أو أنّهم قوم تكافأت حسناتهم وسيّئاتهم، فإن أدخلهم النار فبذنوبهم، وإن أدخلهم الجنّة فبرحمته[٢].

التعاليم:

١ ـ السلوك والخصال الدنيوية ترسم للإنسان ملامح خاصّة ومميّزة في يوم القيامة تجعل الآخرين يتعرّفون بمجرّد النظر إليه، ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾، بيد أنّ التعرّف بهذه الطريقة متاحٌ أيضاً في الحياة الدنيا، إذ يقول الله تبارك وتعالى

(١) تفسير الدرّ المنثور.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ٢، ص٣٨١.

لنبيّه الكريم ﷺ عن المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾[1].

٢ ـ لا يتيسّر دخول الجنّة بدون لطف الله تعالى وعنايته، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ... وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

إشارات:

- يتطلّع أصحاب الأعراف إلى أهل الجنّة فيتعرّفون عليهم ويلقون التحيّة إليهم، لكنّهم لا ينظرون إلى أهل النار إلّا شزراً، ﴿صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾.
- لا يقول أصحاب الأعراف في دعائهم: «لا تجعلنا من أهل النار، بل لا تجعلنا مع القوم الظالمين، ذلك أنّ مجالسة الظالمين أكثر عذاباً من نار جهنّم»[2].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

إشارات:

- يقول الصحابي الجليل سلمان الفارسي: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعليّ أكثر من عشر مرات: **«يا عليّ إنّك والأوصياء من بعدك أعراف بين الجنّة والنار، لا يدخل الجنّة إلّا من عرفكم وعرفتموه ولا يدخل النار إلّا من أنكركم وأنكرتموه»**[3][4].

التعاليم:

١ ـ مضافاً إلى العذاب الإلٰهيّ، يتلقّى أهل النار في يوم القيامة التوبيخ والتقريع من بقيّة البشر، ﴿قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ﴾.

٢ ـ الثروة، والسلطة، والأصدقاء، والأنصار، كلّ ذلك لا ينقذ الإنسان، ﴿مَآ

(١) سورة محمد: الآية ٣٠.
(٢) تفسير روح المعاني.
(٣) بحار الأنوار، ج ٨، ص٣٣٧.
(٤) تفسير «الاثني عشري».

أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾، والإنسان نفسه يعترف في يوم القيامة بهذه الحقيقة، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾[1].

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

إشارات:

- في الدنيا، يحتقر الكافرون المتكبرون المؤمنين، ويقسمون بأنّ رحمة الله لا تشمل هؤلاء، وقد نسوا أنّ الرحمة الإلٰهيّة ستظلّهم يوم لا ظلّ إلّا ظلّه وذلك بسبب إيمانهم وعملهم الصالح، ويخاطبهم ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾.
- نزول الرحمة الإلٰهيّة والإيمان والعمل الصالح هو المهم، وليس الثروة والجاه، ناهيك عن أنّ الرحمة الإلٰهيّة ليست بيد المستكبرين ليقسّموها على من شاؤوا، ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ فقر المؤمن وخمول ذكره في هذه الدنيا لا يدلّ على حرمانه في يوم القيامة، ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ﴾.

٢ ـ لا ينبغي أن نتعجّل الحكم على من هو جدير أو غير جدير بالرحمة الإلٰهيّة، ﴿أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ﴾.

٣ ـ لا وجود للهموم والأحزان في الجنّة، ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

إشارات:

- ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾[3] هو من أسماء يوم القيامة، سمّي بذلك لأنّه تعالى في ذلك

---

(١) سورة الحاقّة: الآية ٢٨.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٣٢.

(٣) سورة غافر: الآية ٣٢.

اليوم النداءات، والأصوات، وصرخات الاستغاثة، ويتنادى أهل الجنّة وأهل النار.

التعاليم:

١ ـ في يوم القيامة يتنادى أهل الجنّة وأهل النار ويسمع كلّ منهما صوت الآخر، ﴿وَنَادَىٰٓ...﴾.

٢ ـ الماء، هو أوّل ما يستغيث أهل النار للحصول عليه، ﴿ٱلْمَآءِ...﴾.

٣ ـ أولئك الذين لا يدّخرون في الدنيا شيئاً من الخيرات لآخرتهم، في يوم القيامة سوف يمدّون يد التسوّل والحاجة إلى الجميع، ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ...﴾.

٤ ـ لن تنفع المجرمين استغاثتهم وصرخاتهم في يوم القيامة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾.

٥ ـ نِعَم الآخرة خاصّة بالمؤمنين وحدهم، ﴿حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

٦ ـ حاشا لله أن يكون بخيلاً وكذلك أهل الجنّة، غير أنّ عذاب الكفّار الذين كانوا يؤذون المؤمنين الفقراء في الدنيا هو حرمانهم من النعم في يوم القيامة، ﴿حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

إشارات:

- «**اللّهو**»، هو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمّه، و«**اللّعِب**» هو أن يكون للإنسان هدف افتراضي غير حقيقي[1].

- في عيون الأخبار عن الرضا عليه السلام حديث طويل، وفيه: «**وإنّما يجازي من نسيه ونسي لقاء يومه بأن يُنسيهم أنفسهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟**

(١) الميزان في تفسير القرآن.

ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، وقال ﷻ: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾، أي تركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا»[1].

التعاليم:

١ ـ من سمات الكفّار الاستهزاء بالدين، الاغترار بزخارف الدنيا، نسيان الآخرة، والتنكّر لآيات الله تعالى، ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾.

٢ ـ لقد اتّخذ الكفّار أحكام الدين، التي هي عين الجدّ والحكمة، هزواً ولعباً، ﴿دِينَهُمْ لَهْوًا﴾، وفي المقابل استجدّوا هذه الدنيا بينما هي خيال ولعب ليس إلّا.

٣ ـ الاستهانة بالدين والاستهزاء به تورث الذلّة والمهانة في الآخرة. أولئك الذين يتّخذون الدين ملعبة، سيضطرّون في يوم القيامة إلى الاستغاثة والتوسّل، ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا... دِينَهُمْ لَهْوًا﴾.

٤ ـ الحياة الدنيوية خدّاعة، ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

٥ ـ الاغترار بالدنيا نافذة تفضي بالإنسان إلى الاستهزاء بالدين، ﴿لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ...﴾.

٦ ـ العذاب الإلٰهيّ يتكافأ مع أعمالنا، ﴿نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟﴾.

٧ ـ الجحود المستمرّ بآيات الله تعالى، يوجب الحرمان من الجنّة ونعيمها، ﴿كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

٨ ـ من ينسى الله في الدنيا، سوف ينساه الله في يوم القيامة، ﴿نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟﴾، وفي موضع آخر، يقول ﷻ: إنّ من ذكر الله ذكره، ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[2].

٩ ـ استمرار الجحود والعزوف عن التوبة هو سرّ شقاء الإنسان وهلاكه، ﴿كَانُوا۟... يَجْحَدُونَ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

إشارات:

□ يقول الإمام علي عليه السلام: **«إنّ الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن فإنّه حبل الله المتين، وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب، وينابيع العلم، وما للقلب جلاء غيره، مع أنّه قد ذهب المتذّكرون، وبقي الناسون أو المتناسون»**[١].

التعاليم:

١ ـ لقد ألقى الله تبارك وتعالى الحجّة حينما أنزل الكتاب، وأنقذ الإنسان من الاغترار بالدنيا ونسيان الآخرة وإنكار الآيات، (كما ورد في الآية السابقة)، ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾.

٢ ـ أنزل الله كتاب الهداية والرحمة على دفعات وبالتدريج، ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾.

٣ ـ يستند الوحي إلى العلم الإلٰهيّ باحتياجات الإنسان والكون، ﴿بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

٤ ـ الكتاب والعلم الإلٰهيّ عظمة لامتناهية، لاحظ أنّ ﴿بِكِتَٰبٍ... عِلْمٍ﴾ كليهما في صيغة التنكير.

٥ ـ الهداية القرآنية هي أعظم ما تجود به الرحمة واللطف الإلٰهيّ على المؤمن، ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٦ ـ القرآن الكريم يهدي المؤمنين لا المعاندين اللجوجين المتعنّتين، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

إشارات:

- يبدو أنّ المقصود بالتأويل في هذه الآية، بقرينة الآيات اللّاحقة، هو تحقّق وعيد الله تعالى وبشاراته في ما يتعلّق بالعذاب والثواب في يوم القيامة.
- في الآية ٤٣ من هذه السورة، قال أهل الجنّة: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾، وهذه العبارة نفسها تتكرّر في هذه الآية ولكن هذه المرّة على لسان أهل النار.
- في ضوء حديث الآية السابقة عن نزول الكتاب، ذهب المفسّرون إلى أنّ المراد بـ﴿نَسُوهُ﴾ هو نسيان الكتاب السماوي.

التعاليم:

١ ـ يوبّخ الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم الجاحدين بآياته، معتبراً أنّهم لن يؤمنوا ما لم يروا بأمّ أعينهم تحقّق وعيده وتهديداته، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ...﴾.

٢ ـ لن تفيد الاستغاثة، والاعترافات، والأماني في يوم القيامة، إذن، لا مفرّ من أن نحمل تهديدات القرآن على محمل الجدّ في هذه الدنيا، ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ...﴾.

٣ ـ الخسران الأكبر هو نسيان القرآن ويوم القيامة، ﴿نَسُوهُ﴾.

٤ ـ يوم القيامة يوم اليقظة والانتباه، ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

٥ ـ رسالة الأنبياء تصبّ في مسار تربية الإنسان، وهي من شؤون ربوبيّة الله تبارك وتعالى، ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

٦ ـ لا يأخذ الكافرون مسائل الدين والآخرة مأخذ الجدّ، وسوف ينتبهون لخطئهم هذا في يوم القيامة، ويرجون، حينذاك، أن يعودوا إلى هذه الحياة ولكن

أمنيتهم هذه محض سراب، ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ﴾. وفي آية أخرى يقول عزّ من قائل: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[1].

٧ ـ الشفاعة لا تشمل الجميع، ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾.

٨ ـ في يوم القيامة لن يكون ثمة مظهر أو تأثير للطواغيت، والأصنام، والثروات، والسلطات، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم...﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

إشارات:

- قرأنا في الآية السابقة عن فناء كلّ مخلوق وكلّ شيء في يوم القيامة، سوى الله تبارك وتعالى، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم...﴾، وهنا تتحدّث الآية عن الخالق الحقيقي.
- «**اليوم**»، هو غير «**النهار**». فـ«النهار»، هو في مقابل الليل، بينما «اليوم» يعبّر به عن النهار تارةً، وأخرى عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها، وثالثة، يُقصد به الدّهر والحدثان، والمعنى الأخير هو المقصود في الآية.
- «**تبارك**» من مادة «**بركة**»، وأصلها «**بَرْك**»، ومعناها صدر البعير، إذ إنّ الإبل عندما تستقر في مكان ما تلصق صدورها على الأرض، لهذا اتّخذت هذه الكلمة تدريجياً معنى الثبوت، والاستقرار، والاستتباب، ثمّ وصفت وسمّيت كل نعمة مستقرة ودائمة، وكلّ كائن طويل العمر، ومستمر الآثار والخيرات، بأنّه موجود مبارك، ويقال أيضاً للمكان الذي يتجمّع فيه الماء «بِركة» لبقائه في ذلك المكان مدّة طويلة.
- في ضوء القرائن الدالة في هذه الآية والآيات القرآنية السابقة، فإنّ المقصود بـ«**الخلق**» هو الإيجاد الأول، والمراد بـ«**الأمر**» هو السنن والقوانين الحاكمة

(١) سورة الأنعام: الآية ٢٨.

على عالم الوجود بأسره وبأمر الله تعالى، والتي تسوق الكون في مسيره المرسوم له[١].

- ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ كناية عن امتلاك السلطة، والقدرة، والتدبير، والهداية، وإدارة شؤون الكون. طبعاً، ربّما كانت كلمة «عرش» تعبيراً عن عالم ما وراء المادة، و«الكرسي» هو عالم المادة، إذ نقرأ في آية الكرسي المباركة: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[٢].
- لقد سخّر الله تبارك وتعالى الشمس، والقمر، والكواكب، والنجوم ليهتدي بها الناس، وبالطريقة نفسها أيضاً جعل من الرسالة، والإمامة، وأهل البيت عليهم السلام نجوماً نهتدي بهم، وقد نقلت مصادر الفريقين حديثاً نبوياً شريفاً يقول: **«النّجوم أمان لأهل الأرض وأهل بيتي أمان لأمّتي»**[٣].
- إنّ الله تبارك وتعالى قادر على أن يخلق الكون برمّته في لحظة واحدة، غير أنّ التأنّي والتدرّج هي سنّته، من هنا يأتي خلقه للكون في ستّ دورات طويلة. كما إنّ العجلة بغير سبب تتيح للشيطان النفوذ والسيطرة، والنبي الكريم يقول في هذا السياق: **«الأناة من الله والعجلة من الشيطان[٤]»**. ويقول الإمام علي عليه السلام: **«ولو شاء أن يخلقها في أقل من لمح البصر لخلق؛ ولكنه جعل الأناة والمداراة مثالاً لأمنائه وإيجاباً للحجّة على خلقه»**[٥].

التعاليم:

١ ـ خالق الكون هو الجدير بتدبيره وإدارته، ﴿رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ...﴾.

٢ ـ العرش هو مركز التدبير وإصدار القرارات الإلٰهيّة، ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

٣ ـ إنّ التعاقب المستمر للّيل والنهار ممكن في حالة واحدة فحسب وهي كروية الأرض وحركتها، ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

٤ ـ للكون نظام وهو مذعن لإرادة الله ومشيئته، ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تفسير الفرقان.

(٤) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص ١٦٩.

(٥) تفسير «الاثني عشري».

٥ ـ الخلق، وكذلك إدارة شؤون الخلائق، وتدبير أمورها كلّها بيد الله تعالى، ﴿لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾.

٦ ـ الله تبارك وتعالى منشأ البركات، ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾.

٧ ـ نزول البركات من شؤون ربوبيّة الله تعالى ولوازمها، ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٨ ـ الوجود برمّته في طور التكامل، وهو يخضع لتربية الله تعالى، ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾

إشارات:

- مرّ رسول الله ﷺ بقوم رفعوا أصواتهم بالدعاء فقال: **«إنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، وإنّما تدعون سميعاً قريباً»**[١] وكان النبي زكريا عليه السلام يدعو الله خفية وبإخلاص ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾[٢]؛ لأنّ ذلك من علامات الأدب الرفيع، بدليل أنّ الله تبارك وتعالى يخاطب المؤمنين قائلاً: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾[٣] أحياناً يكون رفع الصوت في الصلاة والتضرّع باباً للتظاهر والرياء.

- التضرّع والأنين في الدعاء علامة على اهتمام الإنسان باحتياجاته فينكسر غروره وتفتر غطرسته، ذلك أنّ من يعتقد أنّه يملك أسباب القوّة والمال، لا يستغيث بأحد ولا يطلب منه شيئاً.

- يقول الإمام الصادق عليه السلام وقد سُئل عن الدعاء ورفع اليدين: **«على أربعة أوجه، أمّا التعوّذ فتستقبل القبلة بباطن كفّيك، وأمّا الدعاء في الرزق فتبسط كفّيك وتفضي بباطنهما إلى السماء، وأمّا التبتّل فإيماءٌ بإصبعك السبّابة، وأمّا الابتهال فرفع يديك تجاوز بهما رأسك، ودعاء التضرّع أن تحرّك إصبعك السبّابة ممّا**

---

(١) تفسير مجمع البيان؛ التفسير الكبير، الفخر الرازي.

(٢) سورة مريم: الآية ٣.

(٣) سورة الحجرات: الآية ٢.

يلي وجهك وهو دعاء الخيفة»[1] كما نقل الصحابي الجليل سلمان الفارسي (رحمه الله) عن النبي الأكرم ﷺ قوله: **«إنّ ربّكم حيي كريم يستحيي من عبده أن يرفع يديه إليه فيردّهما صفراً أو قال خائبتين»**[2].

التعاليم:

١ ـ معرفة الله أوّلاً ومن ثمّ عبادته، ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾؛ طرحت الآية السابقة مسألة معرفة الله تعالى، وها هنا تتحدّث الآية عن عبادته سبحانه.

٢ ـ يفضّل الدعاء باستخدام كلمة «ربّ» مع التضرّع، والخشوع، والبكاء في خفية، ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾، دعاء الخفية أبعد عن الرياء وأقرب إلى الإخلاص.

٣ ـ يكون الدعاء ذا تأثير عندما يخرج من القلب خالصاً مصحوباً بالتضرّع، ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾.

٤ ـ فلندع الله سبحانه وتعالى من أعماق القلب وبخشوع تامّ، وليكن لساننا سفيراً لجميع جوارحنا، ﴿ٱدۡعُواْ... تَضَرُّعٗا﴾.

٥ ـ العاصون والمعتدون محرومون من ألطاف الله ومحبّته، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

٦ ـ من أمثلة العصيان والتمرّد العزوف عن الدعاء أو الدعاء الخالي من التضرّع ودعاء الرياء، ﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ
إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾

إشارات:

❑ تناولت الآية السابقة علاقة الإنسان بربّه، وهذه الآية علاقته بالناس.

---

(١) الكافي، ج ٢، ص٤٨١.

(٢) تفسير القرطبي.

□ عن أبي جعفرٍ الإمام الباقر عليه السلام قال في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾: «إنّ الأرض كانت فاسدة فأصلحها الله عزّ وجلّ بنبيّه صلى الله عليه وآله»[1]. نعم، إنّ مجيء كلّ نبي هو تمهيد لإرساء أسس حركة إصلاحية اجتماعيّة عظيمة، وإنّ الحيد عن شرائعهم وتعاليمهم هو عامل فساد في المجتمع.

□ تتوسّط عبارة ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أمران بالدعاء «أُدعوا» واحدة في الآية السابقة والأخرى هنا، لتشير إلى أنّ الدعاء باللسان يحتاج إلى أن نعضده بجهود اجتماعيّة إصلاحية، لا أن ندعو باللسان، ونفسد في العمل.

□ تستعرض هذه الآية مع التي سبقتها مقوّمات الدعاء الخالص وآدابه، وشروط الاستجابة، وهذه الشروط هي:

أ) أن يكون الدعاء مقروناً بالتضرّع، ﴿تَضَرُّعٗا﴾.

ب) أن يكون خفية وبعيداً عن الرياء، ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾.

ج) ألّا يتجاوز الدعاء حدود الحقّ، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

د) أن يكون مصحوباً بالخوف والرجاء، ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾.

هـ) ألّا يشوبه إفساد أو معصية، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾.

و) أن يكون الدعاء مقروناً بالإحسان، ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

□ يعظ لقمان الحكيم ولده قائلاً: «يا بنيّ لو استخرج قلب المؤمن فشقّ لوجد فيه نوران نور للخوف ونور للرجاء، لو وزنا ما رجح أحدهما على الآخر بمثقال ذرة»[2].

التعاليم:

١ ـ حتى المجتمع الصالح معرّض للهزّات والأخطار، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ... بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾.

٢ ـ الثوّار المصلحون ليسوا في غنىً عن الدعاء والتضرّع، ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا...﴾.

---

(١) الكافي، ج ٨، ص٥٨. (٢) تفسير «الاثني عشري».

٣ ـ لا تفسدوا الأرض العامرة، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

٤ ـ ينبغي للإنسان أن يتوسط منطقتي الخوف والرجاء. يطلق الله تبارك وتعالى على هذا الاعتدال لفظ «الإحسان»، ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٥ ـ سيرة المحسنين ونهجهم هو الإعراض عن الفساد، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا... قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٦ ـ الإحسان مقدّمة لاستجلاب الرحمة الإلٰهيّة، فلا يتوقّع المرء نزول الرحمة بدونه، ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، إذن، الدعاء يُستجاب حين يُقرن بالإحسان.

٧ ـ الإحسان هو الاستغاثة بالحقّ تعالى وتجنّب الفساد، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا... وَادْعُوهُ... قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

إشارات:

- في الآيات القليلة الماضية مرّت إشارات عدّة إلى موضوع معرفة الله وتوحيده وعبادته، وتستكمل هذه الآية البحث لتقف عند المبدأ والمعاد وتستدلّ لكلّ منهما ببراهين من أسرار الكون ونظام الخلق.
- **«أَقلّت»** و**«أقللت»** أي وجدته قليل المحمل، وفي ذلك دلالة على أنّ الرياح قوية لدرجة أنّها تحمل السحاب الثقيل المحمّل بالماء إلى المناطق الأخرى بسهولة ويسر.

التعاليم:

١ ـ على الرغم من التعقيد والدقّة التي تشوب قوانين الطبيعة، إلّا أنّها جميعاً رهن إشارة الخالق تبارك وتعالى وتأتمر بأمره؛ لذا لا ينبغي للإنسان أن يغفل مبدأ الوجود، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾. (يجب أن لا نغرق في دوامة المعادلات العلمية والقوانين المادّية، وننسى أنّ حركة الرياح وتوجيهها، وهطول المطر، وإنبات النبات... هو بتدبير الله تعالى).

٢ ـ منكرو المعاد يفتقرون إلى البراهين التي تعضد حجّتهم، ولا يعرفون شيئاً سوى الإنكار. ولدحض هذا الإنكار يكفي عرض بعض الأمثلة من الحياة الطبيعية، من قبيل كيف تتركّب وتجتمع المواد المؤلّفة للكمثرى (الإجاص)، والتفاح، والرمان وهي المبعثرة في التربة، لنبرهن على إمكان تجميع ذرّات الموتى من جديد، ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

٣ ـ الموت لا يعني الفناء والعدم، بل الانتقال من حالة إلى أخرى، كما هو الحال مع الأرض الميتة فهي ليست أرضاً فانية، ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ... فَأَخْرَجْنَا... كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

إشارات:

- «النّكد»، هو العسر الممتنع من إعطاء الخير، «نبات نكد» هي الأرض السبخة التي لا تخرج منها البركة.
- إذا نظرنا إلى الآية الكريمة من زاوية أوسع، سنجد أنّ أحد الأمثلة عن الأرض الطيبة التي تطرح محصولاً طيباً هي الأسرة السليمة.
- لا شكّ في أنّ آيات القرآن الكريم هي أشبه بشآبيب الرحمة التي تستقرّ قطراتها عند التلاوة على القلوب المتطلّعة للهداية، فتزهر معرفة، ومحبة، وإيماناً وسعياً متواصلاً. في حين لا تزيد أهل الضلال إلّا لجاجاً وعداوة، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1].
- عن النبي الكريم ﷺ: «**إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً وَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ فَقَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ وَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا**

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

وَزَرَعُوا وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنهَا أُخرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[1]؛ إذن، القلب الطيّب هو أشبه بالأرض الطيبة فيما القلب الخبيث هو كالأرض السبخة الخبيثة التي لا تثمر.

التعاليم:

١ ـ السعادة لا تتحقّق بنزول الرحمة فقط، بل يجب توافر المتلقّي الذي يحمل الاستعداد والقابلية، ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾.

٢ ـ صحيح أنّ نظام الطبيعة يقوم على قوانين خاصّة، غير أنّ ذلك كلّه لا يتمّ إلّا بإرادة الله تبارك وتعالى وبإذنه، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾.

٣ ـ تنبيه واحد لا يكفي، ومثله التنبيهات النمطية المتكرّرة فهي غير منتجة، إذن، يجب أن تتّسم أساليب الدعوة والإرشاد بالتنوّع لتحقّق النتيجة المرجوّة، ﴿نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾.

٤ ـ نعم، القرآن الكريم هو مشعل هداية للجميع، ولكن وحدهم الشاكرون الذين يستنيرون بهذا المشعل ويغترفون من بركاته، ﴿نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾

إشارات:

□ إنّ مثال «**البلد الخبيث**» المطروح في الآية السابقة هو إشارة إلى قوم نوح عليه السلام لم يألُ نبيّهم جهداً في دعوتهم إلى الإيمان بالله ولكن من دون نتيجة. ويُشار إلى أنّ قصة النبي نوحاً عليه السلام قد وردت في السور الكريمة: نوح، الصافّات، الإسراء، الأحزاب، يونس، المؤمنون والقمر.

---

(١) بحار الأنوار، ج ١، ص ١٨٤.

- لا يخلو «**الخوف**» من بعد إيجابي، في حين أنّ «**الجُبن**» هو شعور مذموم وسلبي بالخوف؛ إذ إنّه ناجم عن استصغار الذات واحتقارها. ويتولّد الخوف، في بعض الأحيان، من نظرة واقعية وواعية حيال الأخطار المحدقة.
- عن رسول الله ﷺ: «**أوّل نبيّ أُرسل نوح**»[1]. كانت دعوة النبي نوح عالمية، لأنّ قومه كانوا يشكّلون كلّ سكّان الأرض في تلك الحقبة، يدلّ على ذلك دعاؤه على جميع كفّار الأرض، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[2]، فقد غمر الطوفان جميع سكّان المعمورة.
- لقد استمرّ النبي نوح عليه السلام في دعوة قومه إلى التوحيد ٩٥٠ سنة، ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[3] فلم يؤمنوا بدعوته، بل كانوا يزدادون في كلّ يوم بعداً وفراراً من نوح ودعوته، ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾[4]. كان قومه يخنقونه حتى تترقى عيناه، وكان يُضرب ضرباً مبرّحاً حتى يسقط على الأرض مغميّاً عليه، وَرُوِيَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[5].

التعاليم:

١ ـ رسالة النبي نوح عليه السلام كانت رسالة عالمية، إلّا أنّه شرع بقومه أوّلاً، ﴿يَٰقَوْمِ﴾.

٢ ـ الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله تبارك وتعالى، هي منطلق دعوة الأنبياء، ومن المشتركات التي تتّفق عليها جميع الأديان الإلٰهيّة، ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٣ ـ سبب عبادة الله وحده هو وحدانيته تعالى وعدم وجود شريك له، ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

٤ ـ معرفة الله تعالى والإيمان به كانت قائمة منذ البداية واستمرّت على مرّ التاريخ. (فالنبي نوح عليه السلام عاش قبل الأنبياء إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، ويقول لقومه: اعبدوا الله، وفي هذا إشارة إلى أنّهم كانوا يعرفون الله تعالى). ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

---

(١) تفسير الدرّ المنثور.
(٢) سورة نوح: الآية ٢٦.
(٣) سورة العنكبوت: الآية ١٤.
(٤) سورة نوح: الآية ٦.
(٥) بحار الأنوار؛ ج٢٠، ص٢١.

٥ ـ الأنبياء هم الأحرص على البشرية، ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾.

٦ ـ طبقة الأشراف والملأ هم الذين كانوا يتصدّون لدعوات الأنبياء على مرّ التاريخ؛ إذ كان بريق أموالهم يُبهر عيون قومهم، وجبروت سطوتهم يزرع الرهبة في نفوسهم، ﴿ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾.

٧ ـ أقبح من عدم الإيمان، رمي الأنبياء بالضلالة، ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ولا عجب في ذلك، فعندما تُمسخ فطرة الإنسان، سيرى كلّ هادٍ ضالّاً. في عصرنا أيضاً توجد فئة ترى نفسها متنوّرة، وأتباع النبي رجعيين وسذّجاً.

٨ ـ من ينهض لإقامة نظام التوحيد واقتلاع نظام الشرك يجب أن يتوقّع أنواع الإساءات والافتراءات، ﴿لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

٩ ـ الأعداء جادّون في إلقاء التّهم، ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

إشارات:

□ «النُّصح»، يعني الخلوص والخلوّ عن الغشّ وعن الشيء الدخيل، لهذا يقال للعسل الخالص: ناصح العسل، ثمّ أطلقت اللفظة على الكلام الصادر عن سلامة نية، وبقصد الخير، ومن دون خداع ومكر.

التعاليم:

١ ـ لنتحلَّ بالصبر في قبال إساءات الجهلة، ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ إنّه أوّل نبي من أولي العزم، ردّ على افتراءات قومه عليه بالضلال بأرقّ أسلوب.

٢ ـ رسالة الأنبياء تصبّ في مجال تربية البشر، وهي من شؤون الربوبيّة الإلٰهيّة، ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٣ ـ بخلاف العقائد الباطلة التي كانت تؤمن بوجود إله لكلّ شيء، يدعو القرآن الكريم إلى الإيمان بوجود إله واحد لكلّ الكون، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٤ ـ أنبياء الله معصومون، ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾.

٥ ـ يجب على المعلّم والداعية أن يكونا من الخيّرين والمخلصين، وفي الوقت نفسه أن يحظوا بنصيب من العلم والمعرفة الكافية، ﴿وَأَنصَحُ... وَأَعْلَمُ﴾.

٦ ـ حرص النبي وحبّه الخيرَ هو من أجل المصلحة العامة للناس لا مصلحته الشخصيّة، ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾.

٧ ـ يؤمن الأنبياء بأنّ الله تبارك وتعالى هو مصدر جميع علومهم ومعارفهم، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾.

٨ ـ يملك الأنبياء من الله علوماً ومعارف يعجز البشر عن الوصول إليها، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ أحياناً تكون المعاصرة حائلاً أمام الإنسان للقبول بالحقّ والمنطق السليم، ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾؛ فقد قال قوم نوح: لماذا ينزل الوحي عليه من دوننا؟ إنّه مثلنا ولا يتميّز علينا بشيء.

٢ ـ الغاية من نزول الوحي هي تربية الإنسان، ﴿جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٣ ـ يجب علينا دائماً أن نحتفظ بالمعارف الإلْهيّة في ضمائرنا، ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٤ ـ الأنبياء من الناس ومعهم، ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾.

٥ ـ يمكن تلخيص الحكمة من البعثة والنبوة ومراحلهما في النقاط الآتية:

أ) تقديم النُّذُر، ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾.

ب) خلق المناعة والتقوى، ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾.

ج) استنزال الألطاف والرحمة الإلْهيّة، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

٦ ـ التقوى مدعاة لنزول الرحمة الإلْهيّة، ﴿وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

إشارات:

- «عَمين» جمع «عَمي»، وهو يطلق عادة على من تعطّلت بصيرته الباطنية، ولكن الأعمى يطلق على من فقد بصره الظاهري، وكذلك يطلق على من فقد بصيرته الباطنية أيضاً[1].

- عَنْ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ صَالِحِ الْهَرَوِيِّ عَنِ الرِّضَا عليه السلام قَالَ قُلْتُ لَهُ لِأَيِّ عِلَّةٍ أَغْرَقَ اللَّهُ عزّ وجلّ الدُّنْيَا كُلَّهَا فِي زَمَنِ نُوحٍ عليه السلام وَفِيهِمُ الْأَطْفَالُ وَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ فَقَالَ مَا كَانَ فِيهِمُ الْأَطْفَالُ لِأَنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ أَعْقَمَ أَصْلَابَ قَوْمِ نُوحٍ وَأَرْحَامَ نِسَائِهِمْ أَرْبَعِينَ عَاماً فَانْقَطَعَ نَسْلُهُمْ فَغَرِقُوا وَلَا طِفْلَ فِيهِمْ مَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى لِيُهْلِكَ بِعَذَابِهِ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ وَأَمَّا الْبَاقُونَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ عليه السلام فَأُغْرِقُوا لِتَكْذِيبِهِمْ لِنَبِيِّ اللَّهِ نُوحٍ عليه السلام وَسَائِرُهُمْ أُغْرِقُوا بِرِضَاهُمْ تَكْذِيبَ الْمُكَذِّبِينَ وَمَنْ غَابَ عَنْ أَمْرٍ فَرَضِيَ بِهِ كَانَ كَمَنْ شَاهَدَهُ وَأَتَاه[2].

التعاليم:

١ ـ الإيمان عامل نجاة، والتكذيب سبب هلاك، ﴿فَأَنجَيْنَاهُ... وَأَغْرَقْنَا﴾.

٢ ـ الحوادث، والأسباب الطبيعية، والتحوّلات التاريخية كلّها بيد الله تبارك وتعالى، ولكن في إطار أفكار الناس، وأعمالهم، وأخلاقهم، ﴿فَأَنجَيْنَاهُ... وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

٣ ـ عماء البصيرة هو العامل الرئيس وراء تكذيب دعوة الأنبياء، ﴿عَمِينَ﴾ إذن، الإيمان والسير على هدي الأنبياء هو دليل بصيرة.

---

(١) تفسير الميزان؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) علل الشرائع، ج١، ص ٣٠.

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

إشارات:

❑ تسرد هذه السورة قصة النبي هود عليه السلام وقوم عاد، وقد جاءت بتفصيل أكبر في سورتي الشعراء وهود.

❑ سكن قوم عاد في بلاد اليمن ومنطقة الأحقاف في جنوب شبه الجزيرة، وكانوا على قدر كبير من القوة البدنية ووفرة من الخيرات الطبيعية كانت تصل إليهم عن طريق الزراعة والمواشي، لكنّهم كانوا منغمسين في الشرك وعبادة الأصنام وارتكاب الموبقات الأخلاقية. وكان هود تربطه بهم صلة قرابة، وقد بعثه الله بالنبوة إلى قومه ليدعوهم إلى التوحيد كما فعل النبي نوح عليه السلام.

التعاليم:

١ ـ الدعوة إلى التوحيد، ونبذ الشرك، وعبادة الأوثان تقع في صدر برامج الأنبياء، ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

٢ ـ الأنبياء هم قادة الإنسانيّة الأكثر تواضعاً وحرصاً، ﴿أَخَاهُمْ﴾؛ نعم، يجدر بالمعلم والداعية أن يكون أخاً للناس مشفقاً عليهم ومحبًّا لهم.

٣ ـ الإيمان بالله الواحد يجب أن يكون باعثاً على اليقظة، والطاعة، والتقوى، واجتناب التكذيب بآيات الله، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾

إشارات:

❑ يُلاحظ المرء أنّ جرأة قوم هود ووقاحتهم هي أكبر من قوم نوح، فإذا كان قوم نوح نعتوا نبيّهم بالضلال ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، فإنّ قوم هود ذهبوا إلى حدّ وصفه

بالسفه والكذب ﴿فِي سَفَاهَةٍ... مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ لقد واجه الأنبياء أقسى أنواع الحرب النفسية، والتضليل، والدعاية المنحرفة، وتحمّلوا أشكال التّهم والافتراءات الباطلة. ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ـ سَفَاهَةٍ... ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، من أجل هداية الناس وإرشادهم يجب أن نوطّن النفس على تحمّل سماع أقسى العبارات.

٢ ـ رحابة صدر الأنبياء وعظمتهم بلغت مبلغاً بحيث إنّهم على الرغم من سماعهم كلّ هذه الوقاحات إلّا أنّهم لا يتركون مخاطبة مناوئيهم بعبارة: ﴿يَٰقَوْمِ﴾.

٣ ـ لا بأس بردّ التّهمة عنّا، ولكن لا يجوز أن نلصقها بالآخرين، ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾.

٤ ـ الأنبياء لا يسمحون لأنفسهم ولو للحظة واحدة بارتكاب عمل غير معقول، ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾؛ (في اللغة العربية، حينما تأتي النكرة بعد النفي، تحمل صيغة النفي المطلق، والمعنى هنا أنّني لم أرتكب يوماً عملاً سفيهاً).

٥ ـ من آمن بهدفه وكان يتمتّع بحماية إلٰهيّة، لا شكّ أنّ ردّة فعله تجاه إساءات الآخرين ستكون واثقة ومطمئنة، ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾.

٦ ـ لا ينبغي للمعلّم أو الداعية أن يتناسى مهمّته الأصلية، ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ﴾.

٧ ـ التعاليم الإلٰهيّة التي يبشّر بها الأنبياء هي من أجل تربية الإنسان وتندرج ضمن شؤون الربوبيّة الإلٰهيّة، ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾

التعاليم:

١ ـ كلام الأنبياء وأحكامهم هي تعاليم الله ورسالاته وهم لا يأتون بشيءٍ من عندهم، ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾.

٢ ـ الأنبياء هم خريجو مدرسة التربية الإلٰهيّة، وتعاليمهم تصبّ في خانة الكمال

والتربية الإنسانية، ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾؛ لقد بذلوا غاية ما في وسعهم في سبيل الدعوة، ولم يألوا جهداً من أجل ذلك، ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾؛ وهم لا يخشون أحداً سوى الله تعالى، ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[١].

٣ ـ الحرص والأمانة شرطان أساسان في التربية والدعوة، ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

نعم، إذا لم يكن الحرص مقروناً بالأمانة، سينطوي على خطر جسيم، إذ لربّما تُغمط حقوق أو تنتهك قوانين تحت ذريعة الحرص.

٤ ـ لا يجوز للمرء أن يزكّي نفسه، أللهمّ، إلّا إذا اضطر إلى ذلك وكان فيه فائدة للآخرين[٢]، ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

إشارات:

- كان قوم عاد يتمتّعون بقوّة بدنية عظيمة لدرجة أنّهم كانوا يقولون: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[٣]؟

- «آلاء» جمع إلا أو إلى، وهي أشمل من النعم، وتضمّ النعم الظاهرة والباطنة، المادّية والمعنوية يدلّ على ذلك تكرّرها مراراً في سورة الرحمن، وقيل: إنّها قد تشمل أيضاً العذاب وجهنّم وهو من ضرورات العدل الإلٰهيّ[٤].

يقول الإمام الصادق عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾، **«أتدري ما آلاء الله»؟**، قيل: لا، قال: **«هي أعظم نعم الله على خلقه وهي ولايتنا»**[٥].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٩.

(٢) بالاستناد إلى رواية عن الصادق عليه السلام. (تفسير نور الثقلين).

(٣) سورة فصّلت: الآية ١٥.

(٤) التحقيق في كلمات القرآن.

(٥) الكافي، ج١، ص ٢١٧.

التعاليم:

١ ـ تعاليم النبي هي تعاليم الله تعالى، وهي تذكّر بالفطرة الإنسانيّة وتهدف إلى الارتقاء بالإنسان وتربيته، وهي من شؤون الربوبيّة الإلٰهيّة، ﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٢ ـ الأنبياء هم من الناس ومعهم، ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾.

٣ ـ التحوّلات التاريخية والاجتماعيّة خاضعة لإرادة الله تعالى ومشيئته، وطبقاً لسننه، ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾.

٤ ـ القدرة البدنية هي من نعم الله التي ينبغي أن توظّف في المجال الصحيح، ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ﴾.

٥ ـ سرّ الفلاح والنجاح هو ذكر آلاء الله تبارك وتعالى، ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ... لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ ذلك أنّ ذكر النعم يورث المحبة وهذه بدورها تستتبع الطاعة، والطاعة تفضي إلى الفلاح.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ اللّجوء إلى التعصّب بدلاً من المنطق أمر مذموم، وتقليد الجاهل للجاهل واتّباعه إرضاءً لصلة القربى شيء مرفوض، ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

٢ ـ المحافظة على عادات الأسلاف وتقاليدهم ليست دائماً موضع ترحيب، ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

٣ ـ التعصّب والتقليد في غير محلّه ستار يحجب الحقيقة، ويدفع بالإنسان إلى العناد، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾.

٤ ـ أحياناً تتغلّب العادة على الفطرة، كما تغلّبت عادة عبادة الأصنام لدى الأسلاف على فطرة البحث عن الحقّ والحقيقة للجيل الجديد، ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

٥ ـ في محاربتهم للخرافات والانحرافات، كان الأنبياء مجدّدين للسنن، ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾

إشارات:

□ تدلّ هذه الآية على بطلان أيّ منصب، أو لقب، أو مقام إلهي ما لم يكن بإذن الله، لا سيّما في الولاية العامة، كما هو الحال مع لقب أمير المؤمنين الذي لا يستحقّه أحد سوى الإمام علي عليه السلام، لذا فعندما خاطب أحدهم الإمام الصادق عليه السلام بلقب أمير المؤمنين، نهاه الإمام عن ذلك، وأخبره أنّ من يدّعي هذا اللقب غير عليّ عليه السلام فمحلّه جهنّم[١].

التعاليم:

١ ـ عاقبة اللجاج ومصارعة الحقّ هي العذاب الإلٰهيّ، والعار، والهلاك، ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾؛ (عدا عن أنّ اللجاج هو نوع من الدنس المعنوي).

٢ ـ الإنسان موحّد بالفطرة ويسعى إلى التوحيد، ولكن تنتابه أحياناً نوبة تعصّب فتتحكّم به، ﴿وَقَعَ عَلَيْكُم﴾.

٣ ـ العقوبات الإلٰهيّة تهدف إلى إعداد الإنسان وتربيته، وهي من شؤون الربوبيّة الإلٰهيّة، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٤ ـ لا يمكن للحجر أو الخشب أن يصبح إلهاً لمجرّد تسميته «إلهاً». (قرننا الحالي أيضاً يعاني من مشكلة الأسماء العريضة والألقاب الطنانة الخاوية)، ﴿أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾.

٥ ـ معبودات المشركين أسماء بلا مسمّيات، وفارغة من أيّ حقيقة أو مشروعية

(١) التفسير «الاثني عشري».

لم يمنحها الله سلطاناً في أيّة شريعة، ﴿أَسْمَآءٍ... مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾.

٦ ـ يجب أن تستند المعتقدات إلى الحجج والبراهين، حتى بالنسبة إلى عبدة الأوثان، ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾؛ (اسألوا أولئك الذين يتقرّبون بالأصنام إلى الله تعالى: هل من دليل على أنّ الله جعل عبادة الأصنام وسيلة للتقرّب إليه)؟!

٧ ـ كان الأنبياء واثقين من صحّة هدفهم وانتصارهم على أعدائهم، ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

إشارات:

- «دابر» في اللغة تعني آخر الشيء، و«قطع دابر»، بمعنى أبدنا هؤلاء القوم إبادة تامّة واستأصلنا شأفتهم.
- هلك قوم عاد بأن أرسل الله عليهم لسبع ليال وثمانية أيّام ريحاً عقيماً عاتية، تصمّ الآذان، وكانت صرصراً وسموماً. وقد كانت الريح شديدة لدرجة أنّها جعلتهم كجذوع النخل الساقطة على الأرض، ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ الله تبارك وتعالى يشمل برحمته الأنبياء ومن تبعهم فقط، ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾.

٢ ـ لنأخذ العبر من دروس التاريخ، ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾.

---

(١) سورة الحاقّة: الآية ٧.

٣ ـ حينما ينقطع الأمل بإيمان الناس، يكون العذاب شاملاً وتاماً، ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ... وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

إشارات:

- ورد في القرآن الكريم ذكر ناقة ثمود ٧ مرّات، وقوم ثمود ٢٦ مرّة. كما وردت إشارات إلى قصة قوم ثمود في سور الشعراء، والقمر، والشمس، وهود.
- تختلف المعجزة اختلافاً كبيراً عن الأعمال العجيبة والخارقة للبشر، ومن نقاط الاختلاف نذكر هنا على سبيل المثال:

أ) لا تحتاج المعجزة إلى تمرين، أو دراسة، أو تجربة، بينما الأعمال الخارقة بحاجة إلى كلّ هذه الأمور.

ب) تصدر المعجزة عن أناس ذوي سمعة طيبة ومعصومين، لكنّ الأعمال الخوارق قد تصدر عن أشخاص ضالّين أيضاً.

ج) الغاية من المعجزة هي إتمام الحجّة وإرشاد الناس وهدايتهم، بينما أهداف الآخرين لا تعدو كونها أهدافاً استعراضية، تصبو إلى كسب الشهرة، والمال، وتحقيق المتعة واللهو.

د) إتيان الأنبياء بالمعجزات يرتبط، بالضرورة، بالتحدّي وإثبات عجز الآخرين، في حين لا يلزم هذا الشرط بالضرورة للعباقرة، والمخترعين، والمرتاضين.

- جاء في الحديث الشريف أنّ قوم صالح سألوا نبيّهم قَالُوا يَا صَالِحُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِنْ هَذَا الْجَبَلِ السَّاعَةَ نَاقَةً حَمْرَاءَ شَقْرَاءَ وَبْرَاءَ عُشَرَاءَ بَيْنَ جَنْبَيْهَا مِيل[1].

---

(١) الكافي، ج٨، ص ١٨٦.

طبعاً تعتمد طلبات الناس من الأنبياء أحياناً على الظروف الفكرية، والاجتماعيّة، والاقتصادية للناس في ذلك العصر، ربّما لو ظهر في أيّامنا هذه نبيّ لطالبه الناس بأن يُخرج من بطن الجبل طائرة.

على أيّ حال، فإنّ هذه الناقة سمّيت بناقة الله لكونها كانت تتميّز بمواصفات إعجازية، إذ انصدع الجبل فخرجت من بطنه وهي حامل دون مزاوجة مع فحل، ووضعت حملها، فكان شربها يوماً وشربهم يوماً معلوماً، فكانت تشرب ماء القرية كلّه لتسقي جميع أهل القرية من لبنها، وهذا هو الإعجاز الذي لم يكن بوسعهم الإتيان بمثله، والحجّة الإلٰهيّة التي قابلها قوم صالح بعقر الناقة فعجّل ذلك بنزول العذاب الإلٰهيّ عليهم[1].

التعاليم:

١ ـ رسالة النبي صالح عليه السلام كانت خاصّة بقوم ثمود، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًاۚ﴾.

٢ ـ الأنبياء هم بمثابة إخوة للناس، ﴿أَخَاهُمْ﴾.

٣ ـ حبّذا اللّجوء إلى أسلوب استثارة العواطف في الدعوة والتربية، ﴿يَـٰقَوْمِ﴾.

٤ ـ الإيمان بالله قديم قدم التاريخ، ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ الأمر بعبادة الله دليل على إيمان الناس ومعرفتهم بالله.

٥ ـ دعوة الأنبياء تتمحور حول التوحيد، ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٦ ـ اتّخاذ العمل وجهة معيّنة يكون على أساس العقيدة والفكر، تقول الآية الكريمة: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ لأنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

٧ ـ أهداف الأنبياء واحدة، إذ إنّ عبارة ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، هي مقولتهم جميعاً.

٨ ـ تقديم الأنبياء البراهينَ والمعاجز يندرج في مسار تربية الناس، مضافاً إلى أنّه شأن من شؤون الربوبيّة، ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. طبعاً، لا شكّ في أنّ

---

(١) تفسير منهج الصادقين.

المعجزات جاءت أحياناً استجابة لطلب الناس، مثل شقّ القمر وناقة صالح.

٩ ـ أيّ شيء شملته العناية والألطاف الإلٰهيّة حلّت فيه القداسة، ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾.

١٠ ـ عقوبة الإساءة إلى المقدّسات وإتلافها هي العذاب الإلٰهيّ، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٧٤﴾

إشارات:

❑ «لا تعثوا» مشتقة من مادة «**عثو**» وهو الميل عن خط الاعتدال، والجنوح نحو الفساد و«لا تَعثوا» أي «لا تفسدوا»، وكلمة «**المفسدين**»، إمّا للتأكيد أو بمعنى أن لا تتّخذوا الفساد طريقاً ونهجاً، والمقصود بـ«**في الأرض**»، هي البلاد بين الحجاز والشام.

❑ سكن قوم ثمود في أرض تتوفّر على طبيعتين جغرافيّتين هما السهول والجبال، ﴿سُهُولِهَا... ٱلۡجِبَالَ﴾ وكانوا على قدر عالٍ من الثروة، والحضارة، والتمدّن، واشتهروا بفنون العمارة وبناء البيوت والقصور، ﴿قُصُورٗا... بُيُوتٗا﴾.

التعاليم:

١ ـ التحوّلات التاريخية والاجتماعيّة تخضع للقوانين والسنن الإلٰهيّة، ﴿إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾.

٢ ـ كلّ ما نملك من إمكانات في الحياة هو من فضل الله تبارك وتعالى، ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٣ ـ فلنتّعظ من سيرة الماضين، ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ... مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾.

٤ ـ بمقدور الإنسان أن يسخّر جميع الظروف الطبيعية لصالحه، ﴿سُهُولِهَا... ٱلۡجِبَالَ﴾.

٥ ـ المسكن هو من النعم الإلٰهيّة الخاصّة، ﴿قُصُورًا... بُيُوتًا... ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾.

٦ ـ الرفاهية، والمسكن، والقصر... إذا انفصلت عن ذكر الله تصبح مرتعاً للفساد، ﴿قُصُورًا... بُيُوتًا... مُفْسِدِينَ﴾.

٧ ـ إذا نظرنا إلى النعم بوصفها ودائع إلٰهيّة، وعرفنا أنّ هذه الدنيا ممرّ لا مقرّ، بلا شك سنحترز من ارتكاب الظلم والتعدّي، ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ... وَلَا تَعْثَوْاْ﴾.

٨ ـ المترفون، والأغنياء، وسكّان القصور الذين يرفلون في النعيم والرفاهية، هم أكثر حاجة إلى ذكر الله لئلا يجنحوا صوب الفساد، (لاحظ أنّ كلمة «قصر» توسّطت كلمتي «اذكروا»)[1].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾

التعاليم:

١ ـ في العادة يتّخذ المستكبرون وأصحاب النفوذ موقفاً معادياً لنهج الأنبياء، وينبرون إلى إثارة الشبهات في أوساط المؤمنين، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾.

٢ ـ لا الفقر ولا الاستضعاف قيمة وفخر، ولا الثروة والترف والأرستقراطية، بل القيمة تكمن في اختيار النهج الإلٰهيّ بوعي، وعلم، وإيمان، وتقوى، وجهاد، وهجرة. (اعتبرت الآية السابقة بناء القصور نعمة إلٰهيّة، شرط أن لا يجرّ الإنسان إلى الفساد، وهنا تثني الآية الكريمة على المؤمنين من المستضعفين وليس جميع المستضعفين)، ﴿ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾.

٣ ـ أكثر أتباع الأنبياء هم من المستضعفين، ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾.

---

(١) هذا إذا كان القصر هو بالمعنى المعروف في عصرنا الحالي، لا بمعنى البيت العادي.

٤ ـ إيمان المستضعفين بالأنبياء لا يعود إلى العامل المادّي وحده، بدليل أنّه يوجد مستضعفين لم يؤمنوا، ﴿ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾.

٥ ـ زرع بذور الشكّ والترديد هو من أساليب إضعاف الإيمان، ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾.

٦ ـ إضعاف القائد هو أحد الأساليب والأهداف الرئيسة للعدوّ، ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ﴾.

٧ ـ صحيح أنّ للبيئة والمجتمع تأثيراً على الفرد، إلّا أنّه لا يترتّب على ذلك إكراه. (لقد وقف المستضعفون المحرومون علناً بوجه المستكبرين وقالوا للنبي صالح عليه السلام: إنّنا نؤمن بك)، ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

٨ ـ شبهات المخالفين تستدعي ردّاً حازماً وقاطعاً، ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

٩ ـ يجب الإيمان بجميع وصايا النبي وتعاليمه، ﴿بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

١٠ ـ علاوة على الكفر واللجاج الذي يبديه المستكبرون، فهم يشعرون بحساسية تجاه إيمان المستضعفين. فالآية تقول: ﴿إِنَّا بِالَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، وليس: «إنّا به كافرون».

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾

إشارات:

- **«عقر»، بمعنى قطع عصب خاص خلف رجل الناقة أو الفرس هو سبب حركتها فإذا قطع سقط الحيوان، وفقد القدرة على الحركة.**

- **وقد جاءت لفظة «عَقَر» في سورة القمر في صيغة المفرد، ما يشير إلى أنّ قاتل الناقة كان شخصاً واحداً، بينما وردت هنا وفي سور الشمس والشعراء وهود في صيغة الجمع، «عقروا»، إذ ينسب عمليّة عقر الناقة إلى جميع القوم، ويعزى السبب إلى التزامهم الصمت ورضاهم بالعمل ما يجعلهم شركاء في**

الجريمة والإثم. ويؤكّد على ذلك خطبة للإمام علي عليه السلام يقول فيها: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَا وَالسُّخْطُ وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَا فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُوَارَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي الْأَرْضِ الْخَوَّارَةِ**»[١].

التعاليم:

١ ـ الكفر هو مقدّمة للعدوان، ﴿كَٰفِرُونَ فَعَقَرُواْ﴾.

٢ ـ التزام الصمت والرضى بالمعصية، بمثابة اشتراك في الجريمة. استخدمت الآية الكريمة صيغة الجمع «**عقروا**» على الرغم من أنّ القاتل هو شخص واحد.

٣ ـ العصيان والتمرّد على الأمر أعظم من قتل الناقة، ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾.

٤ ـ الأحكام الإلٰهيّة نابعة من ربوبيّة الله تبارك وتعالى، ﴿أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾.

٥ ـ التكبّر هو مقدّمة للوقاحة والصلف، ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾

إشارات:

□ تشرح الآية الكريمة هلاك قوم ثمود بالرجفة أي الزلزلة، ولكن ذكرت الآية ١٧ من سورة فصّلت، والآية ٤٤ من سورة الذاريات أنّ العذاب كان بنزول الصاعقة عليهم، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾، على هذا، ربّما وقع العذابان الصاعقة والزلزلة في لحظة واحدة وبالتزامن، أو ربّما كان المراد بالرجفة هو الرعشة التي أصابت البدن بسبب الهلع والفزع الشديد، وليس وقوع الزلزلة.

□ «**جاثم**» في الأصل مشتقة من مادة «**جَثم**» بمعنى القعود على الركب، والتوقف

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠١.

في مكان واحد، ولا يبعد أن يكون في هذا التعبير إشارة إلى أنّ الزلزلة والرجفة جاءتهم وهم في حالة نوم هنيئة، فجلسوا على أثرها فجأة، وبينما كانوا قاعدين على ركبهم لم تمهلهم الرجفة، بل ماتوا وهم على هذه الهيئة، إمّا خوفاً وإمّا بسبب انهيار الجدران عليهم، وإمّا بفعل الصاعقة التي رافقت الزلزال[1].

التعاليم:

١ ـ لنكن يقظين، فالغضب الإلهيّ ينزل بغتة، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾.

٢ ـ كم من زلازل وكوارث طبيعية كانت بمثابة عذاب إلهي، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾.

٣ ـ وعود الأنبياء سوف تتحقّق لا محالة؛ لذا علينا أن نأخذ نُذُرهم مأخذ الجدّ. (الآيات السابقة استخدمت لغة التهديد، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فجاءتهم الرجفة وكانت تنفيذاً للتهديد بنزول العذاب الأليم)، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

إشارات:

- يحتمل أن يكون كلام النبي صالح عليه السلام إلى قومه قبيل نزول العذاب، وكان لإتمام الحجّة عليهم، ولكن لا يستبعد أيضاً أن يكون بعد نزول العذاب وهلاكهم، فكثيراً ما تتمّ محادثة أرواح الموتى بمثل هذا الكلام، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ وقف على القليب وقد ألقيت فيه أجساد قتلى المشركين فناداهم بأسمائهم وكلّمهم، فقال عمر: يا رسول الله، تكلّم أجساداً لا روح فيها... فقال صلى الله عليه وآله: **«والذي نفس محمّد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»**[2].

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٠٧ و٢٥٤.

التعاليم:

١ ـ أحياناً يستوجب الأمر في مسألة التربية والدعوة اللّجوء إلى الإعراض، والخصام، وقطع العلاقة، ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾.

٢ ـ نزول العذاب الإلٰهيّ يكون بعد إتمام الحجّة، ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾.

٣ ـ يتمثّل نهج الأنبياء في إبلاغ الرسالة في إطار الرأفة وحبّ الخير، لا الإبلاغ الفظّ الشديد على طريقة إبلاغ القوانين والتعميمات الإدارية، ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ... وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾.

٤ ـ أجدر بنا أن نكنّ الحبّ للناصحين، لأنّ تجاهل نصائح المشفقين في المجتمع سيمهّد لنزول الغضب الإلٰهيّ، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

٥ ـ المحبة هي مفتاح الطاعة والاتّباع، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

إشارات:

- النبي لوط عليه السلام هو ابن أخ النبي إبراهيم عليه السلام، وكان الرجل الوحيد الذي آمن به وهاجر معه، ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾[1] أرسله النبي إبراهيم إلى قرية شاعت فيها المعاصي، والرذيلة، والفساد الجنسي، لذا، كان الجزء الأهمّ من رسالته هو محاربة الفساد والشذوذ الجنسي، الذي كان يشكّل المعضلة الأكبر في المجتمع آنذاك.

- كان قوم لوط يرتكبون الفاحشة مع ضيوفهم حتى لا يجرؤ الضيوف على دخول قريتهم. وبحسب ما جاء في القرآن الكريم فإنّ النبي لوطاً عليه السلام عرض على قومه الزواج من بناته، إلّا أنّهم رفضوا عرضه هذا.

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢٦.

□ للزواج آثار وخصائص عدّة لا يتوفّر عليها اللواط أو الزنا، نذكر منها:
١ ـ خلق المودّة، والرحمة، والأنس في الزوجين.
٢ ـ تشكيل النظام الأسري.
٣ ـ الإنجاب وبقاء النسل.
٤ ـ انسجامه مع الفطرة الإنسانية.

□ ممّا يؤسف له حقّاً أنّ البلدان الغربيّة أصبحت اليوم تعترف بالمثلية الجنسيّة بتشريع قانوني.

□ كان قوم لوط، علاوة على اللواط، يمارسون القمار، وبذاءة الكلام، والإساءة، والتحرّش الجنسي بالمارّة، وكانوا يكشفون عن عوراتهم في الطرقات والمجالس العامة[1].

□ نقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رجلاً سأله: لِمَ حرّم الله اللواط؟ فقال سلام الله عليه: «**من أجل أنّه لو كان إتيان الغلام حلالاً لاستغنى الرجال عن النساء وكان فيه قطع النسل وتعطيل الفروج وكان في إجازة ذلك فساد كبير**»[2].

□ عقوبة المثلية الجنسيّة واللواط في الإسلام الإعدام (للفاعل والمفعول).

□ يقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «**لعن الله المتشبّهين من الرجال بالنساء، والمتشبّهات من النساء بالرجال**»[3].

□ كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ الذَّكَرَ لَيَرْكَبُ الذَّكَرَ فَيَهْتَزُّ الْعَرْشُ لِذَلِكَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُؤْتَى فِي حَقَبِهِ فَيَحْبِسُهُ اللَّهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ حِسَابِ الْخَلَائِقِ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِ إِلَى جَهَنَّمَ فَيُعَذَّبُ بِطَبَقَاتِهَا طَبَقَةً طَبَقَةً حَتَّى يُرَدَّ إِلَى أَسْفَلِهَا وَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا**»[4].

التعاليم:

١ ـ المثليّة واللواط من الكبائر وعملٌ غاية في القبح، ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾.

---

(١) سفينة البحار.
(٢) وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٥٢.
(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٥٥.
(٤) المصدر نفسه؛ وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٤٩.

٢ ـ قد يقال: إنّ عذر عبدة الأصنام أنّهم كانوا يقلّدون أسلافهم، إلّا أنّ أهل الفاحشة لم يكن لديهم هذا العذر، إذ كانوا السباقين في مجال ابتداع هذه الجريمة والمعصية، ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾.

٣ ـ المبتدعون للأعمال القبيحة يرتكبون الكبائر ويستحقّون التقريع واللوم، ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾.

٤ ـ من تجاوز السبل العادية والفطرية فهو مسرف، ﴿مُّسْرِفُونَ﴾؛ وإشباع الغريزة الجنسيّة من غير الطريق الطبيعي هو إسراف.

٥ ـ اللواط هو اعتداء على حقوق المرأة في المجتمع، ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢﴾

إشارات:

□ الملاحظ أنّ تعبير «أخاهم» لم يستخدم مع النبي لوط كما حصل مع بعض الأنبياء، ولعلّ ذلك يعود إلى أنّه جاء من منطقة أخرى، يدلّ على ذلك استخدام الكفّار لتعبير «قريتكم» للإشارة إلى أنّه شخص مهاجر لا ينتمي إلى قريتهم، أو أنّه غريب عنهم لأنّه لم يقبل بعاداتهم وتقاليدهم، وعلى ذلك يجب إخراجه من القرية.

التعاليم:

١ ـ من الأمور القبيحة والمذمومة التصدّي اللامنطقي للناصحين، ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم...﴾.

٢ ـ إذا أردنا النهي عن المنكر فيجب أن نستعدّ للنفي وتحمّل الصعاب والشدائد في هذا الطريق، ﴿أَخۡرِجُوهُم﴾.

٣ ـ لا يرى المجرم للمتطهّرين حقّاً في المجتمع، ﴿أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾.

٤ ـ حينما ينتشر الفساد في المجتمع، يعمل الفاسدون على عزل المتطهّرين، ويضحي النهي عن المنكر والطهارة جريمة، ﴿أَخْرِجُوهُم... إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

٥ ـ أهمّ من الطُهر، البقاء عليه، والعمل على أن ييأس الأشرار من استخدام نفوذهم، «**يتطهّرون**» (فعل مضارع يدلّل على الاستمرارية).

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾

إشارات:

- «**غابِر**»، تقال لمن ذهب أهله وفنوا وبقي هو وحده، كما ذهبت عائلة لوط معه، وبقيت زوجته وحدها، وأصيبت بما أصيب به العصاة.
- «**الأهل**»، تقال لذوي القربى من الدائرة الضيقة، وكذلك للأتباع الخلّص، ولكن في ضوء الآية ٣٦ من سورة الذاريات، فإنّه عدا أقاربه المقرّبين، لم يؤمن أحد بالنبي لوط ﷺ.

التعاليم:

١ ـ الإنسان حرّ ومخيّر، يختار طريقه بنفسه. (فعلى الرغم من أنّ زوجة النبي لوط قد نشأت في بيت الوحي والنبوة، إلّا أنّها اختارت لنفسها طريق الكفر، بينما اختارت زوجة فرعون طريق الإيمان والتوحيد)، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ بناءً على ذلك، فإنّ الفكر، والأخلاق، واتّخاذ القرار هي أمور لا ترتبط دائماً بالعوامل الاقتصاديّة أو صلات الأفراد.

٢ ـ في الإسلام، الرابطة العقدية هي حبل النجاة وليس رابطة القرابة، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾، إذن، مصير كلّ فرد رهن بعمله.

٣ ـ يجب التمييز بين القادة الإلٰهيّين وبين ذويهم، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾.

٤ ـ ينظر الإسلام إلى المرأة ككائن مستقلّ شأنها شأن الرجل، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾، ومن ناحية ثانية، لا ينبغي أن تغطّي قداسة الفرد ومكانته على أخطاء ذويه ومعاصيهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

إشارات:

□ كان عذاب قوم لوط أن أمطرهم الله بالشهب والنيازك وأبادهم عن بكرة أبيهم، إذ يقول ﷻ في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ تحوير طريق الفطرة (بإشباع الغريزة الجنسيّة عن طريق اللواط) يستتبع تبدّل النعم. لقد نزلت من السماء شهبٌ ونيازك بدلاً من المطر، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾.

نقرأ في دعاء كميل: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تُغَيِّرُ النِّعَم**»[2].

٢ ـ العذاب الإلٰهيّ لا يختصّ بالآخرة وحدها، بل أحياناً ينزل في هذه الدنيا أيضاً، ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾.

٣ ـ لنا في مصائر الآخرين دروس وعبر، ﴿فَانظُرْ... عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

٤ ـ عذاب الله لا يختصّ بفئة من المجرمين، بل هو إنذار لكلّ المجرمين بأن لا استثناء في سنّة الله، ﴿عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

إشارات:

□ تستعرض هذه السورة فصلاً خامساً في قصص الأنبياء. إنّها قصّة شعيب عليه السلام

---

(١) سورة هود: الآيتان ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) مصباح المتهجد وسلاح المتعبد، ج٢، ص ٨٤٤.

التي وردت في عدد من السور الأخرى مثل هود والشعراء.

❑ مَديَن، هي إحدى مدن الشام، يشير موقعها الجغرافي إلى أنّها تقع على مقربة من الأردن وتسمّى اليوم مدينة معان، اشتهرت بطبيعتها الخضراء، وكان أهلها يمارسون التجارة ومنغمسين في الترف والنعيم، وساد بينهم التطفيف في المكيال والميزان والبخس في المعاملات. حتى بعث الله تبارك وتعالى إليهم النبي شعيباً عليه السلام فلم يؤمنوا بدعوته عناداً ولجاجاً، فكانت عاقبتهم أن أرسل الله إليهم عذاباً مهلكاً. بعد ذلك بُعث النبي شعيب عليه السلام إلى أصحاب «الأيكة» ليدعوهم بدعوة الإيمان والتوحيد، لكنّهم، على غرار قوم مدين، كذّبوا بآيات الله فكانت عاقبتهم الهلاك أيضاً، ﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ...﴾[1].

ثمّة احتمال بأنّ «مدين» هي نفسها «الأيكة» ذلك أنّ الأيكة تقال للأجمة أو المنطقة التي تزدحم بالنخيل والشجر الملتف؛ وبهذا تكون مدينة شعيب واحدة ولكن لها اسمين: مدين والأيكة.

❑ يكون الكافر، دائماً، عرضة للانحراف والفساد، ويتلوّن الفساد في كلّ عصر بلون خاص؛ فمثلاً في عصر النبي لوط تمثّل في اللواط والانحلال الأخلاقي، وفي عصر النبي شعيب تجلّى في صورة التطفيف، وبخس الأشياء، والفساد الاقتصادي.

التعاليم:

١ ـ تعامل النبي شعيب مع قومه كان تعاملاً مشفقاً وأخوياً، ربّما كانت تجمعه بهم صلة قرابة، ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

٢ ـ لا بدّ أن تقترن الدعوة والتربية بالعواطف والحب، ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ﴾.

٣ ـ التوحيد هو قطب الرحى في دعوة الأنبياء، ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ...﴾.

٤ ـ معاجز الأنبياء وبراهينهم تندرج في إطار كمال الإنسان وتربيته، وهي ترتبط

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ١٧٦ ـ ١٨٩.

بربوبيّة الله تبارك وتعالى، ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٥ ـ بعد الشرك والانحراف العقدي، تعتبر الانحرافات الاقتصاديّة المسألة الأخطر التي كان قوم شعيب يمارسونها، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ... فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾.

٦ ـ ممارسة التطفيف والغشّ في المعاملات وبخس الناس أشياءهم والإخلال بالاقتصاد معاملات محرّمة وهي من أمثلة الفساد، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا﴾.

٧ ـ للأنبياء إحاطة بالقضايا الاقتصاديّة للمجتمع، لأنّ هدفهم سلامة المجتمع والارتقاء بمستوى معيشة أفراده، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ لا ينفصل الدين وبرامجه عن الحياة الدنيا.

٨ ـ التلكؤ في العمل كالتطفيف، لاحظ أنّ الآية الكريمة لم تقل «**أموالهم**» بل ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ لتشمل كلّ شيء.

٩ ـ الإيمان الكامل والاقتصاد السليم المعافى، هما الضمانة لتحقيق سعادة الدنيا والآخرة، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ﴾.

١٠ ـ نُذُر الأنبياء وتعاليمهم، تفيض بالخير وتوجب السعادة للإنسان، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ﴾.

١١ ـ الإيمان ضمانة العمل والكسب الصحيح وتحقيق العدالة الاجتماعية، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ... إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

إشارات:

- ربّما كان المراد بالجلوس في الطرقات، القعود في الطرقات والأزقّة لإثارة الفتن، وقيل: المراد القعود على طرق الدين ومنع من أراد سلوكها من أيّ باب وبأيّ أسلوب، ويؤيّد هذا الرأي ما جاء في الآية ١٦ عندما أقسم الشيطان

أن يكمن للإنسان ليضلّه عن طريق الحقّ، ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، لذا فليس المراد به القعود على الطرق حقيقة.

التعاليم:

١ ـ أعداء الحقّ ينصبون الكمائن للناس ليصدّوهم عن سبيل الله، ويتوسّلون كلّ طريقة ووسيلة، ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾.

٢ ـ إرهاب الناس، والتحرّش، وقطع الطرق حرام، ﴿تُوعِدُونَ﴾.

٣ ـ يحاول الأعداء تحريف ملامح الدين وتشويهها، ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

٤ ـ أحياناً تكون زيادة النسل قيمة (إذا اقترنت بالتخطيط والدقة)، ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾.

٥ ـ أحد عوامل تربية الناس وهدايتهم تأمّل نعم الأسلاف واستذكار ما آلت إليه مصائرهم، ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟﴾.

٦ ـ يوصي الله تبارك وتعالى بدراسة التاريخ وأخذ العبر من وقائعه، ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ...﴾.

٧ ـ عندما تطالع حياة الناس، تأمّل عاقبة أعمالهم، وليس فقط نعيمهم وترفهم المؤقّت، ﴿عَٰقِبَةُ﴾.

٨ ـ الصدّ عن سبيل الله وتحريفه، أحد أنواع الفساد، ﴿وَتَصُدُّونَ... عِوَجًا... ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

إشارات:

❑ كان معارضو شعيب يقولون بجرأة ووقاحة: أين العذاب الذي وعدتنا به. وفي المقابل كان أتباع شعيب من المؤمنين ينتظرون نزول المدد الإلٰهيّ. لذا فالآية الكريمة هي جواب لكلا الفريقين، لئلّا يغترّ الكفّار بكفرهم، أو ييأس المؤمنين من رحمة الله.

التعاليم:

١ ـ مسؤولية النبي إبلاغ أحكام الدين والتعاليم الإلهيّة، ﴿أُرْسِلْتُ﴾ والناس أحرار في قبول الدعوة أو ردّها، ﴿طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ... وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾.

٢ ـ من شروط مدرسة الأنبياء الإيمان بهدفهم ونهجهم، ﴿أُرْسِلْتُ﴾ بمعنى الإيمان بما جاؤوا من أجله.

٣ ـ تجب دراسة تاريخ فريقي الحقّ والباطل في ضوء مآل كلّ منهما، ﴿فَاصْبِرُواْ﴾.

٤ ـ لا يفزع المرء من نزوع فريق من الناس إلى الكفر، فالله هو الحكم، ﴿فَاصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾.

٥ ـ من علم أنّ الله خير وأقوى حكم فسيصبر، ولن يستعجل العذاب أو الثواب، ﴿فَاصْبِرُواْ... وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، كما إنّه لن يخشى حكم الآخرين.

الجزء (٩)

﴿۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾

إشارات:

□ لقد مورس التعسّف والتهديد بالنفي تقريباً مع كلّ الأنبياء، إذ نقرأ في آية أخـــــرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[(١)].

□ لم يكن أحد من الأنبياء قبل اصطفائه للرسالة مشركاً أو عابد صنم؛ ولكن كان تعاملهم مع المشركين برفق ولين. لكنّهم بعد الرسالة، أخذوا يهدون الناس بعزم وإرادة أقوى، ويتصدّون للمشركين، من هنا نجد أنّ خطاب ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ موجّه إلى أتباع الأنبياء لا إلى الأنبياء أنفسهم[(٢)].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ١٣.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

التعاليم:

١ ـ الملأ المستكبرون (علّية القوم) كانوا أعداء الأنبياء، ﴿ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟... لَنُخْرِجَنَّكَ﴾.

٢ ـ الاستدلال والمنطق هو نهج الأنبياء، ﴿جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾[1]، بينما نهج الكفّار هو التهديد والطغيان، ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾.

٣ ـ على الدعاة أن لا يخشوا تهديدات المعارضين؛ لأنّ طريق الدعوة محفوف دائماً بالتهديد، والقتل، والنفي، ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾.

٤ ـ فرض العقائد هو أسلوب الكفّار، ولا خير في اعتناق الدين بالإكراه، ﴿لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا... كَٰرِهِينَ﴾.

٥ ـ ينبغي الأدب والخطاب الليّن والحكيم في التصدّي لجهل الكفّار، ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾.

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

إشارات:

- الملة كالدين، اسم لما شرّع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله، والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاف إلّا إلى النبي عليه الصلاة والسلام الذي تسند إليه[2]، ونقرأ في آية أخرى ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾[3].

- «الفتح»، هنا جاءت بمعنى القضاء والحكم لفتح الطريق، والمقصود أنّ الكلمة الفصل هي لله تبارك وتعالى والتي تفتح الطريق المسدود.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٨٥.

(٢) مفردات الراغب، مادّة «ملل».

(٣) سورة الحج: الآية ٧٨.

□ لم يكن تصديق أتباع شعيب عليه السلام بدعوته ناجماً عن هوى أو نزوة بل عن بيّنة واستدلال؛ ولذلك فهم متمسّكون بدينهم ولن يتخلّوا عنه إلّا أن يأمر الله تبارك وتعالى بذلك. وهيهات أن يأمر سبحانه بالعودة إلى الشرك والكفر؛ لأنّ الذي يعود عن قراره، عادةً، يفعل ذلك بسبب ندمه عليه، والله ليس كذلك أبداً.

التعاليم:

١ ـ إنّ الارتداد والعودة عن أهداف الحقّ وعقائده والقبول بشريك لله تعالى هو نوع من الافتراء على الله ونقض لعهده، ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا... وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ﴾.

٢ ـ الشرك أسر وقيد، والتوحيد نجاة، ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

٣ ـ لا يجوز للمؤمن أن يجنح عن طريق الحقّ ويساوم على عقائده أبداً، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ...﴾. (لا يجوز الرجوع إلى الوراء، وليس التساهل أو التسامح فضيلة أو قيمة في جميع الأحوال).

٤ ـ الهداية والضلال يقعان في دائرة الإرادة الإلٰهيّة، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٥ ـ سبب التسليم لله تعالى والإذعان لربوبيّته هو علمه اللامتناهي، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ... وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

٦ ـ سبب توكّلنا على الله كذلك هو علمه المطلق الذي يحيط بكلّ شيء، ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

٧ ـ فلنستعن بالله تبارك وتعالى ونتوكّل عليه من أجل أن يثبّت قلوبنا على الإيمان، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ... عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

٨ ـ يجب التصدّي بحزم لعروض الأعداء المشبوهة وبعد التوكّل على الله تبارك وتعالى، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ... تَوَكَّلْنَا﴾.

٩ ـ الإنابة إلى الله مثال التوكّل عليه سبحانه والتسليم له، ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ...﴾.

١٠ ـ من الضروري مراعاة التناسب بين الطلبات وبين الأسماء الإلٰهيّة عند الدعاء. فعندما يكون الطلب تحقيق الفتح، من الأنسب أن ندعو الله بخير الفاتحين، ﴿ٱفْتَحْ... وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾.

١١ ـ من مستلزمات التحكيم العادل والسليم العلم والمعرفة الشاملة. التحكيم استحقاق لمن يعرف كلّ شيء، ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا... رَبَّنَا افْتَحْ﴾.

١٢ ـ القضاء والتحكيم شأن من شؤون الربوبيّة الإلهيّة، ﴿رَبَّنَا افْتَحْ﴾.

١٣ ـ هدف الأنبياء إعلاء كلمة الحق لا كلمتهم هم، ﴿افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾

إشارات:

- جاء في شأن قوم شعيب ـ في الآية الحاضرة ـ أنّ هلاكهم كان «بالزلزال» وفي الآية ٩٤ من سورة هود أنّه **«صيحة سماوية»** وفي الآية ١٨٩ من سورة الشعراء أنّه **«ظلّة من السحاب القاتل»** وتعود كلّها إلى موضوع واحد وهو أنّ العذاب المهلك كان صاعقة سماوية مخيفة اندلعت من قلب السحب الكثيفة المظلمة، واستهدفت مدينتهم، وعلى أثرها حدث زلزال شديد (هو خاصيّة الصواعق العظيمة) ودمّر كلّ شيء[1]. وربّما أمكن تفسير **«الرجفة»** بأنّها الاضطراب أو الرعشة التي أصابت الناس جراء الفزع والهلع الشديد، وليس المقصود بها الزلزال.
- مرّ في الآية ٧٨ من هذه السورة، أنّ «جاثماً» تعني القعود على الركب، والتوقّف في مكان واحد، وفقدان القدرة على الوقوف.

التعاليم:

١ ـ في العادة، كان وجهاء الأقوام معارضين للأنبياء، ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ﴾.

٢ ـ اللّجوء إلى التهديدات المادّية والاقتصادية من أساليب الكفّار في صدّ الناس عن اتّباع الأنبياء، (حينما يوقنون بأنّهم لن يتزحزحوا عن إيمانهم)، ﴿إِنَّكُمْ إِذًا

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

لَّخَٰسِرُونَ﴾. فالكفّار يرون في حرمانهم من التطفيف ومن الدخل الذي كان يدرّ عليهم، خسارة.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٢﴾

إشارات:

- «يَغنَوا» مشتقة من «غنى»، وتعني الإقامة في المكان، ولا يبعد أن يكون المفهوم الأصلي للغنى هو عدم الحاجة، لأنّ من كان عنده منزل حاضر، فهو مستغن عن منزل آخر.
- الخسران الكبير سيكون من نصيب المشركين الذين اختاروا الشرك بالله على التوحيد، واتّبعوا الآخرين بدلاً من القائد المعصوم. لذلك، فقد عاقبهم الله بخراب بيوتهم بدلاً من العيش الآمن، والدخول في جهنّم بدلاً من الجنّة، وبالغضب الإلٰهيّ بدلاً من رضوانه ومغفرته.

التعاليم:

١ ـ لنتّعظ من المصير الأسود للكفّار، ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا﴾.

٢ ـ خداع أهل الباطل، هواء في شبك، ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾؛ (كان الكفّار يرومون طرد شعيب من قريتهم، فأهلكهم الله في ديارهم).

٣ ـ عندما تحين ساعة الغضب الإلٰهيّ، سوف يتبيّن من هو الخاسر الحقيقي، ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ (في الآية السابقة، اعتبر الكفّار أن اتّباع شعيب هو الخسران المبين، وهنا يقول الله ﷻ: ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾

التعاليم:

١ ـ العذاب الإلٰهيّ يأتي بعد إتمام الحجّة، ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ... أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾.

٢ ـ للموعظة، والمداراة، ومراعاة الناس حدود، إذ تقتضي الضرورة، أحياناً، الإعراض عنهم، ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾.

٣ ـ لا بدّ أن تكون الدعوة في إطار المحبة والحرص، ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ﴾.

٤ ـ لا تخلط بين المواعظ وحبّ الخير وبين المصالح الشخصيّة، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾.

٥ ـ ما دمنا نؤدّي واجبنا، فلا نقلق لما سيحدث، ﴿أُبَلِّغُكُمْ... فَكَيْفَ آسَىٰ﴾.

٦ ـ لا يجوز إبداء الأسى والعطف في غير محلّهما، ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ﴾.

(وقد ورد في آيات أخرى خطاب للنبي الكريم ﷺ بعبارة: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾[1].

٧ ـ حين تسود روح الكفر، واللجاج، والعناد، لا يتبقّى لمواعظ الأنبياء أيّ تأثير، ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾

إشارات:

□ «البأساء»، تقال للحوادث والمكاره التي تصيب الجسم من قبيل المرض والموت، أمّا «الضراء» فتطلق على الأضرار والخسائر المالية.

التعاليم:

١ ـ الشدائد والصعاب، هي سنّة إلٰهيّة سارية على جميع الأمم، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا...﴾.

٢ ـ الصعاب والمشاكل مدعاة لتهذيب النفس وذكر الله وطرد الغفلة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٨٨؛ سورة النحل: الآية ١٢٧؛ سورة النمل: الآية ٧٠.

٣ ـ الشدائد ليست دائماً علامة على غضب الله تعالى؛ أحياناً يكون اللطف مؤطّراً بالبلاء، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾؛ (كما إنّ النار تعمل على صهر الحديد وتطويعه ليتّخذ الشكل المطلوب، كذلك هي المصائب والشدائد تعمل على تطويع الإنسان وتليينه وتسوقه صوب حالة التضرّع والدعاء).

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

إشارات:

- «عَفَوا» من مادة «عفو»، التي تكون أحياناً بمعنى كثرة المال والأبناء، وأحياناً بمعنى الترك والإعراض. لقد أفاض الله تبارك وتعالى على هؤلاء من لطفه الوفير، لكنّهم لم ينتبهوا من غفلتهم ولم يرعووا أو يتّعظوا. ورد نظير هذا المضمون في الآية ٤٤ من سورة الأنعام ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾. مثل المريض الذي ييأس الطبيب من شفائه، فيقول: فليأكل ما اشتهى من الطعام، فلا فرق، لأنّه لا أمل يُرجى منه.

- قد يكون للآية الكريمة تفسير آخر من قبيل: بعد رفع البلاء قال الجيل اللّاحق: المكاره والبلايا كانت لآبائنا، فنحن في مأمن منها[1]. متناسين أنّ سنّة الله تعالى تقضي باختبار جميع الأجيال بالبلاء، وهذا النمط من الغفلة يفتح الباب أمام العذاب الإلٰهيّ.

التعاليم:

١ ـ أحياناً يكون الترف، والمعرفة، والتحليلات المغلوطة عوامل للنسيان والطغيان، ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ﴾.

---

(١) ترجمة القرآن الكريم، إلهى قمشه اى.

٢ ـ ليس كلّ ترف أو رفاهية دليلاً على اللطف الإلٰهيّ، فأحياناً يكون ذلك تمهيداً لنزول العذاب الإلٰهيّ، ﴿حَتَّىٰ عَفَوا... فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾.

٣ ـ معظم الراسبين في الامتحانات الإلٰهيّة هم من المترفين لا المحرومين، ﴿حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا...﴾.

٤ ـ العذاب الإلٰهيّ يأتي، أحياناً، بغتة دون سابق إنذار، ﴿بَغْتَةً﴾.

٥ ـ التعلّق بحبائل الدنيا والغفلة عن ذكر الله تبارك وتعالى، تضطرّ الإنسان إلى عذاب مباغت ومفاجئ، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾

إشارات:

□ **«بركات»** جمع **«بركة»**، تعني في الأصل الثبات والاستقرار، وتطلق على كلّ نعمة وموهبة دائمة لا تزول، وذلك في مقابل الموجودات العارية عن البركة، وسريعة الفناء والزوال والخالية من الأثر. وينطوي معنى «البركة»، على الوفرة والخير والنماء. وتشمل البركات المادّية والمعنوية معاً مثل بركة العمر، والأموال، والعلم، والكتاب، و... إلخ.

□ **سؤال**: إذا كان الإيمان والتقوى سبب نزول البركات، إذن، لماذا ترفل الدول غير المؤمنة في الرخاء وأوضاع أفضل، فيما تعاني البلدان الإسلاميّة عسراً ومعضلات لا حصر لها؟

الجواب: أوّلاً: لا شكّ في أنّ تلك الدول أحرزت تقدّماً هائلاً على الصعيد العلمي والصناعي، إلّا أنّها غارقة في حالة ممضّة من عدم الاستقرار الروحي والنفسي. إذن، لا يمكن القول إنّها لا تعاني مشاكل وأزمات.

ثانياً: إنّ معظم البلدان الإسلاميّة لا تحمل من الإسلام إلّا اسمه، لأنّها تركت تعاليمه وإرشاداته وراء ظهورها.

وزيادة على ذلك، فإنّ الرخاء المادّي، يعدّ، أحياناً، نوعاً من العذاب والاستدراج الإلٰهيّ، كما يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾(١).

□ ثمّة نوعان من الفتح في القرآن الكريم لفئتين من الناس:

أ) الرخاء والفتح للأخيار والذي يكون مقترناً بالبركات، ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ﴾.

ب) الرخاء والفتح للكفّار والأشرار الذي يفتقد إلى البركة ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فكم من نعمة كانت سبباً في الغفلة والغرور والطغيان. فالله تبارك وتعالى يغدق على الكفّار بالفتح والرفاهية لتكون وسيلة لإمهالهم ولتطفح كؤوس معاصيهم وآثامهم. بناءً على ذلك فليست كلّ نعمة ظاهرية دليل سلامة وعافية ينبغي أن نُسرّ بها، لأنّها إن كانت للمؤمن فهي خير وبركة، وإن كانت للكافر فهي زائلة علاوة على كونها تمهيداً لنزول العذاب الإلٰهيّ.

□ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ يَسْأَلُ اللَّهَ الْحَاجَةَ فَيَكُونُ مِنْ شَأْنِهِ قَضَاؤُهَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ أَوْ إِلَى وَقْتٍ بَطِيءٍ فَيُذْنِبُ الْعَبْدُ ذَنْباً فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى لِلْمَلَكِ لَا تَقْضِ حَاجَتَهُ وَ احْرِمْهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ تَعَرَّضَ لِسَخَطِي وَ اسْتَوْجَبَ الْحِرْمَانَ مِنِّي»(٢).

□ من الأمثلة البارزة على هذه الآية عصر ظهور الإمام المهدي عليه السلام، حيث بحسب بعض الروايات سوف تفيض البركات في ذلك الزمان من السماء والأرض(٣).

التعاليم:

١ ـ الإيمان وحده لا يكفي، بل تلزمه التقوى، ﴿ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ﴾.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٤٤.
(٢) الكافي، ج٢، ص٢٧١.
(٣) تفسير نور الثقلين.

٢ ـ الاستثمار في مجال الثقافة والقيم الروحية للمجتمع، يحمل مردوداً اقتصادياً أيضاً، ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ﴾.

٣ ـ لنأخذ الوعيد الإلٰهيّ مأخذ الجدّ. بالإيمان والتقوى يكون نزول البركات حتمياً، (بدليل لام التوكيد الذي دخل على الفعل في ﴿لَفَتَحْنَا﴾).

٤ ـ الغلق والفتح بيد الله تعالى، ﴿لَفَتَحْنَا﴾ لكنّهما انعكاس لأعمالنا.

٥ ـ الأديان السماوية تسعى إلى تحسين الأوضاع الاقتصاديّة للناس، ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾.

٦ ـ ما تنزل علينا من بركات هي، في الحقيقة، جانب من البركات الإلٰهيّة، ﴿بَرَكَٰتٍ﴾، (لفظة «بركات» جاءت في صيغة التنكير، وهذا يعني أنّها تشمل جميع أنواع البركات).

٧ ـ الأرض والسماء منبع البركات، ﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٨ ـ الإيمان والتقوى مفتاح نزول البركات، ولكن ليست كلّ نعمة ورخاء مسبّبة عن الإيمان والتقوى، ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ... بَرَكَٰتٍ﴾.

٩ ـ أعمالنا هي سبب الحرمان والمشاكل التي نواجهها، ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

١٠ ـ اللجاج والإصرار على المعصية، سبب العذاب الإلٰهيّ، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

إشارات:

□ «المكر»، في لغة العرب يعني كلّ حيلة ووسيلة لصرف الشخص عن الهدف الذي يمضي إليه سواء أكان حقّاً أم باطلاً، وقد أخذ في مفهوم هذه اللغة نوع من التدرّج والنفوذ التدريجي. وعلى هذا، فالمراد من المكر الإلٰهيّ هو أنّ الله تعالى يصرفهم بخططه المحكمة التي لا تقهر عن حياة الرفاهية واللّذة دون

اختيارهم ويقطعها عليهم، وهذه إشارة إلى العقوبات الإلٰهيّة الفجائية والمهلكة.

- حتى النبي الكريم ﷺ والأئمة المعصومون عليهم السلام لم يكونوا يجدون أنفسهم في مأمن من مكر الله؛ لذلك كانوا دوماً يحتاطون لأعمالهم لئلا يصدر منهم خطأ أو زلّة، وفي هذا يقول الرسول الكريم ﷺ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[1].
- يقول الراوي: صلّيت خلف أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام، فسمعته يقول: **«اللهم لا تؤمنّي مكرك»**، ثمّ جهر فقال: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[2].
- ويقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: **«لا تأمننّ على خير هذه الأمّة عذاب الله لقول الله سبحانه وتعالى ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾**[3].
- إنّ عدم الأمن من المكر الإلٰهيّ، في الحقيقة، يعني الخوف من المسؤوليات والخوف من التقصير في أدائها.

التعاليم:

١ ـ احتمال وقوع الخطر كافٍ من أجل الشعور بالمسؤولية، ﴿أَفَأَمِنَ...﴾.

٢ ـ لا يغرّنا سكون النظام وهدوؤه، وينبغي أن لا نأمن على أنفسنا أبداً، ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ...﴾، فالعذاب لا يختصّ بالأمم السالفة فحسب، بل إنّه سنّة إلٰهيّة تشمل جميع الأمم في كلّ الأعصار.

٣ ـ إنّ الله تبارك وتعالى قادر، إذا شاء، على أن ينزل العذاب في وقت لا تنفع معها حيلة ليهلك الجميع ليلاً، ﴿بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾.

٤ ـ الهدف من الاهتمام وعدم الغفلة هو بيان احتمال وقوع الخطر، ﴿أَفَأَمِنَ... أَوَأَمِنَ﴾.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥.
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
(٣) نهج البلاغة، الحكمة ٣٧٧.

٥ ـ اللهو في غير محلّه، مدعاة لنزول العذاب الإلهيّ، ﴿يَلْعَبُونَ﴾.

٦ ـ الحياة من دون إيمان وتقوى، لعب ولهو ليس إلّا، ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

٧ ـ لا يأمن المرء مكر الله أبداً، ﴿أَفَأَمِنَ... أَوَأَمِنَ... أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، فالعيش الصحيح هو الذي يكون مزيجاً من الخوف والرجاء.

٨ ـ أولئك الذين يأمنون مكر الله وعذابه، خاسرون، ﴿فَلَا يَأْمَنُ... الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾

إشارات:

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«إذا أذنب الرجل خرج من قلبه نكتة سوداء فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم﴾»**[(١)]؛ أي إنّ الذنب يصبح ملكة له وعادة[(٢)].

□ إنّ الذين يسيرون في درب خاطئ ويستمرّون في السير فيه، ينتقش الانحراف والكفر على قلوبهم نتيجة تكرار العمل السيّئ، ويتجذّر الفساد في نفوسهم، كما يثبت النقش على السكة (والطبع في اللغة نقش صورة على شيء كالسكة)، وهذا في الحقيقة، هو أثر العمل وخاصيّته. وقد نسب إلى الله تعالى أنّه مسبّب الأسباب، وهو منشأ تأثير كلّ مؤثّر، فهو يهب الفعل هذه الخاصيّة عند تكراره، إذ يجعله «مَلَكة» في نفس الشخص. ولكن من الواضح والبيّن أنّ مثل هذا الضلال ليس له أيّ صفة جبرية وقهرية، بل إنّ موجد الأسباب هو الإنسان، وإن كان التأثير بأمر الله تعالى[(٣)].

---

(١) سورة المطفّفين: الآية ١٤.

(٢) تفسير «الاثني عشري».

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

التعاليم:

١ ـ الإنسان الغافل يحتاج إلى تنبيه وهو يستحقّ التوبيخ، ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ...﴾.

أولئك الذين يصلون إلى السلطة، يجب أن يطّلعوا على سيرة الحكومات السابقة، للاستفادة من التجارب الطيبة والمريرة على السّواء.

٢ ـ نزول العذاب الإلٰهيّ هو بسبب ما يرتكبه الإنسان من معاصٍ، ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾، المعصية مقدّمة ليُختم على القلب ويُحجب عن الإنسان الفهم الصحيح، فيُحرم التوفيق والهداية.

٣ ـ عدم فهم حقائق الدين هو أحد العذابات الإلٰهيّة، ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

٤ ـ السنن التي تحكم التاريخ ثابتة لذلك فإنّ سيرة الماضين يمكن أن تشكّل دليل عمل للآتين، (في ضوء مفهوم الآية ككلّ).

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

إشارات:

□ المراد من «القُرى» هنا جميع المدن التي بُعث إليها الأنبياء مثل صالح، وشعيب، ولوط، وهود ﷺ، من أجل هداية الناس وإرشادهم.

التعاليم:

١ ـ يجدر بنا أن نقتبس من التاريخ الجزء الذي يزخر بالدروس والعبر، ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾.

٢ ـ جميع الأنبياء جاؤوا بمعاجز، ولم يدّخروا بيّنة أو برهاناً واضحاً من أجل هداية الناس، ﴿رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

٣ ـ يجب أن لا تفترّ عزيمة الدعاة بسبب رفض الناس لدعوتهم؛ لأنّه هكذا كان الحال على مرّ التاريخ، ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم... فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾.

٤ ـ التعصّب، واللجاج، والعناد هي أسس الجحود والكفر، ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟... ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٥ ـ عدم الإيمان بدعوات الأنبياء ومعجزاتهم، دليل عماء البصيرة والختم على القلب، ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟... كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ﴾.

٦ ـ كفر الناس ولجاجهم، مدعاة لأن يختم الله تعالى على قلوبهم، ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

إشارات:

- المراد بـ«العهد»، إمّا أن يكون العهد الفطري الذي أخذه الله على جميع عباده، ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ...﴾[1]، أو يكون إشارة إلى العهد الذي كان الأنبياء يأخذونه من الناس، كأن يقول أحدهم، على سبيل المثال: إن استطعت أن تأتي بالمعجزة الفلانية أو أن تحلّ المشكلة الفلانية فسوف أؤمن بك. قيل للنبي موسى عليه السلام: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[2]، ولكن بمجرّد أن حُلّت مشكلتهم تنصّلوا من عهودهم ونقضوها وتنكّروا لكلّ التزاماتهم.

- لقد بيّن الله تبارك وتعالى الحقائق للبشر بواسطة الأنبياء والفطرة، لكي يسلّموا بدعوتهم ويتعهّدوا لهم. ولكن ما فتئ فريق من الناس أن نسوا نداء الفطرة ودعوة الأنبياء، فخرجوا من نطاق الحق وانتهى بهم ذلك إلى الفسق.

- عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «**إذا جاء اليقين لم يجز الشك**»، ثمّ تلا هذه الآية الكريمة[3]. ربّما كان المراد بهذا القول هو أنّ من رأى برهان الحقّ،

---

(١) سورة يس: الآية ٦٠.
(٢) سورة الأعراف: الآيتان ١٣٤ ـ ١٣٥.
(٣) الكافي، ج ٢، ص٣٩٩.

وتنكّر له لهوى في نفسه، انطبق عليه مثال الآية أعلاه.

□ لقد امتدح الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم الموفين بعهودهم وذمّ الناكثين. وقد كان امتداحه جلّ وعلا للأوفياء بأن لقّبهم بألقاب عدّة منها: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1]، ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2]، ﴿أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3] و﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾[4]، وفي المقابل ذمّ الناكثين عهودهم بأوصاف ذميمة من قبيل﴿فَٰسِقِينَ﴾[5]، ﴿كَٰفِرِينَ﴾، ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[6]، ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[7]، ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾[8]، ﴿قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾[9]، و﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[10] وفي آية أخرى أمر بوجوب قتالهم، ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾[11].

التعاليم:

١ ـ هلاك الأمم السالفة (التي أشير إليها في الآيات السابقة) كان بسبب نقضهم عهودهم وتمرّدهم، ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾.

٢ ـ عند الحكم على الناس يجب مراعاة العدل والإنصاف. فالآية الكريمة تقول: ﴿لِأَكْثَرِهِم﴾ لا جميعهم.

٣ ـ سيرة الماضين مظلمة وقاتمة بسبب عدم انقيادهم للأنبياء وبراهينهم، لذا، ينبغي ألّا نغترّ بديننا وإيماننا، ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ...﴾.

٤ ـ نقض العهد علامة على الفسق، ﴿وَمَا وَجَدْنَا... مِّنْ عَهْدٍ... لَفَٰسِقِينَ﴾.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٧٦.
(٣) سورة الرعد: الآية ١٩.
(٤) سورة الإنسان: الآية ٥.
(٥) سورة الأعراف: الآية ١٠٢.
(٦) سورة التوبة: الآية ٧.
(٧) سورة البقرة: الآية ٢٧.
(٨) سورة الأنفال، الآية ٥٥.
(٩) سورة المائدة: الآية ١٣.
(١٠) سورة الرعد: الآية ٢٥.
(١١) سورة التوبة: الآية ١٣.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

إشارات:

- هذه السورة أوّل سورة مكية تأتي على سرد قصّة النبي موسى. يُشار إلى أنّ اسم النبي موسى عليه السلام قد ذُكر ١٣٦ مرّة في القرآن الكريم، ولم يذكر اسم أيّ شخص آخر بهذا العدد في الكتاب. وكما يقول صاحب تفسير الميزان، فإنّ القرآن الكريم لم ينقل لأيّ نبيّ معجزات كما نقل للنبي موسى عليه السلام.
- يمكن حصر قصّة حياة هذا النبي الكريم عليه السلام في القرآن الكريم في خمس مراحل:

١ ـ مرحلة الولادة والطفولة في بلاط فرعون.

٢ ـ فراره من مصر إلى مدين وبقاؤه عند النبي شعيب عليه السلام.

٣ ـ مرحلة بعثته ثمّ المواجهات التي جرت بينه وبين فرعون وحاشيته.

٤ ـ مرحلة نجاته ونجاة بني إسرائيل من ربقة فرعون وعودته إلى صحراء سيناء.

٥ ـ مرحلة مشاكله ومتاعبه مع بني إسرائيل.

التعاليم:

١ ـ لقد بُعث النبي موسى للرسالة بعد فترة من بعثة الأنبياء نوح وهود وصالح، ولوط، وشعيب عليهم السلام، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾.

٢ ـ أحد دوافع بعثة الأنبياء إلى الناس، محاربة الطاغوت، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾.

٣ ـ إذا أردنا إصلاح المجتمع، علينا البدء بالشخصيّات النافذة فيه، فتصفية الماء يجب أن تبدأ من المنبع، لأنّه إذا صلح الرأس صلح الجسد، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾.

٤ ـ التكذيب بدعوة الأنبياء والآيات الإلٰهيّة هو من أمثلة الظلم، ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾.

٥ ـ لا بدّ من تحليل التاريخ لأخذ الدروس والعبر، ﴿فَٱنظُرۡ﴾.

٦ ـ المهم هو عاقبة العمل، لا المظاهر الزائلة، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

٧ ـ في الإيمان صلاح المجتمع وفي الكفر والإلحاد فساده وضلاله، ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

٨ ـ عندما يحكم الطاغوت في المجتمع بدلاً من دين الله، فسوف يلجأ إلى أيّ عمل فاسد من أجل تثبيت أسسه وترسيخ وجوده، ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾

التعاليم:

١ ـ في البداية جرى حوار بين موسى وفرعون، ثمّ أعلن موسى بعد ذلك عن رسالته الإلٰهيّة التي بُعث بها، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾؛ (الواو هنا استئنافية وفي ذلك دلالة على وجود كلام بينهما قبل أن يعلن موسى رسالته).

٢ ـ كان الأنبياء، ومن أجل إبلاغ رسالتهم، يخاطبون الطغاة دون أيّ نوع من أنواع الخوف، أو الضعف، أو التزلّف، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ﴾.

٣ ـ في سبيل إصلاح المجتمع الذي يحكمه نظام المؤسسات، يجب البدء أوّلاً بالقادة والزعماء، ﴿يَٰفِرۡعَوۡنُ﴾.

٤ ـ رسالة الأنبياء لم تتضمّن أكثر من الدعوة إلى الحقّ، ﴿وَقَالَ... إِنِّي رَسُولٞ﴾.

٥ ـ رسالة الأنبياء مرتبطة بتدبير الكون برمّته، ﴿رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٦ ـ كان فرعون يعتبر نفسه ربّ الناس، ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[1]، وفي المقابل، عرّف النبي موسى نفسه بشجاعة وصراحة بأنّه نبي مرسل من ربّ العالمين ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ليفهمه بأنّه هو أيضاً عبد ربّ العالمين وداخل في سلطانه وحاكميّته، ﴿إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) سورة النازعات: الآية ٢٤.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا ينطق الأنبياء بغير الحقّ، إذن، فهم معصومون في إبلاغ الرسالة، ﴿لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

٢ ـ يجب أن يأتي النبي بمعجزة، ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾ وأن لا يُكره الناس على الإيمان برسالته.

٣ ـ للناس جميعاً ربّ واحد، إذن، فأيّ ادّعاء بالربوبيّة أمرٌ باطل، ﴿رَّبِّكُمْ﴾.

٤ ـ بتحرير الناس من تسلّط الطغاة يسهل تطبيق برنامج ثقافيّ وإرشادي متكامل لهم، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

٥ ـ تحرير بني إسرائيل من ربقة فرعون كان أمراً إلهياً إلى موسى وجزءاً من رسالته، وليس قراراً شخصياً لموسى، ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ... فَأَرْسِلْ﴾.

٦ ـ حرّية البشر أحد أهداف الأنبياء، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وأيّ حكومة عدا حكومة الأنبياء، سوف تستعبد الناس. يقول الإمام علي عليه السلام: «**مَن نال استطال**»[1].

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾

إشارات:

- لقد خرجت من عصا موسى معجزات أخرى، منها أنّها بعد أن تحوّلت إلى ثعبان عظيم أخذ هذا الثعبان يبتلع كلّ ما صنعه السحرة بسحرهم، ﴿تَلْقَفُ مَا

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٢١٦.

يَأْفِكُونَ﴾[١]، وكذلك ضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر فانفلق فصار يابسة، ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ﴾[٢]، ثمّ ضرب بعصاه الحجر فانبجست منه ينابيع المياه العذبة، ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[٣].

- كما إنّ العصا تحوّلت أمام ناظري موسى عليه السلام إلى حيّة صغيرة متحرّكة حتى إنّه ولّى هارباً منها، ﴿جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾[٤]، وكانت أمام الناس حيّة عادية تتحرّك، ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾[٥] وتحوّلت أمام فرعون وملئه إلى أفعى عظيمة، ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾، على هذا الأساس، ينبغي الأخذ بنظر الاعتبار في الدعوة والتربية طبيعة توجّهات المخاطبين وميولهم، وإقناع كلّ منهم في ضوء توجّهاته وميوله الخاصّة.

- قَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى لَمَّا بَعَثَ مُوسَى عليه السلام كَانَ الْأَغْلَبُ عَلَى أَهْلِ عَصْرِهِ السِّحْرَ فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عزّ وجلّ بِمَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْقَوْمِ وَ فِي وُسْعِهِمْ مِثْلُهُ وَبِمَا أَبْطَلَ بِهِ سِحْرَهُمْ وَ أَثْبَتَ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ**»[٦].

- لقد تحوّلت عصا موسى بمجرّد إلقائها إلى أفعى عظيمة، ولم تكن ثمّة وقفة بين الحدثين، ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾.

التعاليم:

١ ـ المعجزة دليل صدق نبوّة الأنبياء، ﴿فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ لقد كانت كلمة حقّ من فرعون أراد بها باطلاً، فهو لم يكن يؤمن بوجود إرادة فوق إرادته.

٢ ـ يجب أن تكون المعجزة بيّنة وواضحة للجميع، بحيث لا تبقي أيّ مجال للشك، ﴿مُّبِينٌ﴾.

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٤٥.
(٢) سورة الشعراء: الآية ٦٣.
(٣) سورة البقرة: الآية ٦٠.
(٤) سورة النمل: الآية ١٠.
(٥) سورة طه: الآية ٢٠.
(٦) عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص٨٠.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٠٨ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩﴾

التعاليم:

١ ـ إلى جانب نُذُر الأنبياء (تحوّل العصا أفعى والذي ينطوي، بنحوٍ ما، على الفزع والرعب)، توجد البشارة والرجاء المتمثّلة بإراءة اليد البيضاء، ﴿بَيۡضَآءُ﴾؛ (في التعامل مع المتكبّر، ينبغي أوّلاً كسر غروره وكبريائه، ومن ثمّ مدّ يد العطف والحنان).

٢ ـ بياض يد موسى، كانت معجزة أخرى من معجزاته وأمراً مفاجئاً وقابلاً للرؤية من قبل الجميع، ﴿فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

٣ ـ حاشية الطاغية شركاؤه في جرائمه، ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾.

٤ ـ لقد أقرّ الملأ بعظمة ما قام به موسى، إلّا أنّهم كانوا يواصلون جهودهم للإبقاء على حكم الفرعون، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

٥ ـ لقد اتّخذ المستكبرون المعاندون أسلوب التبرير والإصرار في مقابل البراهين والأدلة واحتمال هزيمتهم، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾؛ («إنّ» وحرف «اللام» والجملة الاسمية كلّها تحمل دلالة توكيدية).

٦ ـ يسعى المعارضون من خلال إلقاء التّهم تشويه صورة الأنبياء، ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ۝١١٠﴾

إشارات:

- لقد واجه آل فرعون موسى بسيل من التّهم والافتراءات سعياً منهم لخداع الرأي العام، فعلى الصعيد العقدي اتّهموه بأنّه ساحر، وعلى الصعيد الاجتماعي والسياسيّ اعتبروه مثيراً للفتن.

التعاليم:

١ ـ أحد أسلحة المعارضين اتّهام أهل الحقّ بمحاولة الاستحواذ على السلطة، ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾.

٢ ـ أحياناً يلجأ الأعداء إلى إثارة عواطف الناس وتحريك مشاعرهم الوطنية المتمثلة في حبّ الوطن ضدّ المؤمنين، ﴿يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾.

٣ ـ يعتقد الكافر أنّ الجميع على شاكلته، ﴿يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، كانت المادّيات والحياة الدنيا قد ملكت على فرعون شغاف قلبه، فلذلك ظنّ أنّ موسى أيضاً غارق في المادّيات وملتصق بهذه الدنيا، وأنّه تستهويه هذه الثروة وترف الحياة.

٤ ـ أحياناً يلجأ الطغاة وهم في ذروة استبدادهم إلى استشارة حواشيهم في الملمّات السياسية، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾

إشارات:

- كلمة «أرجِ»، هي فعل أمر مشتقّ من «رجاء»، تعني الحبس وكذلك تأتي بمعنى الإرجاء والإمهال. وفي ضوء الموجة العارمة لدعوة موسى ومعجزاته، فلا يبدو أنّه كان بمقدور فرعون سجن النبي موسى عليه السلام، لذا فالمعنى الثاني هو الأنسب.
- تقول الآية الكريمة: ﴿سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾، في حين جاء في الآية ٣٧ من سورة الشعراء تعبير ﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، وفي ذلك دلالة على ذروة تخصّص السحرة وخبرتهم.

التعاليم:

١ ـ في ظلّ حكم الطغاة، تنوير الناس وإسماعهم صوت الحقّ يعتبر جريمة يستحقّ صاحبها عليها العقوبة، ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ﴾.

٢ ـ تشويه سمعة المرء أهمّ من القتل والعقوبة، ﴿أَرْجِهْ﴾؛ (نظراً إلى أنّ المراد بـ«أرجه»، هو إرجاء عقوبة موسى على أن يتمّ ذلك في ما بعد وأمام الملأ، ليكون أشدّ في الإشهار والفضيحة).

٣ ـ الطغاة يعقدون اجتماعات عالميّة للمختصّين من أجل كسر شوكة الحقّ، ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

٤ ـ الكفّار أيضاً يعلمون أنّ السبيل الأمثل لمحاربة العمل الثقافيّ هو الإتيان بعمل ثقافيّ أقوى، ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

٥ ـ أحياناً يكون العلم والاختصاص بيد ثلّة من المنحرفين يوظّفانهما في محاربة الحقّ، ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ من لم يكن توكّله على الله، فسوف يلبّي أيّ نداء من أيّ مصدر كان، ﴿يَأْتُوكَ... وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾.

٢ ـ أحد الفوارق التي تُميّز الأنبياء عن السحرة هو الاختلاف في الأهداف والبواعث.

فالأنبياء مرسلون لإرشاد الناس، ولا يطلبون أجراً لقاء رسالتهم، ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[1]، فيما السّحرة لا يعملون إلا من أجل أن ينالوا وطراً من هذه الدنيا ومن زخارفها، ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾.

٣ ـ الواقفون على أبواب الطواغيت، لا هدف لهم سوى تحقيق مآربهم في هذه الدنيا، ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾.

(١) سورة الشعراء: الآيات ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤ و١٨٠.

٤ ـ أعداء الحقّ من العلماء والنخب هم موضع دعم وحماية من قبل الطغاة والمستبدّين الذين لا يتورّعون عن رصد الأموال لقمع الحقّ وأهله، ﴿قَالَ نَعَمْ﴾؛ (هل دعمنا علماء الدين من أجل إزهاق الباطل)؟

٥ ـ الطغاة مستعدّون لدفع أيّ ثمن والاستجابة لأيّ طلب من أجل المحافظة على ملكهم، ﴿قَالَ نَعَمْ﴾.

٦ ـ نيل المكافأة السياسيّة والمكانة الاجتماعيّة المرموقة أهمّ عند طلاب الدنيا من المال والثروة، ﴿لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لقد جاء السّحرة بسحرٍ هو في ظاهره شبيه بمعجزة موسى؛ إذ كان يظهر بمجرّد إلقائه على الأرض، ﴿تُلْقِىَ... ٱلْمُلْقِينَ﴾.

٢ ـ في سعينا نحو المعرفة ينبغي أن لا نعتمد على الحواسّ الظاهرية فحسب، فأحياناً تُسحر العين وتتأثّر بالمؤثّرات، ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾.

٣ ـ أعمال السّحر للسّحرة لا حقيقة لها إلّا في أعين الناس، فهي كالسّراب يحسبه الإنسان ماءً، ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾، نعم، الأنبياء يتعاطون مع بصائر الناس، بينما السّحرة يتعاطون مع أبصارهم.

٤ ـ عند محاربة أيّ حقّ، يتمّ استخدام الأدوات والوسائل نفسها، مثلاً، المذهب المزيّف ضدّ المذهب الحقّ، ووعّاظ السلاطين ضدّ رجال الدين المؤمنين، وسحر السّحرة ضدّ معجزة الأنبياء، ﴿بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾

إشارات:

□ «تَلقَف» مشتقّة من مادة «لقف» وتعني أخذ شيء بقوة وسرعة، سواء بواسطة

الفم، والأسنان، أو بواسطة الأيدي، ولكن تأتي في بعض الحالات بمعنى البلع والابتلاع، ويبدو أنّها جاءت في هذه الآية بهذا المعنى. وكلمة «**يأفكون**» مشتقّة من مادّة «**الإفك**»، وهو كل مصروف عن وجهه الذي يحقّ أن يكون، وبما أنّ الكذب يصرف الإنسان من الحقّ إلى الباطل، فأطلق على الكذب لفظ «الإفك»، أو يقال للكذب المتّخذ قالب الصدق، أو الباطل الذي له ظاهر الحق.

- إذا كانت معجزة عصا موسى عليه السلام ابتلعت كلّ ما يلقيه السّحرة، فإن الاستعانة بالمعجزة الخالدة للنبي الكريم محمد صلى الله عليه وآله، أعني، تلاوة القرآن الكريم تجعل مؤامرات أنصار الباطل هواء في شبك.

التعاليم:

١ ـ في الأوقات العصيبة والأزمات، ينزل مدد غيبيّ مباشر على الأنبياء، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾، نعم، إنّ الله تعالى يمدّ عباده المخلصين بمددٍ من عنده في المحافل الدولية وبحضور أعداء الحقّ، لينصرهم عليهم.

٢ ـ الباطل الذي سحر أعين الناس وسلبهم عقولهم وبثّ في قلوبهم الرعب، ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾، افتُضح أمره وأُزهق على يد النبي الكريم وبالاستمداد من القدرة الإلهيّة، ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

إشارات:

- انتصار موسى، سدّد ضربة قاصمة لجهاز الحكم الفرعوني، لكنّ الأهمّ من ذلك هو إيمان السّحرة جميعاً بدعوة موسى عليه السلام، ما حطّم غرور فرعون وأصاب كبرياءه في الصميم.
- تقدير الضمير في العبارة ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هو السّحرة.

التعاليم:

١ ـ الحقّ منتصر، والباطل زاهق، ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾. الباطل الذي هو من صنع البشر لا يقوى على مواجهة الحقّ.

٢ ـ أسلوب الدعوة يتمثّل في بيان الحقّ والحقيقة، ليزهق الباطل ويندحر، ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٣ ـ مظهر للحقّ يمحو آلاف المظاهر الخدّاعة للباطل، ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ لقد هيّأ هؤلاء السّحرة أنفسهم زمناً طويلاً واستعملوا أنواع السّحر لينتصروا على معجزة موسى، ولكن ذهبت كلّ جهودهم أدراج الرياح.

٤ ـ بعد أن ذاق السّحرة طعم الهزيمة، انسحبوا مع آل فرعون مشيّعين بالذلّة والمهانة، ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾.

٥ ـ مدّعو النصر، ﴿نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[1] أصبحوا المهزومين عبر التاريخ، ﴿فَغُلِبُوا۟... صَٰغِرِينَ﴾.

٦ ـ لقد تجلّت عظمة المعجزة الإلٰهيّة عندما خرّ السّحرة ساجدين لا إرادياً. الفعل ﴿وَأُلْقِىَ﴾ جاء في صيغة المبني للمجهول.

٧ ـ معرفة الحقّ هي مقدّمة للخضوع والتسليم لله تعالى، ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾؛ بفضل المعرفة الحقّة، يمكن أن تتغيّر عقيدة الإنسان في لحظة واحدة ويفتح لنفسه باب السعادة.

٨ ـ السجدة، هي أجلى مظاهر التسليم لله تعالى، ولها تاريخ طويل، ﴿سَٰجِدِينَ﴾.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

إشارات:

□ إنّ السّحرة الذين جاؤوا إلى مضمار التحدّي من أجل أن يهزموا موسى ويحظوا

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١١٣.

بالمال والمنزلة عند فرعون، هم أنفسهم عندما شاهدوا معجزة موسى أعلنوا أمام الملأ إيمانهم بدعوته، وأقرّوا بالتوحيد والنبوة والمعاد، أمّا إيمانهم بالتوحيد والنبوّة فكان من خلال عبارات ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، وأمّا إيمانهم بالمعاد فقد كان بالعبارة التالية الواردة في الآية ١٢٥ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾. والحقيقة، أنّ فرعون بإتيانه بهؤلاء السّحرة، هيّأ الأجواء لكي يؤمنوا بموسى عليه السلام في وقت واحد، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

- لقد ذكر السّحرة موسى وهارون عليهما السلام معاً ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ لأنّ هارون كان إلى جانب موسى يعظهم ويرشدهم، أو لأنّهم إذا قالوا: «**ربّ موسى**» فقط، لربّما استغلّ آل فرعون ذلك بالقول إنّ ربّ موسى هو نفسه فرعون، لأنّه عاش وترعرع في بيت فرعون لسنوات طوال حتى أصبح رجلاً، وهو ما يستدلّ من مقولة فرعون لموسى ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾[1]. من هنا، أدرك السّحرة هذه النقطة ووأدوا فتنة فرعون وهي في المهد بقولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

- يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «**كُن لما لا ترجو أرجى منك لما تَرجو**». وهو ما حصل بالفعل لموسى عليه السلام حين ذهب ليأتيَ أهله بقبس من النار، وإذا به يرجع إليهم بالرسالة. والملكة سبأ خرجت من مملكتها بقصد رؤية النبي سليمان عليه السلام، وإذا بها تعود إلى ديارها مؤمنة به، وكذلك الحال بالنسبة إلى السحرة الذين جاؤوا إلى بلاط فرعون من أجل الحصول على جائزة فرعون، فوجدوا الإيمان بانتظارهم[2].

التعاليم:

١ ـ قبل الدخول في التحدّي، كان السّحرة قد سمعوا بمضمون دعوة موسى، لذا، فإنّهم بعد مشاهدتهم معجزته آمنوا بما كانوا قد سمعوا به، ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾.

---

(١) سورة الشعراء: الآية ١٨.

(٢) تفسير «الاثني عشري»؛ تحف العقول، ص٢٠٨.

٢ ـ يتميّز الإنسان بخصلتي المرونة والحرّية؛ لذلك بإمكانه أن يغيّر فكره وعقيدته بعد أن يفهم رسالة الحق، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾.

٣ ـ التوبة من الانحراف الفكري والشرك تكون بالإيمان، ﴿ءَامَنَّا﴾.

٤ ـ السّحرة أقدر من غيرهم على التمييز بين السّحر والمعجزة. من هنا، كان إسراعهم إلى الإيمان بالدعوة، ﴿ءَامَنَّا﴾.

٥ ـ أحياناً يكون عدم الإيمان سببه احتجاب الحقّ؛ لذلك بمجرد أن ينجلي تجد فئة تسارع إلى الإيمان به، ﴿ءَامَنَّا﴾.

٦ ـ يجب سدّ منافذ الاستغلال، ففي الآية الكريمة نلاحظ أنّ السّحرة قالوا لموسى ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ لئلا يلجأ فرعون إلى الالتفاف ويقول: إنّني أنا ربّ العالمين.

٧ ـ لا جدال في خالقيّة الله تبارك وتعالى، بل النزاع هو في ربوبيّته سبحانه، وتدبيره العالَم، ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ يتمثّل الاستعمار الثقافيّ للحكومات في سلب الناس حرّية الفكر وحقّ اختيار المعتقدات، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ﴾.

٢ ـ من أساليب الطغاة، الافتراء على رجال الحقّ، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾؛ فهم لا يثقون حتى بمنتسبيهم، ويعدّون كلّ حركة روحية بمثابة حركة سياسية، وممّا يلقي ضوءاً على هذا الأمر، أنّ فرعون يصف السّحرة في آية أخرى بأنّهم تلامذة موسى، ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ﴾[1].

(١) سورة طه: الآية ٧١.

٣ ـ يوظّف الطواغيت المشاعر الوطنية والعواطف الشعبيّة في مسار تحقيق أهدافهم الخاصة، ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾.

٤ ـ التهديد بالقتل والتعذيب، من الأدوات التي تلجأ إليها حكومات الطغاة، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

إشارات:

- ورد ما يشبه هذه العبارات في سورة طه، طبعاً لا يوجد في القرآن الكريم ما يشير إلى تنفيذ هذا التهديد، ولكن بحسب ما تنقله الروايات ومصادر التاريخ، أنّ فرعون قطّع المؤمنين بموسى إرباً إرباً وعلّقهم على سعف النخيل، إذ يقول المؤرّخ الشهير الطبري في هذا الموضوع: «كانوا أوّل النّهار كفّاراً سحرة وآخر النّهار شهداء بَرَرَة».
- لم تمنع الإمكانات الهائلة لفرعون وحكمه والضجّة المثارة حول سطوته من تعرّضه في النهاية إلى المهانة والذلّة، ﴿وَانقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾، بينما آثر السّحرة الإيمان بدعوة موسى والرشاد والسعادة والموت في سبيل عقيدة الحقّ على حياة الذلّة تحت نير الحكم الفرعوني، ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

التعاليم:

١ ـ العنف والتهديد من أسلحة المتسلّطين والمتجبّرين، ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾.

٢ ـ يلجأ الطغاة إلى تهديد طلائع الثورة والتنكيل بهم وقتلهم من أجل خنق صوت الأفكار الإصلاحية والثورية، ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾.

٣ ـ الإنسان ليس أسير الأنظمة والظروف، إذ بإمكانه الصمود، إذا تسلّح بالإيمان والإرادة، بوجه كلّ هذه العوامل، ﴿لَأُقَطِّعَنَّ... قَالُوٓاْ﴾.

٤ ـ من آمن عن بصيرة وقناعة، لن ترهبه الهزّات والأمواج العاتية، ولن يخضع

للابتزاز أو التهديد، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا﴾، نعم، إنّها قوّة الإيمان التي تغيّر الإنسان، وتزيد من طاقاته وإمكاناته، فالسّحرة كانوا حتى الأمس القريب يطمعون بجائزة فرعون، واليوم أصبحت تلك الجائزة لا قيمة لها بفضل الإيمان.

٥ ـ الموت في سبيل الحقّ أشرف من الحياة في كنف الباطل، ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

٦ ـ الماضي السيّئ للفرد ينبغي أن لا يكون معياراً للحكم عليه، فهنا نلاحظ أنّ عدداً من السحرة والكفّار تحوّلوا من الكفر إلى الإيمان، بل وسبقوا المؤمنين الآخرين بإيمانهم، ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

٧ ـ يجب أن نشيد في نهجنا الدعوي ببطولات الماضين، ﴿قَالُوٓاْ﴾.

٨ ـ الإيمان بالمعاد والتذكير به عندما تدلهمّ الأخطار وتتعاظم التهديدات يحصّن الإنسان، ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، وكذلك قالوا لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾[1].

٩ ـ ينبغي أن لا نيأس من هداية المنحرفين بما في ذلك قادتهم، ناهيك عن أن يتوبوا ويتحوّلوا دفعة واحدة، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

إشارات:

□ جاءت هذه الآية الكريمة للردّ على اتّهامات فرعون وافتراءاته على المؤمنين الذين اتّبعوا موسى عليه السلام، والتي أشير إليها في الآيات السابقة، من قبيل أنّهم متآمرون ومتواطئون يرومون الاستيلاء على زمام الحكم، وإخراج أهلها من

---

(١) سورة طه: الآية ٧٢.

البلاد، وقالوا له: أنت نفسك تعلم أنّ ذنبنا الوحيد في نظرك هو أنّنا أجبنا داعي الحقّ ولبّينا نداءه.

❑ عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«وَمَنْ ذَهَبَ يَرَى أَنَّ لَهُ عَلَى الْآخَرِ فَضْلًا فَهُوَ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ فَقُلْتُ لَهُ إِنَّمَا يَرَى أَنَّ لَهُ عَلَيْهِ فَضْلًا بِالْعَافِيَةِ إِذَا رَآهُ مُرْتَكِباً لِلْمَعَاصِي فَقَالَ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا أَتَى وَأَنْتَ مَوْقُوفٌ مُحَاسَبٌ أَمَا تَلَوْتَ قِصَّةَ سَحَرَةِ مُوسَى عليه السلام»**[1].

التعاليم:

١ ـ لا يخلو الإيمان بالله تعالى والانعتاق من نير الطغاة من المصاعب والمشاكل، ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾.

٢ ـ الإيمان الذي يقوم على البرهان ورؤية أمارات الحقيقة، إيمان ذو قيمة وفضل، ﴿ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ﴾.

٣ ـ الطواغيت يعارضون العقائد التوحيدية لا أشخاصاً بعينهم، ﴿إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا﴾.

٤ ـ من علائم المؤمن الحقيقي: السكينة، الصمود، الصراحة، الشجاعة، التضرّع إلى الله، والدعاء لا سيّما عند الشدائد .﴿ءَامَنَّا... رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾.

٥ ـ في الدعاء نتوسّل بربوبيّة الله، ﴿رَبَّنَا﴾.

٦ ـ الأسلوب الأرقى للتصدّي للطغاة هو الدعاء والتوكّل على الله والمحافظة على الإيمان والثبات، ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾.

٧ ـ عندما تشتدّ خطورة التهديدات، فإنّ ذلك يتطلّب اشتداد الصبر والصمود. قال السّحرة: ﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ ولم يقولوا: **«أنزل علينا»**.

٨ ـ حسن الختام يحتاج إلى الدعاء إلى الله والاستعانة به وطلب توفيقه، ﴿رَبَّنَا... وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾.

---

(١) الكافي، ج٨، ص١٢٨.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

إشارات:

- يستفاد من هذه الآية الكريمة، أنّ فرعون بعد هزيمته أمام النبي موسى عليه السلام ترك موسى وبني إسرائيل أحراراً مدّة من الزمن، واستغلّ بنو إسرائيل هذه المدّة للاشتغال بالدعوة لدين موسى عليه السلام، وهنا شعر آل فرعون بالخطر جراء سكوت فرعون، لذلك بادروا إلى تحريضه للتصدّي لهؤلاء واتّخاذ موقف متشدّد تجاههم.
- إنّ فرعون لم يكن يدّعي لنفسه الخلق بل الربوبيّة إذ كان يقول لشعبه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1]، وأيضاً: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾[2]، غير أنّ فرعون وقومه كانت لهم معبودات وكانوا يعبدونها بوصفها مظاهر وتجليّات للخالق، ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾.

التعاليم:

١ ـ جزء من فساد الطواغيت هو فساد الحاشية، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾.

٢ ـ في تصدّيها للحقّ ورجاله، تصاب أنظمة الطواغيت الباطلة بالحيرة والاضطراب ما يجعلها تتّخذ قرارات متناقضة. فنجد مثلاً فرعون تارةً يقرّر قتل موسى ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾[3]، وتارةً أخرى يتركه طليقاً لدرجة تثير حنق حاشيته واعتراضهم، ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾.

٣ ـ الحركات الإصلاحية من منظار الطواغيت ليست سوى فساد وفتنة وتمرّد وتخريب المصلحة العامة، ﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٤ ـ كان قتل الأولاد والإبقاء على البنات والنساء واسترقاقهم بمثابة سياسة

---

(١) سورة النازعات: الآية ٢٤.
(٢) سورة القصص: الآية ٣٨.
(٣) سورة غافر: الآية ٢٦.

فرعونية تهدف إلى نزع الغيرة والشهامة من قلوب الرجال وتسخير النساء كأدوات لتنفيذ برامجه ومخطّطاته، تماماً كما هو الحال مع السياسة الاستعمارية في عصرنا، ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾

إشارات:

- تطرح الآية ها هنا أمرين وبشارتين: الأمر بالاتكال على الله والثبات والصبر، أمّا البشارتان فهما وراثتهما للأرض وأنّ العاقبة للمتّقين.
- يقول الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية: **إنّا وأهل بيتي الذين أورثنا الله الأرض ونحن المتّقون**. ويقول الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية الكريمة: «**فما كان لله فهو لرسوله وما كان لرسول الله فهو للإمام بعد رسول الله**»[1] لذلك، فإنّ قول الآية إنّ الأرض لله يعني أن رّسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام هم ورثة الأرض من الله.

التعاليم:

١ ـ على القائد أن يشدّ من أزر الأمّة في اللحظات الحسّاسة، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾، لقد بشّر موسى عليه السلام قومه بهلاك آل فرعون وظهور المؤمنين عليهم.

٢ ـ الاستمداد من الله تعالى والتوكّل عليه والصمود والتقوى هو من جملة أسباب النصر والتحصّن في مقابل التهديدات، ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾، (نستعين به وفي ذات الوقت نصبّر أنفسنا).

٣ ـ فناء حكومات الاستبداد واستبدالها بالمؤمنين الصابرين أمر حتميّ بإرادة الله ومشيئته، ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

٤ ـ تحقيق الحاكميّة رهنٌ بالصبر، والثبات، والاستعانة بالله تبارك وتعالى، ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ﴾.

٥ ـ الاستعانة بالله والصبر والثبات مظهر من مظاهر التقوى والورع، ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟... وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٦ ـ المتّقون لهم حسن العاقبة والختام في الدنيا، ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ﴾، وهم في الآخرة من الفائزين، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٧ ـ الأمل بمستقبل مشرق وواعد، هو ما تبشّر به الأديان السماوية بما فيها الإسلام، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

إشارات:

□ كأنّ بني إسرائيل كانوا يتوقّعون أن تصلح الأمور بقيام موسى عليه السلام في ليلة وضحاها، وأن يزول فرعون ويهلك حكمه، وتصبح مصر بجميع إمكاناتها وثرواتها تحت تصرّف بنى إسرائيل. ولعلّ ذلك كان السبب في زعمهم بأنّ نهضة موسى عليه السلام لم تحقّق لهم الرفاهية التي كانوا ينشدونها، لكنّه يجيبهم بأنّ هذا النصر الإلٰهيّ يتحقّق في ظلّ شروط عدّة مثل الصبر والسعي والاجتهاد والتوكّل على الله.

التعاليم:

١ ـ الرخاء والأمن، هما من أولى اهتمامات الناس ومطالباتهم من الحكومات، ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا﴾.

٢ ـ ضعاف الإيمان يتوقّعون من الأنبياء الرخاء في جميع الظروف، وإذا لم ينالوا ذلك، يشرعون بتوجيه النقد إليهم، ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ...﴾.

٣ ـ أحياناً يتعرّض القادة الإلٰهيّون إلى النقد من قبل بعض ضعاف الإرادة والصبر

من أتباعهم، ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾.

٤ ـ السعادة والبهجة عند معظم الناس تعني الراحة والدّعة، وفقدانهما يعني التعاسة والشقاء، متناسين أنّ الأديان السماوية جاءت لتنظيم حياة البشر وتوجيهها الوجهة الصحيحة، وليس لرفع جميع المشاكل الدنيوية للناس، ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا﴾.

٥ ـ لا بدّ من حلّ المشاكل الطبيعية والاجتماعيّة من خلال التدبير وبالطرق العادية والطبيعية، وليس عن طريق الإعجاز. (لاحظ الآية السابقة ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾، وعبارة ﴿بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾).

٦ ـ على القائد أن يستمع للانتقادات وأن يبعث إلى شعبه برسالة أمل، ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ﴾.

٧ ـ الإيمان بأنّ الله ناظر رقيب، مدعاة للانتباه والتقوى، ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ﴾.

٨ ـ حكم الناس هو وسيلة للابتلاء والامتحان، لا لقضاء لذّة أو متعة، ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ﴾.

٩ ـ الناس مسؤولون أمام الحكومة، ويُمْتَحنون بها. قال ﷻ: ﴿كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾، ولم يقل: «**كيف أعمل**».

﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣٠﴾

إشارات:

- «**سنين**» جمع «**سنة**»، بمعنى الحول أو العام، لكنّها إذا قُرنت بلفظة «**أخذ**» أعطت معنى الابتلاء بالجدب والقحط. لذا، فإنّ ذكر ﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ربّما يكون مثالاً بارزاً لهذا الجدب.

- أحياناً تتدرج الشدائد والابتلاءات في مسير يقظة الإنسان وامتحانه، وتكون

مقدّمة لهلاكه، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾[1].

□ يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: **«إنّ الله يبتلي عباده عند الأعمال السيّئة بنقص الثمرات، وحبس البركات، وإغلاق خزائن الخيرات، ليتوب تائب، ويقلع مقلع، ويتذكّر متذكّر، ويزدجر مزدجر»**[2].

التعاليم:

١ ـ تتطلّب التربية، في بعض الأحيان، اللّجوء إلى أسلوب التضييق والتشديد، ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا﴾.

٢ ـ إرادة الله تبارك وتعالى غالبة على الأسباب الطبيعية، ﴿أَخَذْنَا... بِالسِّنِينَ﴾.

٣ ـ الجدب والقحط إمّا أنّ يكون عذاباً إلهياً أو ناقوس خطر، ﴿بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، لا شكّ في أنّ تحوّلات الطبيعة ذات غاية وهدف.

٤ ـ أسباب الهداية والسعادة متاحة حتى في بيت أعتى المستكبرين، ﴿آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

٥ ـ نعم، قد لا تُجدي أيُّ وسيلة أو برنامج لهداية بعض الأفراد على الرغم من كلّ الجهود المبذولة في هذا المجال، وذلك لأنّ الإنسان مخيّر في إيمانه وليس مكرهاً، ﴿أَخَذْنَا... لَعَلَّهُمْ﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

إشارات:

□ **«يَطيّروا»** مشتقة من مادّة **«تَطيُّر»**، بمعنى التشاؤم، وأصلها من الطير، فقد كان

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٥.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٤٣.

العرب غالباً ما يتشاءمون بواسطة الطيور، وربّما تشاءموا بصوت الغراب، أو بطيران الطير، فإذا طار من ناحية اليسار اعتبروا ذلك علامة الشقاء والفشل، وكلمة «**الطيرة**» تعني مطلق التشاؤم[١].

- كما تحدّثت آيات أخرى عن التطيّر بالأنبياء بمن فيهم رسول الله ﷺ[٢].
- إنّ التطيّر ليس له أيّ أثر طبيعي أو منطقي على وقوع الحوادث والنبوءات، لكنّه يحمل آثاراً نفسية سيئة كثيرة. فنحن نقرأ في الروايات: أنّ الطيرة شرك، ومتى تطيّرت فلا تلق لذلك بالاً وامض في عملك. ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «**الطيرة على ما تجعلها، إن هوّنتها تهوّنت، وإن شدّدتها تشدّدت، وإن لم تجعلها شيئاً لم تكن شيئاً**»[٣].

عرفت الأمم والشعوب الماضية كما المعاصرة مسألة الطيرة والتطيّر، وهي توجب التشاؤم وكساد الأعمال، ولهذا السبب نُهي عنها بشدّة، بينما لم يُنهَ في الروايات والأحاديث عن التفاؤل، لدوره في بعث روح النشاط والأمل والحب في نفس الإنسان[٤].

التعاليم:

١ ـ كان آل فرعون يعتبرون أنفسهم وحدهم الجديرين، ولهم حقّ التمتّع بالسعادة، ﴿قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ﴾.

٢ ـ لقد اعتاد آل فرعون الرخاء والسعادة لكنّهم لم يألفوا الشقاء والمكاره وكانت بالنسبة إليهم غير معقولة. (لاحظ أنّ كلمة «**الحسنة**» جاءت معرّفة بالألف واللام، والأداة الشرطية «**إذا**» علامة على التعريف، بينما جاءت كلمة «**سيئة**»

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) سورة النساء: الآية ٧٨؛ سورة النمل: الآية ٤٧؛ سورة يس: الآية ١٨.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ الميزان في تفسير القرآن.

(٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

في صيغة النكرة بعد «إن» وذلك دليل على التنكير وعدم المعرفة والتصديق).

٣ ـ الأكثرية من آل فرعون لم تتّعظ بالقحط والنُّذُر الإلٰهيّة، فكانت تتخبّط في تحليلاتها وتنسب هذه الأمور إلى النبي موسى عليه السلام، ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ﴾.

٤ ـ أن ينسب المرء الفضائل إلى نفسه، والشرور والشقاء إلى الأنبياء والدين لهو دليل أنانية وجهل، ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ... أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٥ ـ الجهل هو منشأ الخرافات والتطيّر، ﴿يَطَّيَّرُوا۟... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

إشارات:

□ إنّ قولهم لموسى: مهما تأتنا من آية يشير إلى أنّ العدوّ أيضاً كان يؤمن بأنّ أفعال موسى عليه السلام لم تكن سحراً أو شعوذة، وإنّما هي معاجز إلٰهيّة، لكنّ لجاجهم وغرورهم لم يكن يسمح لهم بالإيمان بدعوته، عدا السّحرة الذين بمجرّد أن عرفوا أنّ هذه الأعمال ليست سحراً آمنوا دونما عناد أو لجاج. وهنا احتمال آخر وهو أنّه ربّما كان نعت آل فرعون أفعالَ موسى بالآيات هو من باب السخرية والاستهزاء.

التعاليم:

١ ـ أحياناً يوغل الإنسان في السقوط فيصطدم بالأنبياء والمرشدين الإلٰهيّين، ويرى دلائل الهداية الساطعة معكوسة ومظلمة، ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا﴾.

٢ ـ تفسير معجزات الأنبياء بالسّحر كان من أكثر التّهم شيوعاً آنذاك، ﴿لِّتَسْحَرَنَا﴾، وفي موضع آخر يقول القرآن الكريم: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[1].

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٢.

٣ ـ الإنسان حرّ في اختيار معتقداته، والأنبياء لا يُكرهون الناس على الإيمان، والدليل على ذلك أنّ بعض الناس يؤمن بالمعجزات وبعضهم الآخر يكفر، ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

إشارات:

- «**الطوفان**»، هو السيل المدمّر الذي يأتي على كلّ شيء. كما يقال لكلّ ما كان مهلكاً من موت أو سيل: «**القُمَّل**»، دواب سود صغار، ويقال أيضاً للنمل، ولنوع من الآفات الزراعية التي تصيب الغلات وكذلك يطلق على نوع من الحشرات[1].
- الدم هو أحد آيات الله تعالى إلى بني إسرائيل، والمراد به هنا هو داء الرعاف (وهو نزيف الدم من الأنف) الذي شاع بينهم كنوع من العذاب الإلٰهيّ.
- يُشار إلى أنّ هذه البلايا، أعني الطوفان والدم والجراد كانت تصيب آل فرعون خاصّة، وكان بنو إسرائيل في معزل عن ذلك. وقد وردت قصص هذه البلايا في التوراة أيضاً[2]. والحقيقة أنّه كلّما جاءهم العذاب، كانوا يهرعون إلى موسى عليه السلام ليدعو ربّه ليخلّصهم ممّا نزل بهم، وفي المقابل يؤمنون بدعوته، وكان موسى عليه السلام يستجيب لهم فيدعو ربّه ليرفع عنهم البلاء، لكنّ ذلك لم يزدهم سوى إصرارٍ وعنادٍ على كفرهم كما سنقرأ تفصيل ذلك في الآيات اللّاحقة.

التعاليم:

١ ـ بعد وعيد الله تعالى وإتمامه الحجّة، وتمادي هؤلاء القوم في غيّهم وعدم

---

(١) مفردات الراغب.

(٢) ورد في التوراة تحوّل المياه إلى دماء في سِفر الخروج، الباب ٧ الآية ٢٠، هجوم البعوض، في الباب ٨ الآية ٧، نزول البَرَد، في الباب ٩ الآية ٢٥، وهجوم الجراد، في الباب ١٠ الآية ١٤.

اكتراثهم للنُّذُر الإلٰهيّة، جاء دور نزول العذاب الأليم. جاء في الآية الكريمة السابقة: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ...﴾.

٢ ـ يكون الشيء سبباً للرحمة إذا شاء الله ذلك، فهو سبحانه يجعل الماء وسيلة للرحمة وإذا شاء جعله عامل عذاب ونقمة، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾.

٣ ـ الحيوانات مأمورة من قبل الله تبارك وتعالى، فأحياناً تكون مأمورة بالرحمة كالعنكبوت التي نسجت بيتها على الغار لتحفظ نبي الله ﷺ من كيد أعدائه، وأحياناً أخرى تكون مأمورة بالعذاب مثل طيور الأبابيل، والضفادع، والجراد... إلخ، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ... وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ﴾، والحقيقة، أنّ كلّ الوجود رهن إشارته تبارك وتعالى وطوع أمره، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١).

٤ ـ معظم البلايا ذات طابع تأديبي إصلاحي، وأحياناً، تُمنح مهلة بعد كلّ عقوبة من أجل المراجعة والتوبة، ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾.

٥ ـ المعصية مقدّمة للتكبّر، والتكبّر نافذة على الكفر والجحود، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

إشارات:

- **«نَكث»**، على وزن «مَكْث» بمعنى فلّ الحبل المفتول، ثمّ أُطلق على نقض الميثاق والعهد.
- قد يكون المراد بـ**«الأجل»** في هذه الآية هو الأمد الذي حدّده موسى عليه السلام لقومه لرفع البلاء عنهم، على سبيل المثال، أنّه في الوقت الفلاني سيرفع هذا

---

(١) سورة الفتح: الآيات ٤ ـ ٧.

البلاء عنكم، حتى يتّضح لهم أنّ ذلك كان بلاءً من الله وليس صدفة.

أو ربّما يكون المقصود هو أنّ هؤلاء القوم اللجوجين سيصيبهم عذاب محتوم، ولكن حتى بلوغ الأجل المحتوم والغرق في البحر، سيرفع عنهم العذاب مؤقتاً.

❑ العهد هو، أن يستجيب الله تبارك وتعالى لدعاء موسى عليه السلام إذا دعاه، ولكن يحتمل أيضاً أن يكون المقصود هو عهد النبوّة وتكون «الباء» باء القسم، يعني نقسم عليك بحقّ مقام نبوّتك إلّا ما دعوت الله ليرفع عنّا هذا البلاء[1].

التعاليم:

١ ـ الحاجة والشدّة تذلّ كبرياء الإنسان وتحطّم غروره، ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا...﴾.

٢ ـ حتى الكافرون عندما يتوسّلون بأولياء الله يحصلون على مرادهم، ﴿يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا﴾.

٣ ـ قوم فرعون أيضاً كانوا يؤمنون بإله قادر لموسى، ﴿يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾.

٤ ـ الدعاء له أثر فاعل في استجلاب الرحمة الإلٰهيّة ودفع الشدائد والبلايا، ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾.

٥ ـ تحرير البشر هو من صميم رسالات الأنبياء، ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

٦ ـ الله وحده القادر على رفع العذاب الإلٰهيّ، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾.

٧ ـ ينبغي ألّا نثق كثيراً بوعود الاضطرار التي يطلقها الآخرون، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا... يَنكُثُونَ﴾.

٨ ـ روح التعدّي والتمرّد تركب الإنسان، في الغالب، حينما يشعر بالرخاء والاستغناء، ﴿كَشَفْنَا... يَنكُثُونَ﴾، وفي آية أخرى نقرأ ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧﴾[2].

٩ ـ الأحداث السارة والمريرة في نظام الوجود متمرحلة، ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) سورة العلق: الآيتان ٦ ـ ٧.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾

إشارات:

□ لا شكّ في أنّ مفهوم «الانتقام» هنا يعني إنزال العقاب والعذاب الذي يستحقّون ولكن ليس من باب الحقد والانفعال.

□ لفظة «يَمّ» كانت تطلق في مصر القديمة على البحر وعلى نهر النيل أيضاً، وعلى هذا الأساس، وحيث إنّ هذه القصّة تتعلّق بمصر، لهذا استفاد القرآن الكريم من المفردات القديمة للمصريين في بيان هذه الحادثة[1].

التعاليم:

١ ـ الانتباه إلى صفة الانتقام عند الله تبارك وتعالى مدعاة لاستذكار الإنسان وتركه المعصيةَ، ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾، فالله تعالى هو أرحم الراحمين، وهو المنتقم أيضاً.

٢ ـ نحن الذين نصنع مصيرنا، ونحن العامل الرئيس لكلّ البلايا والشدائد التي نواجهها، ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ... بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ﴾.

٣ ـ ثمن الغفلة عن آيات الله باهظ جداً، ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ... وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾.

﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾

إشارات:

□ «الإرث» في اللغة هو المال الذي ينتقل من شخص إلى آخر من دون تجارة ومعاملة، سواء أكان المنتقل منه حيّاً أم ميتاً[2].

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

❑ في الحقيقة، إنّ قصّة عبور النبي موسى عليه السلام وأتباعه البحر وغرق فرعون ورهطه بعذابٍ من الله، ترسم لنا صورة عن مشاهد يوم القيامة، إذ يدخل الجميع جهنّم، ثمّ بعد ذلك، ينجّي الله المتّقين منها، ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا... ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾(١).

❑ كانت تحت تصرّف آل فرعون بلاد شاسعة ويدلّ على ذلك أنّها كانت ذات آفاق متعدّدة ومشارق ومغارب متباينة، ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾، كما إنّها امتازت بالخصب والنماء الوفير والبركات المادّية والمعنوية، فهي كانت مهبط رسالات الأنبياء ومدفن الكثير منهم.

❑ لقد أثبت القرآن الكريم كرويّة الأرض قبل أن يكتشف الإنسان ذلك، والدليل على ذلك عبارة تعدّد المشارق والمغارب في الآية الكريمة، التي تستلزم أنّها كروية ومتحرّكة.

❑ يبشّر الله تعالى في هذه الآية رسوله الكريم ﷺ بالنصر والظفر. استخدام لفظة «ربّك» في العبارة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، تعني أنّك أنت أيضاً مشمول بدعمنا ونصرنا.

التعاليم:

١ ـ نصرة الله تبارك وتعالى للمستضعفين لا تخصّ قوم بني إسرائيل وحدهم، بل هي سنّة إلٰهيّة خالدة. يقول الله ﷻ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾، ولم يقل: «**أورثنا بني إسرائيل**».

٢ ـ لقد عانى بنو إسرائيل ولفترة طويلة الاستضعاف والذلّ تحت ربقة فرعون وحكمه، ﴿كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾.

٣ ـ دولة الأنبياء هي دولة المستضعفين، ﴿يُسْتَضْعَفُونَ﴾،

٤ ـ النصر رهنٌ بالصبر والثبات. والمستضعفون والأمّة الصابرة والمرابطة هم ورثة الأرض، ﴿وَأَوْرَثْنَا... بِمَا صَبَرُوا﴾.

---

(١) سورة مريم: الآيتان ٧١ ـ ٧٢.

٥ ـ الله تبارك وتعالى منجز وعده دونما نقص. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

٦ ـ هلاك آل فرعون ووصول بني إسرائيل إلى الحكم، هو من كلمات الله تعالى الحسنى ووعوده الناجزة، ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

٧ ـ التحوّلات الاجتماعيّة والتاريخية كلّها بيد الله تعالى، ﴿وَأَوْرَثْنَا... وَدَمَّرْنَا﴾.

٨ ـ كان قوم فرعون قد بلغوا شأواً بعيداً في الصناعة وفن العمارة، ﴿يَصْنَعُ... يَعْرِشُونَ﴾، بيد أنّ التطوّر والتقدّم الذي يكون بمعزل عن الدين والإيمان عاقبته وخيمة.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

إشارات:

- «مُتبّر» تعني مهلك وهي مشتقّة من «التبار»، الهلاك.
- إنّ لله في خلقه شؤوناً، أولئك الذين قضوا عمراً في ممارسة السّحر والدجل والشعوذة، حين شاهدوا معجزة موسى آمنوا إيماناً لم ترهبهم معه تهديدات فرعون ولا وعيده، بينما أصحاب موسى عليه السلام وعلى الرغم من معايشتهم كلّ تلك المعجزات وانتصارهم على فرعون وعلى الانحراف وعبادة الأوثان لقومهم، ضلّوا مرّة أخرى بطلبهم من موسى أن يجعل صنماً آلهة.
- نقرأ في نهج البلاغة أنّ أحد اليهود اعترض على المسلمين عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قائلاً: ما دفنتم نبيّكم حتى اختلفتم فيه، فردّ عليه الإمام عليه السلام قائلاً: **«إنّما اختلفنا عنه لا فيه، ولكنّكم ما جفّت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيّكم: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، فقال: إنّكم قوم تجهلون»**[1].

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٣١٧.

التعاليم:

١ ـ للعبادة (الحقّة أو الباطلة) حضور دائم في تاريخ البشرية، ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾؛ (في عصر النبي موسى عليه السلام أيضاً كان يوجد بعض الأفراد الذين يعبدون الأصنام).

٢ ـ البيئة لا تُكره الإنسان بل تؤثّر عليه، ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾، إذن، ما لم يترسّخ الإيمان في قلوبنا، فلا نقرب البيئات أو الثقافات الموبوءة والفاسدة، ذلك أنّ مشاهدة لقطات من فيلم، أو صور، أو القنوات الفضائية، أو البيئة الاجتماعية، تترك تأثيراً عظيماً في الإنسان بحيث تعطّل أو تذهب بجميع الجهود الإصلاحية للقادة.

٣ ـ أحياناً يغفل المرء عن أهمّ النعم فيقابلها بالجحود والنكران، ﴿وَجَٰوَزْنَا... ٱجْعَل لَّنَآ﴾.

٤ ـ ربّما أدّى الانحراف الفكري بالإنسان أحياناً إلى أن يطلب من الزعماء الروحيين طلبات غير معقولة، ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾.

٥ ـ الإنسان، فرداً أو أمّة، معرّض في أيّ لحظة إلى خطر الانحراف والسقوط، ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى...﴾.

٦ ـ الإيمان السطحي، إيمان عابر وزائل، ﴿وَجَٰوَزْنَا... قَالُوا۟... ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾.

٧ ـ الصديق الداخليّ الجاهل أسوأ من العدو الخارجيّ العالم، ﴿وَجَٰوَزْنَا... قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل﴾.

٨ ـ مطالب الشعب ليست دائماً محقّة وصحيحة، ورغبات الأغلبية لا تعتبر قيمة في كلّ الأحوال، ﴿قَالُوا۟... ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾.

٩ ـ استنساخ النماذج والتقليد والاقتباس كلّها من خصال الإنسان، ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾.

١٠ ـ عبادة الأوثان منشؤها الجهل، وهي فارغة من أيّ منطق أو عقل، ﴿تَجْهَلُونَ﴾. يضع البيان القرآني الجهل في إزاء العقل لا العلم، بمعنى

تطلق صفة الجهل على العمل الذي يفتقد للمنطق أو العقل.

١١ ـ المطالبة بإله حسّي (صنم مثلاً) ومن نبي عظيم كموسى عليه السلام، هو دليل جهل عميق ومتأصّل، ﴿تَجْهَلُونَ﴾.

١٢ ـ الانحراف بشقّيه الفكري والعملي زائل لا محالة، ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، نعم، إنّ عاقبة الباطل هي الهلاك والفناء، لذا، لا ننبهر بظاهره البرّاق.

١٣ ـ ينبغي أن تقوم العبادة على العقل وشكران النعم، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ﴾، يمكن الوصول إلى الله ولكن لا يمكن صنعه ﴿أَبْغِيكُمْ﴾، كما إنّ عبادة غير الله لا تستقيم مع العقل وروح الشكر والعرفان.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

إشارات:

- «يَسومونكم» مشتقّة من مادة «سوم»، والتي تعني الذهاب في طلب شيء، أو فرضه.
- في الآية السابقة، نُسب تفضيل بني إسرائيل على العالمين إلى الله تعالى وحده، ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فيما نجد هذه الآية تستعمل صيغة الجمع ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾، لعلّ هذا التباين في استخدام صيغتي المفرد والجمع راجع إلى أنّ إنقاذ الله بني إسرائيل ناجم عن صبرهم وثباتهم وهداية موسى لهم، وقد جرت العادة استخدام ضمير الجميع في الحالات التي تنزل فيه الألطاف الإلٰهيّة بالواسطة، على سبيل المثال يقول عزّ وجلّ عن نزول المطر: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾[١]، ذلك أنّ البحر، والحرارة، والسحاب، والرياح، كلّ هذه العوامل أدّت دوراً مشتركاً أفضى في نهاية المطاف إلى نزول المطر.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٨.

التعاليم:

١ ـ الله تبارك وتعالى هو المنجي الحقيقي، وإن تمّ ذلك بواسطة هداية موسى وقيادته، ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾.

٢ ـ ذكر نعم الله تعالى، مدعاة للثبات والاحتراز من الشرك، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ... وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾.

٣ ـ يجب على القادة أن يذكّروا دائماً بنعم الله تعالى، لئلا يغرق الناس في الغفلة، ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾.

٤ ـ الطاغية بدون حاشيته وأعوانه نمر من ورق، ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾.

٥ ـ يلجأ الطغاة إلى قتل الأبرياء للاستمرار في الحكم، ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

٦ ـ النساء والشباب هم أهداف في مخطّطات الطغاة، ﴿يُقَتِّلُونَ... وَيَسْتَحْيُونَ﴾.

٧ ـ لا شكّ في أنّ الإبقاء على الأمهات وقتل أبنائهم أمام أعينهم هو أقسى العذاب وأشدّه، ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

٨ ـ أحياناً تكون المكاره والحوادث المريرة وسيلة للامتحان الإلٰهيّ، ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٩ ـ فلنحتسب الصعاب والشدائد، مهما عظمت، في سبيل تربية الإنسان والامتحان الإلٰهيّ، ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

إشارات:

□ مرّ علينا في الآية ٥١ من سورة البقرة ميقات الأربعين ليلة لموسى، ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، بينما تقول هذه الآية: إنّ الميقات كان ثلاثين ليلة ثمّ أضيفت إليها عشر أخرى، ويفسّر الإمام الباقر عليه السلام هذا الأمر بأنّه امتحان لبني إسرائيل. ونقرأ في الروايات أيضاً: أن الثلاثين ليلة التي وعد موسى ذو

القعدة، والعشر التي تمّم الله بها الأربعين ليلة عشر ذي الحجة[١].

على الرغم من أنّ موسى عليه السلام بقي في جبل الطور أربعين يوماً وليلة، (وقد ورد ذلك أيضاً في التوراة في سفر الخروج)، إلّا أنّ عبارة أربعون ليلة قد تكون لجهة أنّ المناجاة غالباً ما تكون في جوف الليل، أو أنّ حساب الأيّام في العصور القديمة كان على أساس ظهور القمر، ومعلوم أنّ القمر يظهر في الليل، لذلك، فقد تمّت الاستفادة من الليل لأغراض التقويم وحساب الأيام.

- تغيير الخطط والبرامج يكون لحكمة تقتضي ذلك، مثلاً، لا ضير في تغيير وصفة الطبيب في الحالات الخاصة للمريض، وعلى المنوال نفسه، تمّ زيادة الثلاثين ليلة إلى أربعين. وكذا الحال مع مسألة «البداء» بالنسبة إلى الله تبارك وتعالى، التي تعني تغيير البرنامج تبعاً لتغيّر الظروف، بطبيعة الحال، إنّ الله تعالى يعلم مسبقاً بكلّ هذه التغيّرات، كما هو الحال مع الطبيب الذي يعلم أحياناً أنّ حالة مريضه ستتغيّر بعد يومين من تناوله الدواء الذي يصفه له، وبالتالي سوف يحتاج إلى وصفة دواء جديدة. وبالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى، فإنّ المسألة لا تعتبر، بأيّ حال من الأحوال، الرجوع عن الحكم، أو تغيير الهدف، أو طروء أمر حادث، أو تغيّر في الموقف، لأنّه يترتّب على كلّ ذلك الجهل ومحدوديّة المنبع، وهو ما يتّصف به الإنسان، في حين أنّ الله تبارك وتعالى يقوم بهذه التغييرات بهدف ابتلاء الإنسان وإصلاحه.
- ثمّة أسرار يستبطنها العدد «أربعون»، فلهذا العدد مكانة خاصة في ثقافة الأديان وفي الروايات الإسلاميّة، نستعرض هاهنا بعض الأمثلة:
  - استمرّ عذاب الكفّار في عصر نوح بالطوفان مدّة أربعين يوماً.
  - فترة التيه لبني إسرائيل في عرض الصحراء كانت أربعين سنة.
  - احتجب النبي الكريم صلى الله عليه وآله عن زوجه خديجة عليها السلام أربعين يوماً حيث ظلّ معتكفاً حتى نزل عليه الطعام من السماء فكان ذلك تمهيداً لولادة السيدة الزهراء عليها السلام.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

■ بُعث النبي الكريم ﷺ للرسالة وهو في سنّ الأربعين.

■ أفق الكمال الروحي والمعنوي مفتوح أمام الإنسان حتى يبلغ الأربعين من عمره وبعد ذلك يضيق عليه ويتعسّر.

■ إذا أخلص الإنسان في العمل مدّة أربعين يوماً، فإنّ قلبه سيمتلئ بالحكمة ويفيض عن لسانه.

■ جاء في الروايات التأكيد على قراءة بعض السور والأدعية أربعين مرّة من أجل الفرج بعد الشدّة ورفع بعض الحاجات.

■ عدم قبول بعض الأعمال، كالصلاة، مدّة أربعين يوماً إذ قمنا ببعض المعاصي.

■ إذا شهد أربعون مؤمناً بصلاح الميّت غفر الله له[١]. وورد في بعض المصادر فضل العدد «أربعون» في مجال تدوين الأحاديث أيضاً[٢].

❑ كيف يمكن القول إنّ النبي موسى عليه السلام قد استخلف أخاه لغيبته المؤقّتة، ولم يستخلف النبي الكريم ﷺ أحداً لغيبته الأبدية؟! هذا على الرغم من أنّ مصادر أهل السنّة أيضاً قد تواترت على نقل حديث المنزلة الذي يخاطب فيه الرسول الكريم ﷺ الإمام عليّاً عليه السلام قائلاً: **«أنت منّي بمنزلة هارون من موسى»**[٣]. ونسأل هنا: هل تُرك الناس لشأنهم في زمن غيبة الإمام المهدي عليه السلام؟!

❑ امتحانان تعرّض لهما قوم موسى هما: الامتحان الأول، إضافة عشرة أيام أخرى إلى مهلة الثلاثين يوماً التي وعدهم موسى عليه السلام إيّاها، والامتحان الثاني، عجل السامريّ، إذ يقول عزّ من قائل: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ

---

(١) سفينة البحار، ج ١، ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥، ونصّ الحديث هو: «إذا ماتَ المُؤمنُ فَحَضَر جِنازتَه أربعونَ رَجُلاً مِن المؤمنينَ فَقالوا: اَللّهمَّ إنّا لا نَعلمُ مِنهُ إلّا خَيرًا وأنتَ أعلَمُ بِه مِنّا! قالَ اللهُ تباركَ وتَعالَى: إنّي قَد أجَزتُ شَهادتَكُم وغَفَرتُ لَه ما عَلِمتُ ممّا لا تَعلَمونَ».

(٢) تفسير الفرقان؛ و«أربعين در فرهنگ اسلامى» (الأربعون في الثقافة الإسلامية)، رضا تقوى.

(٣) صحيح البخاري، ج ٦، ص٣؛ صحيح مسلم، ج ٤، ص١٨٧؛ سنن ابن ماجة، ج ١، ص٤٢؛ مسند أحمد بن حنبل، ج ١ ص١٧٣، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٩ و١٨٢.

﴿ٱلسَّامِرِيُّ﴾[1]، وذلك عندما خرج موسى إلى ميقات ربّه وقد وعد قومه بثلاثين يوماً ليتلقّى أحكام الله تعالى، ولمّا زاده الله على الثلاثين عشراً قال قومه: قد أخلفنا موسى، فانقطع أملهم بعودته إليهم، فذهبوا كلّ مذهب منحرف. هذا، وعلى الرغم من غياب موسى في جبل الطور، لكنّ ربّه لم يغب لكي يلتمس قومه في عبادة الأصنام ربّاً.

- المقصود بالإصلاح المذكور في الآية هو إصلاح الشؤون الاجتماعيّة للمجتمع، لا إصلاح السلوك الشخصي. (والدليل على ذلك دخول كلمة «أَصلِح»، على «اُخلُفني»).
- كما في جميع العصور، ظهر في عصر موسى عليه السلام مفسدون متآمرون، وهو ما دفع موسى إلى القلق من ناحيتهم وأن يوصي أخاه هارون بالحذر من أن يؤول زمام الأمور إليهم، وبالتالي يتّبع نهجهم عن قصدٍ أو غيره، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا تنزل الكتب السماوية على الأنبياء فجأة دون أيّ تمهيدات أو استعداد نفسي؛ إذ إنّ الجدارة والاستحقاق من مستلزمات العبادة والمناجاة العرفانية آناء الليل، ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً...﴾.

٢ ـ ينبغي ألّا تصرف المسؤولياتُ الإنسانَ، حتى على مستوى القائد، عن العبادة والاعتكاف والخلوة مع الله تعالى، ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ...﴾.

٣ ـ مواقيت الله مع الأنبياء عبارة عن أماكن من قبيل جبل الطور وغار حراء، أمّا الضيافة الإلٰهيّة لعباده الصالحين فهي الأدعية والمناجاة، ﴿وَوَٰعَدْنَا...﴾.

٤ ـ في هدأة الليل، تشتاق النفس للمناجاة، ﴿لَيْلَةً﴾.

٥ ـ العبادة المتواصلة طيلة أربعين يوماً تترك تأثيرات خاصّة على النفس، ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا... فَتَمَّ﴾.

---

(١) سورة طه: الآية ٨٥.

٦ ـ يجب تعيين الآماد والآجال لإنجاز الأعمال، ﴿أَرْبَعِينَ﴾.

٧ ـ في خضمّ تحوّلات النهضة والثورة، يحتاج القائد الجديد أن يمخض الرأي إلى جانب القائد السابق، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي...﴾.

٨ ـ لا يجوز أن يخلو المجتمع من قائد، ﴿ٱخْلُفْنِي﴾.

٩ ـ قد أذن الله للأنبياء بتعيين خلفائهم من بعدهم، ﴿ٱخْلُفْنِي﴾.

١٠ ـ على النبي تعيين إمام وقائد للناس بإذن الله ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾، وفي سبيل إصلاح المجتمع ﴿وَأَصْلِحْ﴾ وبعيداً عن أيّ انحراف، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

١١ ـ لا يجوز وجود قائدين متزامنين. فهارون عليه السلام كان كأخيه موسى نبيّاً إلّا أنّ القيادة كانت لموسى عليه السلام، ﴿ٱخْلُفْنِي﴾؛ (إذن، الإمامة والقيادة شيء آخر يختلف عن النبوّة، من هنا اختار موسى أخاه هارون خليفة ليخلفه في قومه طيلة فترة غيابه عنهم).

١٢ ـ لا يكفّ الأنبياء من الإشفاق على أمّتهم ويرون أنّ مسؤوليتهم تحتّم عدم تركهم دون قائد ولو لبضعة أيّام، ﴿ٱخْلُفْنِي﴾.

١٣ ـ أهمّ مسؤولية للقائد، إصلاح الأمّة، ﴿وَأَصْلِحْ﴾.

١٤ ـ لا ينبغي للقائد الكفّ عن دعوة الناس إلى الإصلاح، حتى وإن جنحوا للفساد أو سعوا إليه، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

١٥ ـ الذكرى مفيدة بكلّ صورها. فعلى الرغم من أنّ هارون عليه السلام كان نبيّاً إلّا أنّ ذلك لم يمنع أخاه موسى من تذكيره بمسؤوليتين رئيستين تقع على عاتقه: الإصلاح واجتناب الفساد، ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ...﴾.

١٦ ـ لا يمكن إصلاح المجتمع بالعناصر الفاسدة واتّباع المفسدين، ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

١٧ ـ المجتمع بحاجة إلى قائد مصلح ﴿وَأَصْلِحْ﴾، قائد لا يذعن أبداً لآراء المفسدين ومؤامراتهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾

إشارات:

- «دَكّ»، بمعنى سوّى بالأرض، وعلى هذا، فالمقصود من عبارة ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ هو أنّه حطّم الجبال وسوّاها كالأرض، وجاء في الروايات أنّ الجبل تناثر أقساماً، وسقط كلّ قسم منه في جانب أو غار في الأرض وتلاشى نهائياً.
- «خَرَّ»، بمعنى سقط سقوطاً يُسمع منه خرير، والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو[1]، و«صَعِقَ»، أي أغمي عليه على أثر الصوت الشديد.
- لقد وقع كلامٌ كثيرٌ بين المفسّرين حول تلك القوة العظيمة التي وقعت على ذلك الجبل، ولكن ما يبدو للنظر من مجموع الآيات أنّ الله أظهر إشعاعه من أحد مخلوقاته على الجبل (وتجلّي آثاره بمنزلة تجلّيه نفسه) ولكن ماذا كان ذلك المخلوق؟ هل كان إحدى الآيات الإلٰهيّة العظيمة التي بقيت مجهولة لنا إلى الآن، أو أنّه نموذج من قوة الذرّة العظيمة أو الأمواج عظيمة التأثير والدفع، أو الصاعقة العظيمة الموحشة التي ضربت الجبل وأوجدت برقاً خاطفاً للأبصار وصوتاً مهيباً رهيباً وقوّة عظيمة جداً، بحيث حطّمت الجبل ودكّته دكّاً؟... وثمة احتمال آخر في تفسير هذه الآية وهو... المقصود هو نوع من الإدراك الباطني والمشاهدة الباطنية، نوع من الشهود الكامل الروحي والفكري، ومهما كان ذلك الشيء، فإنّ ذلك الجبل قد تناثرت أجزاؤه وسقط موسى عليه السلام على الأرض مغمياً عليه من أثر الصوت العظيم لانهداد الجبل[2].
- إنّ طلب رؤية الله كان مطلباً طرحه جماعة من جهلة بني إسرائيل إذ أصرّوا على

---

(١) مفردات الراغب، مادة «خرّ».
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

موسى عليه السلام أنّهم لن يؤمنوا حتى يروا الله تعالى بالعين الباصرة (الآية ١٥٥)، ولم يكن هؤلاء الكافرون ليعلموا أنّ الرؤية تستحيل على العين الباصرة، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1]، بل تدركه عين البصيرة والإيمان. وفي هذا يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: **«رأته القلوب بحقائق الإيمان»**[2].

- يقول الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام في تفسير ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: **«أنا أوّل مَن آمن وصَدّق بأنّك لا تُرى»**[3].

- في أحد مجالسه، سأل الخليفة العباسي المأمون الإمام الرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله أليس من قول إنّ الأنبياء معصومون؟ قال: «بلى»، قال: فما معنى قول الله عز وجل إلى أن قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾، كيف يجوز أن يكون كليم الله موسى بن عمران عليه السلام لا يعلم أنّ الله تعالى ذكره لا تجوز عليه الرؤية حتى يسأله هذا السؤال؟ قال الرضا عليه السلام: **«إنّ كليم الله موسى بن عمران عليه السلام علم أنّ الله تعالى منزّه عن أن يُرى بالأبصار، ولكنّه لمّا كلّمه الله (عزّ وجلّ) وقرّبه نجيّاً رجع إلى قومه فأخبرهم أنّ الله تعالى كلّمه وقرّبه وناجاه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعته، وكان القوم سبعمائة ألف رجل فاختار منهم سبعين ألفاً ثم اختار سبعة آلاف، ثم اختار منهم سبعمئة، ثم اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربّه فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم في سفح الجبل وصعد موسى عليه السلام إلى الطور وسأل الله عز وجل أن يكلّمه ويسمعهم كلامه، فكلّمه الله تعالى ذكره وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام، لأنّ الله تعالى أحدثه في الشجرة ثم جعله منبعثاً منها حتى يسمعوه من جميع الوجوه، فقالوا: لن نؤمن بأنّ هذا الذي سمعناه كلام الله حتى نرى الله جهرةً، فلما قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا بعث الله عليهم صاعقة وأخذتهم الصاعقة بظلمهم فماتوا، فقال موسى: يا ربّ ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا:**

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.
(٢) تفسير الصافي.
(٣) تفسير «الاثني عشري».

إنّك ذهبت بهم فقتلتهم لأنّك لم تكن صادقاً في ما ادّعيت في مناجاة الله ﷻ إيّاك؟ فأحياهم وبعثهم معه، فقالوا: إنّك لو سألت الله أن يريك أن تنظر إليه لأجابك وكنت تخبرنا كيف هو ونعرفه حق معرفته؟ فقال موسى ﵇: يا قوم إنّ الله تعالى لا يُرى بالأبصار ولا كيفية له، وإنّما يُعرف بآياته ويعلم بأعلامه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى تسأله، فقال موسى ﵇: يا ربّ إنّك قد سمعت مقالة بني إسرائيل وأنت أعلم بصلاحهم: فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى سلني ما سألوك فلن أؤاخذك بجهلهم، فعند ذلك قال موسى ﵇: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ وهو يهوى، ﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ بآية من آياته ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾، يقول: رجعت إلى معرفتي بك عن جهل قومي، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ منهم بأنك لا تُرى» فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن[1].

في الحقيقة، إنّ موسى ﵇ أراد من خلال عبارته ﴿أَرِنِيٓ﴾ وردّ الله تعالى ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أن يُفهم الناس أنّه إذا كانت رؤية الله تبارك وتعالى تستعصي عليّ، فكيف بكم أنتم؟

❑ سأل معاوية بن وهب الإمام جعفر الصادق ﵇: يا ابن رسول الله ما تقول في الخبر الذي روي أنّ رسول الله ﷺ رأى ربّه، على أيّ صورة رآه؟ وعن الحديث الذي رووه أنّ المؤمنين يرون ربّهم في الجنّة على أيّ صورة يرونه؟ فتبسّم ﵇ ثمّ قال: **«يا معاوية ما أقبح بالرجل يأتي عليه سبعون سنة أو ثمانون سنة يعيش في ملك الله ويأكل من نعمه ثمّ لا يعرف الله حقّ معرفته»**، ثمّ قال ﵇: **«يا معاوية إنّ محمداً ﷺ لم يرَ الربّ تبارك وتعالى بمشاهدة العيان وإنّ الرؤية على وجهين رؤية القلب ورؤية البصر، فمن عني برؤية القلب فهو مصيب، ومن عني برؤية البصر فقد كفر بالله وبآياته لقول رسول الله ﷺ: من شبّه الله بخلقه فقد كفر»**. وقد حدّثني أبي عن أبيه عن الحسين بن علي قال:

---

(١) تفسير نور الثقلين والفرقان.

سُئل أمير المؤمنين عليه السلام فقيل: يا أخا رسول الله صلى الله عليه وآله هل رأيت ربّك؟ فقال: **وكيف أعبد من لم أره، لم تره العيون بمشاهدة العيان ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان فإذا كان المؤمن يرى ربّه بمشاهدة البصر فإنّ كل من جاز عليه البصر والرؤية فهو مخلوق ولا بدّ للمخلوق من الخالق فقد جعلته إذاً محدثاً مخلوقاً ومن شبّهه بخلقه فقد اتّخذ مع الله شريكاً**»[١]. وأيضاً عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «**ما رأيتُ شيئاً إلّا وقد رأيتُ الله قبله وبعده ومعه وفيه**»[٢] نعم، لا يستطيع المرء بعينه الباصرة أن يرى الله عزّ وجلّ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[٣]. وجاء في آية أخرى ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾[٤]. لقد رأى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ليلة أسري به إلى السماء آيات عظمة الله. طبعاً ما ورد في التوراة الحاليّة في ما يتعلّق بقصة النبي موسى عليه السلام في جبل الطور هو تحريف وزيف[٥].

التعاليم:

١ ـ الكلام مع موسى كان بهدف إرشاده وتربيته، ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾.

٢ ـ لا يُرى الله تبارك وتعالى بالعين الباصرة لا في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾.

٣ ـ تجلّي الله تعالى لمخلوقاته ممكن، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾.

٤ ـ يُعرف الله تعالى من آثاره، والتدبّر في آياته. (حقيقة التجلّي أيضاً غير معلومة، ولكن آثاره مشهودة)، ﴿تَجَلَّىٰ... جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾.

٥ ـ لم ير موسى عليه السلام ربّه لا لأنّه تنقصه الجدارة والأهلية، بل لأنّ الله منزّه عن الرؤية، ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾.

٦ ـ رؤية الله بالعين الباصرة دليل على جسمانيّته، وهو تبارك وتعالى منزّه عن ذلك، ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾.

---

(١) تفسير الفرقان، معاني الأخبار.
(٢) تفسير الفرقان.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.
(٤) سورة النجم: الآيتان ١٣ ـ ١٤.
(٥) التوراة، سِفر الخروج، الباب ٢٣، الآية ٩.

٧ ـ الفكر أو الرغبة المعيبة تتطلّب التوبة، فحينما يطرأ على ذهن الإنسان وهم باطل عن الذات الإلٰهيّة المقدّسة يجدر به الإسراع إلى تنزيهه سبحانه، ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾.

٨ ـ بعد اتّضاح الحقيقة، يجب الإذعان لها والاعتراف بها، ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ... وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾

إشارات:

□ عن الصادق عليه السلام قال: **«أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يا موسى تدري لما اصطفيتك بكلامي دون خلقي؟ قال: ربّ ولم ذاك؟ قال: فأوحى الله تعالى إليه يا موسى إنّي قلّبت عبادي ظهراً لبطن فلم أجد فيهم أحداً أذلّ لي نفساً منك، يا موسى إنّك إذا صلّيت وضعت خدّك على التراب»**(١).

وفي حديث قدسي شريف يقول الله تعالى: **«يا موسى إنّي اطلعت إلى خلقي اطلاعة فلم أجد في خلقي أشدّ تواضعاً لي منك، فمن ثمّ خصصتك بوحيي وكلامي من بين خلقي»**(٢).

التعاليم:

١ ـ كان موسى عليه السلام عبد الله المخلص، ﴿ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾؛ («الاصطفاء» تناول صفو الشيء).

٢ ـ النبوّة والرسالة مقام تنصيبي لا انتخابي، ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾.

٣ ـ لم يمنع نقل موسى للطلب الفظّ لقومه من اصطفائه للنبوّة، ﴿ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾.

٤ ـ أربعون ليلة من العبادة في الميقات، كانت تمهيداً لأخذ ألواح التوراة

---

(١) تفسير الصافي. (٢) تفسير نور الثقلين.

وتطبيقها. ﴿جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا... فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾

٥ ـ بعد القضاء على الطاغوت وتشكيل حكومة دينية، يجب العودة إلى الشريعة والأحكام الإلٰهيّة، ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾.

٦ ـ المسؤوليات الدينيّة والإرشادية نعمة إلٰهيّة تستحقّ الشكر والثناء، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (الشكر لا يقتصر على اللسان، بل يجب أن يترجم إلى التطبيق العملي للأحكام الإلٰهيّة).

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

إشارات:

- المراد بـ «**الألواح**» هو ألواح التوراة التي مرّ ذكرها في الآية السابقة.
- تضاربت الأقوال في المقصود بالأحسن في الآية الكريمة ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ نذكر منها: قد يكون المراد بها هو أنّ الضمير في «**أحسنها**» يرجع إلى «**القوة**» أو «**الأخذ بالقوّة**» وهو إشارة إلى أنّ عليهم أن يأخذوا بها بأفضل أنواع الجديّة والقوّة والحرص. أو أنّه كان فيها الحسن والأحسن، وكانوا مكلّفين بالأخذ بالأحسن فقط، أو ربّما كان المعنى هو أنّ تعاليم التوراة كانت الأفضل والأحسن بين جميع الشرائع والتعاليم في ذلك العصر. أمّا الأحسن المطلق فهو، بلا شكّ، القرآن الكريم كما يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[١].
- احتمال آخر يرد هنا وهو، قد يكون المقصود هو أنّكم إذا أخذتم بتعاليم التوراة وطبقتموها بقوّة وجدّ، فإنّكم ستظهرون على عدوّكم، وستستولون على منازلهم.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٥٥.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام أن قول الله تعالى ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾، يدلّ على أنه لم يكتب كل شيء[1].

□ المراد بـ ﴿دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ إمّا أن يكون قصر فرعون وبلاطه، أو منازل الساكنين في بيت المقدس قبل قدوم موسى عليه السلام إليها، أو ربّما هو مقام المتمرّدين على تعاليم موسى في يوم القيامة[2].

التعاليم:

١ ـ التوراة نزلت مكتوبة ومدوّنة، ﴿وَكَتَبْنَا﴾.

٢ ـ تلقّي الوحي يستدعي توافر القوّة والإرادة والجديّة، ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ﴾.

٣ ـ في زحمة السبل والبرامج يجب أن يختار المرء أفضلها وأن يعمل على تطبيقها بكلّ ما أوتي من قدرة، ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾.

٤ ـ التمرّد على الشرائع السماوية فسق، وتترتّب عليه عقوبة، ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

٥ ـ في العمل، يجب على القائد أن يكون في طليعة المبادرين. (الله تبارك وتعالى يأمر موسى أوّلاً ثمّ قومه)، ﴿فَخُذْهَا... يَأْخُذُواْ﴾.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

إشارات:

□ في حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إذا عظّمت أمّتي الدنيا نزعت عنها هيبة

---

(١) تفسير نور الثقلين. (٢) تفسير راهنما.

الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت بركة الوحي، وإن يروا سبيل الرشد لا يتّخذوه سبيلاً»[١].

التعاليم:

١ ـ فليعلم المتكبّرون أنّهم محرومون من الهداية والإيمان بآيات الله تعالى، ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾.

٢ ـ إنّ الله تبارك وتعالى لا يصرف لطفه عن أحد دونما سبب، بل إنّما ذلك جني أعمال الإنسان، ﴿سَأَصْرِفُ... يَتَكَبَّرُونَ﴾.

٣ ـ تكبّر الإنسان نابع من أحلامه المريضة، ﴿يَتَكَبَّرُونَ... بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

٤ ـ لا يليق الغرور والتكبّر بمخلوق ضعيف عاجز كالإنسان، ﴿يَتَكَبَّرُونَ... بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

٥ ـ إذا استمرّ الإنسان في تكبّره، فلن يهتدي بآيات أخرى، ﴿يَتَكَبَّرُونَ... كُلَّ ءَايَةٍ﴾.

٦ ـ الخيار بيد الإنسان، إن شاء اهتدى وإن شاء ضلّ، ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا... يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

٧ ـ دوام الغفلة والتكذيب بآيات الله تعالى، مدعاة للتكبّر وانحراف الرؤية والاختيار، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

إشارات:

- **«الحَبط»**، بطلان العمل وفقدانه الأثر. و**«حبطت الناقة»**، أن تأكل الدابّة سمّاً فينتفخ بطنها، وينشقّ، وعلى هذا تكون بعض أعمال الإنسان كالسمّ، إذ يضيع عمره هباءً، وتفنى حياته في غير طائل[٢].

---

(١) تفسير الصافي.
(٢) تفسير في ظلال القرآن.

□ حبط العمل لا يتعارض مع مفهوم العدل الإلٰهيّ، فهو أمر قهري وتكويني، وهو ثمرة فعال الإنسان، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

التعاليم:

١ ـ الكفر والتكذيب بآيات الله وراء حبط الأعمال السابقة، ﴿كَذَّبُوا... حَبِطَتْ﴾.

٢ ـ الثواب والعقاب في يوم القيامة تجسيد لأعمالنا، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٣ ـ ما هو أسوأ من المعصية، المداومة عليها، ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

إشارات:

□ «**عِجل**»، ولد البقرة لتصوّر عجلتها التي تعدم منه إذا صار ثوراً[(١)]، و«**حُلي**» جمع الحلي، وتعني أدوات الزينة والمجوهرات و«**خُوار**» هو الصوت الخاص الذي يصدر من البقر أو العجل.

□ عن الباقر عليه السلام: «**إنّ في ما ناجى موسى ربّه أن قال: يا ربّ هذا السامريّ صنع العجل فالخوار مَنْ صَنَعَه؟ قال: فأوحى الله إليه يا موسى إنّ تلك فتنتي فلا تفحص عنها**»[(٢)] والقرآن الكريم يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾[(٣)].

□ إنّ هذه القصّة مهمّة جداً بحيث إنّ الله تبارك وتعالى أشار إليها في أربع سور هي، سورة البقرة الآيات ٥١ و٥٤ و٩٢ و٩٣، وسورة النساء الآية ١٥٣، وسورة الأعراف الآيات المبحوثة هنا، وسورة طه الآية ٨٨ فما بعد. على أنّ

---

(١) مفردات الراغب، مادّة (عجل).

(٢) تفسير الفرقان.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٥.

هذه الحادثة، مثل بقيّة الظواهر الاجتماعيّة لم تكن لتحدث دون مقدّمة وأرضيّة، فبنو إسرائيل من جهة قضوا سنين مديدة في مصر وشاهدوا كيف يعبد المصريون الأبقار أو العجول، ومن جهة ثانية عندما عبروا النيل شاهدوا في الضفة الأخرى مشهداً من الوثنية، إذ وجدوا قوماً يعبدون البقر، وكما مرّ عليك في الآيات السابقة طلبوا من موسى عليه السلام صنماً كتلك الأصنام، ولكن موسى عليه السلام وبّخهم وردّهم، ولامهم بشدّة. ومن جهة ثالثة، تمديد مدّة ميقات موسى عليه السلام من ثلاثين إلى أربعين، الذي تسبّب في أن تشيع في بني إسرائيل شائعة وفاة موسى عليه السلام بواسطة بعض المنافقين، كما جاء في بعض التفاسير. والأمر الرابع، جهل كثير من بني إسرائيل بمهارة السامريّ في تنفيذ خطته المشؤومة، كل هذه الأمور ساعدت على أن تُقبِل أكثرية بني إسرائيل في مدّة قصيرة على الوثنيّة، ويلتفّوا حول العجل الذي أوجده لهم السامريّ للعبادة[١].

□ إذن، في ضوء ما تقدّم، فإنّ عوامل الانحراف أشياء عدّة منها:

١ ـ عدم وجود قائد أو غيابه.

٢ ـ جهل الناس وعدم معرفتهم.

٣ ـ وجود مزيج من علماء وفنانين ضالّين ومنحرفين، واستغلالهم العلومَ والفنون.

٤ ـ الجمال والبهارج الظاهرية.

٥ ـ الضجيج والدعاية الإعلامية المزيفة.

□ في الآية ٨٧ من سورة طه، نُسب صنع العجل إلى شخص يدعى السامريّ، في حين أنّ المثير هو نسبة بعض المصادر هذا العمل إلى هارون أخي موسى عليه السلام[٢]! وهنا نلاحظ أنّ الآية الكريمة تنسب هذا العمل إلى قوم موسى، لجهة قبولهم ورضاهم بهذا العمل، ومباركتهم ونصرتهم له[٣].

□ لقد لجأ النبي موسى عليه السلام إلى براهين ملموسة وواضحة لهداية قومه وإنقاذهم

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) التوراة، سِفر الخروج، الباب ٣٢.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

من الضلال ودسائس السامريّ وحبائله. على سبيل المثال، تطرّق إلى تفنيد ألوهية العجل مبيّناً أنّه مصنوع وليس صانعاً، وأن له مكاناً؛ وله وزن وحجم وشكل وهيئة، وهو فوق كلّ هذا لا يملك أن يهدي أو يرشد أحداً البتة[١].

التعاليم:

١ ـ أحياناً يولي الإنسان بعض الأشياء الموهومة أهميّة لا تستحقّها، قد تصل إلى حدّ العبادة، ﴿وَاتَّخَذَ﴾.

٢ ـ الدعوة إلى عبادة العجل ظهرت بعد التمرّد على الزعيم، وفي غياب القائد الحقّ، ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ (عندما ذهب موسى عليه السلام إلى الميقات).

٣ ـ يلجأ العدوّ إلى الألاعيب الفنية والأهواء النفسانية من أجل حرف الناس، (صنم من ذهب) ﴿حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا﴾.

٤ ـ للأمم تاريخ طويل في الردّة عن الدين. ﴿وَاتَّخَذَ... عِجۡلٗا﴾.

٥ ـ عجل السامريّ كان صنماً ليس أكثر، ﴿جَسَدٗا﴾.

٦ ـ تلعب زخارف الدنيا، والضجيج، والصخب دوراً كبيراً في انحراف الإنسان، ﴿حُلِيِّهِمۡ... خُوَارٌۚ﴾، لذا، لا ينبغي للمرء أن يتبع كلّ بريق أو نعيق.

٧ ـ يجب على المعبود هداية الإنسان، ﴿وَلَا يَهۡدِيهِمۡ﴾.

٨ ـ الشرك ظلم، ومن أشاح بوجهه عن الحقّ دونما برهان سوى اللجاج، وكان أسير ما صنعت يداه، فقد ظلم، ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾

إشارات:

❑ كناية عن الندم والحسرة، فعندما يقف الإنسان على الحقائق ويطّلع عليها وتُغلق بوجهه الأبواب، يضع ذقنه على يده من الندم والحسرة، ويضرب

---

(١) الميزان في تفسير القرآن.

أخماساً بأسداس، وكأنّه قد تماهى في يديه وذاب، من هنا، قول القرآن الكريم: ﴿سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾[١]. وكذلك تقول العرب لكلّ نادم على أمر فات منه أو سلف وعاجز عن شيء: «قد سقط في يديه»، و«أسقط» لغتان فصيحتان، وأصله من الاستئسار، وذلك أن يضرب الرجل الرجل أو يصرعه، فيرمي به من يديه إلى الأرض ليأسره فيكتّفه، فالمرميّ به مسقوط في يدي الساقط به، فقيل لكلّ عاجز عن شيء ومصارع لعجزه متندم على ما فاته: سقط في يديه وأسقط[٢]، أو ربّما كان التعبير كناية عن أنّ العجل سقط أمام أعينهم، كما نقرأ في الآية الكريمة ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾[٣].

التعاليم:

١ ـ يوجد طيف من الناس لا يقف على أخطائه ما لم يلمس لمس اليد عاقبة عمله، ﴿وَلَمَّا سُقِطَ...﴾.

٢ ـ لا يأس من رحمة الله تعالى حتى وإن كان ماضينا تشوبه عبادة العجل، ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا﴾.

٣ ـ الإنسان في خسران ما لم يتداركه الله تبارك وتعالى برحمته ومغفرته، ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾

إشارات:

□ عن ابن مسعود قال: احتجّوا في مسجد الكوفة فقالوا: ما لأمير المؤمنين عليه السلام

---

(١) تفسير راهنما.

(٢) تفسير الطبري، ذيل الآية.

(٣) سورة طه: الآية ٩٧.

لم ينازع الثلاثة كما نازع طلحة والزبير وعائشة ومعاوية؟ فبلغ ذلك علياً عليه السلام فأمر أن ينادى: الصلاة جامعة، فلما اجتمعوا صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: **«معاشر الناس، إنّه بلغني عنكم كذا وكذا»** قالوا: صدق أمير المؤمنين عليه السلام قد قلنا ذلك، قال: **«إنّ لي بسنّة الأنبياء أسوة في ما فعلت، قال الله تعالى فيم حكم كتابه:** ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، قالوا: ومن هم يا أمير المؤمنين؟ قال: **«أوّلهم إبراهيم عليه السلام»** إلى أن قال: **«ولي بأخي هارون عليه السلام أسوة إذ قال لأخيه:** ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي﴾، **فإن قلتم: لم يستضعفوه ولم يشرفوا على قتله فقد كفرتم، وإن قلتم: استضعفوه وأشرفوا على قتله فلذلك سكت عنهم فالوصيّ أعذر»**[١].

- عن النبي الكريم صلى الله عليه وآله في حديث طويل يقول فيه لعلي عليه السلام: **«يا أخي أنت سيفي بعدي وستلقى من قريش شدّة ومن تظاهرهم عليك وظلمهم لك. فإن وجدت عليهم أعواناً فجاهدهم وقاتل من خالفك بمن وافقك، وإن لم تجد أعواناً فاصبر وكفّ يدك ولا تلق بها إلى التهلكة، فإنّك منّي بمنزلة هارون من موسى عليه السلام، ولك بهارون أسوة، إذ استضعفه قومه وكادوا يقتلونه فاصبر لظلم قريش وتظاهرهم عليك، فإنّك بمنزلة هارون ومن تبعه وهم بمنزلة العجل ومن تبعه»**[٢].

- عن النبي صلى الله عليه وآله: **«رحم الله أخي موسى عليه السلام ليس المخبر كالمعاين لقد أخبره الله بفتنة قومه، ولقد عرف أن ما أخبره ربه حق وأن على ذلك لمتمسك بما في يديه فرجع إلى قومه ورآهم فغضب وألقى الألواح»**[٣].

- سئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام: لِمَ أخذ برأسه يجرّه إليه وبلحيته ولم يكن في اتّخاذهم العجل وعبادته له ذنب؟ فقال: **«إنّما فعل ذلك به لأنّه لم يفارقهم لمّا فعلوا ذلك ولم يلحق بموسى وكان إذا فارقهم ينزل بهم العذاب»**[٤].

---

(١) تفسير نور الثقلين.
(٢) تفسير الفرقان.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) تفاسير: نور الثقلين؛ الفرقان؛ الاثني عشرى.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ للمرء أن يُظهر حميّته الدينيّة إزاء الانحرافات الفكرية والعقدية، ﴿غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾.

٢ ـ أولياء الله تعالى يرثون لحال الناس حتى في غضبتهم، ﴿غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾.

٣ ـ الردّة والرجعية هي من التهم التي تُوجَّه إلى الثورات والحركات الإصلاحية، ﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي﴾؛ (لذا، على القائد أن يتحسّب لهذا الأمر ويتداركه).

٤ ـ أحياناً حتى جهود الأنبياء لا تجدي نفعاً مع المجتمع الفاسد والمنحرف، ﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي﴾.

٥ ـ لا يجوز استباق الأوامر الإلٰهيّة، ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾.

٦ ـ تأخّر موسى عليه السلام وتمديد ميقاته في جبل الطور كان بأمر من الله تعالى، وليس رغبة من موسى، ولكن، طبعاً، دون أن يخلو الأمر من بعد تربوي وتهذيبي، ﴿أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾.

٧ ـ حينما تتعرّض الأصول إلى التهديد، ينبغي ترك الفروع، ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾، لمّا رأى موسى عليه السلام قومه يجنحون نحو الشرك ويتركون عقيدة التوحيد، ألقى ألواح التوراة جانباً ـ وهي عبارة عن مجموعة من التعاليم والأحكام الإلٰهيّة ـ والتفت إلى الموضوع الأهمّ.

٨ ـ من أجل إحداث هزّة في المجتمع الفاسد، لا بدّ من حركة توبيخ قوية تظلّ حيّة في الذاكرة، ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ﴾، ورد في نهج البلاغة أنّ الإمام عليًّا عليه السلام عندما كان يريد لفت انتباه المستمع لخطبته، كان يضرب على وجهه الشريف «ثمّ ضرب على لحيته الكريمة»[1].

٩ ـ لا يجوز غضّ الطرف عن أخطاء وسقطات الآخرين بسبب موقعهم أو مكانتهم أو قرابتهم ﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ﴾، أحياناً يكون تقريع المقرّبين أمام

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢.

الملأ لبيان أهميّة الحدث وبمثابة إنذار للغرباء وردعهم، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾، كما إنّ الله تعالى يخاطب نبيّه الكريم ﷺ قائلاً: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1]؛ إذ من الواضح أنّ الهدف هو إنذار الآخرين وتحذيرهم.

١٠ ـ ينبغي أن يكون التعامل وديًا وعاطفياً في إزاء غضب الآخرين، ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ (لاحظ أنّ هارون ينادي موسى ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ على الرغم من أنّهما كانا من أب واحد وأمّ واحدة).

١١ ـ مستضعفو الأمس الذين نجّاهم موسى من ربقة فرعون، أصبحوا اليوم يستضعفون قادتهم، ﴿اسْتَضْعَفُونِي﴾.

١٢ ـ يبلغ الانحدار الأخلاقي للإنسان مبلغاً أن يهدّد وليّ نعمته بالقتل تحقيقاً لأهواء كعبادة العجل، ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾.

١٣ ـ لم يكن صحابة النبي موسى عليه السلام كلّهم عدولاً، فقد ارتدّ بعضهم ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾، وجنح بعض آخر إلى عبادة العجل.

١٤ ـ في توبيخنا لمن نحبّ، يجب أن لا نسمح للأعداء باستغلال الموقف، ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾.

١٥ ـ صمت الإنسان ولامبالاته تجاه الظلم والانحراف تجعله في خندق الظالمين، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ فهارون اعتبر السكوت ظلماً، لذلك يقول: إنّه لم يسكت على فعلتهم بل أكره على ذلك وهُدّد بالقتل.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

إشارات:

□ استغفار موسى عليه السلام كان إمّا لتقديم مثال حيّ للآخرين، أو بسبب تعنيفه أخاه هارون أمام الملأ، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٦٥.

لا يخفى أنّ موسى عليه السلام بهذا الاستغفار قد ردّ على العبارة العاطفية لهارون ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ بأحسن منها.

التعاليم:

١ ـ لا ننس إخوتنا وزملاءنا من الدعاء، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾.

٢ ـ في خضم انحرافات المجتمع، القادة هم أحوج من غيرهم إلى الدعاء واللطف الإلهيّ، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾.

٣ ـ العفو والمغفرة هما الخطوة الأولى للدخول إلى رحمة الله تعالى، ﴿اغْفِرْ... وَأَدْخِلْنَا﴾.

٤ ـ في الدعاء، يجب أن نستذكر ألطاف الله وصفاته، ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢)﴾

إشارات:

- يُستشفّ من الآية ١٤٩ أنّ بني إسرائيل قد ندموا على فعلتهم، وهذه الآية الكريمة تشير إلى أنّ الله تبارك وتعالى لم يتب عليهم، إلّا على نحو مماثل لما ورد في الآية ٥٤ من سورة البقرة، أي أن يقتل بعضهم بعضاً، ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، إذن، التوبة من الارتداد وعبادة العجل، والرجوع إلى عبادة الحقّ، ليست في أن يقول التائب: «أستغفر الله» فحسب، بل عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً، لتصير هذه الحركة في محاربة الشرك ثقافة راسخة على مدى الأجيال.

- عن الإمام الباقر عليه السلام: **«ما أجمل عبد ذِكْرَ الله أربعين يوماً إلّا زهّده الله في الدنيا وبصّره داءها ودواها، وأثبت الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه»**، ثم تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ

﴿نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ فلا يرى صاحب بدعة إلّا ذليلاً، ولا مفترياً على الله ﷻ وعلى رسوله وأهل بيته صلّى الله عليهم إلّا ذليلا»[1].

التعاليم:

١ ـ للإنسان ملء الإرادة والحرّية في اختيار دينه، وإن أودى به خياره هذا، أحياناً، إلى السقوط، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾.

٢ ـ المرتدّ مغضوب عليه من الله تعالى، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾.

٣ ـ غضب أولياء الله، هو من غضب الله تبارك وتعالى، ﴿غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا... غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾.

٤ ـ أولئك الذين يلهثون وراء المظاهر الخدّاعة للأصنام وأصواتها المجلجلة بدلاً من اتّباع نداء الإيمان سيلقون ذلّة في هذه الدنيا، ﴿وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾.

٥ ـ الغضب الإلٰهيّ لا يختصّ ببني إسرائيل وحدهم، بل هو سنّة الله جرت في سائر الأمم المرتدّة أيضاً وسوف تستمر، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾

التعاليم:

١ ـ طريق التوبة سالك دائماً، ولو بعد حين، ﴿ثُمَّ تَابُواْ﴾ («ثمّ» حرف عطف يدلّ على الترتيب مع التراخي).

٢ ـ التوبة من كلّ ذنب، تقتضي التعويض عن ذلك الذنب، فالتوبة عن عبادة العجل هي الإيمان الحقيقي بالله تعالى، ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾.

٣ ـ الدعوة إلى التوبة تحتاج إلى توفّر ظروف حاضنة مناسبة، ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

٤ ـ علاوة على المغفرة والصفح عن التائبين الحقيقيين، فإنّ الله تبارك وتعالى سوف يشمل هؤلاء برحمته الواسعة، ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، نعم، إنّ للأسماء الحسنى والصفات الإلٰهيّة تجليّات ومظاهر حكيمة.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ قانون السماء هو الرحمة الإلٰهيّة، والهداية المقرونة بالرحمة إنّما تصيب المؤمنين الذين يخشون الله تعالى، ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ... يَرْهَبُونَ﴾.

٢ ـ التوراة الأصلية غير المحرّفة كانت في عصرها وسيلة هداية للذين يخشون الله، ﴿هُدًى... يَرْهَبُونَ﴾.

٣ ـ الخشية من الله تبارك وتعالى، تفتح أبواب الرحمة بوجه الإنسان، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ... يَرْهَبُونَ﴾.

٤ ـ ما من شخصيّة تستأهل أن يقف الإنسان أمامها خائفاً وخاضعاً، ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

إشارات:

- لقد وقع بين المفسّرين كلام فيما إذا كان للنبي موسى عليه السلام ميقات واحد مع ربّه أو مواقيت عدّة، أو أنّ الموت في الميقات كان بسبب طلب رؤية الله تعالى أو بسبب عبادة قومه العجلَ، ونعتقد هنا أنّه لا ضرورة تلحّ على فهم الآراء المطروحة في هذه الموضوعات، لذلك، فإنّنا سنطوي عنها كشحاً.
- على الرغم من مشاهدة أصحاب موسى عليه السلام جميعَ هذه المعجزات، إلّا أنّهم

مع ذلك عادوا ليصرّوا من جديد على طلب رؤية الله أو سماع صوته تبارك وتعالى، مع العلم أنّ هؤلاء الأصحاب عبارة عن صفوة مختارة من بين ٧٠٠ شخص من قومهم، رافقوا موسى عليه السلام في ذهابه إلى الميقات في جبل الطور، ونزل عليهم العذاب الإلٰهيّ، ذلك أنّ من يشاهد المعجزة بأمّ عينيه فلا معنى بعد ذلك لتذرّعه.

- في العدد «سبعون» كما في العدد «أربعون» أسرار وألغاز خفيّة.

- في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سعد بن عبد الله القمي عن الحجّة القائم عليه السلام حديث طويل وفيه: قلت: فأخبرني يا ابن مولاي عن العلّة التي تمنع القوم من اختيار الإمام لأنفسهم؟ قال: **«مصلح أم مفسد»**؟ قلت: مصلح، قال: **«فهل يجوز أن تقع خيرتهم على المفسد بعد أن لا يعلم أحد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد»**؟ قلت: بلى، قال: **«فهي العلة، وأوردها لك ببرهان ينقاد لك عقلك»**، ثم قال عليه السلام: **«أخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله عزّ وجلّ، وأنزل عليهم الكتب وأيّدهم بالوحي والعصمة وهم أعلام الأمم أهدى إلى الاختيار منهم، مثل موسى وعيسى عليهما السلام، هل يجوز مع وفور عقلهما وكمال علمهما إذ همّا بالاختيار أن تقع خيرتهما على المنافق وهما يظنّان أنّه مؤمن»**؟ قلت: لا، قال: **«هذا موسى كليم الله مع وفور عقله وكمال علمه ونزول الوحي عليه اختار من أعيان قومه ووجوه عسكره لميقات ربّه عزّ وجلّ سبعين رجلاً ممّن لا يشكّ في إيمانهم وإخلاصهم، فوقع خيرته على المنافقين، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ إلى قوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ فلما وجدنا اختيار من قد اصطفاه الله عزّ وجلّ للنبوة واقعاً على الأفسد دون الأصلح، وهو يظنّ أنّه الأصلح دون الأفسد علمنا أنّ الاختيار لا يجوز إلّا لمن يعلم ما تخفي الصدور وما تكنّ الضمائر، ويتصرّف عليه السرائر وأن لا خطر لاختيار المهاجرين والأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء على ذوي الفساد لمّا أرادوا أهل الصلاح»**[1].

---

(١) تفسير نور الثقلين.

التعاليم:

١ ـ تبوّؤ الأفراد المناصب الحسّاسة والمواقع المهمّة يقتضي خضوعهم لاختبار دقيق واختيارهم بعناية، لا أن يتمّ وضع أيّ شخص (مهما كانت خلفيّته) في أيّ منصب كان، ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ﴾.

٢ ـ الموت أهون من تحمّل وخز كلام الناس، ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ﴾ (ليتك يا ربّي أهلكتنا قبل أن نأتي جبل الطور ولا نسمع قومنا وهم يقولون: لقد اخترت الصفوة لتذهب بهم إلى حتفهم و... إلخ).

٣ ـ يتعامل الأنبياء في أفعالهم وسلوكهم مع ظواهر الأمور لا بعلم الغيب. من هنا، ربّما يخفقون في اختيار الأصلح، ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾.

٤ ـ أحياناً ينزل العذاب الإلٰهيّ شاملاً ليحرق الأخضر واليابس، ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ (عذاب الصالحين هو بسبب سكوتهم وعدم مبالاتهم).

٥ ـ أحياناً تكون البلايا والكوارث امتحاناً إلهياً، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ...﴾، ليُعرف الأفراد ويميز بعضهم عن بعض، ﴿تُضِلُّ... وَتَهْدِي﴾.

٦ ـ من آداب الدعاء استهلاله بالثناء على الله تبارك وتعالى، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾.

٧ ـ لن تنزل الرحمة الإلٰهيّة ما لم تطهّر الروح من أدران المعاصي، ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾.

٨ ـ أفضل الصفح هو الصفح الإلٰهيّ (بخلاف صفح الناس الذي يكون مشفوعاً بالتأخير أو المنّة والإهانة)، ﴿خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾.

﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

إشارات:

□ الآية الكريمة إشارة إلى دعاء آخر للنبي موسى عليه السلام على إثر طلب سابق.

□ في كلمة ﴿هُدۡنَآ﴾ دلالة على توجّه هؤلاء القوم نحو الله سبحانه وعودتهم عن طريق المنحرفين وأولئك الذين طلبوا جزافاً رؤية الله.

□ نقلاً عن ابن عباس، حين نزلت الآية الكريمة ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ طمع الشيطان فيما إذا كانت هذه الآية تشمله، فجاء الردّ الإلٰهيّ قاطعاً في رفع هذا الوهم ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

□ إنّ رحمة الله تعالى واسعة، ولكن شمولها غيرَ المؤمنين هو فضل من الله ﷻ ومنّة[١].

□ روي في حديث عن النبي الكريم ﷺ أنّه قام في الصلاة فقال أعرابي وهو في الصلوة: أللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، فلما سلّم رسول الله ﷺ قال للأعرابي: «**لقد تحجّرت واسعاً**»، أي جعلت شيئاً واسعاً، أمراً ضيّقاً ومحدوداً، يريد رحمة الله ﷻ[٢].

التعاليم:

١ ـ أفضل الخطوات والأعمال، أكثرها ثباتاً ورسوخاً، ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾.

٢ ـ ما انفكّ الأنبياء يسعون إلى تحقيق سعادة الناس في الدنيا والآخرة، ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

٣ ـ أفضل الدعاء أشمله، ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

٤ ـ العودة الخالصة إلى الله تعالى، هي أن يكون المرء مشمولاً بالألطاف الإلٰهيّة، ﴿هُدۡنَآ﴾.

٥ ـ لا حدود تحدّ الرحمة الإلٰهيّة، لذا، فإنّ عجز الإنسان عن الوصول إليها، إنّما هو قصور منه، ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾، لا قصور يشوب فاعليّة الرحمة الإلٰهيّة، بل القصور هو في استعدادنا وقابليّتنا على الانتهال منها.

---

(١) تفسير «الاثني عشري».

(٢) تفسير مجمع البيان؛ الأمثل في كتاب الله المنزل.

٦ ـ إنّ رحمة الله هي الواسعة لا عذابه، ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِى وَسِعَتۡ كُلَّ شَىۡءٖۚ﴾.

٧ ـ الرحمة الإلٰهيّة هي القاعدة، وعذابه جلّ وعلا استثناء. (لاحظ أنّ الآية الكريمة استخدمت في الرحمة صيغة الفعل الماضي «**وَسعت**»، بينما جاء الفعل مضارعاً «**أُصيب**» في حالة العذاب).

٨ ـ الاستجابة لدعاء الأنبياء أيضاً تكون في حدود الحكمة الإلٰهيّة ومقتضياتها، ﴿وَٱكۡتُبۡ... فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ﴾.

٩ ـ الالتزام بالتقوى والعمل بالتكاليف يستتبعه شمول العبد بالرحمة الإلٰهيّة ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ﴾؛ في حين أنّ ارتكاب المعاصي لا يستتبعه عذاب حتمي، ما دام باب التوبة والاستغفار مفتوحاً، ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾.

١٠ ـ لا حدود لرحمة الله تبارك وتعالى، ولكن شرط الانتهال منها هو الالتزام بالتقوى، وأداء الزكاة، وحصول الإيمان، ﴿يَتَّقُونَ... ٱلزَّكَوٰةَ... يُؤۡمِنُونَ﴾، نعم، الذي امتنع عن أداء الزكاة، أو ترك التقوى، حُرم من الرحمة الإلٰهيّة وعرّض نفسه للعذاب الإلٰهيّ.

١١ ـ ورد موضوع الزكاة في شريعة اليهود أيضاً، ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

١٢ ـ الإيمان بتمام الآيات لا ببعضها هو سبب شمول العبد بالألطاف الإلٰهيّة، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلۡأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِى ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

إشارات:

□ كلمة «**أُمّي**»، نسبةً إلى «**أمّ**»، بمعنى الوالدة، وقد دار كلام كثير بين المفسّرين

حول معنى الكلمة في الآية، فبعضهم فسّرها بمن لم يتعلّم ولم يدرس، يعني أنّه باقٍ على الحالة التي ولد بها من بطن أمّه أوّل يوم، بينما أحال بعضٌ الآخر معنى الكلمة إلى «الأمّة» أي أنّه نهض من بين جماهير الأمّة لا من طبقة الأعيان والمترفين والجبارين، وهناك فريق ثالث نسب الكلمة إلى «**أُمّ القُرى**» وهي مكّة المكرّمة، أي أنّ الأمّي تعني المكّي.

- لا جدال في أميّة الرسول الأكرم ﷺ بمعنى أنّه لم يكن يعرف القراءة والكتابة، ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾، وقد ورد هذا المعنى أيضاً في الآية ٤٨ من سورة العنكبوت ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾[١].
- أساساً، كان عدد العارفين بالقراءة والكتابة في المحيط الحجازي قليلاً جدّاً، فقد كانت الأمية هي الحالة السائدة على الناس بحيث إنّ العارفين بالكتابة والقراءة كانوا معروفين بأعيانهم وأشخاصهم، فقد كان عددهم في مكّة من الرجال لا يتجاوز ١٧ شخصاً، ومن النساء امرأة واحدة. ومن المسلّم به أنّ النبي الكريم ﷺ لو كان قد تعلّم القراءة والكتابة ـ في مثل هذه البيئة ـ لدى أستاذ لشاع ذلك وصار معروفاً للجميع، وعلى فرض أنّنا لم نقبل بنبوّته، ولكن كيف يمكنه ﷺ أن ينفي ـ في كتابه ـ بصراحة هذا الموضوع؟ ألّا يعترض عليه الناس ويقولون: إنّ دراستك وتعلّمك القراءة والكتابة أمرٌ مسلّمٌ معروف لنا، فكيف تنفي ذلك[٢]؟
- «**الإصر**»، يعني في الأصل عقد الشيء وحبسه، ويطلق على كل عمل يمنع الإنسان من الفعالية والحركة، ويطلق أيضاً على العهد والميثاق أو العقوبات، لأنّ هذه الأمور تحدّ من حركة الإنسان. «**الأغلال**»، جمع «**غُلّ**»، وهي السلسلة، وتشمل المعتقدات الباطلة، والخرافات، وعبادة الأوثان، والبدع، والسنن الجاهلية المقيِّدة.
- من المعلوم أنّ عقيدتنا في التوراة والإنجيل الحاليين أنّهما كتابان محرّفان،

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) المصدر نفسه، نقلاً عن كتاب فتوح البلدان، البلاذرّي، ص ٤٥٩.

طبقاً للأدلة التي بحوزتنا، ولكن مع ذلك فهما لا يخلوان من بعض الإشارات والبشارات عن نبيّ الإسلام ﷺ، الأمر الذي أتاح لأهل الكتاب أن يعرفوا النبي العظيم كمعرفة الوالد لولده[1]. فلو لم يكن اسم وصفات النبي الكريم قد وردت في التوراة والإنجيل، لجاء المعارضون بهذين الكتابين وقالوا: لم نجده في كتبنا، وبالتالي لكان من الأفضل لهم مواصلة عدائهم عن هذا الطريق، ولما اضطرّوا إلى تجييش الجيوش ودفع الأموال الطائلة والجزية.

- نقرأ في ما ورد من أحاديث عن طريق الفريقين أنّ النبي الكريم ﷺ قال: **«ما أنزل الله آية فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إلّا وعليٌّ رأسها وأميرها»**[2].

- يخاطب النبي الكريم ﷺ أصحابه قائلاً: **«أيّ الخلق أعجب إيماناً؟»** قالوا: الملائكة، فقال: **«الملائكة عند ربهم فما لهم لا يؤمنون»**؟ قالوا: فالنبيون، قال: **«النبيون يوحى إليهم فما لهم لا يؤمنون»**، قالوا: فنحن يا نبي الله، قال: **«أنا فيكم فما لكم لا تؤمنون إنما هم قوم يكونون بعدكم يجدون كتاباً في ورق فيؤمنون به فهو معنى قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي الظافرون بالمراد الناجون من العقاب الفائزون بالثواب»**[3].

التعاليم:

١ ـ الذين يتّبعون النبي الكريم يشملهم الله برحمته الخاصّة، ﴿فَسَأَكْتُبُهَا... ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾.

٢ ـ النبي الكريم ﷺ هو الوسيلة إلى رحمة الله الواسعة، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا... ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾.

٣ ـ حاز النبي الأكرم ﷺ على مقامي النبوّة والرسالة، ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ﴾، كلمة «النبيّ» تطلق على كل من يبيّن رسالة الله إلى الناس، ويوحى إليه، وإن لم

---

(١) مثلاً: التوراة، سِفر التكوين، الباب ١٧، الآية ١٨؛ سِفر الظهور، الباب ٤٩، الآية ١٠؛ انجيليو حنّا، الباب ١٤، الآية ١٥ والباب ١٥، الآية ٢٦.

(٢) تفسير الفرقان. (٣) تفسير مجمع البيان.

يكن مكلّفاً بالدعوة والتبليغ، ولكنّ الرسول ـ مضافاً إلى كونه نبيّاً ـ مكلّف بالدعوة إلى دين الله، وتبليغه والاستقامة في هذا السبيل.

٤ ـ العلائم والصفات المذكورة في التوراة والإنجيل كانت مطابقة للنبي الكريم على نحوٍ وكأنّ أهل الكتاب كانوا يجدون النبي نفسه في الكتابين المقدّسين. فالله ﷻ يقول: ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾، ولم يقل: «يجدون علائمه».

٥ ـ من أجل أن يكون الكلام مؤثّراً في البرهنة على الحقّ، لا بدّ من توفّر وثائق رسمية ومدوّنة، ﴿مَكْتُوبًا﴾.

٦ ـ لقد بشّر الأنبياء الماضون بمجيء النبي الكريم ﷺ، ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ...﴾.

٧ ـ فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تقع على رأس مسؤوليات البعثة للأنبياء، ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ...﴾.

٨ ـ يعتبر الاستهلاك والتغذية من جملة اهتمامات الدين الإسلامي، ﴿وَيُحِلُّ... وَيُحَرِّمُ﴾؛ (كان اليهود والنصارى قبل نزول القرآن غارقين في الخرافات، إذ أرهقوا أنفسهم بالتعاليم الصعبة، وبتحريمهم ما أحلّ الله، وخلقهم للبدع والسنن التي ما أنزل الله بها من سلطان، حتى جاء الإسلام فأبطلها جميعاً).

٩ ـ إذا أردنا إصلاح المجتمع، ينبغي أن نفتح الباب على الحلال، ثمّ بعد ذلك نضيّق على المحرّمات. (لاحظ أنّ «يحلّ» سبقت «يحرّم»).

١٠ ـ حلال الله وحرامه ينسجمان مع فطرة الإنسان، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾. («الطيّب»، يقال لما تستلذّه نفس الإنسان وينجذب إليه طبعه).

١١ ـ العادات والتقاليد الخاطئة هي بمثابة سلاسل تقيّد أفكار الناس. فالإنسان بدون الأنبياء يصبح تابعاً وأسيراً، ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾.

١٢ ـ يجب أن يقترن الاحترام والتبجيل بالتعاون والنصرة، ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ («عزّروه» مشتقّة من «التعزير»، بمعنى المنع من العدوّ بالسيف، والمراد بهم الذين نصروا النبي الكريم ﷺ في جبهات القتال).

١٣ ـ الإيمان بالنبي الكريم ﷺ وحده لا يجزئ، بل يجب أن يُستكمل بالدعم والنصرة، ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾.

١٤ ـ القرآن نور يضيء القلوب والأفكار، وكان على الدوام قرين النبي الأكرم ﷺ، ﴿النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ (نزلت نبوّة النبي الكريم من عند الله تعالى مقترنة بالقرآن).

١٥ ـ الإيمان بالنبي الكريم ونصرته واتّباع القرآن وسيلة الإنسان إلى الفلاح، ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ... وَاتَّبَعُوا... أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾

إشارات:

❑ يطلق بعضٌ مزاعم واهية قائلين إنّ النبي الكريم ﷺ في البداية كان يسعى إلى هداية قومه وإرشادهم فقط، لكنّه حين رأى نجاحه في ذلك، فكّر في توسيع دعوته لتشمل البلاد الأخرى، بيد أنّ القرآن الكريم يفنّد هذه المزاعم من خلال بعض الآيات الكريمة مثل ﴿كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾(١)، ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾(٢)، ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾(٣) و... إلخ، ليبرهن على عالميّة رسالة النبي الكريم ﷺ منذ بداية ظهورها(٤). وبطبيعة الحال، فإنّ الرسالة العالميّة للنبي الكريم، شأنها شأن أيّ دعوة أخرى، استغرقت مراحل عدّة، إذ بدأ النبي الكريم ﷺ بدعوة عشيرته الأقربين، ثمّ أهل مكّة فالبشرية جمعاء.

❑ جاء في رواية عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أنّه قال: **«جاء نفرٌ من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمّد، أنت الذي تزعم أنّك رسول الله، وأنّك**

---

(١) سورة سبأ: الآية ٢٨.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٩.
(٣) سورة الفرقان: الآية ١.
(٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

الذي يوحى إليك كما يوحى إلى موسى بن عمران؟ فسكت النبي ساعة ثمّ قال: «نعم، أنا سيّد ولد آدم ولا فخر، وأنا خاتم النبيّين، وإمام المتّقين، ورسول ربّ العالمين». قالوا: إلى من، إلى العرب أم إلى العجم أم إلينا؟ فأنزل الله تعالى...» هذه الآية التي صرّحت بأنّ رسالة النبي الكريم ﷺ رسالة عالمية[1].

- تكرّر ذكر كلمة **«أمّي»** في هذه الآية والآية السابقة دليل على أهميّتها في إثبات حقيّة دعوة النبي الكريم ﷺ والقرآن الكريم.
- في ضوء الآية السابقة التي تقول: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ فإنّ الخطاب موجّه إلى جميع البشر بمن فيهم اليهود والنصارى.
- في البداية، تؤكّد هذه الآية على ثلاث نقاط هي:

١ ـ البرهنة على خالقيّة الله تعالى، ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٢ ـ وحدانيّة الله تبارك وتعالى، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٣ ـ القيامة والحشر والنشور، ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، ثمّ تختم الآية بالقول: لمّا كان المبدأ والمعاد بيد الله تبارك وتعالى، فآمنوا به وبرسوله[2]، ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

التعاليم:

١ ـ رسالة النبي الكريم ﷺ رسالة عالمية، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، الرسالة العالميّة لا بدّ من أن يحملها قائد عالمي.

٢ ـ من له الحاكمية المطلقة على الوجود برمّته، وحده القادر على أن يحيي ويميت، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

٣ ـ النبوّة من لوازم التوحيد والمعاد، ذلك أنّ الله تعالى واحد ومالك الوجود، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وبيده الحياة والموت، ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾،

(١) تفسير الصافي والأمثل في كتاب الله المنزل. (٢) تفسير «الاثني عشري».

إذن، يجب أن تكون قيادة البشر وهدايتهم مسؤولية مناطة من قبل الله تعالى، ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾.

٤ ـ لا بدّ للقائد من أن يؤمن إيماناً مطلقاً بالطريق الذي يسلكه، ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾.

٥ ـ الإيمان بالله والرسول إلى جانب اتّباع النبي الكريم ﷺ يمثّلان سرّ الهداية، ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ... وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

٦ ـ اتّباع القرآن الكريم وسنّة الرسول الأعظم وسيرته كلاهما لازمان، ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾؛ (في الآية السابقة كان الحديث يدور حول اتّباع النور والقرآن الكريم، وهنا تتطرّق الآية إلى اتّباع النبي الكريم ﷺ وطاعته).

٧ ـ يجب على أهل الكتاب أيضاً الإيمان بنبي الإسلام ﷺ واتّباعه، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ... فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ... وَٱتَّبِعُوهُ﴾.

٨ ـ التقليد والتبعيّة القيّمة والرشيدة هي التي تأخذ بيد الإنسان نحو الهداية والكمال، ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

إشارات:

- الاهتداء إلى الحقّ دليل على نبذ التعصّب ومعرفة الحقّ والاقتداء به، وهذه الفئة المهتدية من اليهود لم يكن لها شأن بسائر أبناء قومهم من اللجوجين.
- ربّما كان المقصود بهذه الفئة، اليهود الذين آمنوا بدعوة النبي الكريم ﷺ، ولكن هذه الفئة ذُكرت في موضع آخر بصورة مطلقة دونما تحديد لليهود، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾[1]، ورد في روايات عدّة أنّ هؤلاء فئة آمنت بدعوة النبي المصطفى ﷺ، وسوف ترافق الإمام الحجّة عليه السلام عند ظهوره[2].
- عن النبي ﷺ في حديث طويل قوله: «معاشر الناس، أنا الصراط المستقيم

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨١.
(٢) تفسير «الاثني عشري».

الذي أمركم باتّباعه، ثم علي عليه السلام من بعدي، ثم ولدي من صلبه أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون»[١].

□ دعا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام رأس الجالوت وأسقف النصارى فقال: **«إنّي سائلكما عن أمر وأنا أعلم به منكما، يا رأس الجالوت بالذي أنزل التوراة على موسى، وأطعمكم المنّ والسلوى، وضرب لكم في البحر طريقاً يبساً، وفجّر لكم من الحجر الطور اثنتي عشرة عيناً لكلّ سبط من بني إسرائيل عيناً إلّا ما أخبرتني على كم افترقت بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام؟»** فقال: ولا إلّا فرقة واحدة، فقال: **«كذبت والذي لا إله غيره، لقد افترقت على إحدى وسبعين فرقة كلّها في النار إلّا واحدة، فإنّ الله يقول: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾»**[٢].

التعاليم:

١ ـ حتى في مواجهة المناوئين يجب أن نتحلّى بالإنصاف وأن لا نغمطهم حقّهم في ذكر خدماتهم وفضائلهم، ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

٢ ـ على المهتدين أن يلزموا الحقّ ويؤمنوا به ويتّبعوه، ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

إشارات:

□ **«أسباط»** جمع **«سِبط»**، تعني في الأصل الانبساط في سهولة، ثمّ يطلق على السبط والأسباط على الأولاد وبخاصّة الأحفاد؛ لأنّهم امتداد العائلة. والمراد

(١) تفسير نور الثقلين.
(٢) تفسير نور الثقلين؛ تفسير العيّاشي.

بالكلمة هنا هو قبائل بني إسرائيل وفروعها، الذين كان كل واحد منها منشعباً ومنحدراً من أحد أولاد يعقوب عليه السلام. و«**الانبجاس**» هو خروج المياه بقلّة.

«**المَنّ**»، هو نوع من العسل الطبيعي أو عصارات وإفرازات نباتيّة كانت تظهر على أشجار الصحراء. و«**السَّلوى**» نوع من الطير الحلال لحمه شبيه بالحمام (أو طائر الحجل).

- العدد «**اثنا عشر**» هو عدد أشهر السنة، وعدد نقباء بني إسرائيل، وعدد العيون المنبجسة بفضل معجزة النبي موسى عليه السلام، وعدد الأئمة المعصومين عليهم السلام. لقد حاول أعداء أهل البيت عليهم السلام كثيراً أن يطمسوا الحقائق بتفسيرهم حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي يقول فيه: «**الخلفاء من بعدي اثنا عشر كلّهم من قريش**»[1]. المنقول بطرق الفريقين بعشرات الأسانيد، أقول: حاولوا تطبيقه على حكّام بني أمية وبني العباس، لكنّهم لم ينجحوا في مسعاهم.
- بضرب العصا على الحجر، حصلت معجزتان: انبجاس الماء الوفير، وتفجّر ينابيع الماء بعدد قبائل بني إسرائيل لتشرب كلّ قبيلة من العين المخصّصة لها. نقرأ في الروايات أنّ هذه المعجزة ظهرت على يدي النبي موسى عليه السلام بعد أن استشفع بأهل بيت النبي الكريم صلى الله عليه وآله[2].
- حضر النبي شعيب عليه السلام للقاء صهره النبي موسى عليه السلام، فوجد صفّاً طويلاً من الناس ينتظرون لقاءه، فاقترح على موسى عليه السلام أن يقسّم الناس مجموعات محدّدة ثمّ يعيّن لكلّ مجموعة مسؤولاً يقوم بحلّ جزء من مشاكلهم قبل لقائهم به، ليتفرّغ موسى عليه السلام للمشاكل الأهمّ[3].
- ربّما يجد المرء تكرّر بعض الموضوعات والقصص في آيات القرآن الكريم، على سبيل المثال هذه القصة التي ورد ذكرها في الآية ٥٧ من سورة البقرة، وما ذلك إلّا للتأكيد على أنّه لا مانع من تكرار بعض الموضوعات بغية تحقيق أهداف تربوية وإصلاحية.

---

(١) إثبات الهداة، ج ١، ص٤٣٣.
(٢) تفسير «الاثني عشري».
(٣) تفسير الكاشف.

التعاليم:

١ ـ وجود التشكيلات وتوزيع الأدوار وتصنيفها يؤدي دوراً مهمّاً في إدارة الأمور، ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾.

٢ ـ أسباط بني إسرائيل الاثنا عشر كلّهم يتفرّعون من أصل واحد. فالآية الكريمة تقول: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾ بدلاً من «جعلنا».

٣ ـ لا بأس في التوزّع على مجموعات شرط المحافظة على وحدة الهدف، ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾.

٤ ـ العرض بعد الطلب ينطوي على أهميّة أكبر، ﴿ٱسۡتَسۡقَىٰهُ... ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ﴾.

٥ ـ الإرادة الإلٰهيّة، لا الوسيلة، هي المهمّة، فأحياناً تجد عصاً خشبية تفعل فعل السحر في كلّ مكان، ﴿بِّعَصَاكَ﴾؛ (فتارةً ظهرت العصا على شكل أفعى وثعبان، وتارةً أخرى كانت الأداة التي فجّرت ينابيع الماء).

٦ ـ يجوز التوسّل بالأنبياء لقضاء الحاجات ورفع المشاكل، بل إنّ التوسّل بهم أقرب إلى الإجابة. فالناس يعرضون على الأنبياء احتياجاتهم الاقتصاديّة والمادّية ويتوسّلون بهم لقضائها، ﴿ٱسۡتَسۡقَىٰهُ... فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾.

٧ ـ لو عرفت كلّ فرقة إلى من ترجع، لساعد ذلك على حلّ الكثير من المشاكل الاجتماعية، ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾.

٨ ـ فلنوضّح الأمور للناس، ثمّ نتركهم يتصرّفون. تقول الآية الكريمة: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾ ولم تقل: «قد شرب».

٩ ـ لقد وفّر الله تبارك وتعالى لبني إسرائيل الماء والطعام، ﴿ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ... ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾.

١٠ ـ تكوّن السحاب وحركته ونزول المطر، كلّه يتمّ بفضل تدبير الله تعالى وإرادته، ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ﴾.

١١ ـ المنّ والسلوى من طيب الأطعمة. (عبارة ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ﴾، بعد ﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾).

١٢ ـ الله تبارك وتعالى رازق الناس، ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ويأمرهم بالأكل من طيب النعم وطاهرها، ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ﴾.

١٣ ـ بضربة واحدة من عصا موسى عليه السلام، انبجست عيون الماء من جوف الأحجار والصخور، غير أنّ قلوب الظالمين لم تلن بالرغم من كلّ هذه المعجزات، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١٤ ـ كفران النعم، مدعاة للحرمان منها، وضرر ذلك سيصيب الجاحدين، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١٥ ـ أولئك الذين لا يوظّفون النعم المادّية في طريق اعتلاء قيمهم المعنوية فقد ظلموا أنفسهم، ﴿كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾

إشارات:

- «**حطّة**»، هو إنزال الشيء من علوّ (وتشتقّ منها أيضاً كلمة انحطاط)، والكلمة تعني طلب نزول شآبيب الرحمة والعفو الإلٰهيّ.
- كان بنو إسرائيل مكلّفين بتطهير قلوبهم وأرواحهم عند دخولهم بيت المقدس من أدران الذنوب بتوبة خالصة وواقعية تتلخّص في كلمة «حطّة» وأن يطلبوا المغفرة لكلّ ما ارتكبوه من آثام، لكنّهم جعلوا هذه الكلمة وسيلة للاستهزاء والسخرية وقالوا: «حنطة»[١].
- ورد ما يشبه هذه الآية مع قليل من الاختلاف في الآية ٥٨ من سورة البقرة.
- ذُكر في روايات عدّة نقلاً عن الأئمة المعصومين عليهم السلام قولهم: «**نحن باب حطّتكم**». بمعنى أنّكم إذا دخلتم في مدار حكومتنا وولايتنا، فسيشملكم اللطف الإلٰهيّ[٢].

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. (٢) تفسير كنز الدقائق.

- يرى جمع كثير من المفسّرين أنّ المقصود بالقرية هو بيت المقدس.
- المسير الطبيعي هو أن يستهلّوا دخولهم المدينة بما عُلّموا من آداب، وبعد ذلك يتّخذونها سكناً لهم، ومن ثمّ يأكلون من طعامها، بيد أنّ الآية هنا تذكر المسكن والطعام أوّلاً، ثمّ يلي ذلك التوبة والمغفرة ودخول المدينة، وربّما يكون سبب ذلك هو أنّ تأمين الطعام والمسكن قد يكون مدخلاً مناسباً لقبولهم بالتعاليم الأخلاقية.

التعاليم:

١ ـ قصّة دخول بني إسرائيل بيت المقدس، ومن ثمّ طلبهم المغفرة من الله على ما بدر منهم من لجاج وتغييرهم الكلماتِ التي عُلّموها، لا شكّ أنّها قصّة معبّرة تستحقّ التأمّل، ﴿وَإِذْ﴾.

٢ ـ السكن هو المعضلة الأهمّ بالنسبة إلى المشرّد. (لاحظ أنّ الآية الكريمة تستهلّ الكلام عن السكن)، ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾.

٣ ـ بيت المقدس هي أرض الخيرات الوفيرة، ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾.

٤ ـ الله تبارك وتعالى هو الذي يؤمّن جميع المتطلبات المادّية، والمعنوية، والدنيوية، والأخروية للبشر، وفي هذه الآية يأمر بني إسرائيل بالدعاء، والاستغفار، والسجود من أجل أن يتمتّعوا بجميع النعم من قبيل السكن، والطعام، والعفو، واللطف الإلهيّ، ﴿ٱسْكُنُوا۟... وَكُلُوا۟... وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾.

٥ ـ الله تبارك وتعالى يغفر ذنوباً كثيرة ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾ إذا ما أخلص العبد التوبة والاستغفار ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾، إذ نقرأ في الدعاء: **«يا مَن يقبل اليَسير ويَعفو عن الكثير»**!

٦ ـ لاستجلاب اللطف والمغفرة الإلهيّة يلزم العبد الاستغفار والدعاء إلى جانب العمل، ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ﴾.

٧ ـ الدخول إلى البقاع المقدّسة له آدابه وطقوسه الخاصّة، ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾.

٨ ـ يجب التميز بين المحسن والمسيء، وعندما يُغفر للمسيء، يزيد الله تعالى درجة المحسن، ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٩ ـ في نظام الإدارة وتشجيع الآخرين، يجب دائماً تمييز المحسنين، ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

إشارات:

❑ تارةً يكون التحريف واضحاً للعيان، أو تغيير لفظة مثل «حِطّة» إلى «حنطة»، وتارةً أخرى تتمّ المحافظة على الظاهر والقالب، بينما يتغيّر جوهر الموضوع أو روحه، كما فعل بنو إسرائيل في احتيالهم والتفافهم على الأمر الإلٰهيّ وصيدهم في يوم السبت، كما سيأتي ذكره في الآية التالية.

❑ يقول النبي الكريم ﷺ: **«لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلّوا محارم الله بأدنى الحيل»**[١].

❑ يطرح القرآن الكريم ثلاثة أوجه لتحريف شريعة الله هي:

١ ـ تغيير الألفاظ، كما فعل بنو إسرائيل عندما غيّروا كلمة «حطّة» التي تعني المغفرة والعفو إلى كلمة حنطة.

٢ ـ التحايل في تغيير الزمان، عندما أُمر بنو إسرائيل بعدم الصيد في يوم السبت، فبنوا أحواضاً في عرض البحر ليجمعوا الأسماك في يوم السبت، ليصيدوها في يوم الأحد الذي كان الصيد فيه مباحاً، وكانوا يقولون: إنّنا لم نصد في اليوم المحرّم أي السبت، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾[٢].

٣ ـ التغيير الحاذق للتقويم التاريخي الطبيعي، وذلك بتأخير الأشهر الحُرُم كما

---

(١) تفسير الفرقان؛ تفسير الدرّ المنثور. (٢) سورة البقرة: الآية ٦٥.

كان يحصل في العصر الجاهلي، لأنّ العرب آنذاك كانت تكره إيقاف الحرب بسبب حلول الأشهر الحُرُم، فكانت تلجأ إلى حيلة التأخير هذه، فنزلت الآية الكريمة، ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ عقوبة تحريف شرائع الله وتغييرها هي نزول الغضب والعذاب الإلٰهيّ، ﴿فَبَدَّلَ... فَأَرْسَلْنَا﴾.

٢ ـ لا يمكن الصفح عن التغييرات التي تتمّ بدافع اللجاج والسخرية، ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

٣ ـ ليست كلّ العقوبات مؤجّلة إلى يوم القيامة، فمنها ما يعاجل العاصي في هذه الدنيا، ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

٤ ـ الإنسان هو من يملك مصيره، وعذابه نتيجة لظلمه لنفسه، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

إشارات:

- كلمة «سَبت» في اللغة تعني تعطيل العمل للاستراحة، وسمّي «يوم السبت» بهذا الاسم لأنّ الأعمال العادية والمشاغل كانت تتعطّل في هذا اليوم. و﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي اليوم الذي لا يعطّلون فيه.
- «شُرّعاً» جمع «شارع»، أي ساحل الماء وضفاف الأنهار، فالأسماك كانت في يوم السبت، وهو اليوم المحرّم عليهم صيدها، تظهر على سطح الماء بينما كانت تختفي في غيره من الأيام[2].

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٧. (٢) تفسير راهنما (التفسير المرشد).

□ ترتبط القصة بجماعة من بني إسرائيل كانوا يعيشون عند ساحل أحد البحار في ميناء يسمى أيلة (إيلات حالياً)، وقد أمرهم الله تبارك وتعالى على سبيل الاختبار أن يعطّلوا صيد الأسماك في يوم السبت، فكانت الأسماك (حيتانهم) تظهر على ظهر الماء في هذا اليوم «شرّعاً»، وتختفي في باقي الأيام فتثير في نفوسهم الوساوس والإغراء! وهذا، بلا شك، نوع من الامتحان والابتلاء الإلٰهيّ. فعمد هؤلاء إلى الاحتيال لانتهاك محارم الله فتعاطوا استخدام الحيل الشرعية، وذلك من خلال استحداث أحواض على الساحل وفتحوا لها أبواباً إلى البحر، فكانوا يفتحون هذه الأبواب في يوم السبت، فتقع فيها أسماك كثيرة مع ورود الماء إليها، ثمّ يوصدونها فتحبس الأسماك داخل الأحواض، ثم يقومون بصيدها في يوم الأحد، وكانوا يقولون: إنّهم إذ لم يصيدوا في السبت، لم يعصوا أمر الله.

□ صحيح أنّ الله تبارك وتعالى قد أحلّ للإنسان أكل السمك، إلّا أنّه حرّم الصيد يوماً واحداً في الأسبوع على سبيل الامتحان والاختبار، لذا، فليس بالضرورة أن ينطوي التحريم على دواع وأسباب صحيّة، فأسماك السبت لا تختلف من ناحية احتوائها القيمة الغذائية والمواد البروتينية عن أسماك باقي أيام الأسبوع.

□ يحمل الإمام علي عليه السلام بشدّة على الذين يلجأوون إلى الحيل الشرعيّة ليحلّوا ما حرّم الله تعالى إذ يقول في إحدى خطبه: «... **ويستحلّون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية فيستحلّون الخمر بالنبيذ، والسّحت بالهدية والربا بالبيع**»[1].

□ أحياناً يأتي الامتحان الإلٰهيّ في المواقف التي تتعاظم فيها الأهواء النفسانية، كما في هذه الآية الكريمة التي منعت الصيد في الوقت الذي كانت الأسماك تظهر على ظهر الماء، ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾، أو تحريم الصيد في حال الإحرام المذكور في الآية ٩٤ من سورة المائدة ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٦.

تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾، عندما يكون الصيد في متناول اليد، يكون منعه في هذه الحالة اختباراً إلهياً.

التعاليم:

١ ـ خروج الأسلاف عن الشرائع، عارٌ يلحق الأجيال القادمة أيضاً، ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ...﴾.

٢ ـ لا مانع من اطلاع الآخرين على قبيح خصال الأسلاف التي عوقبوا عليها إن كان الهدف استلهام العبر، ﴿عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي...﴾.

٣ ـ العيش عند سواحل البحار والاقتيات على صيد الأسماك كان شائعاً على مدى التاريخ، ﴿كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ...﴾

٤ ـ لا يمكن للحيل والخدع أن تخفي الوجه الحقيقي للمعصية. (بناء الأحواض على البحر لصيد الأسماك لليوم التالي)، ﴿يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾.

٥ ـ بقدرة الله ومشيئته كانت أسماك البحر تميّز أيّام الأسبوع ووجوه الصيّادين، ﴿تَأۡتِيهِمۡ... لَا تَأۡتِيهِمۡۚ﴾.

٦ ـ المظاهر الدنيوية والمادّية واحدة من الاختبارات الإلٰهيّة، ﴿كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾

إشارات:

- انقسم بنو إسرائيل ثلاث فرق: فريق خالف الأمر الإلٰهيّ، وفريق نصح وقام بواجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهؤلاء كانوا أقلية، وفريق ثالث، محايد سكت عن الحقّ، فلا هو وافق العصاة ولا هو بادر لنهيهم وثنيهم عن هذا المنكر. وكان هذا الفريق يقول للفريق الناصح: لا تتعبوا أنفسكم، لن تؤثّر نصائحكم في هؤلاء الفاسقين، وهم في كلّ الأحوال،

أصحاب النار. غير أنّ الناهين عن المنكر كانوا يقولون: لن يعدم نصحنا التأثير، ولا أقلّ من أن نكون معذورين عند ربّ العالمين. ومن يدري لعلّ نصائحنا تدفع هؤلاء إلى التقوى.

□ في الآيتين ٥ و٦ من سورة المرسلات يقسم الله تبارك وتعالى بأولئك الذين يلقون الذكر للآخرين إن لإتمام الحجة أو على سبيل النُّذُر والتأثير، ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾.

□ ذكر كتاب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» أكثر من عشر فوائد لهذه الفريضة الإلٰهيّة، حتى في حال عدم تحقيقها الهدفَ المنشود، أورد في ما يلي خلاصة لها[1]، أملاً في أن يطرح الناس عنهم الصمت والخوف والإهمال إزاء القيام بهذه الفريضة:

١ ـ أحياناً، قد لا يترك أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر أثراً عاجلاً، لكنّه، بلا شك، سوف يؤثّر على تاريخ الآخرين وفطرتهم وحكمهم. كما هو الحال مع ثورة الإمام الحسين عليه السلام الذي استشهد في سبيل إحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن أجل إيقاظ ضمير الإنسانيّة على مرّ التاريخ.

٢ ـ القيام بفريضة الأمر والنهي تدفع إلى المحافظة على الأجواء الإيجابية للآخرين، كما هو الحال مثلاً مع إقامة الأذان حتى مع عدم وجود مستمع، أو ضرورة الالتزام بالإشارات المرورية الضوئية وإن كان الطريق غير مزدحم، ذلك أنّ التمسّك بالقوانين والمحافظة على أجواء احترامه والعمل به أمر لازم.

٣ ـ ربّما لا يرتدع العاصي من أمرنا ونهينا، إلّا أنّ مواصلة النصح تذهب بلذّة ارتكابه المعصيةَ، أو على الأقل، سوف تنغّص عليه هذه اللّذة.

---

(١) والملفت للانتباه أنّني أكتب هذه السطور في أسبوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي عشرة عاشوراء، إذ كان الإمام الحسين عليه السلام يقول: «أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَ لَا يُعْمَلُ بِهِ وَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يُتَنَاهَى عَنْهُ». (تحف العقول، ص ٢٤٥).

٤ ـ فريضة الأمر والنهي ضرورية للمحافظة على الحرّية، ذلك أنّ الامتناع عنها يلبّد أجواء المجتمع بسحب الاستبداد والخوف والصمت.

٥ ـ إنّ القيام بهذه الفريضة هو في حدّ ذاته يمنح المرء منزلة ومقاماً، حتى وإن لم يعمل الآخرون بالنصح، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1].

٦ ـ حتى إذا لم تؤثّر فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الآخرين، فهي على الأقل، ستقرّبنا من الله تعالى، علاوة على كونها تمريناً على الشجاعة وعلامة على الحرص والالتزام.

٧ ـ قد لا يؤثّر نصحنا اليوم، ولكن، عندما يصل العاصي إلى طريق مسدود، ويستيقظ ضميره، حينذاك سيعرف أنّك لم تقل إلّا الحقّ. إذن، سيكون لنصحك تأثير عاجلاً أم آجلاً.

٨ ـ فريضة الأمر والنهي تريح ضمير الإنسان، إذ يقول في نفسه: لقد قمت بواجبي . والحقيقة أنّ راحة الضمير هذه لها قيمة كبيرة، حتى لو لم ينصَعِ الآخرون.

٩ ـ هذه الفريضة تعبير عن سيرة الأنبياء ونهجهم، حتى مع عدم التزام الآخرين. فالله تبارك وتعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾[2]، وهو القائل مراراً: إنّ الناس لن ينصتوا لنصح الأنبياء ودعوتهم، وأنّ أكثرهم معرضون، فهل نتوقّع، بعد كل هذا، أن يصغي الناس دائماً وبسرعة لأقوالنا نحن.

١٠ ـ الأمر بالمعروف حجّة على العاصي لئلا يقول في يوم القيامة: إنّ أحداً لم يبلّغه! وهو بعد عذر للآمر بالمعروف حتى لا يُلام على عدم تبليغه.

١١ ـ الآمرون بالمعروف في منجاة من العذاب الإلٰهيّ، (في الآية التالية تلميح إلى ذلك).

---

(١) سورة فصّلت: الآية ٣٣.
(٢) سورة الصّافات: الآية ١٣.

وعلى أيّ حال، فإنّ الأنبياء والأوصياء بذلوا مهجهم في سبيل إحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لئلا يضيع حقّ، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾[١]، ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[٢]، و﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ﴾[٣]، ويستفاد من هذه الآيات الكريمة أنّ على المرء أحياناً أن يمضي في فريضة الأمر بالمعروف حتى تخوم الشهادة.

- وقد وبّخ الإمام علي عليه السلام عامله على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري عندما بلغه أنّه دُعي إلى وليمة قوم من أهلها، فمضى إليها[٤] ما يعني أنّه ضحّى بعامله من أجل الدين، حتى لا يجنح الزهد نحو البذخ والإسراف.

التعاليم:

١ ـ ثمّة أناس لا هم يتّعظون ولا يطيقون أن يعظهم أحد، ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ...﴾.

٢ ـ يجب أن لا نعزو معصية الإهمال إلى «المشيئة الإلٰهيّة»، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾.

٣ ـ اللامبالون يعترضون على الآمرين بالمعروف بدلاً من اعتراضهم على الذين يرتكبون المعاصي، ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾.

٤ ـ يجب التصدّي لأولئك الذين لا يرون في الوعظ والنصح الأخلاقي فائدة، ﴿لِمَ تَعِظُونَ... قَالُوا۟ مَعْذِرَةً﴾، لأنّ عدم صدّ الناس عن المعاصي ينطوي على مسؤولية.

٥ ـ لا يجوز إطلاق الأحكام المتسرّعة. إذ لا يمكن القول: إنّ الله معذّب هؤلاء أو مهلكهم؛ لعلّهم يتّقون، ﴿مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ... وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

٦ ـ النهي عن المنكر واجب، لكي يؤمن الفاسق، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أو لكي يكون للإنسان عذرٌ أمام الله تعالى، ﴿مَعْذِرَةً﴾. (إذن، ليس من الضروري أن يكون

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٢.
(٢) سورة البقرة: الآية ٦١.
(٣) سورة آل عمران: الآية ٢١.
(٤) نهج البلاغة، الرسالة ٤٥.

النهي عن المنكر مؤثّراً، لكي يصبح واجباً علينا، ذلك لأنّنا مأمورون بأداء التكليف، وليس علينا ضمان النتيجة).

٧ ـ لا ييأس المؤمنون من إصلاح المجتمع، ولا يتركون فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾

إشارات:

- كلمة «**بئيس**» مشتقّة من «**بأس**»، وتعني الشديد؛ و«**عَتوا**» بمعنى الامتناع عن طاعة أمر.
- جاء في الروايات: أنّه عندما رأى الناصحون أنّ عظاتهم ونصحهم لا يجدي مع العصاة، انزعجوا وقالوا: سنخرج من المدينة، فخرجوا إلى الصحراء ليلاً، واتّفق أنْ أصاب العذاب الإلٰهيّ كلا الفريقين، العصاة والمتفرّجون[1]. وهذا التحوّل هو من التصرّفات التكوينية الإلٰهيّة.
- جاء في الآية ٦٠ من سورة المائدة أنّ فئة مُسخت قردة وخنازير بسبب عصيانهم أوامرَ الله تعالى، بينما نرى هنا أنّ هذه الجماعة مُسخت قردة فقط. يقول ابن عباس: إنّ كلتا الآيتين تتحدّثان عن نفس الجماعة.
- يُستفاد من ظاهر الآية أنّ هؤلاء مسخوا قروداً في ظاهرهم وأشكالهم كما مسخوا في طباعهم. فالله تعالى الذي جعل بمشيئته النار برداً وروضة على النبي إبراهيم عليه السلام لقادر على أن يغيّر الخلق إلى خلق آخر، والإنسان إلى قرد. بطبيعة الحال، لم يكن لأولئك الممسوخين نسل يخلفهم، فهم لم يعيشوا بعد المسخ سوى لبضعة أيّام بحسب ما ورد في الحديث النبوي الشريف[2].

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. (٢) تفسير مجمع البيان.

التعاليم:

١ ـ إذا لم يكن للنهي عن المنكر تأثير في هداية الآخرين، فيقيناً أنّه سيكون حبل نجاة للناهين أنفسهم، ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ﴾.

٢ ـ النسيان يستوجب العقوبة إذا كان عن إهمال ولامبالاة، ﴿فَلَمَّا نَسُواْ...﴾.

٣ ـ من أغلق على نفسه باب الموعظة، فتح عليها باب العذاب الإلٰهيّ، ﴿نَسُواْ... وَأَخَذْنَا﴾.

٤ ـ النهي عن المنكر وظيفة دائمية، ﴿يَنْهَوْنَ﴾؛ (صيغة الفعل المضارع دلالة على الاستمرار).

٥ ـ اللامبالون ظالمون، ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ (الآية السابقة قسّمت بني إسرائيل ثلاث طوائف: المعتدون، الناصحون، الساكتون اللامبالون، وتضع هذه الآية الطائفة الأخيرة في مرتبة الظالمين الهالكين. لأنّ الناهين عن المنكر هم الطائفة الوحيدة الناجية، ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ﴾، إذن، فالسكوت يعدّ ظلماً وسبباً للهلاك).

٦ ـ أفدح العقاب وأشدّ العذاب هو التخلّف عن درجة الإنسانية، ﴿بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ... كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾.

٧ ـ المعتدي يستحقّ نزع الإنسانيّة عنه ومسخه، والمستكبر عذابه النبذ والاحتقار، ﴿عَتَوْاْ... قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾، نعم، جزاء القوم الذين يتمرّدون على شريعة الله تعالى، أن يكونوا كالقرود يقلدون سائر الأمم.

٨ ـ أولئك الذين يمسخون حكم الله تعالى بالحيلة والخديعة جزاؤهم أن تمسخ خلقتهم، من يتلاعب بالدين يمسخه الله حيواناً لاعباً (قرداً)، ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

إشارات:

□ «تأذّن»، بمعنى الإخبار والإعلام. «يَسُوم» و«سَوم»، بمعنى يذيقهم ويحمّلهم.

□ كان الإمام علي عليه السلام يشكو دائماً المخالفين الجفاة في عصره بقوله: «**أبدلني الله بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شرّاً لهم منّي**»(١).

التعاليم:

١ ـ العذاب الإلٰهيّ الذي حاق باليهود والمصير الذي انتهوا إليه يبعث على التأمّل، ﴿وَإِذْ﴾.

٢ ـ صحيح أنّ السنّة الإلٰهيّة تقضي بإمهال المنحرفين، ولكن ليس في كلّ الظروف وإلى الأبد، ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾.

٣ ـ سيطرة المنحرفين على بني إسرائيل، عذاب إلهي سُلّط على هؤلاء القوم جزاءً على ما اقترفت أيديهم، ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾.

٤ ـ تاريخ الشعوب سلسلة متّصلة الحلقات، فمعصية جيل تترك أثرها على الأجيال القادمة ويستمر هذا الأثر إلى يوم القيامة، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٥ ـ أولئك الذين يتحدّون أولياء الله ويتمرّدون على أوامرهم سوف تصيبهم ذلة، ﴿يَسُومُهُمْ﴾.

٦ ـ سيظلّ بنو إسرائيل دائماً في ذلّ وهوان، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٧ ـ الخشية من العذاب والمشفوعة بالأمل بالمغفرة والرحمة الإلٰهيّة، مدعاة لإصلاح الإنسان ورشده، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٨ ـ طريق التوبة وبلوغ مرحلة المغفرة الإلٰهيّة مفتوح أمام الجميع، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

إشارات:

□ لقد عاش بنو إسرائيل، تارة، أوضاع العزّ والقدرة علّهم يشكرون الله على

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٥ و٧٠.

نعمه، وتارة أخرى ذاقوا مرّ الشدائد والصعاب عسى أن تنبعث من جديد مشاعر التوبة والإنابة في ضمائرهم. طبعاً ينبغي أن لا نغضّ الطرف عن بعض الصالحين والمحسنين فيهم، الذين آمنوا بحقّيّة الإسلام، بينما ظلّ الآخرون متعلّقين بحبائل الدنيا وغارقين في مستنقع اللجاج.

التعاليم:

١ ـ للإنسان كامل الحريّة في اختيار طريقه ونهجه، ﴿مِنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

٢ ـ إذا أردنا أن ننتقد جماعة، فلا نغمط حقّ الصالحين منهم، ﴿مِنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾.

٣ ـ الحوادث حلوها ومرّها ساحة اختبار إلهي، ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

٤ ـ الترغيب والترهيب، والصلح والخصام، جنباً إلى جنب عوامل بناء وإصلاح، ﴿بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٥ ـ التحوّل الروحي في الإنسان والعودة إلى الحقّ، هما من جملة الحِكَم التي ينطوي عليها الامتحان الإلهيّ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

إشارات:

□ «خَلْف»، على وزن «حَرْف» يأتي غالباً في الأولاد غير الصالحين ـ كما ذهب إلى ذلك بعض المفسّرين ـ في حين أنّ «الخَلَف» على وزن «شَرَف» يأتي بمعنى الولد الصالح[1].

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

□ «عَرَض»، هو كلّ رأسمال دنيوي، و«عَرْض»، يعني المال النقدي حصراً، كما تطلق هذه الكلمة على الشيء الذي لا ثبات له ولا دوام، ومن هذا المنطلق يطلق على متاع العالم المادّي اسم العرض لكونه زائلاً غير ثابت في الغالب. يقول الفيض الكاشاني: المراد بالعرض في الآية الرشوة.

□ «درس»، في اللغة هو تكرار الشيء، وحيث إنّ الإنسان عند المطالعة وتلقّي العلم من الأستاذ والمعلم يكرّر المواضيع، لهذا أطلق عليه لفظ «الدرس». وإذا ما رأينا أنّهم يستعملون لفظة «درس والاندراس» على انمحاء أثر الشيء أو البناء فإنّما هو لهذا السبب وبهذه العناية، ولأنّ الأمطار والرياح والحوادث الأخرى تتوالى على الأبنية القديمة وتبليها[1].

□ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«إنّ الله خصّ عباده بآيتين من كتابه أن لا يقولوا حتى يعلموا ولا يردّوا ما لم يعلموا، وقال** عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾»[2].

□ ويقول الإمام الحسن عليه السلام: **«عجب لمن يتفكّر في مأكوله كيف لا يتفكّر في معقوله فيجنّب بطنه ما يؤذيه ويودع صدره ما يرويه»**[3].

التعاليم:

١ ـ لقد مرّت في التاريخ أجيال من اليهود العاصين وعبّاد الدنيا، ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ...﴾.

٢ ـ التعلّق بحبائل الدنيا من آفات التديّن، ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ... يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾.

٣ ـ كان اليهود يحوزون على التوراة ويحيطون بها إحاطة تامّة، ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٤ ـ عيب على من أحاط بتعاليم الكتاب السماوي أن يتشبّث بالدنيا ويأكل الحرام، ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ...﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ والكافي، ج ١، ص٤٣.

(٣) تفسير الفرقان؛ بحار الأنوار، ج ١، ص٢١٨.

٥ ـ الارتشاء وأكل المال الحرام كان موضع توبيخ وتقريع في باقي الأديان أيضاً، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾.

٦ ـ نعم، لقد اعترف اليهود بذنبهم، لكنّهم كانوا يقولون: سيُغفر لنا، ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

٧ ـ لقد استغرق اليهود في أنانيّتهم لدرجة أنّهم كانوا يعتقدون أنّه سيُغفر لهم حتى لو لم يتوبوا، ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾؛ لا جرم في أنّ من يضمن لنفسه المغفرة يستحقّ التوبيخ.

٨ ـ الرجاء المجّاني كالخوف في غير محلّه، كلاهما مضرّ، ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾؛ فالرجاء بالفوز بالرحمة الإلٰهيّة لا يستقيم مع الإصرار على ارتكاب المعصية.

٩ ـ آكلو المال الحرام اليهود كانوا منغمسين في المعاصي، ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾.

١٠ ـ من اعتقد بحتميّة غفران الله لذنوبه وهو يعصيه، فقد افترى عليه سبحانه، ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

١١ ـ لا يكفي العلم بتعاليم الكتب السماوية والمواظبة على دراستها، بل يلزم العمل بها، ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ... وَدَرَسُوا۟﴾.

١٢ ـ عالم الآخرة عالم أرقى، وهو زاخر بالنعم الخالدة والباقية، ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ﴾.

١٣ ـ اجتناب أكل المال الحرام دليل تقوى. (كلمة «يتّقون» جاءت في إزاء عبارة ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ﴾).

١٤ ـ التمتّع بنعيم الحياة الآخرة رهن بالتزام التقوى والورع، ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

١٥ ـ الأحمق هو من تمسّك بالدنيا وترك الآخرة، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

١٦ ـ من الأساليب الدعوية والتقويمية، طرح الأسئلة على المخاطب بهدف تحريك الضمائر وإيقاظها، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠﴾

إشارات:

- ورد في الروايات أنّ هذه الآية هي في خصال أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم[١].
- درج القرآن الكريم على ذكر الأقليّة الصالحة إلى جانب الأكثرية المفسدة. (في الآية السابقة ذمّ وانتقاد، وفي هذه الآية مدح وثناء).
- يشمل مفهوم لفظ «**الكتاب**» جميع الكتب السماوية، وليس مراد الآية أتباع دين معيّن أو كتاب سماوي بعينه، ولكن، ربّما كان المقصود، في ضوء الآيات السابقة، التوراة.
- تثني الآية الكريمة على الفئة التي تتمسّك بالكتاب السماوي، وفي موضع آخر من القرآن الكريم، تشبّه آية أخرى الذي يحمل الكتاب ولا يتمسّك بالحمار الذي يحمل أسفاراً ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾[٢].
- تُطلق كلمة «**مُصلِح**» على من يهمّ بإصلاح نفسه وكذلك من يسعى إلى إصلاح المجتمع.
- تندرج الصلاة ضمن محتوى الكتاب السماوي، إلّا أنّه، ونظراً لأهميّتها، فقد ذُكرت بصورة مستقلة، ذلك أنّها عمود الدين، وإقامة الدين رهنٌ بإقامة هذه الفريضة، وفيها يقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «**الصلاة عمود الدّين**»[٣]. وفي حديث آخر يقول صلى الله عليه وآله: «**ووجه دينكم الصلاة فلا يشيننّ أحدكم وجه دينه**»[٤].

التعاليم:

١ ـ لا تكفي تلاوة الكتاب السماوي أو حفظه أو طبعه ونشره، بل ينبغي العمل

---

(١) تفسير «الاثني عشري». (٢) سورة الجمعة، الآية ٥.

(٣) تفسير «الاثني عشري»؛ والتهذيب، ج ٢، ص٢٣٧.

(٤) تفسير الفرقان؛ والكافي، ج ٣، ص٢٧٠.

بأحكامه حتى يضمن الإنسان نجاته، ﴿يُمَسِّكُونَ﴾؛ (كما إنّ اتّباع تعليمات الطبيب هي السبيل الوحيد للعلاج).

٢ ـ الصلاة كانت مشرّعة في الأديان والكتب السماوية السابقة أيضاً، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣ ـ لا يمكن لتارك الصلاة أو الجاهل بكتاب الله أن يكون مصلحاً كاملاً، ﴿يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ... ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

٤ ـ مضافاً إلى آثاره الأخروية، للدين دور في إصلاح الحياة الدنيوية، ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

٥ ـ إقامة الصلاة وسيلة لإصلاح المجتمع والنهوض بواقعه، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾؛ (الإقامة تعني الاهتمام التامّ بالصلاة في جميع شؤون الحياة لا مجرّد إقامة طقس فريضة الصلاة).

٦ ـ للإصلاح الحقيقي شرطان: التمسّك بالشريعة الإلٰهيّة، وإحكام المرء علاقته بربّه من خلال إقامة الصلاة. (في ضوء مفهوم الآية).

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

إشارات:

- نظير هذه الآية ورد في سورة البقرة الآية ٦٣ وفي ختام هذه السورة، وجميعها يتناول قصّة بني إسرائيل حيث بدأ الحديث عن هؤلاء القوم في الآية ١٠٣ من هذه السورة واستمرّ في الآيات اللّاحقة.

- «نَتق» انتزع الشيء من أصله ورماه في مكان آخر، و«ظُلّة»، قطعة السحاب والسقف والمظلّة.

- حينما ذهب موسى عليه السلام إلى الميقات الإلٰهيّ في جبل الطور، رجع إلى قومه (بني إسرائيل) بألواح التوراة، بيد أنّهم أقاموا على المخالفة والعصيان، فانتزع

الله تعالى الجبل ورفعه فوق رؤوسهم، ففزعوا لذلك وارتعبوا كثيراً، فخرّوا ساجدين وتعهّدوا لنبيّهم بالسمع والطاعة، ولكن سرعان ما قلبوا له ظهر المجنّ وارتدّوا عن دينهم.

❑ **سؤال**: ربّما يسأل المرء هنا، هل من قيمة لأخذ الميثاق والطاعة بالإكراه؟

الجواب: أوّلاً، ليس كلّ إكراه مذموماً، فأحياناً يُكره المدمن على ترك إدمانه، وذلك، في حدّ ذاته يشكّل قيمة، وفيه مصلحة للمدمن. نعم، لا يمكن إكراه الإنسان على الإيمان القلبي بالمعتقدات، غير أنّه يمكن نشر العمل الصحيح في المجتمع بالإكراه. ثانياً، في بعض الأحيان يكون شروع العمل إكراهاً، لكنّه يستمرّ، مع مرور الوقت، طوعاً واختياراً.

❑ سُئل الإمام الصادق عليه السلام عمّا إذا كان المقصود بالقوّة في الآية الكريمة القوّة الجسمية أم القلبية، فقال عليه السلام: **«كلاهما»**[1].

التعاليم:

١ ـ انتزاع الجبل من أصله ورفعه فوق رؤوس بني إسرائيل حدث ينبغي أن لا يُنسى، ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ...﴾.

٢ ـ لا يكفي التعلّم، إنّما ينبغي التذكير أيضاً، ﴿خُذُواْ... وَٱذْكُرُواْ﴾.

٣ ـ من أجل الإصلاح العام للمجتمع والحؤول دون انحرافه، يتطلّب الأمر أحياناً اللّجوء إلى منطق القوّة والضغط، ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا... خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾.

٤ ـ لا بدّ من تطبيق الأحكام الإلٰهيّة بقوّة وجديّة، ﴿بِقُوَّةٍ﴾.

٥ ـ من أجل الوصول إلى كمال التقوى، ينبغي الحزم في الدين واتّخاذ القرار الجدّي، ﴿خُذُواْ... بِقُوَّةٍ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

٦ ـ هدف الكتب السماوية وتعاليم الدين أن يخشى الناس ربّهم ويتّقوه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

---

(١) تفسير العيّاشي؛ ومحاسن البرقي، ج ١، ص٢٦١.

٧ ـ من خلال شرح الحكمة من الشرائع واستعراض آثار التعاليم والأحكام، يمكن تشجيع الآخرين على الاهتمام بها وتطبيقها، ﴿خُذُواْ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

إشارات:

□ **«الذرّيّة»**، مشتقّة من «ذَر» على وزن «شَر» ويعني الموجودات الصغيرة جداً كذرّات الغبار مثلاً والنمل الصغير، ومن هنا فإنّ أبناء الإنسان تبدأ حياتهم من نطفة صغيرة جداً. وثمة من يقول: إنّ أصل الكلمة تعني الأبناء الصغار اليافعين إلّا أنّها تطلق في الغالب على عموم الأبناء. وقيل أيضاً: إنّها مأخوذة من مادة «ذروْ» أي النشر والتفريق والتنقية (ومنه ذروْ الحنطة) وإنّما سمّي الأبناء بالذرّية لأنّهم يتفرّقون في أنحاء الأرض بعد التكاثر. ويوجد رأي آخر يقول: إنّ جذر هذه الكلمة مشتقّ من «ذرأ» على زنة «زَرَعَ» ومعناه الخلق، فعلى هذا الوجه يكون معنى الذرّية مساوياً للمخلوق(١).

□ لم يرد إيضاح في الآية الكريمة كيف أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من بني آدم، غير أنّ المفسّرين ذهبوا مذاهب عدّة في هذا الموضوع، أشهرها اثنان:

أ) طبقاً للروايات، فإنّ الله تبارك وتعالى بعد أن خلق آدم عليه السلام، أخرج من ظهره جميع ذرّيّته إلى يوم القيامة، فخرجوا كهيئة الذّرّ فعرّفهم وأراهم نفسه ولولا ذلك لم يعرف أحد ربّه ثمّ أعادهم في صلبه وطينته، ليأتوا إلى هذه الدنيا بالتدريج وبصورة طبيعية. ومن هنا، فقد سمّي هذا العالم بـ «عالم الذرّ» وهذا الميثاق بـ «ميثاق أَلَسْتُ»(٢).

عن ابن عمير عن ابن مسكان عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله:

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. (٢) الكافي، ج ٢، ص١٣.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قلت: معاينة كان هذا؟ قال: «**نعم، فثبتت المعرفة ونسوا الموقف وسيذكرونه، ولولا ذلك لم يدر أحد من خالقه ورازقه، فمنهم من أقرّ بلسانه في الذرّ ولم يؤمن بقلبه**»[١]. وروي عن النبي الكريم ﷺ قوله: «**إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة**»[٢].

ب) المقصود بعالم الذرّ هو عالم الاستعداد والكفاءات وعهد الفطرة والتكوين والخلق، فعند خروج أبناء آدم من أصلاب آبائهم إلى أرحام أمّهاتهم وهم نطف لا تعدو الذرّات الصغار، وهبهم الله تبارك وتعالى الاستعداد لتقبّل فطرة التوحيد والحقّ في طينتهم، فأودع ذلك السرّ الإلهيّ في ذواتهم وفطرتهم بهيئة مشاعر باطنية. كما أودع في عقولهم وأذهانهم حقيقة الإيمان بالله تعالى. من هنا، تقرّ فطرة البشر وعقولهم بربوبيّة الله سبحانه.

جاء في بعض الروايات أنّ الإمام الصادق عليه السلام سُئل في الفطرة فقال: «**إنّها عالم الذرّ**»[٣].

وثمّة روايات أخرى تبيّن أنّ الفطرة هي أثر عالم الذرّ وليس عالم الذر نفسه. «**قَالَ ثَبَتَتِ الْمَعْرِفَةُ فِي قُلُوبِهِمْ وَ نَسُوا الْمَوْقِف**»[٤]، لذا، فالبشر قد أقرّوا في زمان وموقف لكنّهم نسوه، وإنّ أثر ذلك الإقرار هو الفطرة التي ينزع إليها. وعلى أيّ حال، فإنّ الآية الكريمة هي مثار نقاش وجدال بين المتكلّمين، والمحدّثين، والمفسّرين، ونحن نوكل الخوض فيها إلى أهلها وهم الراسخون في العلم[٥].

التعاليم:

١ ـ البشر هم ذرّيّة آدم عليه السلام، وقد أخذ الله تبارك وتعالى منهم إقرارهم بربوبيّته،

---

(١) تفسير نور الثقلين. (٢) تفسير الدرّ المنثور.

(٣) تفسير البرهان؛ تفسير نور الثقلين، «پيام قرآن» (رسالة القرآن)، ج ٣، ص١١٧.

(٤) بحار الأنوار، ج٣، ص ٢٨٠.

(٥) للاطلاع على مختلف الأقوال والآراء، انظر كتاب: «پيام قرآن» (رسالة القرآن)، لآية الله مكارم شيرازي؛ «منشور جاويد» (المنشور الخالد)، لآية الله جعفر سبحاني؛ تفسير أطيب البيان.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ... أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

٢ ـ لقد أودع الله تعالى التوحيد في فطرة الإنسان وطينته، ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ كلّ إنسان استلهم ربوبيّة الله ووحدانيّته بنحوٍ خاص، وأقرّ بهما.

٣ ـ بعد خلق الإنسان، أظهر الله تبارك وتعالى له ربوبيّته ليقرّ بها حينما يقتضي الأمر، ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

٤ ـ ميثاق الفطرة والتوحيد هو لإتمام الحجّة، ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٥ ـ في يوم القيامة لن تُقبل دعوى الغفلة عن ربوبيّة الله، ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾، ولن يُقبل عذر الجهل والغفلة عند الله.

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

إشارات:

□ لولا الإقرار بربوبيّة الله في عالم الذرّ أو الفطرة، لما تيسّر للإنسان أن يكون موحّداً، وأن يقلّد أسلافه دائماً، ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾.

التعاليم:

١ ـ فطرة التوحيد المودعة في الإنسان، هي من أجل أن يتمّ الله تعالى حجّته، والحقّ، أنّ نور الفطرة يضيء ظلمات المحيط من أقصاه إلى أقصاه، ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا...﴾.

٢ ـ المجتمع والبيئة لا يُكرهان الإنسان، ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾.

٣ ـ لا يجوز التقليد في أصول الدين، ﴿أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾.

٤ ـ معتقدات الأجداد وأعمالهم وشركهم هي الحاضنة التي تنشأ فيها معتقدات الأبناء وعملهم وشركهم، ﴿أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾.

٥ ـ اتّخاذ الآخرين ذريعة لتبرير معاصينا وانحرافاتنا أمرٌ غير مقبول، ﴿تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾.

٦ ـ المشركون نزّاعون إلى الباطل، ﴿أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا... فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

٧ ـ في النظام الجزائي الإلٰهيّ، لا تزر وازرة وزر أخرى، ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

٨ ـ الآيات الإلٰهيّة هي من أجل لفت انتباه البشر إلى ميثاق الفطرة التوحيدية، ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٩ ـ التوحيد هو الأصل، والشرك عارض عليه، لذلك يدعو القرآن الكريم المشركين إلى العودة إلى فطرة الإنسان وأصالته، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

إشارات:

- «اِنسلاخ»، من «سلخ» بمعنى نزع جلد الحيوان، وتستعمل الكلمة عند التصاق شيئين ببعضهما، أمّا المراد منها هنا فهو ترك العلوم الإلٰهيّة.
- يُستفاد من كلمة «فأتبعه» أنّ ذلك الشخص قد بلغ شأواً بعيداً في طريق الحقّ لدرجة أنّ الشيطان كان أوّل الأمر آيساً منه تقريباً، ولكن عندما ظهرت أمارات الانحراف عليه، سارع الشيطان إلى تلقّفها، فتربّص له وأخذ يوسوس له حتى انتهى أمره إلى أن يكون من الضالّين المنحرفين الأشقياء(١).
- تسرد الآية قصّة عالم من بني إسرائيل يدعى «بلعم بن باعوراء»، كان في صفّ المؤمنين وقد حباه الله بآيات وعلوم إلٰهيّة، لكنّه تبع وساوس الشيطان والطاغوت وانحرف عن إيمانه.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام: **«أنّه أعطي بلعم بن باعور الاسم الأعظم، فكان يدعو به فيستجيب له فمال إلى فرعون فلما مرّ فرعون في طلب موسى وأصحابه قال فرعون لبلعم: ادع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا فركب حمارته ليمر في طلب موسى فامتنعت عليه حمارته فأقبل يضربها فأنطقها الله عزّ وجلّ، فقالت: ويلك على ماذا تضربني؟ أتريد أن أجيء معك لتدعو على نبي الله وقوم مؤمنين؟ فلم يزل يضربها حتى قتلها وانسلخ الاسم من لسانه»**[1]. نعم، إنّ بهارج الدنيا وزخارف البلاط هي عامل انحدار العلماء وسقوطهم.

لا يذكر القرآن الكريم اسم هذا الشخص، ولكن يسرد فعاله، والإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام يقول: **«الأصل في ذلك بلعم ثم ضربه الله مثلاً لكلّ مؤثرٍ هواه على هدى الله من أهل القبلة»**[2] ومعلوم أنّ هؤلاء موجودون في كلّ عصر وزمان، ولا يقتصر الأمر على بلعم بن باعوراء وحده.

❑ لقد وردت قصة بلعم بن باعوراء في التوراة الحاليّة أيضاً[3].

التعاليم:

١ ـ ينبغي على القائد أن ينبّه الشعب إلى الأخطار المحتملة، ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ...﴾.

٢ ـ أحياناً يقع العلماء في شَرَك خداع الطواغيت وحيلهم، فعاقبة عالِم مثل بلعم بن باعوراء يجب أن تضحي درساً بليغاً للتاريخ، ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ...﴾ لما تشكّله من قصّة مهمّة ومفيدة. (كلمة «نبأ» تقال للخبر المهم والمفيد).

٣ ـ الإنسان مخيّر وله ملء الحرّية في تغيير عقائده، ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ﴾.

٤ ـ لا ينبغي للإنسان أن يصاب بالغرور والكِبر مهما علت منزلته وارتقى مقامه، إذ إنّ احتمال السقوط والانحدار وارد في كلّ لحظة، فالمهمّ هو حسن عاقبة الأمر. والحقّ أنّه كلما ارتفع مقام الإنسان كان الخطر الذي يتهدّده أكبر، ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾.

---

(١) تفسير نورالثقلين؛ تفسير كنز الدقائق.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) التوراة، سِفر الأعداد، الباب ٢٢.

٥ ـ من ابتعد عن الله تعالى، أصبح صيداً سهلاً للشيطان، ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

٦ ـ الشيطان يوسوس للإنسان ويكمن له، وإذا ما وجد في المرء استعداداً للانحراف تبعه، ﴿فَٱنسَلَخَ... فَأَتْبَعَهُ﴾؛ (مجيء كلمة «فأتبعه» بعد «فانسلخ»، يشير إلى أنّ الشيطان يتحيّن الفرص ليتبع الإنسان بمجرّد الانسلاخ).

٧ ـ لا حيلة للشيطان على العالم الربّاني، (فالشيطان لم يكن له سلطان على بلعم لولا تخلّي الأخير عن آيات الله)، ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

٨ ـ العلم وحده لا يُنجي، ذلك أنّ العالِم الذي ملكت الدنيا عليه قلبه، هو، في الحقيقة، عبد الشيطان، ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

٩ ـ يجب النظر في سوء العاقبة والحذر منها حتى لا تتبدّل النِّعم نِقَماً، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا... فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

١٠ ـ الابتعاد عن سبيل الله تعالى، ابتعاد عن العقل والحكمة، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

١١ ـ انحدار الإنسان وسقوطه يتمّ على مراحل هي: الانسلاخ من آيات الله تعالى، واتّباع الشيطان، والالتحاق بصفوف الضالّين، ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

إشارات:

□ في هذه الآية الكريمة ذُكرت كلمة «الأرض» في إزاء الرفعة المعنوية، فكان المقصود بها هو القضايا الحقيرة المادّية والدنيوية.

- يقول النبي الكريم ﷺ: **«من ازداد علماً ولم يزدد هدىً لم يزدد من الله إلّا بعداً»**[١].
- قصص القرآن الكريم قوامها الحقّ والحقيقة، وتهدف إلى تسلية النبي الكريم ﷺ وثبات قدمه وأهل الإيمان، وبثّ اليأس في قلوب الأعداء، وهي بعدُ، للمؤمنين وعظ وذكرى[٢]، وللعقلاء درس وعبرة[٣].

التعاليم:

١ ـ التمسّك بآيات الله تبارك وتعالى، مدعاة للتقرّب إلى الله والأولياء، ﴿لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾.

٢ ـ الإنسان مخيّر وحرّ على الرغم من أنّ الله تعالى يبسط حاكميته وإرادته على الكون، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ...﴾.

٣ ـ إرادة الله تنبني على ما يصدر عنّا من أفعال، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، نعم، بلوغ منزلة القرب الإلٰهيّ، تستوجب الاحتراز من التكالب على الدنيا والأهواء النفسانية.

٤ ـ مثل الغافلين كمثل الدواب، بينما مثل العالمين عبّاد الدنيا كمثل الكلب في حرصه وعطشه حين يُخرج لسانه لاهثاً دائماً، ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾.

٥ ـ العالم بلا عمل مذموم، ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ...﴾.

٦ ـ لا راحة أبداً لمن كبّلته الدنيا بأغلالها، ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾؛ فمهما عَظُم مُلك الطمّاع، كان طمعه أعظم، فحبّ الدنيا والحرص لا حدود لهما.

٧ ـ تعلّق الإنسان بالدنيا وأهوائه، يصرفه عن الاهتمام بسائر الأمور الأخرى، ﴿إِن تَحْمِلْ... أَوْ تَتْرُكْهُ...﴾.

٨ ـ إذا تزيّنت الدنيا في عيون علماء الدين، عمدوا إلى التكذيب بآيات الله والنزوع نحو الكفر، ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ... كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢، ص٣٧.
(٢) سورة هود: الآية ١٢٠.
(٣) سورة يوسف: الآية ١١١.

٩ ـ عاقبة علماء السوء مدعاة لاتّعاظ الناس وتأمّلهم. (شرعت الآية السابقة خطابها بكلمة «وَاتلُ»، وهنا تقول: ﴿فَٱقْصُصِ﴾).

١٠ ـ لا بدّ من أن يكون تأليف القصص وسردها نافذة نحو الاعتلاء الفكري للإنسان، لا مجرّد التخدير والتلهية. القصّة الهادفة هي مهمّة الأنبياء، ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

إشارات:

- ربّما كان السبب في استعمال «المهتدي» في صيغة المفرد و«الخاسرون» في صيغة الجمع هو أنّ طريق المهتدين واحد وهم متّحدون مع بعضهم، فيما المنحرفون متفرّقون وسبلهم شتّى.
- نعم، الهداية والضلال بيد الله تعالى، ولكن ليس في الأمر إكراه، ولا يحدث دون سبب أو بلا حساب. فالله تبارك وتعالى هو الحكيم الرحيم وما ينزل من ثواب أو عقاب، هو بما قدّم الإنسان لنفسه.

التعاليم:

١ ـ عاقبة المكذّبين السوأة، ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾.

٢ ـ التكذيب بآيات الله هو ظلمٌ للنفس لا لله، ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

فتقديم ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ على ﴿يَظْلِمُونَ﴾ إشارة إلى الحصر.

٣ ـ الهداية بيد الله تعالى، فبدون لطفه، لن يكون العلم وحده سبباً في النجاة والهداية، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾.

٤ ـ المهتدون في مأمن من كلّ ضرر أو خسارة، لأنّ الضلالة هي منبع الخسارة، ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

إشارات:

- **«ذَرَأْ»** من **«الذَّرْء»**، في الأصل تعني نشر الشيء أو تفريقه، بيد أنّها جاءت هنا بمعنى الخلق والإيجاد.

- **سؤال:** في هذه الآية، يقول القرآن: إنّ الله تعالى خلق الكثير من الجنّ والإنس لجهنّم وهيّأهم لها، بيد أنّنا نقرأ في آية أخرى أنّه تعالى خلقهم للعبادة، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فأيّهما أصحّ[١]؟

في الجواب نقول: إنّ الهدف الأصلي للخلق هو التوحيد وعبادة الله تعالى، غير أنّ النتيجة هي أنّ الكثير من البشر يدخلون جهنّم لعصيانهم وطغيانهم وإصرارهم على الكفر واللجاج، وكأنّهم خُلقوا أصلاً لجهنّم، وحرف اللام في ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ هو لبيان العاقبة لا الهدف، كما هو الحال مع النجّار الذي هدفه الأصلي هو صنع الأثاث من الخشب، إلّا أنّه أحياناً ينتهي بالخشب إلى الحرق في المدافئ، وهذا بمثابة هدف ثانوي. شبيه هذا الأمر ما ورد على لسان الإمام علي عليه السلام الذي يقول: **«إنّ لله ملكاً ينادي في كلّ يوم لِدوا للموت، واجمعوا للفناء، وابنوا للخراب»**[٢]، بمعنى، أنّ الموت هو نهاية الولادة، وجمع المال مآله إلى الفناء والبناء إلى الخراب.

- لا شكّ في أنّ الذين انسلخوا من هويّتهم الإنسانيّة لا مكان لهم سوى جهنّم، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[٣]، وحيث إنّهم يعترفون بأنّهم لو أطاعوا الأوامر الإلٰهيّة وعقلوا، لما كان مصيرهم جهنّم، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[٤].

- يشترك الإنسان والحيوان في امتلاك أعضاء مثل العين، والأذن، واللسان، بيد

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦.
(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار ١٣٢.
(٣) سورة الفرقان: الآية ٤٤.
(٤) سورة الملك: الآية ١٠.

أنّ كيفية توظيف هذه النعم يجب أن تكون عند الإنسان أفضل وأتمّ، وإلّا فإنّه سيكون كما الحيوان، بل أدنى مرتبة. مضافاً إلى الظاهر، يجب على الإنسان أن يرى ملكوت الأشياء، وعلاوة على الأصوات الظاهرة، يجب أن ينصت إلى الهمهمة الباطنية المعنوية.

□ سُئل الإمام الصادق عليه السلام: أخبرني عن الله كيف لم يخلق الخلق كلّهم مطيعين موحدين، وكان على ذلك قادراً؟ قال عليه السلام: **«لو خلقهم مطيعين لم يكن لهم ثواب؛ لأنّ الطاعة إذا لم تكن فعلهم لم تكن جنّة ولا نار، ولكن خلق خلقه فأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته، واحتجّ عليهم برسله، وقطع عذرهم بكتبه؛ ليكونوا هم الذين يطيعون ويعصون، ويستوجبون بطاعتهم له الثواب، وبمعصيتهم إيّاه العقاب»**(١). نعم، إنّ التكليف هو الفضل الوحيد الذي يمتاز به الإنسان على سائر المخلوقات.

التعاليم:

١ ـ عاقبة الكثير من الإنس والجنّ الدخول إلى جهنّم، ﴿ذَرَأْنَا...﴾.

٢ ـ الجنّ كالبشر مكلّفون ومخيّرون وينالون الثواب والعقاب، ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

٣ ـ معيار الإنسانيّة يتمثّل في فهم وقبول المعارف والتكاليف الدينية، ولولا ذلك لكان الإنسان كالحيوان، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

٤ ـ المخلوق الذي يعجز عن توظيف النعم الإلٰهيّة بالشكل الصحيح على الرغم من توافره على الإمكانيات والقابليات، هو أدنى مرتبة من المخلوق الذي لا يتوافر، أساساً، على تلك الإمكانيات، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

٥ ـ الإنسان الغافل المفتقد للبصيرة، الغارق في الإهمال، وشهوات الفرج، والبطن، والاستغلال من قبل الآخرين، والحرمان من متعة المعرفة، هو كالدواب بل هو أدنى مرتبة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

(١) تفسير «الاثني عشري»؛ بحار الأنوار، ج ٣، ص٦.

٦ ـ الإنسان المفتقد للبصيرة غافل عن الهدف وعن الله، ونفسه، والإمكانات، والآخرة، والذرّية، والآيات الإلٰهيّة، والشريعة الإلٰهيّة، والألطاف السابقة... وعن ذنوبه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾.

٧ ـ سبب دخول معظم الناس إلى جهنّم هو عدم توظيف نعم الله تعالى في طريق الهداية والكمال، وذلك على الرغم من امتلاكهم عينين وأذنين وفؤاد، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾

إشارات:

□ لا شك في أنّ الأسماء الحسنى تعني الأسماء الكريمة، ونحن نعرف أنّ أسماء الله تعالى كلّها تحمل مفاهيم حسنى، ومن ناحية أخرى، إنّ صفات الله لا يمكن إحصاؤها لأنّ كمالاته غير متناهية ويمكن أن تذكر لكلّ صفة من صفاته أو كمال من كمالاته اسم... إلّا أنّ ما نستفيده من الأحاديث هو أنّ لبعض صفاته أهميّة أكثر من سواها، إذ ورد عن النبي الكريم ﷺ والأئمة من أهل بيته عليهم السلام روايات كثيرة بهذا المعنى، وكذلك في مصادر أهل السنّة أيضاً مثل صحيح مسلم وصحيح البخاري والترمذي، ومن هذه الروايات «**إنّ لله عزّ وجلّ تسعة وتسعين اسماً من دعا الله بها استجاب له ومن أحصاها دخل الجنّة**»[1] ولكن ما ينبغي ملاحظته هنا، بطبيعة الحال، هو أنّ المراد من دعاء الله بأسمائه الحسنى ليس أن نعدّ هذه الأسماء ونجريها على الألسنة فحسب، بل أن يسعى الإنسان، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لأن يعكس في وجوده إشراقاً من مفاهيم تلك الأسماء فإن كان كذلك كان من أهل الجنّة وكان دعاؤه مستجاباً ونال كلّ خير. وفي ما يأتي نورد هنا الأسماء الحسنى المئة:

(١) الميزان في تفسير القرآن؛ والأمثل في كتاب الله المنزل.

«اللّه، الإله، الواحد، الأحد، الصّمد، الأوّل، الآخر، السّميع، البصير، القدير، القاهر، العليّ، الأعلى، الباقي، البديع، البارّ، الأكرم، الظاهر، الباطن، الحيّ، الحكيم، العليم، الحليم، الحفيظ، الحقّ، الحسيب، الحميد، الحفيّ، الربّ، الرّحمن، الرّحيم، الذّارئ، الرّازق، الرّقيب، الرؤوف، الرّائي، السّلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبّار، المتكبّر، السيّد، السُّبّوح، الشهيد، الصادق، الصانع، الطاهر، العدل، العفو، الغفور، الغنيّ، الغياث، الفاطر، الفرد، الفتّاح، الفالق، القديم، الملك، القدّوس، القويّ، القريب، القيّوم، القابض، الباسط، قاضي الحاجات، المجيد، المولى، المنّان، المحيط، المبين، المقيت، المصوّر، الكريم، الكبير، الكافي، كاشف الضرّ، الوتر، النور، الوهّاب، الناصر، الواسع، الودود، الهادي، الوفيّ، الوكيل، الوارث، البرّ، الباعث، التوّاب، الجليل، الجواد، الخبير، الخالق، خير النّاصرين، الديّان، الشكور، العظيم، اللطيف، الشافي»[1].

- ورد في القرآن الكريم ١٤٥ اسماً من أسماء الله الحسنى، وذكر العدد ٩٩ في الروايات هو إمّا لقابلية بعض الأسماء لإدغام بعضها مع بعض، أو المقصود هو أنّ هذه الأسماء موجودة كذلك في القرآن الكريم وليس أنّ عددها يقتصر على ٩٩ اسماً. وفي بعض الآيات، توجد مضامين هذه الأسماء.

مثلاً الآية الكريمة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[2] لا تعني أنّ «الصادق» هو أحد أسماء الله الحسنى. كما ورد في بعض الروايات والأدعية مثل دعاء الجوشن الكبير أسماء أخرى لله تعالى، بطبيعة الحال، إنّ لبعض الأسماء الحسنى آثاراً وبركات ومزايا خاصّة. يقول الفخر الرازي: الأسماء ألفاظ دالة على المعاني فهي إنّما تحسن بحسن معانيها ومفهوماتها، ولا معنى للحسن في

---

(١) تفسير مجمع البيان؛ تفسير نور الثقلين؛ التوحيد، الصدوق.

(٢) سورة النساء: الآية ١٢٢.

حق الله تعالى إلا ذكر صفات الكمال ونعوت الجلال، وهي محصورة في نوعين: عدم افتقاره إلى غيره، وثبوت افتقار غيره إليه[١].

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ قال: **«نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلّا بمعرفتنا»**[٢] أي إنّ صفات الله تعالى متجلّية فينا، ونحن السبيل إلى معرفة الله. وطبقاً لهذه الروايات فإنّ عبارة ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ تعني، دعوهم وشأنهم أولئك الذين ينكرون فضائل أهل البيت عليهم السلام. وفي رواية أخرى، نقل عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: **«نحن والله الأسماء الحسنى الّتي لا يقبل الله من أحد عملاً إلّا بمعرفتنا»**[٣].

□ ذُكرت عبارة **«الأسماء الحسنى»** أربع مرّات في القرآن الكريم[٤]. وللأسماء الحسنى ثلاثة أمثلة هي: الصفات الإلٰهيّة، الأسماء الإلٰهيّة، أولياء الله تعالى[٥].

□ أيضاً نُقل عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: **«إذا نزلت بكم شدّة فاستعينوا بنا على الله وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾»**[٦].

□ جاء في الروايات أنّ من أوتي الاسم الأعظم كان دعاؤه مستجاباً، وتمكّن من تسخير الطبيعة. كما هو الحال مع بلعم بن باعوراء (الذي ورد ذكره في الآية ١٧٥من هذه السورة) الذي كان عنده علم الاسم الأعظم.

ولكن، ما هو الاسم الأعظم؟ قال بعض: هو واحد من أسماء الله خفي عنّا كنهه. وقال بعض آخر: في الحقيقة، ليس الاسم الأعظم لفظاً واسماً، بل كمالاً وصفة لله تعالى، ومن حظي بقبس منه امتلك قدرة روحية هائلة يستطيع

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ١، ص ١٤٣.

(٣) تفسير «الاثني عشري».

(٤) سورة الإسراء: الآية ١١٠؛ سورة طه: الآية ٨؛ سورة الحشر: الآية ٢٤ وهذه الآية.

(٥) تفسير الفرقان.

(٦) بحار الأنوار، ج ٩١، ص ٥.

معها تسخير الطبيعة، إذ إنّ المسألة المهمّة هي التخلّق بصفات الله والاتّصاف بها وتحقيقها في واقع الإنسان، وإلّا كيف يمكن أن يكون الشخص الرديء الوضيع مستجاب الدعوة لمجرّد معرفته الاسم الأعظم[1]؟

- يقول الإمام الرضا عليه السلام: **«إنّ الخالق لا يوصف إلّا بما وصف به نفسه»**، بمعنى، أنّه لا يمكن أن نطلق اسماً من عندنا على الله كأن نقول: إنّه عفيف وشجاع... إلخ[2].
- الاسم هو دلالة على المسمّى، فالذات الإلٰهيّة مقدّسة، لذا، يجب أن يكون اسمه أيضاً مقدّساً. إذن، ينبغي أن تكون الذات الإلٰهيّة منزّهة ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3]، وكذلك اسمه منزّهاً ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[4]، من هنا لا يجوز وضع أسماء الآخرين إلى جانب اسم الله تعالى، كأن نقول بسم الله وباسم الشعب.
- يقول الشيخ الشهيد مرتضى مطهري: أسماء الله تبارك وتعالى ليست علائم بل هي تجليات لصفات وحقائق الذات الإلٰهيّة المقدّسة[5].

التعاليم:

١ ـ لفظ الجلالة «الله» هو محور الأسماء الإلٰهيّة، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، (لفظ الجلالة «الله» ينطوي على جميع الصفات الإلٰهيّة).

٢ ـ كلّ الصفات الحسنى لله تعالى، ومن أراد بلوغ الحسنى، فعليه أن يطيع الله تعالى، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

٣ ـ يجب أن تكون الدعوة والدعاء إلى كلّ ما هو جميل وصالح، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

٤ ـ الأسماء الإلٰهيّة هي آثار الله تعالى، ويمكن من خلال آثاره الوصول إليه سبحانه وتعالى، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
(٢) تفسير الفرقان.
(٣) سورة التوبة: الآية ٣١.
(٤) سورة الأعلى: الآية ١.
(٥) «آشنايى با قرآن» (معرفة القرآن)، ص١٤.

٥ ـ الإيمان بأنّ الكمال لله وحده، وأنّه منزّه من كلّ عيب، تدفع الإنسان إلى الدعاء والثناء، ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

٦ ـ دواء الغفلة هو ذكر الله تعالى. قرأنا في الآية السابقة ﴿هُمُ الْغَافِلُونَ﴾، وهنا نقرأ ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

٧ ـ يجب أن نعبّر عن موقف واضح إزاء الملحدين والمنحرفين، ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

إشارات:

□ ورد في الروايات أنّ المقصود بهذه الآية هم أهل بيت النبي ﷺ وشيعتهم[١].

□ وفي إشارته إلى الفرق المختلفة التي ستظهر في الأمّة الإسلاميّة، يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**الفرقة الناجية أنا وشيعتي وأتباع مذهبي**»[٢].

التعاليم:

١ ـ لا يجوز الهداية بالوسائل والطرق الباطلة أو المسير نحو الباطل، ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾.

٢ ـ الهداية والحكومة والقضاء، يجب أن تسير كلّها في طريق الحقّ، ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

٣ ـ الفضل الأكبر هو لمن لم يكتف بالهداية بل قفّاها بالتأسيس لنظام الحقّ. فالمعرفة والعمل الشخصي لا يكفيان إلّا إذا عضدهما نشر الحقّ، (﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ بمعنى «به يحكمون»).

٤ ـ المجتمع بحاجة إلى فئة هادية تقضي بالحقّ، (في ضوء مفهوم الآية ككلّ).

---

(١) تفسير مجمع البيان.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ الكافي، ج ١، ص٤٤.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾

إشارات:

- «الاستدراج» واحدة من السنن الإلٰهيّة في شأن كثير من عباده المكذّبين والمترَفين، والكلمة مشتقّة من «درجة» ومعناها اللف والطيّ التدريجي[١]. وقد وردت هذه الكلمة أيضاً في الآية ٤٤ من سورة القلم.

- يقول الإمام علي عليه السلام: «**كم من مغرور بما قد أنعم الله عليه، وكم من مستدرج يستر الله عليه، وكم من مفتون بثناء الناس عليه**»[٢] كما قال عليه السلام: «**إنّه من وسّع عليه في ذات يده فلم ير ذلك استدراجاً فقد أمن مخوفاً**»[٣] وقد قال أهل العلم: «**إنّ الله يمهل ولا يهمل**»[٤].

- وكذلك عن الإمام علي عليه السلام الذي نقل عنه قوله: «**إن الله إذا أراد بعبد خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة ويذكره الاستغفار، وإذا أراد بعبد شراً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بالنعم عند المعاصي**»[٥].

- ورد الاستدراج في مواضع عدّة في القرآن الكريم تحت عناوين الكيد الإلٰهيّ أو الإمهال أو طول العمر، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[٦]، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[٧]، مضافاً إلى الآيات ١٩٦ من سورة آل عمران، و٤٤ من سورة الأنعام، و٥٥ من سورة التوبة، و٥٥ و٥٦ من سورة المؤمنون.

---

(١) مفردات الراغب. (٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٤) رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين، ج٣، ص ١٢٠.

(٥) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ البرهان. (٦) سورة آل عمران: الآية ١٧٨.

(٧) سورة المؤمنون: الآية ٥٤.

□ إنّ الله سبحانه وتعالى يغدق على المجرمين ويغشّيهم بالنعم ويحيطهم بحفاوة الناس وثنائهم، ويجعل كلّ ذلك أسباب غرورهم وغفلتهم، فتكون هذه النعم والانتصارات مقدمة لعقاب الاستدراج[١].

□ يقول الإمام علي عليه السلام: **«يدخل الداخل لما يسمع من حكم القرآن فلا يطمئن جالساً حتى يخرج من الدين، ينتقل من دين ملك إلى دين ملك، ومن ولاية ملك إلى ولاية ملك، ومن طاعة ملك إلى طاعة ملك، ومن عهود ملك إلى عهود ملك، فاستدرجهم الله تعالى من حيث لا يعلمون، وإن كيده متين بالأمل والرجاء»**[٢].

□ كما نقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: **«إذا أراد الله بعبدٍ خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة ويذكّره الاستغفار، وإذا أراد بعبدٍ شرّاً فأذنب ذنباً فأتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار»**[٣].

التعاليم:

١ ـ التكذيب بآيات الله البيّنات، يفضي بالإنسان إلى السقوط التدريجي والموت الخفيّ، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٢ ـ استدراج الناس من السنن الإلهيّة، ليجد كلٌّ ثمرة الطريق الذي اختاره، فالأبواب مفتوحة أمام الجميع، ليختار المرء طريق العصيان، أو التوبة والمغفرة، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾.

٣ ـ انحدار الإنسان إلى الهاوية يكون، في الأغلب، رويداً رويداً وبالتدريج، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٤ ـ العمر والحياة بيد الله تعالى، ولا مفرّ للعاصي من قدرة الله، ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾.

٥ ـ الله تعالى يمنح الكافر فرصة للتوبة والتعويض عمّا فاته، لكنّه غير جدير بهذه الفرصة، ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
(٢) تفسير نور الثقلين.
(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

٦ ـ ليست النعم، دائماً، دلالة على اللطف الإلٰهيّ، أحياناً تكون استدراجاً لنزول العذاب الإلٰهيّ المباغت، ﴿وَأُمْلِي... كَيْدِى﴾.

٧ ـ أين يذهب المترفون الغافلون من تدبير الله تعالى ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى﴾؟ (كما إنّ الكيد هو عمل مستتر خفيّ، كذلك الاستدراج، فهو عذاب مستتر).

٨ ـ خطر الغرور والغفلة كبير لدرجة أنّ الله تبارك وتعالى ذكرهما بثلاث تعابير مختلفة ومتتالية، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم... وَأُمْلِي... كَيْدِى﴾.

٩ ـ الخطط والتدابير الإلٰهيّة لا تُقهر، ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾

إشارات:

□ **«الجِنّة»** هي الجنون، وتعني في الأصل الحائل والمانع، فكأنّما يُلقى على العقل حائل عند الجنون.

□ روى المفسّرون أنّ النبي الكريم ﷺ حين كان بمكّة، صعد ذات ليلة على جبل الصفا ودعا الناس إلى توحيد الله وحذّرهم من عذاب الله وقال: **«إنّي لكم نذير بين يدي عذاب شديد، قولوا: لا إله إلّا الله تفلحوا»**، فقال المشركون: إنّ صاحبهم قد جُنّ فقد بات ليلاً يصوّت حتى الصباح، فنزلت الآيات وألجمتهم وردّت قولهم[1].

إنّهم يتّهمون بالجنون شخصاً كان إلى قبيل بعثته يدعونه الصادق الأمين.

التعاليم:

١ ـ إلصاق التّهم والوقاحة ليست من شيم أصحاب الفكر والتدبّر، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾.

٢ ـ النبي الكريم ﷺ هو الصاحب أي المحب والمسامر وصديق الناس، فلو كان (والعياذ بالله) مجنوناً، فلماذا سكتوا عن ذلك لسنوات طويلة عندما كان صاحبهم ﴿بِصَاحِبِهِم﴾؟

(١) تفسير نمونه، ج٧، ص ٣٦.

٣ ـ عندما يكون النظام فاسداً، يرمى أهل الحقّ بالجنون، ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾.

٤ ـ كان الأنبياء يُرمون بالسحر والجنون من قبل أعدائهم ومناوئيهم، ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾. كما نقرأ في آية أخرى ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[1].

٥ ـ أسلوب الدعوة والإصلاح والجذب مع الغافلين يجب أن يكون ذا طابع إنذاري لا تبشيري، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

٦ ـ يجب أن يكون أسلوب التعامل مع المغرور والمخدّر الغافل واضحاً وبيّناً لا لبس فيه، ﴿مُّبِينٌ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

إشارات:

□ **«الملكوت»** مأخوذ من **«المُلك»**، ويعني الحكومة والمالكية، والمراد باللفظة هنا حكومة الله المطلقة على الوجود.

التعاليم:

١ ـ النظرة المتفكّرة العميقة ذات تأثير، وتفتح آفاقاً واسعة. (التدبّر في كنه الوجود وارتباطه بالله تعالى، توثّق صلة العبد بربّه، عدا ذلك، ينبغي للإنسان أن يصل إلى التوحيد والنبوة عن طريق التدبّر والعقل لا التقليد)، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ... أَوَلَمْ يَنظُرُواْ﴾.

٢ ـ التوحيد مصدر التوحيد وركيزتها، والتدبّر في ملكوت الكون يثبت أنّ هذا النظام يسير بهدى وله هدف، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ... فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾.

٣ ـ البؤس والشقاء الذي يصيب الإنسان هو، في معظمه، بسبب الغفلة عن ذكر

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٢.

الموت، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾؛ (ذكر الموت يقلّل من لجاج الإنسان ويدفعه إلى اغتنام الفرص والإيمان قبل الفوت).

٤ ـ لم تخلق أيّ ذرّة في هذا الكون عبثاً، ﴿مِن شَىْءٍ﴾.

٥ ـ القرآن هو أحسن كتاب، والآيات الإلٰهيّة أرقى كلام، فأيّ عذر لمن يكفر بهما ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾؟

٦ ـ من لا يؤمن بالقرآن ومعارفه، فلن يؤمن بأيّ كلام هادٍ غيره، ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

التعاليم:

١ ـ من لا يأخذ نُذُر الأنبياء على محمل الجدّ، ولا يتدبّر في كلامهم، فجزاؤه أن ينزل عليه العذاب الإلٰهيّ وأن يوكل إلى نفسه، ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ... وَيَذَرُهُمْ﴾.

٢ ـ الإضلال شأن إلهي، لكنّ نيّة المرء وعمله هما اللذان يمهّدان لصدأ القلب والحؤول دون نفوذ الهداية الإلٰهيّة إليه، ﴿يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ ثمّة آيات أخرى توضّح هذه الحقيقة، مثل ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1]، و﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2].

٣ ـ الناس ليسوا مكرهين على الطغيان، وضلال الإنسان هو غرس اختياره، ﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾. (لم يُخلق الإنسان شريراً ابتداءً).

٤ ـ الطواغيت حيارى، ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

٥ ـ لولا الهداية الإلٰهيّة، لبقي الإنسان في ضلاله وحيرته، ﴿يَعْمَهُونَ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦. (٢) سورة المطفّفين، الآية ١٤.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

إشارات:

- جاء في سبب نزول هذه الآية: أنّ قريشاً أرسلت أنفاراً عدّة إلى نجران ليسألوا اليهود الساكنين فيها مضافاً إلى المسيحيين هناك عن مسائل ملتوية ثمّ يلقوها على النبيّ عند رجوعهم إليه ظنّاً منهم أنّ النبي ﷺ سيعجز عن إجابتهم، ومن جملة هذه الأسئلة كان هذا السؤال: متى تقوم الساعة؟ فلمّا سألوا النبي الكريم ﷺ ذلك نزلت الآية محلّ البحث وأفحمتهم[1].
- **«السّاعة»**، زمن شروع القيامة، و**«القيامة»**، هي زمن الحساب والثواب والعقاب[2]. **«مُرسى»**، هو مصدر ميمي من الإرساء، وهما بمعنى واحد، وهو ثبات الشيء أو وقوعه، **«الجبال الراسيات»**، بمعنى الثابتات والراسخات.
- **«الحَفيّ»**، في الأصل هو من يسأل عن الشيء بتتابع وإصرار، ولمّا كان الإصرار في السؤال باعثاً على زيادة العلم، فقد تستعمل هذه اللفظة على العالم كما هي هنا أيضاً، وأن يكون النبي الكريم ﷺ حفيّاً تعني أن يترقّب باستمرار قيام الساعة وأن يتتبّع حلول يوم القيامة من الله تعالى.
- إنّ ثقل يوم القيامة وعظمته في السموات والأرضين ربّما يكون إشارة إلى اضطراب نظام الكواكب وانطفاء الشمس وانقلاب الأرض بطناً لظهر، أو قد يكون المقصود بعظمة يوم القيامة، هو عِظَم العقوبات في ذلك اليوم. نقرأ في دعاء كميل **«وهذا ما لا تقوم له السماوات والأرض»**[3].
- في عيون الأخبار عن الرضا عليه السلام قال: ولقد حدثني أبي عن أبيه عن آبائه عن علي عليه السلام، أنّ النبي ﷺ قيل له: يا رسول الله متى يخرج القائم من ذرّيتك؟

(١) تفسير البرهان.
(٢) تفسير المراغي.
(٣) مصباح المتهجد و سلاح المتعبد، ج٢، ص ٨٤٧.

قال: «مثلُهُ مثل الساعة لا يجلّيها لوقتها إلّا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلّا بغتة»[١].

التعاليم:

١ ـ كان الناس يلحّون على النبي الكريم ﷺ بالسؤال عن موعد قيام الساعة ويوم القيامة، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ (صيغة الفعل المضارع دلالة على الاستمرارية).

٢ ـ لا يعلم أحد بموعد قيام الساعة ويوم القيامة إلّا الله تعالى، ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾؛ إنّ عدم العلم بموعد قيام الساعة هو من أجل أن يكون الإنسان على أهبة الاستعداد والتهيّؤ.

٣ ـ لا يمكن لأحد التنبؤ بيوم القيامة، وسوف تأتي بغتة، تماماً في اللحظة التي لا يتوقّعها أحد. «بغتةٌ» (تستعمل «بغتة» في الحالات التي لا يخطر على بال الإنسان حتى مجرّد الحدس أو الظنّ).

٤ ـ القيامة ثقيلة وشاقّة للغاية، حتى على السموات والأرضين، فما بالك بالبشر، ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟

٥ ـ لا يضير المرء إذا جهل شيئاً أن يقول: لا أعلم. في هذه الآية الكريمة، نزل أمر الله تعالى مرّتين على الرسول الأعظم ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى... قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، ويقول ﷻ في مكان آخر: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[٢].

٦ ـ عدم العلم بتفاصيل يوم القيامة وموعدها لا يضرّ بأصل النبوة والمعاد، لا أحد منّا يعلم متى وأين يموت، ولكن هذا لا يدعونا إلى إنكار أصل الموت، ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.
(٢) سورة الأحقاف، الآية ٩.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

إشارات:

- توجد بعض الآيات والروايات تشير مضامينها إلى أنّ الأنبياء والأولياء عندهم حظٌّ من علم الغيب، في حين تواجهنا آيات وروايات أخرى تنفي عنهم أيّ علم بالغيب، والحقيقة أنّ الجمع بين الفئتين يكون عبر نقاط عدّة هي:

أ) عندما ينفى علم الغيب عنهم، فإنّ المقصود نفي الاستقلال، أي أنّهم لا يعلمون الغيب من عند أنفسهم، أمّا عندما يقول: إنّهم يعلمون الغيب، فهذا يعني أنّه بإرادة الله وبإلهام ووحي منه سبحانه، نظير أن نقول: هذه المنطقة لا تملك نفطاً أو تملك نفطاً، فالمقصود بالعبارة الأولى هو أنّ أرضها غير نفطية، بمعنى أنّه ليس في جوفها نفط، ومرادنا من أنّها تملك نفطاً هو أنّ النفط يصلها عن طريق الأنابيب أو الشاحنات أو ناقلات النفط أو السكك الحديدية.

ب) إنّ علم الغيب ينقسم قسمين اثنين: قسم يحوز الأنبياء على معظمه، من قبيل الأخبار التي أوحاها القرآن إلى النبي الكريم تحت عنوان الغيب كما في قوله ﷻ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾[1]، والقسم الثاني، استأثر به الله تعالى لنفسه، ولم يطلع أحداً عليه كالعلم بموعد قيام الساعة. إذن، عندما يقال: إنّ الأنبياء لا يعلمون الغيب، المقصود هو أنّهم لا يعلمون بذلك القسم الذي استأثر به الله تعالى لنفسه، أمّا القول: إنّهم يعلمون فذلك إشارة إلى القسم الثاني الذي أطلعهم سبحانه وتعالى عليه.

ج) كان الأنبياء يوجّهون خطابهم إلى أفراد مختلفين، فبعضهم كان من أهل الغلو فاضطرّ الأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام إلى التأكيد على أنّهم لا

---

(١) سورة هود: الآية ٤٩.

يعلمون الغيب حتى لا يغالي هؤلاء فيهم، أمّا بعضهم الآخر فكان قليل المعرفة بهم، ممّا حدا بهؤلاء العظماء إلى إظهار جانب من علومهم بالغيب.

د) وربّما كان المراد بعدم علمهم بالغيب هو الحضور الذهني، غير أنّ ذلك بالنسبة إلى الأئمة المعصومين، بحسب الروايات، عمود من نور بمجرّد النظر إليه يطّلع على ما شاء. وهذا نظير أن يقول المرء: نسيت رقم هاتف فلان، لكنّه سيطّلع عليه بمجرّد مراجعته لدفتر أرقام هواتفه.

هـ) إنّ العلم بالغيب ليس دائماً دليل كمال، إذ لربّما كان عامل نقص في بعض الأحيان، على سبيل المثال، عندما بات الإمام علي عليه السلام في فراش النبي الكريم ﷺ، فلو كان يعلم أنّه لن يصاب بأذىً، لما احتُسب ذلك كمالاً ولما سُجّلت له منقبة، لأنّ الجميع في هذه الحالة كان مستعداً للمبيت في فراش النبي.

و) إنّ الله تبارك وتعالى لا يثيب على علم الغيب الذي تشوبه حسابات الربح والخسارة، نظير هذه الآية موضع النقاش، بيد أنّه في الحالات التي يكون الهدف منه هداية الناس وإرشادهم، فإنّ الله يطلعهم عليه، كما هو الحال مع عيسى عندما أخبر أصحابه قائلاً: ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾[(١)].

❑ ذكر بعض المفسّرين أنّ أهل مكّة قالوا لرسول الله ﷺ: إذا كان لك ارتباط بالله تعالى، أفلا يطلعك على غلاء الأسعار أو رخصها في المستقبل، لتهيّئ عن هذا الطريق ما فيه النفع والخير وتدفع عنك ما فيه الضرر والسوء أو يطلعك الله على السّنة الممحلة «القحط» أو العام المخصب العشب، فتنتقل إلى الأرض الخصيبة؟ فنزلت عندئذٍ الآية، محلّ البحث، وكانت جواب سؤالهم[(٢)].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٩.

(٢) تفسير مجمع البيان؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

التعاليم:

١ ـ من عظم إيمانه بالله، كان تسليمه لتكليف الله وإرادته أكبر، وشعوره بالعجز تجاه هذه الإرادة أعظم، ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي...﴾.

٢ ـ العلم بحسابات الربح والخسارة هو بإرادة الله ومشيئته، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾.

٣ ـ النبي الأكرم ﷺ لم يكن يعلم الغيب من عنده أو للأغراض الشخصيّة في حياته، وإنّ إخباره بالغيب عن طريق الوحي الإلٰهيّ كان بسبب نبوّته، ﴿وَلَوۡ كُنتُ...﴾.

٤ ـ قيام الساعة هي من شؤون الغيب، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ... وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾.

٥ ـ العلم بآتي الأمور يمهّد للرخاء والطمأنينة، والجهل بها مدعاة لحدوث المصاعب والأضرار، ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ...﴾.

٦ ـ النبي الأكرم ﷺ، كسائر البشر، حياته مزيج من الآلام والشدائد، ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾.

٧ ـ النبي الأعظم ﷺ مبشّر ونذير للإنسانية، ولكن وحدهم المؤمنون الذين يؤمنون بدعوته، ﴿نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾

التعاليم:

١ ـ الجوهر الإنسانيّ للرجل والمرأة واحد، ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾.

٢ ـ الزواج أو الزوجة عامل استقرار وحياة للروح، والزواج يعمل على إزالة عدم الاستقرار النفسي، ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾.

٣ ـ قوام الحياة، الأنس والألفة لا الشقاق والاختلاف، ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾.

٤ ـ يفضّل استخدام أسلوب الكناية عند الخوض في المسائل الجنسية، ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾.
٥ ـ جماع الزوجين يجب أن يكون مستوراً، ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾.
٦ ـ نمو الجنين يحصل تدريجياً، وذلك من أجل أن تستعد الأم لذلك، ﴿خَفِيفًا... أَثْقَلَت﴾.
٧ ـ لا يشعر الإنسان بالمسؤولية إلّا حين يثقل حمله، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا﴾.
المعضلات وسيلة للتوجّه إلى الله تعالى وخلق حالة من الاستعداد النفسي والروحي في قلب الإنسان وضميره، ومثال ذلك المرأة الحامل التي ينتابها اضطراب دائم وذلك لجهلها بالتقدير الإلٰهيّ، فتكون مستعدّة لقبول أيّة نصائح أو إرشادات.
٨ ـ الوالدان يجمعهما شعور مشترك بالمسؤولية تجاه الأبناء، ﴿دَّعَوَا﴾.
٩ ـ الإنسان يميل بالفطرة إلى بقاء الأبناء والذرّية، ﴿ءَاتَيْتَنَا﴾.
١٠ ـ يجب أن نؤمن بأنّ الأبناء هبة من الله تعالى، وأن لا نعزو السبب لأنفسنا أو للوسائل الأخرى، ﴿ءَاتَيْتَنَا﴾.
١١ ـ المقاربة الجنسيّة ليست من أجل الاستمتاع وقضاء الشهوة فقط، بل لاستمرار النسل الصالح ودوامه، ﴿صَٰلِحًا﴾.
١٢ ـ يسعى الإنسان بفطرته إلى الصلاح والإصلاح، لا إلى اللامبالاة والفساد. يقول الله ﷻ: ﴿ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ ولم يقل: «آتيتنا ولداً».
١٣ ـ إذا أردنا لأبنائنا الصلاح والتربية القويمة والسليمة، يجب أن نمهّد لذلك قبل ولادته، وأن نستمدّ العون من الله تعالى، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الابن هو للوالدين معاً، ﴿ءَاتَىٰهُمَا﴾.

٢ ـ الله تبارك وتعالى يهب الابن الصالح، ونقوم نحن بحرفه، ﴿ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾.

٣ ـ عند الضيق والشدّة ينذر الإنسان لله ويتعهّد، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وما إن تنفرج الشدّة حتى يتنكّر لنذره وعهده، ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾.

٤ ـ الأولاد نعمة يهبها الله لعباده، فلا ينبغي للوالدين أن ينسبوا لأنفسهم أو لغيرهم دوراً مستقلاً في خلق صورة الطفل أو ملامحه أو سلامته، لأنّ ذلك نوع من الشرك، ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾.

٥ ـ أوّل شروط المعبود أن يكون قادراً على الخلق. لا يزال يعيش في العالم الصناعي المتحضّر ملايين الوثنيين، ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ﴾.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

إشارات:

□ قد يكون معنى ﴿تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ هو أنّكم إذا طلبتم منهم أن يتّبعوكم، لن يستجيبوا لكم. صحيح أنّ الحديث يدور حول الأصنام الجامدة التي لا روح فيها، إلّا أنّ الآية الكريمة توجّه خطابها لذوي الألباب لتكشف عن العقائد الباطلة للمشركين في اعتبارهم الأوثان أشياء عاقلة بل ما فوق العقل، وكانوا على هذا الأساس يعبدونها ويستمدّون العون منها.

□ لقد نهانا القرآن الكريم في آيات عدّة وبعبارات شتى عن أن نتصوّر استقلالية قدرة الأشياء أو الأفراد، من هذه الآيات ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ و﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا﴾[1].

التعاليم:

١ ـ الأشياء التي لا تنصر ولا تنتصر لا تستحقّ أن تُعبد، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٦.

٢ ـ لا يمكن تبرير عبادة الإنسان، فما بالك بالأشياء والموجودات الجامدة غير العاقلة الأقلّ شأناً من الإنسان، والتي ليس لها القدرة على الهداية أو النصر، ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

إشارات:

□ قد يكون المقصود بـ﴿عِبَادٌ﴾ البشر الذين خُلعت عليهم صفة الألوهيّة مثل النبي عيسى عليه السلام أو الملائكة، أو أنّ المقصود هو الأوثان التي رفعها عبدتها إلى منزلة الآلهة. وإذا كان المعنى هو المخلوقات، فهو يشمل كلّ شيء يُعبد سوى الله.

التعاليم:

١ ـ العبادة تحتاج إلى سبب ومبرّر، والمعبود يجب أن يكون أسمى وأعلى من العابد، فعبادة مخلوقات أمثالنا، لا هي مبرّرة ولا تشكّل ميزة، ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾.

٢ ـ المعبود الذي يستحقّ العبادة هو الذي يقضي حوائج عباده ومخلوقاته، ويمنحهم الرشاد، ناهيك عن أنّ العلاقة بين العبد ومعبوده يجب أن تكون متقابلة، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾.

٣ ـ عدم استجابة معبوداتكم لحوائجكم دليل على عجزها وزيفها، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾

إشارات:

□ **«يَبطِشون»** مشتقّ من **«بَطش»**، بمعنى تناول الشيء بصولة وشدّة وقدرة.

□ الآية الكريمة هي توبيخ لأولئك الذين يدعون مع الله شركاء هم أعجز منهم، لأنّ لهم جوارح من قبيل أرجل يمشون بها وأعين يبصرون بها وآذان يسمعون بها، في حين أنّ هؤلاء الشركاء الذين يدعون، أصنام لا روح فيها، عاجزة عن فعل أيّ شيء، إذن، ما الذي يدعوهم إلى الاستمرار في عبادة هذه الأصنام؟

التعاليم:

١ ـ القائد الإلٰهيّ يجب أن يمتلك القدرة والجرأة على التحدّي والدعوة إلى المباهلة، والطلب من قوى الباطل أن ينفّذوا جميع خططهم ليبرهنوا على عجزهم، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ...﴾.

٢ ـ الشركاء الذين لهم جوارح لا يستطيعون نصرة المشركين، فما بالك بالشركاء الذين ليس لهم جوارح والذين هم أضعف منكم، ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآ...﴾؟

٣ ـ لا يمتثل المشركون أوامر النبي الكريم ﷺ، لأنّهم يقولون: إنّه بشر مثلنا. لكنّهم في المقابل، يعبدون الأصنام التي هي أعجز منهم وأضعف، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ...﴾.

٤ ـ أسلوب الاحتجاج وطرح الأسئلة المقرون بالنقد، والتوبيخ، والتحدّي هو من أفضل الأساليب في الدعوة والإصلاح. (في ضوء مفهوم هذه الآية والآيات السابقة).

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾

إشارات:

□ استكمالاً لما ورد في الآية السابقة من عجز الآلهة الباطلة، تتحدّث هذه الآية عن الله تبارك وتعالى.

□ الإنسان الصالح يحظى بمكانة عالية عند الله سبحانه وتعالى، والأنبياء كلّهم

كانوا صالحين، ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]، وكانوا يأملون أن يلحقهم الله بالصالحين، إذ يقول النبي يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2]، ونحن أيضاً ندعو الله تبارك وتعالى في نهاية كلّ صلاة أن يبعث بسلامنا إليهم، «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

التعاليم:

١ ـ لقد نصر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ وحفظه بالقرآن الكريم، ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢ ـ تطلّع الصالحين إلى ولاية الله وحمايته، هو سبب صمودهم وعدم خشيتهم، ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ...﴾.

٣ ـ علاقة الله تعالى بالمؤمن وثيقة جداً، ﴿وَلِـِّۧيَ﴾؛ (كلمة «وليّ» في الأصل تعني التابع والتالي).

٤ ـ نزول الكتاب السماوي قبس من الولاية الإلٰهيّة، ﴿وَلِـِّۧيَ... نَزَّلَ﴾.

٥ ـ المعبود الحقيقي هو الذي يمتلك شريعة واضحة ومحدّدة، ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وفي الوقت ذاته يتولّى أتباعه بعنايته عند تطبيق تلك الشريعة، ﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ (صدور الشريعة يجب أن يقترن بدعم المنفّذين الصالحين والقديرين لها).

٦ ـ لا تخشوا أحداً! فالله وليّ الصالحين، وقد وعد بنصرتهم، ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ...﴾.

٧ ـ مشاكل الإنسان إمّا نابعة من عدم امتلاكه برنامجاً واضحاً، أو لافتقاده وليّاً يتولّاه، والمؤمن لا يعاني أيّاً منهما، ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ... يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٨ ـ الولاية الإلٰهيّة للأولياء الصالحين دائمة وعامة. ﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أمّا الكافرون فهم مطرودون من دائرة الدعم والمدد الإلٰهيّ. ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[3].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٥.
(٢) سورة يوسف: الآية ١٠١.
(٣) سورة محمد، الآية ١١.

٩ ـ المؤمنون الصالحون لا يواجهون انسداداً، ﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وقد ورد في آية أخرى ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1].

١٠ ـ مبدأ الجدارة هو أسلوب قرآني معتمد، ﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

إشارات:

❑ يُستفاد من مجموع الآيات السابقة أنّ المعبود والرب يجب أن يكون:

أ) خالقاً ومالكاً، ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

ب) ناصراً ومعيناً، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾.

ج) أن يستجيب للأدعية، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ...﴾.

د) قادراً ومقتدراً، ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ...﴾.

هـ) سميعاً وبصيراً، ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

و) له القدرة على أن يكبح مكر الأعداء، ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾.

ز) ينزّل كتاباً وشريعة، ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

ح) يتولّى الأخيار والجديرين، ﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ هدف الوثنيين طلب العون من الأوثان، وهو ما يفنّده القرآن الكريم، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾.

٢ ـ ينبغي للأوثان والمعبودين، أن يصونوا أنفسهم، على الأقل، من حوادث الدهر، لكنّهم في الحقيقة ليسوا كذلك، ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

٣ ـ المعبود الذي يفتقد إلى المشاعر والإرادة والقدرة، لا يستحقّ أن يُعبد، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ... لَا يَسْمَعُواْ... لَا يُبْصِرُونَ﴾.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

إشارات:

- تنطوي كلمة «عفو» على معانٍ عدّة هي: الحدّ الوسط، الصفح وقبول عذر العاصي، استسهال الأمور، إلّا أنّ المعنى الأوّل هو المراد هنا.
- «**خُذ العفو**» بمعنى الأخذ بزمام العفو، وتوظيفه توظيفاً صحيحاً، ومنها أن يستعمل المرء الشدّة والحزم في الحالات التي تقتضي ذلك، ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾[١].

كما إنّ مفهوم الآية الكريمة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لا يعني ترك الجاهلين والأعداء يتصرّفون بحريّتهم، بل المقصود عدم الاختلاط بهم والانجذاب نحوهم، ولكن أحياناً يقتضي الأمر إسداء النصح والوعظ لهم وتذكيرهم بل وحتى ضرورة التصدّي لهم، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾[٢].

- تختزن هذه الآية، على سهولتها واختصارها، جميع الأصول الأخلاقية، من أخلاق شخصيّة ﴿ٱلْعَفْوَ﴾، وأخلاق اجتماعيّة ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾، مع الصديق ﴿ٱلْعَفْوَ﴾، ومع العدو ﴿وَأَعْرِضْ﴾، باللسان ﴿وَأْمُرْ﴾، وبالعمل ﴿وَأَعْرِضْ﴾، إيجابي ﴿خُذِ﴾، وسلبي ﴿وَأَعْرِضْ﴾، للقائد، وللأمة، لذلك العصر، ولهذا العصر. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**لا آية في القرآن أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية**»[٣].

لا شكّ في أنّ العفو المطروح في الآية هو ما يتعلّق منه بالقضايا الشخصيّة وليس الحقّ العام وبيت المال.

---

(١) سورة النور: الآية ٢.
(٢) سورة النساء: الآية ٦٣.
(٣) تفسير الفرقان.

□ عندما نزلت هذه الآية الكريمة على النبي الأعظم ﷺ قال لجبرئيل: **«وما العفو»**؟، قال جبرئيل: **«لا أدري، حتى أسأل العالم»**، ثمّ أتاه فقال: **«فقال: يا محمّد إنّ الله يأمرك أن تَعفُو عمّن ظلمك وتُعطي مَن حَرمك وتَصِل مَن قطعك»**[1].

□ هذه السورة برمّتها مفعمة بعبارات الاعتدال والوسطية. الاعتدال في الحقوق (الآية ٢٩)، في الاستهلاك (الآية ٣١)، في التزيّن (الآية ٣٢)، في العبادة (الآية ٥٦)، في بناء البيوت (الآية ٧٤)، في الاقتصاد (الآية ٨٥) وبالنسبة إلى أسلوب تطبيق الحقّ والعدل في أمّة موسى عليه السلام وأمّة محمّد ﷺ. وقد وردت في الآيتين ١٥٧ و١٨١ ملاحظات قيّمة.

التعاليم:

١ ـ يجب أن نسلك دائماً طريق الاعتدال والوسطية، ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾.

٢ ـ لا يكفي أن يكون الإنسان خيّراً، بل عليه أن ينشر الخيرات في المجتمع، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾.

٣ ـ الآية الكريمة لا تخاطب الرسول الأعظم ﷺ فحسب، بل كلّ مسلم وداعية ومصلح اجتماعي.

يجب أن يكون سلوكنا تجاه اللجوجين والجهلة المثرثرين سلوكاً إعراضياً، وأن نصبر على الإساءات والافتراءات ونعرض عنها، لا أن نتنازع ونشتبك بعضنا مع بعضنا الآخر، ﴿وَأَعْرِضْ...﴾.

٤ ـ يجب أن نأمر بالمعروف وفي الوقت ذاته أن يكون أسلوب الأمر بالمعروف مناسباً ومقبولاً، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾.

٥ ـ المقصود بالجاهلين، الحمقى وليس الأميّين، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، في البيان القرآني، يُعبّر عن الجهل في إزاء العقل.

---

(١) تفسير مجمع البيان؛ بحار الأنوار، ج ٧٥، ص١١٤.

٦ ـ في أسلوب الإعراض والصفح، ينبغي عدم الاكتراث لمطالب الجاهلين وأقوالهم التي تتعارض مع المصلحة العامة، بل علينا اتّخاذ موقف قاطع وراسخ، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

إشارات:

- «نَزغ»، معناه الدخول في الأمر لإفساده أو الإثارة ضدّه.
- تناولت هذه السورة من الآية ١٦ حتى الآية ٢٧ قصة إغواء الشيطان النبيَّ آدم عليه السلام، وتعاود هنا في خواتيمها ما استهلّت به من حديث عن وساوس الشيطان.
- الآية السابقة دعت إلى الإعراض عن الجاهلين، إذ جاء في حديث آخر: أنّه لما نزلت آية ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، قال النبي الكريم: كيف يا ربّ والغضب؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. ومن البديهي أنّ الاستعاذة لا تختزل في قول عبارة «أعوذُ بالله»، بل تأتي من خلال مدّ الجسور الروحية مع الله والتوكّل عليه والتسليم له.
- ينبغي الالتفات إلى أنه على الرغم من عصمة جميع الأنبياء، إلّا أنّ الشياطين لا يستثنون أحداً من وساوسهم، بما في ذلك المعصومون عليهم السلام، والدليل على ذلك هذه الآية ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾، أو الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾[2]، والتي تشير إلى أعداء الأنبياء ومخالفيهم. بيد أنّ سموّ الدور الذي يضطلع به الأنبياء يتمثّل في كونهم أناساً صالحين ومتّقين وبعيدين عن كلّ معصية على الرغم من امتلاكهم الغرائزَ البشرية وإحاطة الوساوس الشيطانية بهم من كلّ جانب.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل والمنار. (٢) سورة الأنعام: الآية ١١٢.

في الحقيقة، إنّ الشيطان يسعى بوساوسه إلى إغواء جميع البشر، إلّا أنّه يندحر عند مواجهته المخلصين، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ افتراض المعصية والوساوس، لا يدلّ على حتميّة وقوعها، بل إنّه مجرّد إنذار. («إمّا»، أداة شرط لا تحقيق. كما في الآية الكريمة ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[2]، والشرط ليس دليلاً على الوقوع).

٢ ـ وساوس الشيطان شيء واقعي وحتمي، ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ (اقترن الفعل بنون التوكيد).

٣ ـ وساوس الشيطان دائمية، ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾؛ (صيغة الفعل المضارع دلالة على الاستمرارية).

٤ ـ يجب أن لا نغفل حتى عن أقلّ الوساوس الشيطانية، وعلينا الاستعاذة بالله منه، ﴿نَزْغٌ﴾.

٥ ـ الأنبياء معصومون، وإحدى طرق عصمتهم هي طلب المدد من الله تعالى والتوجّه إليه والاستعاذة به، ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾.

٦ ـ الاستعاذة بالله وطلب العون والمدد منه هو العلاج الشافي من وساس الشيطان، ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾.

٧ ـ حتى الأنبياء بحاجة إلى الاستعاذة بالله تعالى واللّجوء إليه، ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾.

٨ ـ حين يَذْلَهِمُّ الخطب، يصبح الحذر والتنبّه ضرورياً، ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾.

٩ ـ لمّا كانت الوساوس الشيطانية متعدّدة ومتباينة، فلا بدّ من أن تكون الاستعاذة بلفظ الجلالة «الله» فهو جامع للصفات الحسنى ولكلّ كمال. (لاحظ أنّه ﷻ لم يقل: «بالغنيّ»، أو «بالعليم» و...).

---

(١) سورة ص: الآيتان ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٥.

١٠ ـ يجب أن نستعيذ بالله السميع، والعليم، والمطّلع على السرائر، لا بالأوثان أو الخرافات وما شابه، ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

إشارات:

- **«المسّ»**، يقال في ما يكون إدراكه لحاسة اللمس مقروناً باللمس. **«الطائف»**، هو الذي يطوف ويدور حول الشيء وكأنّ وساوس الشيطان تدور حول فكر الإنسان وروحه كالطائف حول الشيء ليجد منفذاً إليه[١].

- لعلّ المقصود في هذه الآية هو تذكّر أنّ الله سميع عليم كما ورد في نهاية الآية ٢٠٠، أي أنّهم يتذكّرون أنّ الله يشاهد أعمالهم ويسمع كلامهم، وهذا التذكّر يمنعهم من ارتكاب المعاصي. سُئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾؟ قال: **«هو العبد يهمّ بالذنب ثم يتذكّر فيمسك، فذلك قوله: ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾**[٢].

- وقد ورد في بعض الروايات أنّ ذكر «لا إله إلّا اللّه» مجرّب لدفع وساوس الشيطان[٣].

- وساوس الشيطان، تارةً، تكون عن بعد ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾[٤]، وتارة أخرى من خلال نفوذه في الروح ﴿فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[٥]، أو ربّما عن طريق المعاشرة والمجالسة، ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[٦]، أو العلاقة واللمس، ﴿مَسَّهُمۡ﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
(٢) تفسير نور الثقلين.
(٣) تفسير «الاثني عشري».
(٤) سورة طه: الآية ١٢٠.
(٥) سورة الناس: الآية ٥.
(٦) سورة الزخرف: الآية ٣٦.

التعاليم:

١ ـ حتى الإنسان المؤمن الورع ليس بمنأى عن وساوس الشيطان، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ﴾.

٢ ـ الشياطين لمّا تزل في طواف دائم حول البشر لإغوائهم، ﴿طَٰٓئِفٞ﴾.

(الوساوس النفسانية والشيطانية كالجراثيم، متواجدة في كلّ مكان، تترصّد ضعاف الإيمان لتخترقهم).

٣ ـ قد يتعرّض العلماء، والمعلمون، والمصلحون إلى اتّصالات مشبوهة لنشر تيار منحرف، لذا، عليهم توخّي اليقظة والحذر لئلا يعملوا على خدمة أهداف الأعداء وأن يستعيذوا بالله تعالى من شرورهم، ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ... تَذَكَّرُواْ﴾.

٤ ـ ذكر الله تعالى يمنح الإنسان البصيرة، ويحفظه من وساوس الشيطان، ﴿تَذَكَّرُواْ... مُّبۡصِرُونَ﴾.

٥ ـ الورع يوجّه وجهه إلى الله تعالى، وهو واعٍ وخبير بالشياطين، ﴿ٱتَّقَوۡاْ... تَذَكَّرُواْ﴾.

٦ ـ العاصون الساقطون في شراك الشيطان عميٌ، والناجون من مصائد إبليس مبصرون، ﴿مُّبۡصِرُونَ﴾.

٧ ـ إذا تحلّى أفراد المجتمع بالنقاء والورع من النواحي الأخلاقيّة، والسياسيّة، والاقتصادية، والعسكرية، فلن يؤثّر فيهم الاختلاط مع المتشيطنين والاتصال بهم، ﴿تَذَكَّرُواْ... مُّبۡصِرُونَ﴾.

٨ ـ لولا التقوى والذكرى، لكان الشياطين والبشر أخوة، وكان الاتصال بينهما سهلاً ومؤثّراً، ولجرّوا البشر إلى أعماق الضلالة، ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾.

٩ ـ طريق الانحراف لا حدّ له ولا نهاية، ﴿يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾.

١٠ ـ الله تبارك وتعالى وليّ الصالحين المتّقين، حيث جاء في الآيات السابقة

﴿إِنَّ وَلِيِّـيَ ٱللَّهُ... وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، في حين أنّ من لا تقوى له مبتلى بمؤاخاة الشيطان، ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ﴾.

١١ ـ لا يكتفي الشيطان بإغواء الإنسان الذي تآخى معه، بل يوغل في جرّه إلى أعماق الضلالة والغيّ، ﴿فِي ٱلْغَيِّ... لَا يُقْصِرُونَ﴾.

١٢ ـ المتشيطنون لا يألون جهداً في حرف أيّ إنسان، ولا يستثنون أحداً، ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

إشارات:

- كلمة «الاجتباء» مشتقّة من «الجباية» وأصلها جمع الماء في الحوض وغيره، ولذلك يسمّى حوض الماء بـ«الجابية»، وجمع الخراج يسمّى جباية أيضاً. ثمّ توسّعوا في الاستعمال فأطلقوا على جمع الأشياء وانتقاء ما يُراد منها «اجتباءً».
- وربمّا كان معنى الآية هو لماذا لم تختر المعجزة التي طالبناك بتحقيقها، وجئتنا بأخرى، ولم تعمل وفق رغباتنا؟!
- روي عن النبي الأكرم ﷺ قوله: «**إذا أردتُم عيش السعداء، وموت الشهداء، والنّجاة يوم الحشرة، والظلّ يوم الحرور، والهدى يوم الضّلالة، فادرسوا القرآن فإنّه كلام الرّحمن وحرز من الشيطان ورجحان في الميزان**»(١). وعنه ﷺ أيضاً: «**فيه كمال دينكم ما عَدل أحدٌ عن القرآن إلّا إلى النّار**»(٢).

التعاليم:

١ ـ آيات القرآن الكريم معجزة النبي الأعظم ﷺ ودليل صدقه، ﴿لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾.

٢ ـ أحياناً، كان الوحي ينزل بفترات زمنية متباعدة، ﴿لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٨٩، ص١٧. (٢) الكافي، ج ٢، ص٦٠٠.

٣ ـ ليس من الضروري أن يأتي الداعية كلّ يوم بكلام جديد، أحياناً يكون الصمت أولى، ﴿لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾.

٤ ـ كان ظنّ الكفّار هو أنّ آيات القرآن هي من عند الرسول الكريم ﷺ، جمعها من هنا وهناك، وعرضها على الناس، لا أنّها وحيٌ منزل، ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾.

٥ ـ كان الكفّار المتعنّتون يوجّهون سهام شماتتهم إلى النبي الكريم ﷺ كلّما تأخّر نزول الوحي عليه، ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾.

٦ ـ لا ينبغي للزعيم الإلٰهيّ أن يتأثّر بالتحجّجات والطلبات غير الصائبة، بل يجب الردّ عليها بحزم وقوّة، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ...﴾.

٧ ـ النبي الكريم ﷺ يتلقى الأوامر والأحكام من الوحي فقط، ولا ينتقيها من عنده ثمّ يعرضها على الناس، ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.

٨ ـ الوحي وسيلة لتربية النبي والأمّة، وهو من مقتضيات الربوبيّة، ﴿رَبِّي... رَّبِّكُمْ﴾.

٩ ـ هداية القرآن الكريم خالصة لا تشوبها ذرّة انحراف. (استعمال كلمة «هُدى» بدلاً من «هاد»، فيه دلالة على أنّ القرآن برمّته هداية).

١٠ ـ يجب أن يكون الإرشاد والهداية على أساس البصيرة، ﴿بَصَائِرُ... وَهُدًى﴾.

١١ ـ القرآن الكريم كتاب المعرفة والبصيرة الفكرية، ﴿بَصَائِرُ﴾، وكذلك دليل الإرشاد والنهضة العملية، ﴿وَهُدًى﴾، وعاقبة اتّباعه هي نيل الرحمة والبركة في الدارين، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾.

١٢ ـ القرآن الكريم كتاب هداية للجميع، ولكن وحدهم أهل الإيمان ينتفعون بهذه الهداية، ويُحرَمُ هذه الرحمة كلّ من عميت بصيرته، وابتعد عن الهداية الإلٰهيّة، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

إشارات:

❑ «إنصات»، بمعنى السكوت المشفوع بالإصغاء والاستماع.

□ تقول هذه الآية: إذا قُرئ القرآن وجب السكوت والإنصات إليه تأدّباً. بطبيعة الحال عندما يكون إمام الجماعة منشغلاً بقراءة سورة الحمد وسورة الصلاة يتوجّب على المأمومين السكوت، بينما في سائر الحالات يكون مستحبّاً ودليل أدب. وحتى لو لم يكن ثمّة حكم بالسكوت، فالمنطق والأدب يقتضيان السكوت إزاء كلام الخالق سبحانه وتعالى.

□ روي أنّ الإمام أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام كان مشغولاً بصلاة الصبح وكان ابن الكوّا ـ ذلك المنافق فظّ القلب ـ خلف الإمام مشغولاً بالصلاة، فقرأ فجأة ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وكان هدفه من قراءة الآية أن يعترض على الإمام عليّ مكنّياً عن قبول الحكم في صفين ـ كما احتملوا ذلك ـ لكن الإمام سكت احتراماً للقرآن حتى ينتهي ابن الكوّا من قراءة الآية، ثمّ رجع الإمام إلى قراءته فأعاد ابن الكوّا عمله مرّة ثانية، فسكت الإمام أيضاً، فكرّر ابن الكوّا القراءة ثالثة فسكت علي عليه السلام أيضاً، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، وهو يشير إلى أنّ عذاب الله وعقابه الأليم في انتظار المنافقين وغير المؤمنين، وينبغي أن يتحمّل الإنسان أذاهم، ثمّ إنّ الإمام أكمل السورة وهوى إلى الركوع[1].

□ عن الإمام الباقر عليه السلام: **«قرّاء القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتّخذه بضاعة واستدرّ به الملوك واستطال به على الناس، ورجلٌ قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيّع حدوده وأقامه إقامة القدح، فلا كثّر الله هؤلاء من حملة القرآن، ورجلٌ قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه فأسهر به ليله وأظمأ به نهاره وقام به في مساجده وتجافى به عن فراشه، فبأولئك يدفع الله العزيز الجبّار البلاء، وبأولئك يديل الدول من الأعداء، وبأولئك ينزّل الله عزّ وجلّ الغيث من السماء، فوالله لهؤلاء في قرّاء القرآن أعزّ من الكبريت الأحمر»**[2].

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. (٢) الكافي، ج ٢، ص٦٢٧.

التعاليم:

١ ـ إذا قُرئ القرآن الكريم يجب الإنصات له، أيّاً كان القارئ، ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾؛ (الفعل ﴿قُرِئَ﴾ مبني للمجهول).

٢ ـ السكوت والإنصات للقرآن الكريم مدعاة لاستنزال الرحمة الإلٰهيّة، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾

إشارات:

❑ تتمّة للآية السابقة التي بيّنت آداب تلاوة القرآن، تذكر هذه الآية آداب الذكر والدعاء حيث يجب أن يقترنا بالتضرّع، والخشوع، والخشية، والرجاء.

❑ «**الآصال**» جمع «**أصيل**»، وتعني قبيل الغروب، و«**غُدوّ**» جمع «**غدوة**»، وهو من أوّل النهار إلى غروب الشمس.

❑ قال بعضهم: المراد بالذكر في الآية هو الصلوات الخمس الواجبة، ونُقل عن ابن عباس أنّه طبقاً لهذه الآية توجّب على إمام الجماعة أن يجهر بصلاة الصبح والعشاء بصوت مرتفع يُسمع المأمومين لا أكثر.

التعاليم:

١ ـ الأنبياء أيضاً يجب أن يذكروا الله دائماً، ناهيك عن الآخرين، ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾.

٢ ـ القرآن الكريم يثني على الذكر اللساني والقلبي معاً، ﴿فِى نَفْسِكَ﴾.

٣ ـ ذكر الله يُذهب الغفلة حينما يكون خالصاً من أيّ رياء أو جلبة، وإلّا فسيصبح نوعاً من التسلية والغفلة، ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾.

٤ ـ ربوبيّة الله تعالى دائمة، إذن، يجب أن يكون ذكره أيضاً دائمياً، ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ... بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾.

٥ ـ الذكر الذي يحصّن الإنسان هو الذي يكون منطلقه الحب والحُرقة ويكون متواصلاً كلّ صباح ومساء، ﴿تَضَرُّعًا... بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

٦ ـ يجب أن نذكر الله في كلّ صباح عند شروع العمل، وفي كلّ مساء عند الانتهاء منه والحصول على ثماره، ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

٧ ـ أولئك الذين لا يذكرون الله صباحاً ومساءً هم من الغافلين، ﴿وَاذْكُر... وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾

إشارات:

- ﴿الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ هم المقرّبون عند الله تعالى، وتشمل الملائكة وعباد الله الصالحين، الذين يؤمنون أنّهم بين يدي الله تعالى.
- يستحبّ السجود عند تلاوة الآية الكريمة أعلاه أو الاستماع إليها[1]. وبالنسبة لآيات السجود الخمس عشرة الواردة في القرآن الكريم، فأربعة منها السجود فيها واجب، وهذه الآيات هي: الآية ١٥ سورة السجدة، الآية ٣٧ سورة فصّلت، الآية ٦٢ سورة النجم، والآية ١٩ سورة العلق، أمّا الآيات الإحدى عشرة فالسجود فيها مستحبّ، وهذه الآيات هي: ٢٠٦ الأعراف، ١٥ الرعد، ٤٨ النحل، ١٠٧ الإسراء، ٥٨ مريم، ١٨ و٧٧ الحج، ٦٠ الفرقان، ٢٥ النمل، ٢٤ ص و٢١ الانشقاق.

التعاليم:

١ ـ بالعبادة نضع أنفسنا في زمرة الملائكة ونصطبغ بصبغتهم، ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ... إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ...﴾.

٢ ـ المستكبر محروم من منزلة القرب الإلٰهيّ، ﴿الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أمّا المقرّبون من الله فهم متواضعون لا يتكبّرون.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

٣ ـ ذِكرُ الله دليل ساطع على العبادة، ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ... لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾.

٤ ـ الغفلة عن الله تعالى هي نتيجة الاستعلاء والاستكبار، ﴿...وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ... إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٥ ـ السبيل إلى منزلة القرب الإلٰهيّ تمرّ عبر التواضع، والعبادة، والسجود الخالص، ﴿عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ... وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾.

٦ ـ السجود هو لله وحده، والمقرّبون يؤمنون بذلك، ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾، (تقديم ﴿وَلَهُۥ﴾على ﴿يَسْجُدُونَ﴾ دليل على الانحصار).

٧ ـ لا ينبغي أن نغترّ بعبادتنا، فعند الله ملائكة لا ينقطعون عن عبادته أبداً، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ... وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾.

٨ ـ يجب أن نطرح عنّا عقليّة الاستكبار، ونسبّح لله ونسجد له، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ... وَيُسَبِّحُونَهُۥ... يَسْجُدُونَ﴾.

«الحمدُ لله رَبِّ العالمين»

سُورَةُ الأنفَالِ

السورة: ٨ الجزء: ٩ ـ ١٠

عدد الآيات: ٧٥

ملامح سورة الأنفال

مدنية وآياتها خمس وسبعون، سمّيت بالأنفال لورود هذه الكلمة في بدايتها، وكذا لبيانها أحكام الأنفال والثروات العامة. «بدر» هو الاسم الآخر للسورة وذلك لحديثها عن معركة بدر، أوّل مواجهة بين المسلمين والمشركين، وعن المدد والنصرة الإلٰهيّة.

كما تتطرّق السورة إلى خصال جند الحقّ وجند الباطل، وتستذكر دروساً من تاريخ نبي الإسلام ﷺ، وطبيعة تعامله مع المسلمين، مضافاً إلى بعض الموضوعات مثل الأنفال، بيت المال، أحكام الجهاد، الغنائم، الأسرى، الخُمس ومصارفه، حادثة الهجرة وليلة المبيت، خصال المؤمن الحقيقي، الحؤول دون وقوع الخلافات والفُرقة... إلخ.

❖ ❖ ❖

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾

إشارات:

- يطرح القرآن الكريم في ١٣٠ موضعاً استفهامات وأسئلة، إذ وردت عبارة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ في ١٥ موضعاً.
- **«الأنفال»** جمع «نَفل»، بمعنى الزيادة والعطية. وإنّما سمّيت الصلوات المستحبّة نافلة لأنّها زيادة على الصلوات الواجبة، ويقال: «النافلة» للذرّية التي أنعم الله بها على إبراهيم عليه السلام، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾[1].
- الأنفال بحسب ما جاء في الروايات والمصادر الفقهية هي المنابع الطبيعية، والثروات العامة، وغنائم الحرب، وكل أرض لم يوجف عليها خيل ولا ركاب، والأموال التي لا ربّ لها، ومن مات وليس له مولى، والآجام، والمعادن، والغابات، وبطون الأودية، والأرض الموات... إلخ[2].
- قبل الإسلام كان توزيع الغنائم يتمّ على أساس التمييز، حتى جاء الإسلام ووقعت معركة بدر، وهي أوّل مواجهة يخوضها المسلمون الذين أصابوا غنائم كثيرة، فنشب خلاف بينهم حول طريقة توزيع هذه الغنائم، إذ كان الفتية يرون أنّهم الأحقّ بالغنائم دون غيرهم لأنّهم كانوا رأس الحربة في قتال المشركين، بينما اعترض الكهول والشيوخ بالقول إنّهم كانوا السند والظهير لهم، حتى أرجعوا الأمر إلى النبي الكريم ﷺ ليقضي في الأمر، فقام بنفسه بتقسيم الغنائم بين المسلمين بالتساوي دون أيّ تمييز لينسخ التمييز الذي كان قائماً في العصر

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٢.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ بحار الأنوار، ج ٩٣، ص٢٠٥؛ الكافي، ج ١، ص٥٣٩.

الجاهلي، ويدافع عن المستضعفين، على الرغم من أنّ هذه القسمة قد آلمت بعض المسلمين[١].

- نزلت هذه الآيات، كما قرأنا، في معركة بدر وتتحدّث عن غنائم الحرب لكنّها لا تختصّ بهذا الموضوع فقط، إذ تعتبر حكماً كليّاً وعامّاً يشمل جميع الأموال الإضافية التي ليس لها مالك خاص[٢].
- يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ غنائم بدر كانت للنبي خاصّة فقسّمها بينهم تفضّلاً منه**»[٣].
- إصلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصيام[٤].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام لتلميذه المفضل: «**إذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعة فافتدها من مالي**»[٥].

- أساساً، إنّ إصلاح ذات البين، وإيجاد التفاهم، وقلع عناصر الكدر والبغضاء من صدور المسلمين، وتبديل كلّ ذلك بالمحبّة يعدّ من أهمّ الأغراض الإسلاميّة، لدرجة أنّه يمكن للمرء أن يفتدي المنازعات من سهم الإمام[٦].

التعاليم:

١ ـ سؤال الناس النبي الكريم صلى الله عليه وآله عن الأنفال وجوابه لهم برهان واضح على الدور الذي يلعبه الإسلام في الشؤون الاقتصاديّة للمجتمع، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ...﴾.

٢ ـ الزعيم الإلٰهيّ هو المرجع في بيان الأحكام والقضايا الاقتصاديّة، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ...﴾.

٣ ـ الهدف من الجهاد في الإسلام هو نصرة الحقّ على الباطل، أمّا الحصول على الغنائم فهي مسألة ثانوية إضافية، (﴿ٱلْأَنفَالِ﴾: تعني الإضافة والزيادة).

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ «فروغ ابديّت» (شروق الأبد)، ج ١، ص ٤٢٣.
(٢) الميزان في تفسير القرآن؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
(٤) تفسير أطيب البيان.
(٥) الكافي، ج ٢، ص٢٠٩.
(٦) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

٤ ـ الحكومة الإسلاميّة بحاجة إلى ظهير اقتصادي، والأنفال هي ذلك الظهير، ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

٥ ـ الإسلام نظّم تشريعات للموارد الطبيعية والثروات العامة أيضاً، ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

٦ ـ جميع مصارف رسول الله ﷺ في سبيل تحقيق الأهداف الإلٰهيّة، ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

٧ ـ المحافظة على الأموال العامة تحتاج إلى النزاهة والشجاعة، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ (ذلك أنّ بيت المال والأموال العامة يمكن أن تشكّل منفذاً إلى الاستغلال).

٨ ـ من يبغي الإصلاح يجب أن يكون ورعاً، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ﴾.

٩ ـ المحافظة على الوحدة والإصلاح بين الناس مسؤولية الجميع، ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

١٠ ـ ينبغي على المؤمن أن يطبّق الأحكام الإلٰهيّة في ميادين الأخلاق، والمجتمع، والسياسة ليكتسب المشروعية ويحقّق النجاح، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

١١ ـ لا يكفي أن يستقرّ الإيمان في القلب فحسب، بل يجب أن يتجلّى في الأفعال الخارجيّة والطاعة العملية، ﴿وَأَطِيعُواْ... إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٢ ـ ربّما يجتاز المرء امتحان الإيثار والحضور في جبهات القتال، ويسقط في الامتحان المالي وتقسيم الغنائم والأنفال، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٣ ـ الحضور في الحرب وحده ليس دليلاً على كمال الإيمان، بل عدم الطمع في الغنائم، وصيانة الأخوة، والانقياد لأوامر القيادة هو المقياس (في ضوء مفهوم الآية ككلّ).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾

إشارات:

□ في الآية الثانية يقول الله ﷻ: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، ولكن جاء في آية أخرى قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[(١)]، في الحقيقة، لا يوجد تعارض بين الآيتين، فمن جهة، يدور الحديث عن الخشية من عظمة الله وسطوته، ومن جهة أخرى، تسكن النفوس من حيث الثقة بالله واليقين به سبحانه وتعالى.

كما نقرأ في آية أخرى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[(٢)].

نعم، إنّ ذكر غضب الله وعذابه، ترتجف له القلوب، وذكر لطفه ورأفته تعالى، تسكن القلوب، كالطفل الذي يأنس لوالديه وفي الوقت ذاته يحسب لهم ألف حساب.

□ «الوَجل»، حالة الخوف التي تنتاب الإنسان، وهي ناشئة عن أحد أمرين: فقد ينشأ عند إدراك المسؤولية واحتمال عدم القيام بالوظائف اللازمة التي ينبغي على الإنسان أداؤها بأكمل وجه امتثالاً لأمر الله تعالى. والأمر الثاني هو قد ينشأ عند إدراك عظمة مقام الله، والتوجّه إلى وجوده المطلق الذي لا نهاية له، ومهابته التي لا حدّ لها[(٣)]. ومن ذلك نقرأ في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[(٤)(٥)].

التعاليم:

١ ـ من يسمع صوت الأذان وآيات الله تعالى ولا يكترث لهما، فلا بدّ له من أن

(١) سورة الرعد: الآية ٢٨.
(٢) سورة الزمر: الآية ٢٣.
(٣) التحقيق في كلمات القرآن.
(٤) سورة فاطر: الآية ٢٨.
(٥) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

يرتاب في اكتمال إيمانه، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ﴾.

٢ ـ ذكر الله، أيّاً كان مصدره، يترك أثراً في نفس المؤمن، ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ﴾.

٣ ـ الإيمان مزيج من العشق والخشية الباطنية، ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ...وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

٤ ـ للإيمان مراتب ودرجات، وزيادة ونقصان، ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

٥ ـ الخوف قبيح إذا كان نابعاً من الجهل، أمّا إذا كان ينتهل من نمير المعرفة فهو ممدوح، ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ... وَجِلَتْ﴾.

٦ ـ كلّ آية قرآنية حجّة، وبيّنة، ونور، وتزيد الإيمان وتضاعفه، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ... زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

٧ ـ المؤمن بين خوف ورجاء، ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ... وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ... يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٨ ـ من آمن بالله وحده ربّاً، فليتوكّل عليه، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٩ ـ علامة الإيمان الكامل عند المؤمن أن يخاف قلبه عند ذكر الله ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، ويزيد إيمانه بتلاوة آيات الله ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، ويتوكّل على الله ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، ويقيم الصلاة ﴿يُقِيمُونَ﴾، ويعين الآخرين ﴿يُنفِقُونَ﴾.

١٠ ـ سلوك الإنسان تعبير عن دوافعه وآرائه ومعتقداته، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ... يُقِيمُونَ... يُنفِقُونَ﴾.

١١ ـ لقد أوجب الإسلام على المسلم أن ينفق جزءاً من ماله لا جميعه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ («مِن» هنا استُعملت للتبعيض).

١٢ ـ صلاة المؤمن وإنفاقه ليسا مؤقتان ومرحليان، بل متواصلان ودائمان، ﴿يُقِيمُونَ... يُنفِقُونَ﴾.

١٣ ـ الإنفاق ينبغي أن يكون من المال الحلال والرزق الإلهيّ، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ (بدلالة أنّ الرزق نُسب إلى الله، ورزق الله لا يشوبه حرام).

١٤ ـ يؤمن المؤمن بأنّ أمواله هي فضل من الله وهبة وهبه إيّاها، وليس ثمرة جهوده وتعبه الشخصي، وهذا الإيمان يسهّل عليه البذل والإنفاق، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾

إشارات:

- ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، بمعنى الرزق الدائم، الواسع، الخالص الذي لا تشوبه منّة.

التعاليم:

١ ـ يكتمل الإيمان عندما يقترن بالخشية من الله تعالى، والتوكّل عليه، والصلاة، والإنفاق. فالإيمان ليس شعاراً يرفع بل عملاً وتطبيقاً، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾.

٢ ـ سرّ نيل الدرجات الإلٰهيّة، الصلاة والإنفاق، ﴿يُقِيمُونَ... يُنفِقُونَ... لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾؛ (يفني الإنسان عمره كلّه لنيل الدرجات في الدنيا؛ لكنّه يغفل عن نيل الدرجات الإلٰهيّة)!

٣ ـ الدرجات التي يهبها الله تعالى لا يعلمها أحد ومهمّة للغاية بالنسبة إلى البشر في هذه الدنيا. (لاحظ أنّ كلمة «درجات» جاءت في صيغة التنكير).

٤ ـ الدرجات الإلٰهيّة تصعد وتنزل تبعاً لإيمان الناس، ﴿زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا... لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾.

٥ ـ الدرجات الإلٰهيّة لا تقتصر على الجنّة فحسب، بل تشمل هذه الدنيا وعالم البرزخ أيضاً، (﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ وردت مطلقة).

٦ ـ حتى المؤمنون الحقيقيون معرّضون للسقطات وبالتالي هم بحاجة إلى المغفرة الإلٰهيّة، ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ... وَمَغۡفِرَةٞ﴾.

٧ ـ وحده الإيمان الحقيقي هو الذي يتيح للإنسان الوصول إلى المنزلة الخاصّة والانتهال من المغفرة والنعم الإلٰهيّة الخاصّة، ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ... عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾

إشارات:

□ كما شُقّ الجهاد في معركة بدر على بعض بسبب قلّة عدد المسلمين وضعف إمكاناتهم، كذلك كان الحال عند توزيع الغنائم على المقاتلين، سخط بعضهم ولم يرض بما قسم له النبي الكريم ﷺ، غير أنّ هذه المكاره والمشاقّ ليست بجديدة عليهم وهي وقتية تزول بمرور الأيام. وكان على النبي الأكرم ﷺ أن يركّز على المصلحة الحقيقيّة وتنفيذ حكم الله تعالى، وعدم الإصغاء إلى اعتراضات هذا وذاك؛ لأنّها أشياء عادية.

التعاليم:

١ ـ خروج النبي الكريم من المدينة للقتال في معركة بدر كان بأمر من الله تعالى وتدبير من النبي ﷺ، ﴿أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾.

٢ ـ الحركة في مسار الحرب والجهاد مدعاة لرشاد الإنسان وتربيته، ﴿أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾.

٣ ـ القائد والقيادة لهما الدور الأساس في الجبهات. (على الرغم من أنّ بعضهم خرج للجهاد، إلّا أنّ الآية الكريمة تذكر حضور رسول الله)، ﴿أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾.

٤ ـ المدينة بيت النبي الكريم ﷺ. (بيت الإنسان ليس مسقط رأسه فحسب بل حيثما سكن أو اكتسب منزلة وموقعاً)، ﴿بَيۡتِكَ﴾.

٥ ـ تعاليم السماء قائمة على الحقّ ومن أجل إحقاق الحق، ﴿أَخۡرَجَكَ... بِٱلۡحَقِّ﴾.

٦ ـ لا تضرّ الكراهة وعدم الرضا من الجهاد بأصل الإيمان ما لم تكن مقرونة بالعصيان والتمرّد وعدم الطاعة، ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾.

٧ ـ أمر طبيعي أن يوجد معارضون في القضايا الاجتماعيّة والمالية، حتى وإن كان الرسول الكريم ﷺ مسؤولاً عن المجتمع المؤمن، ﴿فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾

إشارات:

- في المسير إلى معركة بدر، جادلت فئة من المسلمين النبي الكريم ﷺ على قلّة عددها وعدّتها وأنّهم إنّما خرجوا للعير ولا طاقة لهم بقتال قريش، ومع علمهم بأنّه أمر الله أوحاه إلى رسوله الكريم ﷺ، إلّا أنّهم لم يكفّوا عن الجدال والاعتراض، بيد أنّ فريقاً آخر من المسلمين على رأسهم المقداد بن الأسود قال: يا رسول الله إنّها قريش وقد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به حقّ من عند الله ولو أمرتنا أن نخوض جمر الغضى أو شوك الهراس لخضنا معك ولا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكنّا نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون. فجزاهم النبي ﷺ خيراً. في المقابل، ظلّ بعضٌ منهم، وبسبب خوفهم، يجادل النبي الأكرم ﷺ متعلّلا بعدم الاستعداد للقتال، وضعف الإمكانات والتجهيزات، وكانوا يرون أنّ مسيرهم إلى معركة بدر بمثابة انتحار، إلّا أنّ الحوادث التالية كشفت لهم عن مدى خطئهم في حساباتهم، وأنّ خوفهم وقلقهم كان لا أساس له.
- الجدال والمراء مذموم إذا كان من أجل التنكّر للحقّ، وهو على أقسام:

أ) منه ما يكون بعد انكشاف الحقّ وظهوره، ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾.

ب) وربّما يكون عن غير علم أو هدى، ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾(١)

ج) أحياناً يكون لدحض الحقّ، ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾(٢).

وفي بعض الأحيان يكون البحث والجدال لإظهار الحقّ وهذا ينبغي أن يكون بالتي هي أحسن، ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾(٣).

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٦.

(٢) سورة الكهف: الآية ٥٦.

(٣) سورة النحل: الآية ١٢٥.

التعاليم:

١ ـ بعض صحابة النبي الكريم ﷺ لم يكونوا طوع أمره، ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾.

٢ ـ يلجأ الكسالى والجبناء دائماً إلى أسلوب الجدال، والتبرير، والاعتذار للفرار من أحكام الحقّ والجهاد، ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾.

٣ ـ لن تفيد معرفة الحقّ وحدها ما لم تخلص النوايا والنفسيات، ﴿بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾.

٤ ـ أحياناً يسقط الإنسان لأنّه يجادل حتى بعد معرفته الحقّ، ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾.

٥ ـ حركة الجنود ضعاف الإيمان والمعنويات نحو جبهات القتال والجهاد تكون ثقيلة ومقرونة بالخوف والاضطراب، ﴿يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ﴾.

﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾

إشارات:

- «**الشوكة**» من «**الشوك**»، وهو تعبير يرمز إلى الجماعة المسلّحة، فيكون معنى عبارة ﴿غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾ القافلة التجارية غير المسلحة.
- «**كلمات الحقّ**»، هي سنن الله وأوامره وأولياؤه. «**الدابر**»، بمعنى ذيل الشيء أو عقبه، و«**يقطع دابر**»، كناية عن استئصال شأفتهم.
- في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة علم النبي الكريم ﷺ أنّ أبا سفيان يرأس قافلة تجارية مهمّة عائدة من الشام وفي طريقها إلى المدينة. فجهّز ﷺ حملة قوامها ٣١٣ رجلاً من المسلمين لمصادرة أموال القافلة وإضعاف قدرة الكفار والتعويض عمّا قامت قريش بمصادرته من أموال المسلمين في مكّة. فعلم أبو سفيان رئيس القافلة بالأمر، وأرسل أتباعه إلى مكة ليخبروا أهلها بنيّة النبي الكريم ﷺ، ثمّ غيّر مسير القافلة حتى وصل إلى مكّة.

ولمّا كان أكثر مشركي مكّة شركاء في هذه القافلة، فقد استخدموا أساليب الترهيب والتهديد، وتعبّأوا بسرعة وتحرّكوا نحو القافلة بأكثر من ألف مقاتل، وبمعيّة كبار رموز الكفر في مكة، ضمن جيش مسلّح تسليحاً كاملاً بقيادة أبي جهل وذلك لحماية تجّار القافلة الأربعين.

وفي اليوم السابع عشر من رمضان، تواجدت ثلاث جماعات في بدر، وهي أرض بين مكة والمدينة، جيش المسلمين وجيش المشركين وقافلة مكة التجارية.

وبعد أن علم النبي الكريم ﷺ بتحرّك جيش العدو، تشاور مع أصحابه: هل يلحقون القافلة التجارية ويصادرون أموالها، أم أنّ عليهم أن يتهيّؤوا لمواجهة جيش العدوّ؟ فتباينت الآراء وتعدّدت، لكنّ النبي الكريم ﷺ قرّر في النهاية منازلة العدوّ، على الرغم من افتقار المسلمين إلى العدّة والتجهيزات الكافية، ناهيك عن أنّهم لم يخرجوا أصلاً للقتال، مضافاً إلى أنّ جيش العدو كان يبلغ ثلاثة أضعاف جيش المسلمين، إلّا أنّ العاقبة مع ذلك كانت لجيش الإسلام الذي أمدّه الله تعالى بمدد من عنده، وكان عدد القتلى من المشركين في هذه المعركة سبعين نفراً من صناديد قريش على رأسهم أبو جهل، وقد قُتل جلّهم بسيف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، كما أسر المسلمون سبعين مشركاً، ولم يُقتل من جند الإسلام سوى أربعة عشر شهيداً[1].

التعاليم:

١ ـ التذكير بالمدد الإلٰهيّ ضروري وهو يعمل على تقوية الإيمان وترسيخه، ﴿وَإِذْ﴾.

٢ ـ لا يتحقّق النصر بالعدّة، والعديد، والتجهيزات القتالية، بل العامل الرئيس في النصر هو إرادة الله تعالى، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾، نعم، إرادة الله هي الغالبة على الأسباب الطبيعية.

(١) الميزان في تفسير القرآن.

٣ ـ أحياناً تتحقّق الإرادة الإلٰهيّة بسواعد المؤمنين، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾.

٤ ـ جُبل الإنسان على طلب العافية والدّعة، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾؛ (لنحرص على أن لا تضطرّنا المصاعب والمشاقّ لأن نضحّي بالموضوعات الرئيسية والبنيوية من أجل قضايا ثانوية وبسيطة).

٥ ـ إحقاق الحقّ يتمّ بواسطة الكلمات الإلٰهيّة (الأولياء، السنن، الشرائع، الأحكام، التضحية، الجهاد والعمل بالأوامر الإلٰهيّة)، ﴿يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

٦ ـ انتصار الحقّ على الباطل أسمى من الدخل الاقتصادي، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

٧ ـ النصر النهائي سيتحقّق بعزّة الحقّ وذلّة الباطل، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ... وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٨ ـ الهدف من الجهاد الإسلامي، إحقاق الحقّ ومحق الباطل وليس الفتوحات واحتلال البلدان، ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾

إشارات:

- تسرّي هذه الآية الكريمة عن خاطر النبي الكريم ﷺ والمسلمين بأنّ الحقّ سينتصر في النهاية، وسيزهق الباطل.

- بحسب بعض الروايات، فإنّ ظهور الإمام المهدي «عج» هو المصداق الواضح لهذه الآية[١]؛ إذ إنّه «عج» بقيامه سيطوي حكومة الباطل، ويقيم على الأرض دولة حكومة الحقّ والعدل في العالم.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

التعاليم:

١ ـ الوعود الإلٰهيّة لا تهدف إلى تحقيق غايات شخصيّة ومادّية بل إلى إحقاق الحقّ ومحق الباطل، ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾.

٢ ـ الحقّ خالد وراسخ، والباطل فانٍ وزائل، ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾.

٣ ـ لا نخش غضب الأعداء الكافرين والمجرمين وسخطهم، فالله منجز إرادته، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾

إشارات:

- «مُردف» من «الإرداف»، هو التتابع والتتالي، بمعنى أنّ نزول الملائكة الممدّين كان متتابعاً ومتتالياً لنصرة المسلمين. ذكرت الآية ١٢٤ من سورة آل عمران ثلاثة آلاف من الملائكة الممدّين، وفي الآية التالية تغيّر الرقم إلى خمسة آلاف من الملائكة المسوّمين. هذا الاختلاف في الأرقام ربّما يعود إلى ميزان ثباتهم، بمعنى، كلّما كان مستوى ثبات المسلمين أعلى، كان المدد الغيبي أكبر. من هنا، فإنّ «مردفين» تعني أنّ هؤلاء الألف ملاك أردفوا بأفواج أخرى من الملائكة.

- في ضوء القرائن الموجودة في الآية اللّاحقة، فإنّ الملائكة نزلت لتشدّ من أزر المؤمنين وتقوّي عزيمتهم، أي إنّها لم تشارك في القتال ضدّ الأعداء المشركين، إذ، أيّ فضيلة، في هذه الحالة، لمجاهدي بدر إذا كانت الملائكة هي التي قتلت المشركين، مضافاً إلى أنّ قصّة مقتل كلّ مشرك وأسماء قاتليهم مسجّلة في صفحات التاريخ[1].

- كان عدد أفراد جند الإسلام ثلث عدد الكفّار، كما إنّ عدّتهم وإمكاناتهم الحربية كانت ضئيلة ولا تساوي شيئاً في مقابل عدّة الكفّار وتجهيزاتهم

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

القتالية، ويقول الإمام علي عليه السلام: **«ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق»**(١)، كما إنّهم لم يكونوا مستعدّين من الناحية النفسية لقتال المشركين، وحينما وقع نظرهم على جيش الكفّار الجرّار وتجهيزاتهم القتالية، فزعوا واضطربوا واستعاذوا بالله وهنا رفع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يديه إلى السماء بالدعاء قائلاً:

«ألّلهم أنجز لي ما وعدتني، ألّلهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبَد في الأرض»(٢). فاستجاب له ربّه وأرسل إليهم مدداً من عنده، فثبّت قلوبهم على القتال، حتى شربوا من كأس الانتصار.

وقف رسول الله صلى الله عليه وآله على قتلى بدر من المشركين، فقال: **«جزاكم الله من عصابة شرّاً لقد كذّبتموني صادقاً وخوّنتم أميناً»**، ثم التفت إلى أبي جهل بن هشام فقال: **«إن هذا أعتى على الله من فرعون، إنّ فرعون لمّا أيقن بالهلاك وحّد الله، وإنّ هذا لمّا أيقن بالهلاك دعا باللات والعزّى»**. وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر بالقليب أن تغور ثم أمر بالقتلى فطرحوا فيها كلّهم إلّا أميّة بن خلف فإنّه كان مسمناً انتفخ من يومه فلما أرادوا أن يلقوه تزايل لحمه فقال النبي صلى الله عليه وآله: **«اتركوه، فأقروه وألقوا عليه من التراب والحجارة ما غيّبه»**. ثم وقف على أهل القليب فناداهم رجلاً رجلاً: **«هل وجدتم ما وعد ربّكم حقاً فإنّي قد وجدت ما وعدني ربّي حقّاً بئس القوم كنتم لنبيّكم كذّبتموني وصدّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس»**. فقالوا: يا رسول الله، أتنادي قوماً قد ماتوا؟ فقال: **«لقد علموا أنّ ما وعدهم ربّهم حقّ»**، وفي رواية أخرى: **«ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنّهم لا يستطيعون أن يجيبوني»**(٣).

التعاليم:

١ ـ لا ننس نعم الله ومدده في أيّام الشدّة والضيق؛ لأنّ ذكر النعم يوقظ روح

(١) تفسير الفرقان.

(٢) تفسير كنز الدقائق.

(٣) تفاسير الميزان؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ الفرقان.

الشكر والشجاعة لدى الإنسان، ﴿إِذْ﴾.

٢ ـ الله تعالى قادر على أن يهب النعم بدون الدعاء، بيد أنّ الدعاء هو أحد أساليب التربية الإلٰهيّة، ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾.

٣ ـ الدعاء المقرون بالحضور في جبهات القتال هو المؤثّر، ودعاء المقاتلين مستجاب، ﴿تَسْتَغِيثُونَ... فَاسْتَجَابَ﴾.

٤ ـ الدعاء مفتاح الإجابة، ﴿تَسْتَغِيثُونَ... فَاسْتَجَابَ﴾.

٥ ـ أحياناً تترك الملائكة تأثيراً على حياة البشر، ﴿مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾،

٦ ـ المدد الغيبي ينزل بعد أن نوظّف كلّ ما وهبنا الله تعالى إيّاه، ﴿مُمِدُّكُم﴾.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

□ لقد طرح القرآن الكريم في مواضع عدّة مسألة نزول المدد الملائكي لنصرة المؤمنين، وحتى عند الاحتضار، يرسل الله تبارك وتعالى الملائكة ليلقوا الحقّ إلى المؤمن ليحفظه من وساوس الشيطان[1].

وفي معركة بدر نزلت الملائكة لتشدّ من أزر المؤمنين وتثبّتهم، فهي لم تشاركهم قتال المشركين، والدليل على ذلك أنّ التاريخ قد حفظ لنا أسماء الذين قُتلوا في تلك المعركة وقاتليهم، ومعظم قتلى المشركين كانوا على يد الإمام علي عليه السلام.

□ في الطبيعة، يوجد نوعان من الإلقاء هما:

الأول: إلقاء ملائكة الله الطمأنينة في قلوب المؤمنين، ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[2].

---

(١) سورة فصلت: الآية ٣٠.
(٢) سورة الأنفال: الآية ١٢.

الثاني: إلقاء الشيطان الرعب والفزع، ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾[١].

التعاليم:

١ ـ لا بدّ للمقاتل من أن يتمتّع بمعنويات عالية، ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾؛ الدوافع والمعنويات العالية للمقاتلين من الأسباب الموجبة للنصر.

٢ ـ عندما تكون الحركة صحيحة وفي إطار نهج النبي، تصبح عناية الله تعالى ورفع عوامل الخوف والاضطراب حتميّة، ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾.

٣ ـ لا يُعزى نصر المؤمنين إلى عوامل المهارة الذاتيّة والخطط العسكرية والأسلحة وأعداد الجند أو حضور الملائكة فحسب، بل إنّ العامل الأصلي وراء ذلك النصر هو إرادة الله تعالى ومشيئته، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، ويقول ﷻ في آية أخرى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٢].

٤ ـ المدد الإلٰهيّ ونصرة المؤمنين أساسهما العزّة والحكمة، ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ «**النُّعاس**»، أوّل النوم وبدايته، أو النوم القليل الخفيف الناعم، ولعلها إشارة إلى أنّه على الرغم من هدوئكم النفسي إلا أنّه لم يأتكم نوم عميق يمكّن الأعداء من استغلاله والهجوم عليكم وهكذا استفاد المسلمون من هذه النعمة العظيمة في تلك الليلة[٣].

(١) سورة آل عمران: الآية ١٧٥.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.
(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

□ وجاءت قريش بجيشٍ لَجِبٍ وتجهيزاتٍ هائلة، حتى النساء كنّ ينشدن الأشعار والمغنيات يثرن الحماسة، وكنّ يرجزن ويضربن بالدفوف وذلك من أجل رفع معنويات جيش المشركين، وما إن وصلوا أرض بدر حتى استولوا على آبارها، وكان المسلمون قد فزعوا لما بلغهم من كثرة جيش قريش؛ ولمّا رأى النبي الكريم ﷺ أنّ أصحابه قلقون وربّما لا ينامون الليل من الخوف، وأنّهم سيقاتلون العدوّ بمعنويات منهارة وأجساد منهكة، قال لهم كما وعده الله: **«لا تحزنوا فإن كان عددكم قليلاً فإنّ الله سيمدّكم بالملائكة»**، وسرّى عن قلوبهم حتى ناموا ليلتهم مطمئنين راجين النصر على عدوّهم. المشكلة الأخرى التي كان أصحاب النبي يواجهونها هي أنّ أرض بدر كانت غير صالحة للنزال، لما فيها من الرمال، فنزل المطر في تلك الليلة، فأفاد منه أصحاب النبي فاغتسلوا منه وتوضّأوا وأصبحت الأرض صلبة صالحة للنزال.

قد يكون المراد من ثبات القدم في الآية الاستقامة، لا ثبات الأرض بفعل المطر، وربّما يجوز الاحتمالين معاً.

□ لعلّه يقصد بالرجز وساوس الشيطان، أو رجزٌ بدنيٌّ كجنابة بعض المسلمين، وعلى أيّ حال، فإنّ الماء ملأ الوديان من أطراف بدر بعد أن استولى الأعداء على آبار بدر، وكان المسلمون بحاجة ماسة إلى الغسل ورفع العطش، فإذا بهذا الماء قد ذهب بكل تلك الأرجاس[1].

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«اشربوا ماء السماء فإنّه يطهّر البدن ويدفع الأسقام، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾**[2].

التعاليم:

١ ـ بفضل المشيئة الإلٰهيّة والمدد الغيبي يمكن للمرء أن يحظى بالأمن والطمأنينة وينام ملء جفونه في مقابل جيش العدو الجرّار المدجّج بالسلاح، ولكن إذا

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
(٢) الكافي، ج ٦، ص٣٨٧.

لم يشأ الله تعالى فلن يهنأ بالنوم ولن يذوق طعم الأمن والاستقرار ولو كان في روضة غنّاء وظروف مثالية، ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ...﴾.

٢ ـ أحياناً تضحي الاستراحة والنعاس في الحرب نعمة إلٰهيّة كبرى، وبذلك يزول تعب المحارب، وفي الوقت ذاته، تسلب العدو فرصة الإغارة، ﴿النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ...﴾.

٣ ـ الطهارة الظاهرية ﴿لِيُطَهِّرَكُم﴾ والطهارة الباطنية ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾، لكلّ منهما قيمة مستقلّة، ولكن الأكثر قيمةً هو وجودهما مع بعض.

٤ ـ يريد الله تعالى من المسلم المجاهد أن يتطهّر ويمتلك معنويات عالية وأن يكون صامداً ورابط الجاش، ﴿لِيُطَهِّرَكُم... وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

- «البَنان» جمع «بنانة»، بمعنى رؤوس أصابع الأيدي أو الأرجل أو الأصابع نفسها.
- إنّ قطع الأصابع من الأيدي يمنع المرء من حمل السلاح، وقطعها من الأرجل يمنع الحركة، ويحتمل أن يكون المعنى هو إذا كان العدو مترجّلاً فيجب أن تكون الأهداف رؤوسهم، وإذا كان راكباً فالأهداف أيديهم وأرجلهم[(١)].
- لعلّ المراد بـ ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾، زعماء الكفر ورموزهم، كما جاء في الآية الكريمة ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾[(٢)]؛ أي، يجب أن تكون الأهداف رؤوس العدو[(٣)].
- من جملة المدد الإلٰهيّ الذي نزل على المسلمين بثّ الرعب والفزع في صفوف

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
(٢) سورة التوبة: الآية ١٢.
(٣) تفسير الفرقان.

الكفر، كما نقل جواسيسهم الذين تحسّسوا ليلاً حالة العدوّ أنّ جيش قريش مع كلّ تلك الإمكانات العسكرية كان يعيش حالة من الرعب لا توصف، فكأنّ الله أنزل عليهم جيشاً من الرعب والوحشة. ولكن في المقابل، اصطفّ جيش المسلمين الصغير بمعنويات عالية ليواجهوا عدوّهم، ولكن النبيّ ﷺ إتماماً للحجّة ولئلا يبقى مجال للتذرّع بالذرائع الواهية، أرسل إلى قريش ممثلاً عنه ليقول لهم: إنّ النبي لا يرغب في قتالكم ولا يحبّ أن تكونوا أوّل جماعة تحاربه، فوافق بعض قادة قريش على هذا الاقتراح، ورغبوا في الصلح، إلّا أنّ أبا جهل امتنع وأبى بشدّة.

التعاليم:

١ ـ أحياناً يهدي الله تعالى المؤمنين ويدعمهم عن طريق ملائكته، ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ...﴾.

٢ ـ ليس للملائكة قدرة من نفسها، فهي تستند إلى دعم الله ولطفه، ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟﴾.

٣ ـ لقد ثبّت الله قلوب المؤمنين عن طريق الملائكة، لكنّه بثّ الرعب في صفوف الكافرين، ﴿فَثَبِّتُوا۟... سَأُلْقِى﴾.

٤ ـ الله تعالى ينزل الطمأنينة والسكينة على أهل الإيمان، وعلى الكافرين الرعب والفزع، ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ... فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾.

٥ ـ القلوب بيد الله تعالى، والسكينة والاضطراب أيضاً من عنده، ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ... فَثَبِّتُوا۟... سَأُلْقِى... ٱلرُّعْبَ﴾.

٦ ـ الرعب والوحشة من عوامل هزيمة الكفّار في معركة بدر، ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾.

٧ ـ ميول الإنسان ودوافعه تلعب دوراً حاسماً في رسم مصيره ونزول الرحمة أو العذاب الإلٰهيّ، ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟... فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾.

٨ ـ القوة والمُكنة لا تكفي لبثّ السكينة والطمأنينة. (لقد شعر المسلمون على قلّة عددهم وعدّتهم بالطمأنينة والسكينة، فيما كان عدوّهم يكابد مشاعر الرعب والخوف على الرغم من وفرة عديدهم وعدّتهم)، ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ... ٱلرُّعْبَ﴾.

٩ ـ يجب توظيف القوة القتالية في الحرب أقصى توظيف، وذلك بتوجيه الضربات إلى الأماكن الحسّاسة، ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا ينزل الله غضبه دونما سبب أو حساب، بل إنّه جزاءٌ على التمرّد والطغيان، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ...﴾.

٢ ـ مشاقة الرسول ﷺ مشاقة لله تعالى، ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٣ ـ من سنن الله تعالى أنّ من صارع الحقّ هلك، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ... فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

٤ ـ يصيب الكافرين في الدنيا الانتقام والهلاك وفي الآخرة عذاب النار، ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ... لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ «الزَّحف»، في الأصل بمعنى الحركة إلى أمرٍ ما بحيث تسحب الأقدام على الأرض كحركة الطفل قبل قدرته على المشي، أو الإبل المرهقة التي تخطّ أقدامها على الأرض أثناء سيرها، ويطلق على الجيش الجرّار الذي يشاهد من بعيد وكأنّه يحفر الأرض أثناء مسيره.

□ وفي عيون الأخبار قال الإمام الرضا عليه السلام: «وحرّم الله تعالى الفرار من

الزحف لما فيه من الوهن في الدين والاستخفاف بالرسل والأئمّة العادلة عليهم السلام، وترك نصرتهم على الأعداء والعقوبة لهم على إنكار ما دعوا إليه من الإقرار بالربوبيّة وإظهار العدل وترك الجور وإماتة الفساد، لما في ذلك من جرأة العدوّ على المسلمين وما يكون من السبيّ والقتل وإبطال دين الله عزّ وجلّ وغيره من الفساد»[١].

- وقد جاء في فضائل الإمام علي عليه السلام: «إنّي لم أفرّ من الزحف قطّ، ولم يبارزني أحد إلّا سقيت الأرض من دمه»[٢]. وقال عليه السلام في خطبة له: «إنّ أكرم الموت القتل، والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة على الفراش في غير طاعة الله»[٣].

التعاليم:

١ ـ إنّ الله تعالى ينتظر من المؤمن أكثر ممّا ينتظره من غيره (مسؤولية المؤمن تجاه الله تعالى أكبر)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ...﴾.

٢ ـ كثرة أعداد أفراد العدوّ لا تجيز الفرار من الجبهة، ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ... زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ﴾.

٣ ـ إذا حمي وطيس المعركة، فلا يجوز للمقاتل الفرار من الجبهة، ﴿إِذَا لَقِيتُمُ... فَلَا تُوَلُّوهُمُ﴾؛ (طبعاً، لا يجوز الفرار من الجبهة عندما تستعدّ فئتان للقتال، ولكن إذا حمل العدوّ المسلّح بغتة على المسلمين دون أن يكونوا مستعدّين للقتال، فعند ذاك لا بأس بالفرار)[٤].

٤ ـ الفتوحات الإسلاميّة تنطلق من دوافع عقدية لا استعمارية ولا تنطلق من مجرّد أطماع، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ... ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ ونور الثقلين.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٣.

(٤) تفسير الفرقان.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

- «**التحرّف**» هو الزوال عن جهة الاستواء نحو الأطراف والجوانب، والمقصود أنّ المقاتلين يقومون بتكتيك قتالي إزاء الأعداء، فيفرّون من أمامهم نحو الأطراف ليلحقهم الأعداء ثمّ يغافلوهم في توجيه ضربة قوية إليهم فيستخدمون فن الهجوم والانسحاب المتتابع، فالمتحرّف من جانب إلى جانب لا ينهزم لمكائد الحرب، و﴿مُتَحَيِّزًا﴾، يعني متأخراً إلى أصحابه من غير هزيمة ليستعين بهم فيرجع إلى القتال.
- «**باء**» أي مهد الموضع وسطّحه، وكأنّهم اتّخذوا منزلاً عند غضب الله تعالى.
- كما نرى، فإنّ الآية الكريمة استثنت صورتين من مسألة تولية الدُّبُر للعدوّ، وهما:

الأولى: هي إعادة التموضع التكتيكي ﴿مُتَحَرِّفًا﴾، **والثانية**: الالتحاق بفريق آخر من المسلمين للاستعانة بهم ومن ثمّ الهجوم الجماعي، ﴿مُتَحَيِّزًا﴾.

غير أنّ بعض التفاسير ذكرت حالات أخرى مثل الفرار لاستنفار المسلمين، أو الفرار للمحافظة على خندق أهمّ وموقع أفضل[1]. ولكن مع ذلك تبقى هذه الحالات صوراً متعدّدة للحالة الأولى التي مضى ذكرها آنفاً.

إذن، الغضب الإلٰهيّ يشمل الفارّين من جبهات القتال، ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ... فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والمغضوب عليهم هم من الفئات التي نتبرأ منها إلى الله في كلّ صلاة، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، طبعاً معصية هذه الفئة قابلة للتوبة والصفح.

---

(١) تفسير في ظلال القرآن.

التعاليم:

١ ـ الفرار من الجبهة من الكبائر، وقد توعّد الله تعالى مرتكبها بإنزال غضبه وعذابه عليه، ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ... فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ لا بأس في الانسحاب التكتيكي، ﴿مُتَحَرِّفًا﴾.

٣ ـ خداع الأعداء في الحروب جائز، ﴿مُتَحَرِّفًا﴾.

٤ ـ الحضور في الجبهات مهمّ كأهميّة عدم الفرار منها، أحياناً يذهب الإنسان إلى الجبهة، لكنّ مصيره يؤول إلى جهنّم بسبب فراره منها، ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ... وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾.

٥ ـ النصر من عند الله تعالى، بيد أنّه من الضروري استخدام فنون القتال والتكتيكات العسكرية والخطط الحربية، ﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾.

٦ ـ جهنّم هي مأوى الفارّين من الجهاد والمغضوبين من الله تعالى، ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾؛ (في الحقيقة إنّ من يفرّ من المعركة يبحث عن ملجأ لكنّه لن يجد غير جهنّم ملجأ).

٧ ـ عاقبة الفرار من المعركة الذلّة في هذه الدنيا، وعذاب في الآخرة ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾، عدا سوء العاقبة وبئس المصير، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

□ ورد في الروايات والتفاسير أنّ النبي الكريم ﷺ قال لعلي عليه السلام يوم بدر: «**أعطني حفنة من تراب الأرض وحصاها**»، فناوله علي ذلك، فرمى النبي جهة المشركين بذلك التراب فهبّت ريح عاتية عليهم وكان لهذا الفعل أثر معجز إذ وقع ذلك التراب على وجوه المشركين وعيونهم فملأهم رعباً[1].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

حقّاً، إنّ العامل الحاسم في نصر المسلمين على المشركين في معركة بدر هو الإرادة والمدد الإلٰهيّ، لا القوّة المادّية والفنون والتكتيكات الحربية، وإلّا فكيف استطاع جيش قليل العدد والعدّة ولا يملك سوى فارس واحد أو اثنين، هزيمة جيش جرّار مدجّج بالسلاح وفيه مئة فارس؟

- «**البلاء**»، معناه الاختبار، فإن كان بالنعم والنصر، سمّي «**بلاءً حسناً**» وإذا كان بنزول المصائب والعقاب سمّي «**بلاءً سيئاً**»، إذ يقول القرآن الكريم في شأن بني إسرائيل: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1].
- إذا تبنّى الإنسان عقيدة سليمة وسار في طريق الحقّ، وسعى وجهد بأمر الله تعالى، حينذاك ينزل عليه المدد الإلٰهيّ، ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾، ويصبح وجوده وجوداً إلهياً، فقد جاء في الحديث القدسي الشريف: «**إنّه ليتقرّب إليّ بالنافلة حتّى أُحبّه فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الّذي يسمع به وبصره الّذي يبصر به، ولسانه الّذي ينطق به ويده الّتي يبطش بها إنْ دعاني أجبتُه وإن سألني أعطيتُه...**»[2]. وإذا تحرّك كانت حركته من عند الله تعالى. ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، وفي المقابل، إذا انحرف عن المسار الإلٰهيّ، وتحرّك طبقاً لأوامر الآخرين، أضحى وجوده، في الحقيقة، وجوداً شيطانياً[3].

التعاليم:

١ ـ حذار أن تفضي بكم نشوة النصر في الحرب إلى الغرور والتكبّر والاستعلاء، ولا تنسوا الله تعالى ومدده إليكم، ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ...﴾.

٢ ـ أفعال الإنسان في حالة بين الجبر والتفويض، فعندما تنسب إلى الإنسان فلأنّه يفعل ذلك باختياره دونما إكراه، ولكن، بما أنّ هذه الأفعال تتمّ بقدرة الله تعالى وتأثير منه، فهي، من هذه الزاوية، تُنسب إليه سبحانه، ﴿وَمَا رَمَيْتَ... وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٨؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) الكافي، ج ٢، ص٣٥٢.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١، ص٢٥٧.

٣ ـ حضور النبي والقائد له أثر كبير في استجلاب المدد الإلٰهيّ، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾.

٤ ـ الحرب والجهاد هي من أدوات الابتلاء والامتحان الإلٰهيّ، ليميز الله المؤمن الحقيقي عن المسلم ضعيف الإيمان أو الذي لا إيمان له، ﴿بَلَآءً حَسَنًا﴾.

٥ ـ لم يكن المدد الإلٰهيّ وانتصار المؤمنين وهزيمة الأعداء أمراً اعتباطياً بلا حساب، بل عن دراية وعلم إلهيين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

- «**ذلكم**»، إشارة إلى أوضاع المسلمين والكفّار في معركة بدر، والتذكير بالمدد الإلٰهيّ الذي نزل على المؤمنين من السماء والأرض، فأدّى إلى هزيمة الأعداء، وتقدير الجملة هو «**ذلكم لطف الله عليكم**».
- تخاذل الأعداء في خططهم حصل من خلال بثّ الرعب والهلع في قلوبهم ونشر الفُرقة بينهم وهبوط معنويّاتهم، وإفشاء أسرارهم، وهبوب الرياح العاتية والرعد والبرق.

التعاليم:

١ ـ الله تعالى يردّ كيد الأعداء ضدّ المؤمنين، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (إذا حافظ المؤمن على روحه الإيمانية، فإنّ الله تعالى سيردّ عنه ما خفي من كيد الأعداء ودسائسهم أيضاً).

٢ ـ الإيمان هو مفتاح استجلاب المدد الإلٰهيّ، والكفر مقدمة لوهن الإنسان وهلاكه، ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٣ ـ فلنتوكّل على الله تعالى في كلّ الأحوال والظروف، ولا نخش كيد الأعداء ومؤامراتهم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

□ لقد جرى بحث كثير بين المفسّرين حول من هم الذين توجّهت إليهم الآية بالحديث، فبعضهم يعتقد أنّهم المشركون الذين هُزموا في معركة بدر، وبعض آخر يقول: إنّها موجّهة إلى المؤمنين الذين انقسموا واختلفوا على مسألة توزيع غنائم الحرب.

ما يؤيّد الاحتمال الأوّل هو ارتباط هذه الآية بما سبقها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وهم، كما نعلم، كانوا الفئة الكثيرة، ﴿فِئَةً كَثِيرَةً﴾، وتاريخهم حافل بالكفر وهم المغضوب عليهم، وفي هذه الآية يقول عزّ من قائل: ﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ... وَلَوْ كَثُرَتْ﴾، علاوة على كلام أبي جهل حين كان يستعدّ لترك مكّة متوجّهاً إلى بدر، حيث ضرب على أستار الكعبة وقال: (أللهمّ انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين)[1]، وقد كان مطمئناً لنصره، لكنّه ذاق مرّ الهزيمة.

أمّا إذا كان الخطاب موجّهاً إلى المسلمين، فهو لا شكّ إنذار لهم ليكفّوا عن الجدال والاعتراض بعدما أنعم الله عليهم بالفتح، وإذا واصلوا جدالهم (اعتراضهم قبل الحرب وحين تقسيم الغنائم)، فإنّ الله سيحجب عنهم لطفه وسيتركهم لينهزموا أمام عدوّهم، (ويبدو أنّ المعنى الأول هو الأنسب).

التعاليم:

١ ـ خير الإنسان وصلاحه هو في اجتناب الانحراف وترك معاندة الله ورسوله، ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٢ ـ نزول اللطف أو الغضب الإلٰهيّ، رهنٌ بخيارات الإنسان وأعماله، ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟... وَإِن تَعُودُوا۟﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان.

٣ ـ لقد أتمّ الله الحجّة على عباده، وسدّ جميع منافذ الأعذار بوجههم، ﴿وَإِن تَنتَهُوا... وَإِن تَعُودُوا﴾.

٤ ـ الترغيب والترهيب معاً لازمان، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾.

٥ ـ يجب التصدّي للاختلافات بصراحة وحزم، ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾، الصفح ليس محبّذاً دائماً.

٦ ـ كثرة العدد ليس لها أثر على عذاب الله وغضبه، ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾.

٧ ـ النصرة الإلٰهيّة رهنٌ بالإيمان، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

إشارات:

- دأب القرآن الكريم في آياته على أن يستتبع طاعة الله تبارك وتعالى بطاعة الرسول ﷺ، وقد ورد في أحد عشر موضعاً بعد عبارة **«اتقوا الله»** كلمة **«أطيعون»**، ما يعني أنّ شرط التقوى الإلٰهيّة الطاعة التامّة للرسول الأكرم ﷺ.
- من المعلوم أنّ طاعة الله وطاعة رسوله الكريم معاً واجبة، غير أنّ الآية التي نحن بصددها نهت عن التمرّد على أوامر الرسول فقط، وفي ذلك إشارة إلى أنّ مشكلة هؤلاء القوم هي في طاعة الرسول الكريم ﷺ، لا سيّما أوامره في ما يخصّ الشؤون العسكرية في معركة بدر.
- المراد بسماع كلام الرسول الأكرم ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ استيعابه وفهمه والإيمان بحقّيته، وذلك بقرينة الآية اللّاحقة.

التعاليم:

١ ـ المؤمنون معرّضون لعصيان أوامر الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ، لذا، فهم بحاجة إلى إنذار، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا...﴾.

٢ ـ معصية الرسول الكريم هي معصية الله تعالى. لاحظ أنّه ﷻ قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾، ولم يقل: «عنهما».

(إنّ أوامر الله والرسول ذات جوهر واحد، لذا فطاعة الله تعالى هي طاعة الرسول ﷺ).

٣ ـ تترتّب على السمع والفهم مسؤولية، ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

٤ ـ الرجوع إلى صفحات التاريخ وأخبار الأسلاف العاصين، مدعاة لاستلهام الدروس والعبر، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ...﴾.

٥ ـ فلنخلص الطاعة للقائد، ونفي بالتزاماتنا، ونقرن الإيمان بالعمل، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢)﴾

إشارات:

- «صُمّ» جمع «أصَمّ»، وهو الذي لا يسمع و«البُكم» جمع «أبكَم»، وهو فاقد النطق، وهنا كنّى به القرآن عن الذي لا ينصت لمقالة الحقّ، وسكت عن قوله.

- أحياناً يطلق القرآن على الذين يرفضون التربية الإلٰهيّة، ولا يسلمون القلب للحقّ، الموتى ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾[(١)].
وأحياناً الأنعام: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾[(٢)]، ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾[(٣)].
أو أدنى مرتبة من الأنعام: ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[(٤)].
أو شرّ المخلوقات: ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾.

- يقول الإمام علي عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ﴾: «هم الكفّار»[(٥)].

---

(١) سورة الروم: الآية ٥٢.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.
(٣) سورة محمد: الآية ١٢.
(٤) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.
(٥) تفسير الدرّ المنثور.

□ في يوم القيامة سيعترف فريق بأنّهم لم يكونوا ينصتون لمقالة الحقّ، أو أنّهم لم يكونوا يتدبّرون فيها، وهو ما جعلهم من أصحاب النار. ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ إنّ شرّ الدواب الذين يدّعون الإيمان لكنّهم لا يطيعون الله ولا رسوله، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ... إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾.

٢ ـ قيمة الإنسان في التعقّل، ولولاه لكان شرّ الدواب، ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ... الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ (إنّ قيمة امتلاك السمع واللسان والعقل هي في حسن استخدامها، فما الفرق بين الذي لا يستخدم لسانه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين الأبكم)؟

٣ ـ أولئك الذين يعرضون عن تعاليم الدين، لا عقل لهم، ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ... لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

□ الأشخاص اللجوجون فئات عدّة:

فئة غير مستعدّة حتى للاستماع إلى الحقّ، ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾[2].

وفئة تسمع لكنّها تسخر ممّا سمعت، ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾[3].

وفئة تسمع وتعقل لكنّها تقوم بتحريفه، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[4].

---

(١) سورة الملك: الآية ١٠.
(٢) سورة فصّلت: الآية ٢٦.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٣١.
(٤) سورة النساء: الآية ٤٦.

وذلك بسبب أهوائها، وحسدها، وقسوتها، وعدم قدرتها على التمييز، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾[1].

التعاليم:

١ ـ من السنن الإلٰهيّة أن يفيض الله من فضله على الذين يملكون الاستعداد والقابلية، ويمنح كلّ واحد التوفيق واللطف بمقدار ما أوجد في نفسه من الجدارة والاستعداد لقبول نداء الحقّ، ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾.

٢ ـ من مسؤولياتنا خلق عوامل مناسبة في داخلنا تمكّننا من الانتهال من اللطف الإلٰهيّ، ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾.

٣ ـ ليس المعيار هو الإنصات إلى آيات القرآن، بل يجب التسليم للحقّ، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا﴾.

٤ ـ لا يأبى الله أن يهدي الناس، لكنّ اللجوجين عن الحقّ معرضون، ﴿وَلَوْ عَلِمَ... لَّأَسْمَعَهُمْ﴾.

٥ ـ ~~الإنسان مخيّر، يستطيع أن يُعرض عن صوت الحقّ، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم~~ مُّعْرِضُونَ﴾؛ (نعم، من يطفئ جذوة الرشاد والهداية في نفسه، سيمتنع عن قبول فيض الله).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

❑ صور الحياة متعدّدة منها:

١ ـ الحياة النباتيّة، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[2].

٢ ـ الحياة الحيوانيّة، ﴿لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[3].

٣ ـ الحياة الفكرية، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة: الآية ١٣.

(٢) سورة الحديد: الآية ١٧.

(٣) سورة فصّلت: الآية ٣٩.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

٤ ـ الحياة الأبدية، ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[١].

□ إنّ المقصود بالحياة التي تنبثق عن دعوة الأنبياء ليس الحياة الحيوانيّة؛ لأنّ هذا النمط من الحياة موجود حتى بدون دعوة الأنبياء، بل هي الحياة الفكرية، والعقليّة، والمعنوية، والأخلاقيّة، والاجتماعيّة، وباختصار الحياة على جميع الصُّعُد. طبعاً، ثمة احتمال آخر وهو أن يكون المقصود بالدعوة إلى الحياة هنا (في ضوء ورود الآية بعد آيات معركة بدر) هو الدعوة إلى الجهاد.

□ تتلخّص حياة الإنسان في الإيمان والعمل الصالح، وقد دعا الله تعالى والأنبياء عليهم السلام أيضاً الناس إلى هذه الحياة، ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، إذن، طاعتهم والتسليم لأوامرهم هي السبيل للوصول إلى الحياة الطيبة، كما نقرأ في موضع آخر من القرآن الكريم ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[٢]، وبحسب روايات الفريقين، فإنّ من أمثلة الحياة الطيبة تلبية دعوة النبي الكريم صلى الله عليه وآله في ما يتعلّق بولاية علي بن أبي طالب وأهل بيته[٣].

□ إنّ حؤول الله بين المرء وقلبه هو دليل على حضور الله تعالى، وإحاطته بجميع المخلوقات، وأنّ القدرة والتوفيق بيده وحده. فهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وهو الذي يتحكّم في فاعلية العقل والروح، ولولا لطفه لما تعرّف الإنسان مطلقاً على حقيّة الحقّ وبطلان الباطل.

□ روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ أحد أمثلة حؤول الله تعالى بين المرء وقلبه هي مسألة المحو والتثبيت، محو الكفر وتثبيت الإيمان، محو الغفلة والشكّ وتثبيت التذكّر واليقين[٤]. وفي موضع آخر يقول عليه السلام أيضاً: **«إنّ الله إذا أراد بعبدٍ خيراً وكّل ملكاً فأخذ بعنقه فأدخله في هذا الأمر طائعاً أو كارهاً»**[٥]. وأيضاً عنه عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾: **«هو أن**

---

(١) سورة الفجر: الآية ٢٤.
(٢) سورة النحل: الآية ٩٧.
(٣) تفسير الفرقان.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) بحار الأنوار، ج ٥، ص٢٠٥.

يشتهي الشيء بسمعه، وبصره، ولسانه، ويده. أمّا إنه وغشى شيئاً ممّا يشتهي فإنّه لا يأتيه إلا وقلبه منكر لا يقبل الذي يأتي، يعرف أنّ الحق ليس فيه»[1]

وربّما كان الحؤول بين المرء وقلبه كناية عن الموت.

التعاليم:

١ ـ شرط الإيمان الحقيقي هو الاستجابة لدعوة الله والرسول، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾.

٢ ـ دعوة الله والرسول ذات حقيقة وجوهر واحد. لاحظ أنّ الفعل جاء في صيغة المفرد ﴿دَعَاكُمۡ﴾ ولم يأت في صيغة التثنية «دعواكم».

٣ ـ الحياة الحقيقيّة هي في سلوك طريق الله والأنبياء، والجنوح عنه موت للإنسانية، ﴿دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾.

٤ ـ جميع تعاليم الدين وأوامر الأنبياء بما فيها أوامر الحرب والجهاد هي مدعاة لإحياء حياة الفرد والمجتمع على حدّ سواء، ﴿دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾.

٥ ـ من يؤمن بحضور الله تعالى وإحاطته بعباده، لا يُعرض عن دعوة الأنبياء، ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ... يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾.

٦ ـ فلنلبِّ دعوة الحقّ ما دامت الفرصة سانحة. (لذا، فإن حؤول الله تعالى بين المرء وقلبه هو كناية عن الموت)، ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ... يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾.

٧ ـ ليس للمؤمن أن يغترّ ولا أن ييأس من هداية الكافر، لأنّ القلوب بيد الله تعالى يقلّبها كيف شاء، ﴿يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾.

٨ ـ كلّ فكرة تخطر بقلب الإنسان يعلم بها الله تعالى، ﴿يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾.

٩ ـ الله أقرب إلى الإنسان من كلّ شيء، أقرب إليه من قلبه إلى نفسه، ﴿يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

١٠ ـ كلّنا سوف نُحشر في يوم القيامة، شئنا أم أبينا، فليس أمامنا إلّا تلبية دعوة رسل الله تعالى، ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ... إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

- كلمة «فِتْنَةً» استعملت في القرآن المجيد بمعانٍ مختلفة، فقد جاءت تارةً بمعنى الاختبار والامتحان، وتارة بمعنى البلاء والعذاب والمصيبة، وأخرى بمعنى الشرك والكفر، وهي في الأصل، بمعنى إدخال الذهب في بوتقة النار ليتميّز جيّده من رديئه، ثمّ استعملت بمعنى الاختبارات التي تكشف الصفات الباطنية للإنسان، واستحدثت في الابتلاء والجزاء الذي يبعث الصفاء في روح الإنسان ويطهّره من شوائب الذنوب، وأمّا في هذه الآية فإنّ هذه الكلمة جاءت بمعنى البلاء والمصائب الاجتماعيّة التي يصاب بها الجميع فيحترق فيها الأخضر واليابس[(١)].
- في الآية السابقة نزل الحكم بطاعة أوامر الرسول الكريم ﷺ، وهنا تأمر الآية الكريمة بوأد الفتنة. لذا، يمكن أن نستنتج أنّ أحد وجوه الفتنة هي عدم طاعة النبي الكريم ﷺ، فيكون مفهوم هذه الآية مع الآية ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[(٢)(٣)].

مثال آخر على الفتنة هو شيوع الفساد والفاحشة، والتي تؤدّي إلى انهيار النظام إذ تكون أضراره عامّة وشاملة. على سبيل المثال، فساد حكّام بني أميّة، عندما تخلّوا عن ولاية إمام الحقّ، فمرّغوا كرامة المسلمين في وحل الذلّ والخنوع.

- لا ريب أنّ السكوت وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مدعاة لبروز

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.
(٣) الميزان في تفسير القرآن.

الفتنة وأن يعمّ العذاب، إذ يقول النبي الكريم ﷺ في حديث مشهور: **«إنّ الله ﷻ لا يعذّب العامّة بعمل الخاصّة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروا، فإذا فعلوا ذلك عذّب الله الخاصّة والعامّة»**(١). وعن الإمام علي عليه السلام، قوله: **«إنّ الله لا يعذّب العامّة بذنب الخاصّة إذا عملت الخاصّة بالمنكر سراً من غير أن تعلم العامّة؛ فإذا عملت الخاصّة بالمنكر جهاراً فلم تغيّر ذلك العامّة استوجب الفريقان العقوبة من الله ﷻ»**(٢).

- إنّ المراد باجتناب الأعمال التي تثير الفتنة وتصيب بتأثيراتها الجميع ليس هو اختيار العزلة وترك القضايا، بل المراد هو توخّي اليقظة والحذر. يقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: **«كن في الفتنة كابن اللّبون، لا ظهرٌ فيُركب ولا ضرعٌ فيُحلب»**(٣).
- لـمّا نزلت هذه الآية ﴿وَاتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ قال النبي ﷺ: **«من ظلم علياً عليه السلام مقعدي هذا بعد وفاتي فكأنّما جحد نبوّتي ونبوّة الأنبياء قبلي»**(٤).

التعاليم:

١ ـ التمرّد على الدين والأحكام الإلٰهيّة، مدعاة لظهور الفتنة ونزول العذاب الإلٰهيّ، ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ... وَاتَّقُوا۟ فِتْنَةً﴾.

٢ ـ لا تكن مثيراً للفتنة ولا نصيراً للمفتنين، ولا تسكت إزاءهم، ﴿وَاتَّقُوا۟ فِتْنَةً﴾

٣ ـ على أعضاء المجتمع المؤمن، أن يشعروا بالمسؤولية والالتزام تجاه أعمالهم وتجاه أعمال باقي أفراد المجتمع أيضاً؛ لأنّ المعاصي قد تطال، أحياناً، الآخرين بشررها، كمن يثقب السفينة التي يركبها، ﴿وَاتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
(٢) تفسير «الاثني عشري»، ج٤، ص٣٢٢.
(٣) نهج البلاغة، الحكمة ١.
(٤) تفسير الفرقان.

٤ ـ معرفة ألم العذاب الإلهيّ وشدّته مدعاة لاجتناب الظلم والمعصية، ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً... إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

إشارات:

□ «**تخطّف**» من «الخطف» وهو الأخذ بسرعة.

□ كان مسلمو مكّة قبل هجرة النبي الكريم ﷺ عرضة لأذى المشركين واضطهادهم، فأمرهم النبي بالهجرة فرادى وجماعات إلى البلاد الأخرى، فشدّ بعضهم الرحال إلى بلاد الحبشة، وبعضهم الآخر إلى اليمن والطائف، كما ذهب بعضهم إلى شِعب أبي طالب، وكانوا في خوف واضطراب مستمرّ، ولمّا هاجروا إلى المدينة لم يكن لهم فيها أيّ بيت أو ملجأ، وكان عدد كبير منهم من أهل الصّفّة فقد كانوا يتّخذون من مسجد النبي ملجأً لهم. ولم يكن حال الأنصار يختلف كثيراً في بداية هجرة النبي الكريم ﷺ عن باقي المسلمين، فقد كانوا يعانون شظف العيش ومرارة الفقر والقحط، لدرجة أنّهم كانوا يقنعون بتمرة واحدة، هذا علاوة على ما كانوا يلاقون على يد اليهود من العذاب والهوان. لكنّ الله سبحانه وتعالى منّ على المسلمين في أواخر البعثة بالمُكنة والقدرة، وقد بلغت قوّتهم وسطوتهم حدّاً كان أهل الذمّة يدفعون الجزية لهم، وكان المشركون في هلع وخوف دائم من أن يُقتلوا أو يؤسروا فيتمّ استرقاقهم من قبل المسلمين، بل إنّ بعضهم كان يقدّم أمواله للمسلمين طوعاً[1]. لذلك، يذكّرهم الله تعالى هنا بأيّام ضعفهم وذلّهم، ليستشكرهم على ما أنعم عليهم من منعة وأمن.

---

(١) تفسير أطيب البيان.

التعاليم:

١ ـ استذكار أيّام الضعف وأيّام نصرة الله، تجعل المرء يبتعد عن الفتن، ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً... وَاذْكُرُوٓاْ﴾.

٢ ـ في البدء كان عدد المسلمين قليلاً. (استعمال كلمة «**قليل**» بدلاً من «**قليلون**»، لزيادة التأكيد على القلّة).

٣ ـ كان المسلمون في مكّة يعيشون في خوف واضطراب دائمين قبل الهجرة إلى المدينة. «**تخافون**» (صيغة الفعل المضارع إشارة إلى الاستمرارية).

٤ ـ إذا كنّا نسير في طريق الحقّ فلا نستوحش من قلّة عددنا وضعف حيلتنا وتشرّدنا، ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾؛ فنصر الله قادم لا محالة، ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم...﴾.

٥ ـ الأمن ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾، والقدرة القتالية والنصر ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾، وانتعاش الأوضاع الاقتصاديّة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، كلّها من نعم الله الخاصّة.

٦ ـ استذكار أيّام الضعف ومقارنتها بأيّام النصر، مدعاة لشكر الله تعالى وحبّه والتوكّل عليه، ﴿وَاذْكُرُوٓاْ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٧ ـ بفضل الإيمان منح الله تعالى فئة قليلة ضعيفة خائفة أسباب العزّة والقدرة والمُكنة، (في ضوء مفهوم الآية برمّتها).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

❑ ورد في سبب نزول هذه الآية من أنّ النبي الكريم ﷺ أمر بمحاصرة يهود بني قريظة واستمرّت هذه المحاصرة واحداً وعشرين يوماً، حتى أُجبروا على المطالبة بالصلح ـ كما جرى ذلك مع اليهود من بني النضير ـ وذلك بأن يرحلوا عن أرض المدينة إلى أرض الشام، لكنّ النبي ﷺ رفض ذلك العرض (لعلّه كان يشكّ في صدق نيّاتهم) وقال: يجب القبول بحكم (سعد بن معاذ) لكنّهم

طلبوا من النبي ﷺ أن يرسل إليهم أبا لبابة وهو من أصحاب النبي ﷺ في المدينة وكانت له معهم صداقة قديمة، وكانت عائلته وأبناؤه وأمواله عندهم. فقبل النبي ﷺ ذلك الطلب وأرسل أبا لبابة إليهم فاستشاروه: هل من مصلحتهم القبول بتحكيم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة إلى رقبته، بمعنى أنكم لو قبلتم فلسوف تقتلون فلا ترضوا بهذا العرض، فهبط أمين الوحي جبرائيل عليه السلام إلى النبي ﷺ فأخبره بذلك. يقول أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي حتى عرفت أنّي خنت الله ورسوله، وعند ذاك نزلت هذه الآيات في أبي لبابة، وقد عاد أبو لبابة معلناً ندمه الشديد وأتى بحبل وربط نفسه به إلى أحد أعمدة مسجد النبي ﷺ، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يقبل الله توبتي. واستمرّ على هذه الحال دون أكل وشرب إلى سبعة أيّام، حتى فقد وعيه وسقط على الأرض مغشيّاً عليه، فقبل الله توبته، وقام المؤمنون بإبلاغه الخبر، لكنّه أقسم أن لا يفكّ نفسه من العمد حتى يأتيه النبي ﷺ ويفكّ عنه الحبل، فجاءه النبي ﷺ وفكّ حبله، وقال أبو لبابة: إنّ من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها بالذنب وأن أنخلع من مالي، فقال النبي ﷺ: **«يجزيك الثلث أن تصدّق به»**[1].

وقد ذُكر سبب آخر لنزول الآية، إذ بعث بعض المسلمين قبيل معركة بدر بكتاب إلى أبي سفيان يعلمونه فيها عن خطّة النبي الكريم ﷺ، فطلب أبو سفيان على أثرها المساعدة من مشركي مكّة، فأمدّوه بألف رجل للقتال في معركة بدر[2].

- **في البيان القرآني، تنطوي الأمانة على مفهوم واسع يشمل جميع شؤون الحياة السياسيّة، والاجتماعيّة، والأخلاقية، من جملتها:**

أ) جميع النعم الماديّة والمعنوية، مثل العقيدة، القرآن، القائد، الابن، الماء، والتراب.

---

(١) تفاسير مجمع البيان، والصافي؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) تفسير مجمع البيان؛ الميزان في تفسير القرآن.

ب) أهل بيت النبي ﷺ[١].

ج) نحن لأنفسنا أمانة كما ورد ذلك في آية أخرى أيضاً ﴿كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، ولمجتمعنا أيضاً[٢].

د) الأنفال، الغنائم، الخمس، الزكاة، والأموال العامة، (بسبب وجود الآية في سورة الأنفال وغنائم معركة بدر).

هـ) عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام قوله: **«أحكام الدين، الفرائض والواجبات الإلهيّة أمانة»**[٣].

و) الحكم والمسؤولية.

إذن، فالخيانة هي العصيان وعدم أداء الحقوق والواجبات المتعلقة بهذه الأمانات، وقد نُقل عن ابن عباس قوله: إنّ من ترك شيئاً من الأوامر الإسلاميّة فقد ارتكب خيانة بحقّ الله ورسوله[٤]. كما إنّ تقدّم الأشرار على الصالحين في تقلّد المناصب الاجتماعيّة يعدّ خيانة لله ولرسوله.

- ويقول النبي الأكرم ﷺ: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإن صام وصلّى وزعم أنّه مسلم»**. كما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: **«لا تغترّوا بصلاتهم ولا صيامهم فإنّ الرجل ربّما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش ولكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة»**[٥].

- إنّ من الواجبات والحقوق الإنسانيّة عدم خيانة الأمانة. على هذا، فإنّ الخيانة لا تجوز حتى مع غير المسلم.

التعاليم:

١ ـ لا تجتمع الخيانة مع الإيمان، فالأمانة شرط الإيمان، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا﴾.

---

(١) ملحقات إحقاق الحقّ، ج ١٤، ص ٥٦٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

(٣) تفسير نور الثقلين.

(٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٥) الكافي، ج ٢، ص١٠٤.

٢ ـ أحياناً، إشارة واحدة لصالح العدو تعدّ خيانة، (نظراً إلى سبب النزول الأوّل).

٣ ـ إفشاء الأسرار العسكرية خيانة قبيحة، (نظراً إلى سبب النزول الثاني).

٤ ـ خيانة الرسول الكريم ﷺ خيانة لله تعالى، ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾؛ (العبارة ﴿لَا تَخُونُوٓاْ﴾ تتعلّق بالله والرسول معاً، ثمّ تكرّرت بالنسبة إلى الناس).

٥ ـ من يخون الله والرسول إنّما يخون نفسه، وضرر ذلك سوف يعود عليه، ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾؛ (طبقاً لهذا المعنى الذي يتناسب مع ظاهر الآية فإنّه لا حاجة إذاً لأداة النهي «لا» لتسبق العبارة ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾).

٦ ـ أمانة الناس هي بمثابة أماناتنا، وخيانتها تعني خيانة أنفسنا، ﴿لَا تَخُونُوٓاْ... وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾.

٧ ـ الخيانة قبيحة ومدانة بالفطرة، ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

٨ ـ الخيانة الأخطر هي التي تكون عن وعي وقصد، ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ (إنّكم تعلمون قبح الخيانة وكذلك بعواقبها الوخيمة).

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٢٨﴾

إشارات:

□ في الحقيقة إنّ مدار جميع المعاصي مثل: المعاملات المحرّمة، الاحتكار، الكذب، التطفيف، ترك الإنفاق، عدم أداء الخمس والزكاة، الطمع والتلكؤ، واليمين الكاذبة، وغمط حقوق الناس، الفرار من أرض المعركة، ترك الهجرة والجهاد... إلخ، كلّ هذه الأمور منشؤها حبّ المال والبنين. من هنا فإنّها جميعاً تعدّ موضوعات ابتلاء وامتحان، كما حصل مع أبي لبابة (في الآية السابقة) حين زلّت قدمه في مستنقع الخيانة وتعاون مع العدوّ من أجل المحافظة على أمواله وبنيه.

□ أولئك الذين نقلوا لأبي سفيان من المدينة أنّ المسلمين يتعبّأون للاستيلاء على

قافلة قريش التجارية كانوا من المهاجرين الذين كانت لهم في مكة الأموال والبنين[١].

- لقد ذكر القرآن الكريم وبتعابير مختلفة أنّ المال والبنون فتنة، ونهى عن التعلّق بهما، محذّراً من احتمال أن يؤديا بالمرء إلى الانحراف، من جملة الآيات التي تناولت هذا الموضوع نذكر:

أ) إمكان مشاركة الشيطان الإنسان في أمواله وبنيه، ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[٢].

ب) طلب الاستزادة من الأموال والبنين والآثار السلبية لذلك، ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[٣].

ج) المال والبنون إلهاء عن ذكر الله تعالى، ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[٤].

د) لن تُغني عن الإنسان في يوم القيامة أمواله ولا أولاده، ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم﴾[٥].

- ثمّة مؤشّرات في الآية تدلّ على أنّ اختبار الأموال والأولاد هو اختبار جادّ وصعب للغاية، وأنّ اجتيازه ينطوي على أهميّة قصوى، من هذه المؤشّرات، أوّلاً: إنّ الآية استهلّت بجملة تحذيرية هي «واعلموا»، ثانياً، تبيّن أداة الحصر «إنّما» أنّ الاختبار بالمال والبنين مؤكّد ولا جدال فيه. ثالثاً، تذكر الآية أنّ المال والبنين هما عين الفتنة وليسا وسيلة اختبار وفتنة[٦].

- يقول الإمام علي عليه السلام: **«لا يقولنّ أحدكم اللّهم إنّي أعوذ بك من الفتنة لأنّه ليس أحد إلّا وهو مشتمل على فتنة»**، ثمّ يوضّح الحكمة من الاختبارات الإلٰهيّة بقوله: **«ليتبيّن الساخط لرزقه، والراضي بقسمه»**[٧].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٦٤.
(٣) سورة الحديد: الآية ٢٠.
(٤) سورة المنافقون: الآية ٩.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٠.
(٦) تفسير راهنما (التفسير المرشد).
(٧) نهج البلاغة، الحكمة ٩٣.

التعاليم:

١ ـ الولع المفرط بالمال والبنين يودي بالإنسان إلى الخيانة، ﴿لَا تَخُونُوا... وَاعْلَمُوا﴾، وأحياناً يبلغ هذا الولع مبلغاً تجعل الإنسان يتخلّى عن مبادئه الإنسانيّة والدينيّة. (أداء الأمانة)، (نظراً إلى سبب نزول الآية السابقة).

٢ ـ قد يصبح المال والبنون مصيدتين خدّاعتين، ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

٣ ـ التركيز على الثواب الإلهيّ العظيم، من أسباب ترك الدنيا والخيانة، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

٤ ـ على الرغم من سحر المال والبنون، إلّا أنّهما لا يساويان شيئاً إلى جانب ألطاف الله تعالى. (لاحظ أنّ عبارة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ جاءت بإزاء ﴿أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ﴾)[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

إشارات:

❑ إنّ معايير التمييز بين الحقّ والباطل عديدة، منها:

أ) الأنبياء وأولياء الله، وقد سمّي النبي الكريم ﷺ الفاروق[٢]، أو كما جاء

---

(١) وأنا أكتب هذه السطور، تحلّ علينا ذكرى عاشوراء الإمام الحسين عليه السلام، هذا الإمام الذي ضحّى في سبيل الله بكلّ ما يملك في يوم واحد، فقد واجه مصائب كانت كلّ واحدة منها كافية لكي تهدّ جبالاً فضلاً عن الإنسان، لكن العزاء الوحيد للإمام عليه السلام في كلّ ما مرّ عليه من مصائب ومحن هو أنّه كان يرى أنّ تضحياته لا تساوي شيئاً أمام عظمة الله تعالى، فمثلاً عندما تضرّج رضيعه ذو الستّة أشهر بدمه وهو على يده تجلّد وقال: «هوّن عليّ أنّه بعين الله». وعلى خطاه الواثقة سارت أخته العقيلة زينب الكبرى، التي تحمّلت من المصائب ما تنوء بحمله الجبال، ففي عصر يوم عاشوراء طافت على شهداء بني هاشم وعندما رأت جسد أخيها وقد نالت منه السيوف والرماح، حمدت الله وأثنت عليه وقالت: «اللهم تقبّل منّا هذا القربان». وفي مجلس الطاغية يزيد، وقفت تخطب بإباء وشمم وقالت: «ما رأيت إلّا جميلاً». نعم، إنّ المؤمن إذا آمن بأنّ متاع الدنيا قليل وزائل، وأنّ الأجر العظيم هو عند الله تعالى، فسوف يتمكّن من مواجهة أعظم المصائب وأفدح الخطوب.

(٢) تفسير الفرقان.

في الحديث النبوي الشريف: «**مَن فارق عليّاً فقد فارق الله**»[١].

ب) الكتاب السماوي، إذ إنّه من خلال عرض الأمور عليه يتميّز الحقّ عن الباطل.

ج) التقوى، ذلك أنّ عاصفة الغرائز، والشهوات، والحبّ، والكره، مضافاً إلى عدم التقوى، تحجب الحقائق عن بصيرة الإنسان.

د) العقل، إذ بدونه لا يمكن حتى الاهتداء إلى الوحي.

- الفرقان والقدرة على تمييز الحقّ عن الباطل هي حكمة وبصيرة يهبها الله تعالى أهلَ التقوى، وليس لها علاقة بمستوى العلم والمعلومات.

- يقول الفخر الرازي في التفسير الكبير: إنّ المراد من تكفير السيئات سترها في الدنيا ومن المغفرة إزالتها في القيامة لئلا يلزم التكرار. وقد ورد في تفسير «الأمثل في كتاب الله المنزل» أنّ الفرق بين (تكفير السيئات) و(الغفران) هو أنّ الأولى إشارة إلى الحجب من الدنيا، والثانية النجاة من الجزاء الأخروي، ويرد احتمال آخر هنا وهو أنّ (تكفير السيئات) إشارة للآثار النفسية والاجتماعيّة للذنوب والتي تزول بفعل التقوى، ولكنّ (الغفران) إشارة إلى مسألة العفو الإلٰهيّ والخلاص من الجزاء.

- أولئك الذين يتّقون الله ويطرحون عنهم الأهواء النفسانية، يهبهم الله القدرة على تمييز الحقّ، وفي آية أخرى نقرأ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾[٢]، وكأنّ الروح مرآة ينجلي غبارها بالتقوى، فتعكس نور الحقّ صافياً وشفافاً، ويقول الإمام علي عليه السلام: «**فإنّ تقوى الله دواء داء قلوبكم وبصر عمى أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم وجلاء عِشا أبصاركم، وأمن فزع جأشكم وضياء سواد ظلمتكم...**»[٣]، وأيضاً عنه عليه السلام: «**أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع**»[٤].

---

(١) ملحقات إحقاق الحقّ، ج ٤، ص ٢٦.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٩.
(٤) المصدر نفسه، الحكمة ٢١٩.

التعاليم:

١ ـ إذا تمسّك الإنسان بحبل التقوى، فسوف يأخذ الله بيده في اختبار المال والبنين ويهبه القدرة على التمييز بين الحقّ والباطل، ﴿أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ... إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾.

٢ ـ عمل الإنسان يترك تأثيره على ملامح رؤيته. فمن تمسّك بالتقوى، أنعم الله عليه بالعلم، والفطرة، والعقل، والتجربة، والبصيرة، والمعرفة الخاصة، (﴿فُرْقَانًا﴾؛ جاءت في صيغة التنكير لتبيّن أنّ المقصود هي بصيرة خاصّة).

٣ ـ التقوى هي معيار المعرفة الصحيحة ﴿فُرْقَانًا﴾، وكذلك عامل الكرامة الاجتماعية، ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ﴾، وهي بعد سبب المغفرة في الآخرة، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

٤ ـ منح المتّقين بصيرة خاصة، وغفران ذنوبهم هو فضل من الله تعالى، ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا... وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

إشارات:

- «**المَكر**» في اللغة هو التدبير والتخطيط والحيلة.
- هذه الآية إشارة إلى «**ليلة المبيت**» ومؤامرة الكفّار لقتل الرسول الكريم ﷺ، إذ جاءه جبرائيل عليه السلام وأخبره بما عزم عليه الكفّار، فخرج إلى غار ثور ليلاً وأمر عليّاً عليه السلام بالمبيت في فراشه، فمكث فيه (في الغار) ثلاثاً ثمّ قدم إلى المدينة.

وفي ليلة الهجرة، وعندما استعدّ الإمام علي عليه السلام لكي يفتدي رسول الله ﷺ نزلت فيه الآية الكريمة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[1][2].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠٧.
(٢) تفسير نور الثقلين.

❑ لقد ذكرت الآية الخطط الثلاث التي طرحها الكفّار للتصدّي للنبي الكريم ﷺ والتي أسفر عنها اجتماع المشركين في دار الندوة، ليستقرّ رأيهم على خطّة قتل النبي ﷺ، وذلك بأن يجتمع عليه من كلّ بطن رجل فيضربوه بأسيافهم ضربة رجل واحد فيتفرّق دمه على القبائل ولا يستطيع بنو هاشم محاربة جميع هذه القبائل.

❑ ربّما كانت هذه الآية الكريمة ترتبط بالآية ٢٧ من هذه السورة التي تقول: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

❑ يضع سرّه في أضعف خلقه، كما يقال، فكم من موقف سخّر الله تبارك وتعالى مخلوقاً ضعيفاً لإنجاز مهمّة عظيمة، أو دفع مؤامرة خطيرة، فقابيل ابن آدم تعلّم من الغراب كيف يواري سوأة أخيه بعدما أعيته الحيل، ودابة الأرض هي التي كشفت عن موت النبي سليمان عليه السلام بعدما أكلت منسأته، وطائر الهدهد هو الذي حمل الدعوة إلى ملكة سبأ بلقيس، وفِيَلة أبرهة صارت كعصف مأكول بعدما هجمت عليها الطيور الأبابيل، والبعوضة كانت السبب في هلاك الملك النمرود، ومؤامرة مشركي مكّة أفشلتها خيوط بيت العنكبوت. كلّ ذلك هو من أجل البرهنة على وهن الإنسان وعجزه أمام القدرة الإلٰهيّة اللامتناهية.

التعاليم:

١ ـ التذكير بالمدد الإلٰهيّ والأخطار التي حال الله تعالى دون وقوعها، تزرع في النفس الطمأنينة والثبات، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ...﴾.

٢ ـ السجن والاغتيال والنفي، كلّها أدوات استخدمها طغاة التاريخ لمحاربة الحقّ، ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ...﴾.

٣ ـ الكفر يدفع بالإنسان إلى حدّ قتل الأنبياء، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا... يَقْتُلُوكَ﴾.

٤ ـ لا يمكن لأيّ دليل أو برهان أن يقف في وجه كلمة الحقّ، فالكافرون بدلاً من إيجاد حلّ للقضايا والقبول بالحقّ، يسعون إلى محو الحقّ وأهله، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ﴾.

٥ ـ مؤامرات الكفّار ضدّ المسلمين مستمرّة ولا تنتهي، وفي المقابل، فإنّ دعم الله تعالى للمسلمين لا ينتهي أيضاً، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾؛ (ليس صحيحاً أنّ الأعداء يحقّقون أهدافهم على الدوام، فتدبير الله تعالى يُفشل مخطّطاتهم).

٦ ـ من مكر لأهل الحقّ، كان الله خصيمه، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾.

٧ ـ الله تعالى هو الحافظ للكتاب ولأوليائه، كما حفظ أشرف خلقه بخيوط بيت العنكبوت، ودفع عنه أكبر المؤامرات فغيّر بذلك مجرى التاريخ، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

٨ ـ الله تعالى يطلع أولياءه، متى لزم ذلك، على مكائد الأعداء ومكرهم. فالمؤامرة التي أرادوا كتمانها، فضحها الله أمام العالمين، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

- حديث الآية السابقة كان حول مؤامرات الكفّار المتواصلة لطرد النبي الكريم ﷺ وقتله، فيما تعرض هذه الآية أمثلة لمكائد الأعداء في الإساءة إلى الدين الإسلامي والقرآن الكريم.
- **«أساطير»** جمع **«أسطورة»**، وهي الخرافة أو الخيال عن إنسان العصور الغابرة أو من صنع يديه.
- كان النضر بن الحارث قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلّم من أخبار ملوكهم رستم وإسفنديار، ولمّا قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن، فكان ﷺ إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدّثهم من أخبار أولئك ثم يقول: بالله أيّنا أحسن قصصاً أنا أو محمد[1]؟

---

(١) تفاسير مجمع البيان؛ روح المعاني؛ في ظلال القرآن.

التعاليم:

١ ـ من أسلحة الأعداء التعمية على الحقّ، والاستخفاف به، والسخرية منه، ﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، غير أنّ هؤلاء ليسوا سوى طبول فارغة، ليس لديهم سوى ادّعاءات جوفاء، فهم أعجز من أن يأتوا بنظير للقرآن.

٢ ـ حتى الأعداء أقرّوا بفضل القرآن الكريم وأنّه فوق كلّ تصوّر، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٣ ـ التحجّر، والجمود، والاقتباس من السنن البالية هي من أقدم التّهم التي كان المؤمنون يوصمون بها، ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

إشارات:

- هذا النوع من اللعن والدعاء إمّا أن يكون من فرط التعصّب واللجاج، أو للتعمية. فهم يدعون على أنفسهم ليصدّق البسطاء أنّهم على حقّ والإسلام على باطل.
- لمّا نصّب رسول الله ﷺ عليّاً عليه السلام يوم غدير خمّ فقال: «**من كنت مولاه فعليّ مولاه**» طار ذلك في البلاد، فقدم على النبيّ ﷺ النعمان بن الحارث الفهري، فقال: أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله وأمرتنا بالجهاد، والحج، والصوم، والصلاة، والزكاة فقبلناها، ثمّ لم ترض حتى نصبت هذا الغلام فقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه، فهذا شيء منك أو أمر من عند الله؟ فقال ﷺ: «**والله الذي لا إله إلّا هو، إنّ هذا من الله**» فولّى النعمان بن الحارث وهو يقول: أللهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء[1]، فرماه الله تعالى بحجر على رأسه فقتله،

(١) الغدير، ج ١، ص ٢٣٩ ـ ٢٦٦، نقلاً عن ٣٠ عالماً من علماء أهل السنّة.

فنزلت الآيات الأولى من سورة المعارج[١]، ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾.

التعاليم:

١ ـ أحياناً تكون القدسانية المنافقة والأيمان الغليظة من أسلحة العدوّ في خداع المؤمنين، ﴿ٱللَّهُمَّ...﴾.

٢ ـ العناد واللجاج يدفعان الإنسان أحياناً إلى القبول بفناء نفسه، ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ...﴾.

٣ ـ من بين المناوئين للنبي الكريم ﷺ من كان يؤمن بالله وتأثيره في الوجود وفاعلية الدعاء، ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ... فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا... أَوِ ٱئۡتِنَا﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾

إشارات:

□ نظراً إلى أنّ الآية اللّاحقة تحمل تهديداً لكفّار مكّة بنزول العذاب عليهم، يتبيّن لنا أنّ المراد بانتفاء العذاب في هذه الآية هو، بطبيعة الحال، عدم نزول العذاب العام والشامل على المسلمين ببركة وجود النبي الكريم ﷺ بين ظهرانيهم، كما حصل للأمم السالفة التي هلكت بالعذاب الشامل، أمّا وقوع العذاب الخاص فلم ينتف، وذلك بدلالة نزول العذاب على النعمان بن الحارث كما ورد في الآية السابقة.

□ جاء في الأحاديث أنّ الله تعالى يرفع الشدائد والعذاب عن عموم الناس بسبب وجود بعض الأفراد المتطهّرين والعلماء الربّانيين بينهم. ومن ذلك ما ورد في القرآن الكريم من العذاب الأليم الذي نزل على قوم لوط، حيث قال النبي إبراهيم عليه السلام للملائكة: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾، أي هل تعذّبهم مع وجود رجل مؤمن بينهم؟ فجاء ردّ الملائكة: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن﴾[٢]. أو ما جاء على

(١) تفسير مجمع البيان.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٣٢.

لسان الإمام علي عليه السلام بعد وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله **«كان في الأرض أمانان من عذاب الله، وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسّكوا به»** وقرأ هذه الآية[١].

أو ما ورد في الروايات عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قوله لزكريا بن آدم: **«إذا عمّت البلدان الفتن فعليكم بقم وحواليها ونواحيها فإنّ البلاء مرفوع عنها»**[٢].

- وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إنّ لكم في حياتي خيراً وفي مماتي خيراً»**، فقيل: يا رسول الله أمّا حياتك فقد علمنا، فما لنا في وفاتك؟ فقال: **«أما في حياتي فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾، وأمّا في مماتي فتعرض عليّ أعمالكم فأستغفر لكم»**[٣].
- التمرّد وارتكاب بعض المعاصي، هما من أسباب نزول العذاب من السماء، والسبيل إلى رفعه هو التوبة والاستغفار، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، وفي دعاء كميل نقرأ **«أللّهم اغفر لي الذنوب الّتي تنزل البلاء»**، وفي آية أخرى يقول عزّ من قائل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[٤].

التعاليم:

١ ـ وجود النبي الكريم صلى الله عليه وآله والمؤمنين بين ظهراني المسلمين مدعاة لأمن أهل الأرض، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.

٢ ـ الاستغفار جُنّة تمنع البلاء، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ (العودة عن الكفر والإلحاد نوع من الاستغفار).

٣ ـ الاستغفار له أهميّة خاصّة عند الله تبارك وتعالى، كما إنّه يعمل على تغيير مصير أمّة بأكملها، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٨٨.
(٢) بحار الأنوار، ج ٥٧، ص٢١٧.
(٣) تفسير نور الثقلين.
(٤) سورة هود: الآية ١١٧.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

إشارات:

- إذن، تقول الآية السابقة: إنّ الله لن يُنزل عذاباً عاماً وشاملاً، كما حصل مع قوم عاد وثمود، على المسلمين وذلك كرامةً لوجود النبي الأعظم ﷺ بينهم، وكذلك إذا هم استغفروا لذنوبهم، بيد أنّ هذه الآية الكريمة تعاود الحديث عن أولئك الذين يستحقّون العذاب، وإن كان الله تعالى لن يعذّبهم بسبب، كما قلنا، وجود النبي الكريم ﷺ بينهم، طبعاً قد يكون المقصود بالعذاب هنا هو نزول المصائب والمكاره من قبيل الحرب والأسر.
- يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**الله الله في بيت ربّكم لا تخلوه ما بقيتم فإنّه إن تُرك لم تناظروا**»[١].

التعاليم:

١ ـ أولئك الذين يمنعون المؤمنين من دخول المسجد الحرام، عُدموا التقوى، وعليهم أن ينتظروا نزول العذاب الإلهيّ، ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ...﴾.

٢ ـ لقد نصّب الكفّار أنفسهم سدنة للمسجد الحرام دون وجه حقّ، ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾.

٣ ـ البيت الحرام شيّده النبي إبراهيم خليل الله عليه السلام على أساس التقوى، لذا ينبغي أن لا يديره أشخاص عديمو التقوى، ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾.

٤ ـ من الضروري تنصيب سدنة يتولّون شؤون المسجد الحرام، ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ (أن تعيّن الآية الكريمة شروط السادن لا نسبه، في ذلك دلالة على وجوب تعيين السادن).

---

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٤٧.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

إشارات:

- «المُكاء»، هو الصفير، و«التَّصدية»، بمعنى التصفيق.
- ربّما كان صفيرهم إيذاناً للأصنام حول الكعبة بحضورهم.
- يرى المفسّرون أنّ من أوضح الأمثلة على العذاب المذكور في العبارة ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ هو هزيمة المشركين في معركة بدر[1].

التعاليم:

١ ـ إنّ القيام بالأعمال المسيئة والعبثية مثل الصفير والتصفيق في البقاع المقدّسة، دليل على عدم جدارة سدنتها بتولّي مسؤوليتها، ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ... وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾.

٢ ـ على مدى التاريخ، والطقوس الدينيّة عرضة للتحريف وإضافة اللغو والخرافات إليها، ﴿صَلَاتُهُمْ... مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾.

٣ ـ أحياناً نجد أنّ أقدس البقاع تكون مسرحاً لعرض أتفه الخرافات، ﴿عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾.

٤ ـ الكفر بالمقدّسات والإساءة إليها، تستتبع عذاباً إلهياً، ﴿مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

٥ ـ اللجاج والإصرار على الكفر والانحراف، مدعاة لنزول العذاب، ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

---

(١) تفاسير مجمع البيان؛ الميزان؛ في ظلال القرآن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

- يرى بعض أنّ هذه الآية الكريمة نزلت في معركة بدر وما بذله مشركو مكّة من أموال طائلة، غير أنّها، أغلب الظنّ، تشمل جميع الأموال التي تصرف لمحاربة الإسلام.
- قد يكون تكرّر عبارة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ لجهة أنّ بعض أغنياء الكفّار دخلوا في الإسلام لاحقاً وكانوا يتحسّرون على ما أنفقوا من أموال، والبعض الآخر بقي على كفره ومات عليه فأصبح من أهل الجحيم. نعم، إنّ جهنّم أعدّت للكفّار الذين لم يبرحوا دائرة الكفر، أمّا المؤمنون، فهم لا يتحسّرون حتى لو لم يحقّقوا النتائج المرجوّة؛ لأنّ أجرهم محفوظ.

التعاليم:

١ ـ ما برح الكفّار ينفقون أموالهم للحيلولة دون انتشار الإسلام، لكنّهم في نهاية المطاف لا يحصدون غير الحسرات والهزائم المؤكّدة، (في ضوء مفهوم الآية ككل).

٢ ـ في هذه الآية يخبر النبي الكريم ﷺ أنّ هؤلاء سيواصلون إنفاق أموالهم في المستقبل أيضاً من أجل تحطيم الإسلام، بيد أنّ النصر سيظلّ حليف الإسلام، ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا... ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

٣ ـ جهود الكافرين لن تقف عند الهزيمة الدنيوية، بل إنّ عذاب الآخرة بانتظارهم، ﴿يُغْلَبُونَ ۗ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

٤ ـ الكفر وعدم الإيمان هو سبب انحدار الإنسان إلى هاوية جهنّم، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

- **«يركُمَه»**، بمعنى متراكم، والركام: ما يلقى بعضه على بعض.
- صحيح أنّ جهنّم لا حدّ لسعتها وما تنفكّ تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[1]، إلّا أنّ أهل النار محشورون ومحصورون فيها، كالجدار الواسع الذي زرعت فيه مسامير كثيرة، إلّا أنّ كلّ مسمار محشور في موضعه.

التعاليم:

١ ـ من جملة إفرازات معركة الحقّ والباطل انكشاف البواطن، والدوافع، والأعمال، والالتزامات، والمؤامرات وذلك لتتميّز جواهر الناس وطبيعة معادنهم، ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ تميّز أهل الحقّ عن أهل الباطل سنّة إلٰهيّة، ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ﴾؛ إذ يخاطب الله تعالى المجرمين في يوم القيامة قائلاً: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[2].

٣ ـ ضيق المكان وضغطته وتراكمه من جملة خصائص جهنّم وأهلها، ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾.

٤ ـ الخسران الحقيقي للإنسان حين يصبح من أهل جهنّم، ﴿فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾

إشارات:

- **«الانتهاء»**، هو الانزجار عمّا نهي عنه، وبلغ به نهايته.

---

(١) سورة ق: الآية ٣٠.
(٢) سورة يس: الآية ٥٩.

التعاليم:

١ ـ النبي الكريم ﷺ مأمور بإبلاغ سنّة الله تعالى (المغفرة في حال التوبة والمحق عند لجاج الكافرين) إلى الناس كافّة، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم... وَإِن يَعُودُواْ﴾.

٢ ـ توبة الكافر والملحد أيضاً مقبولة، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾.

٣ ـ طريق التوبة والإصلاح في الإسلام مفتوح بوجه التائب، فلا طريق مسدود ولا انسداد، ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾.

٤ ـ راهن الإنسان هو معيار الحكم لا ماضيه، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ...﴾.

٥ ـ الدين الإسلامي لا يدعو إلى الحرب بل إلى الإصلاح، ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾.

٦ ـ إسلام المرء يُسقط عنه ذنوبه، ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: **«الإسلام يَجُبّ ما قبله»**(١).

٧ ـ يجمع الأسلوب القرآني دائماً بين الترغيب والترهيب، ﴿إِن يَنتَهُواْ... وَإِن يَعُودُواْ﴾.

٨ ـ ينبغي أن لا يُفتح باب الأمل دون ضوابط لئلا يعتقد المجرمون أنّ وراء ذلك ضعفاً، ﴿إِن يَنتَهُواْ... وَإِن يَعُودُواْ﴾.

٩ ـ في البدء، الترغيب وإتمام الحجّة، وإذا لم يجدِ نفعاً، الترهيب والشدّة، ﴿إِن يَنتَهُواْ... وَإِن يَعُودُواْ﴾.

١٠ ـ شريعة الحكمة والعدل الإلٰهيّ تعاملت مع الجميع على مرّ التاريخ بصورة متساوية وثابتة، ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

---

(١) مستدرك الوسائل؛ مستنبط المسائل، ج ٧، ص٤٤٨.

١١ ـ قضت السنّة الإلٰهيّة بنجاة الأنبياء وانتصارهم، وبعذاب الكفّار وخذلانهم، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وفي آية أخرى يقول ﷻ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[١].

١٢ ـ فلنأخذ الدروس والعبر من سيرة الآخرين ومصائرهم، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

إشارات:

- تشريع الحرب والجهاد في الإسلام ليس من أجل فتح البلدان واستعمارها، بل لنشر الدين الإسلامي ومحاربة الفتنة. يقول الله ﷻ: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[٢]، لا بل أشدّ، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[٣].

- «الفتنة»، ذات معنى واسع، وتشمل كلّ أنواع الضغوط، فتارة يستعملها القرآن بمعنى الشرك وعبادة الأصنام، ربّما لجهة أنّ المشركين يمارسون كلّ أنواع التحجّر، والجمود، والاضطهاد ضدّ أفكار طلاب الحقّ وأرواحهم وبالتالي على مجتمعهم، أو لجهة أنّ الشرك يفضي إلى العذاب الخالد. وكذلك يندرج ضمن مفهوم الفتنة فرض عقيدة الكفر على المؤمنين والأشخاص سليمي الفطرة[٤].

- وقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: **«لم يجىء تأويل هذه الآية، ولو قام قائمنا بعد، سيرى من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية، وليبلغنّ دين محمّد ما بلغ الليل حتى لا يكون شرك على ظهر الأرض كما قال تعالى»**[٥].

---

(١) سورة المجادلة: الآية ٢١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩١.

(٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٥) تفسير نور الثقلين.

وسُئل الإمام الباقر عليه السلام عن تأويل هذه الآية فقال: «**لم يجيء تأويل هذه الآية بعدُ، إنّ رسول الله ﷺ رخّص لهم لحاجته وحاجة أصحابه، فلو قد جاء تأويلها لم يقبل منهم لكنّهم يُقتلون حتى يُوحَّد الله عزّ وجلّ وحتى لا يكون شرك**»[1].

□ لا تتعارض هذه الآية مع حرّية اعتناق الدين ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[2]، لأنّه يجب محق الفتن والطواغيت، لتتاح الأجواء للإنسان لكي يختار.

التعاليم:

١ ـ الغاية من تشريع الجهاد في الإسلام هو القضاء على الفتنة وتسلّط الكفّار وخلق مناخ مناسب للدعوة إلى الحقّ، ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ...﴾.

٢ ـ حكم القتال سارٍ ما دام الكفّار ماضين في حياكة المؤامرات والفتن، ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾.

٣ ـ متى كفّ الأعداء عن القتال، سوف يكون لكلّ حادث حديث، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ...﴾.

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾

التعاليم:

١ ـ في إدارتنا القضايا العسكرية ووضع الاستراتيجيات السياسيّة يجب أن نتحسّب لجميع الظروف والأبعاد، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ... وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾.

٢ ـ عليكم بواجباتكم إذا قصّر الآخرون في واجباتهم أو أعرضوا، فالله مولاكم وهو ناصركم، ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾.

٣ ـ لا تغفلوا عن ولاية الله تعالى ونصرته إياكم، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾؛ (الإيمان بالولاية والنصرة الإلٰهيّة تقوّي الدوافع والعزيمة على قتال مثيري الفتن، وذكر

---

(١) الكافي، ج ٨، ص٢٠١.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

ألطافه ﷻ تنزل السكينة في قلوب المؤمنين إزاء المؤامرات واللجاج).

٤ ـ الله هو خير مولى، لأنّه لا يكلنا إلى غيره ولا ينسانا، ولا يريدنا لحاجة في نفسه ولا يضيع أجر أحد، ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾.

٥ ـ نصرة الله خير من أيّ نصير، ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

الجزء (١٠)

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

إشارات:

□ نزلت الآية الكريمة في أولئك الذين حاربوا مع الرسول الكريم ﷺ في يوم بدر، وحقّقوا النصر بتضحياتهم وثباتهم على العقيدة. أولئك الذين أقاموا الصلاة والصيام، وهاجروا وجاهدوا وبذلوا مهجهم في سبيل نصرة الحقّ حتى شربوا رحيق الشهادة، أولئك الذين كان الرسول الكريم ﷺ قد وضع أمله فيهم، أقول: إنّ الآية الكريمة تتحدّث عن هكذا أفذاذ، ولكن مع ذلك، فالله ﷻ يقول في هذه الآية: أيّها المجاهدون البدريّون، إن كنتم تؤمنون بالله ورسوله وبالكتاب، فعليكم أن تؤدّوا خُمس ما غنمتم، أي أنّ شرط الإيمان بالله هو، مضافاً إلى الصلاة والصوم والجهاد، أداء الواجب، وهو الخُمس.

□ ذكرت كل من «غنيمة» و«غرامة» ستّ مرات في القرآن الكريم، فكما إنّ الغرامة لا تقتصر على خسائر الحرب وتشمل مطلق الخسارة المالية، فإنّ مفهوم الغنيمة أيضاً لا ينحصر في دائرة مكاسب الحرب ويتّسع للمنفعة أو المكاسب بصورة عامة. ولذلك لا تختلف مصادر اللغة مثل لسان العرب، وتاج العروس، والقاموس، وكذلك مفسّرو أهل السنّة من أمثال القرطبي، والفخر الرازي، والآلوسي في عموميّة لفظ الغنيمة في اللغة.

وينضمّ إليهم الراغب أيضاً، إذ يقول في مفرداته: إنّ أصل الغنيمة من الغَنَم، ثمّ يقول: ثمّ استعملوه في كلّ مظفور به من العدى وغيره. وفي القرآن الكريم استُعمل لفظ الغنيمة لغير غنائم الحرب كما في الآية الكريمة ﴿فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾[1]، ويقول الإمام علي عليه السلام: «مَن أخذ بها لَحق وغَنم»[2].

- طبقاً لما ورد في الروايات وبحسب عقيدة الشيعة، فإنّ الغنيمة في هذه الآية تعني كلّ مغنم أو مكسب بما في ذلك المكاسب التجارية. والحقيقة أنّ نزول الآية في معركة بدر ليس بدليل على أنّ الخمس مختصّ بغنائم الحرب، ولو كان الأمر كذلك لوجب القول: إنّ حالة خُمس واحدة وردت في هذه الآية، في حين وردت حالات أخرى في الروايات.
- حظي الخُمس في الروايات أيضاً بأهميّة خاصّة، حيث ذهبت إلى أنّ من لم يُخمّس ماله فلا يحقّ له التصرّف فيه وهو عليه حرام.
- لقد أوجب الفقهاء الخمس في سبعة موارد:

١ ـ الربح والكسب والدخل السنوي.
٢ ـ الكنز.
٣ ـ المعادن.
٤ ـ اللآلي التي يحصل عليها الغوّاصون من أعماق البحر.
٥ ـ المال الحلال المخلوط بالمال الحرام.
٦ ـ الأرض التي يشتريها الكافر الذمّي من المسلم.
٧ ـ الغنائم الحربية[3].

- من الواضح أنّ الله تعالى ليس بحاجة إلى الخُمس، لذا، فإنّ سهم الله هو لأجل تحكيم الشريعة الإلٰهيّة وولاية الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، ولأغراض الدعاية وإيصال رسالة الإسلام إلى أسماع العالم، وكذلك من أجل إنقاذ المستضعفين والتصدّي للمفسدين.

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٤.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٠.
(٣) للاستزادة انظر: رسائل توضيح المسائل.

وقد ورد في الروايات عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية فقيل له: فما كان لله فلمن هو؟ فقال: «**لرسول الله صلى الله عليه وآله، وما كان لرسول الله صلى الله عليه وآله فهو للإمام**»[١] وهذه الأسهم الثلاثة توضع في عصر غيبة الإمام تحت تصرّف النواب الخواص أو النواب العوام أعني المجتهد الجامع للشروط والمرجع الديني[٢].

- «ذي القربى»، بشهادة معظم روايات الشيعة[٣]، وبعض روايات أهل السنّة، ليسوا جميع قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله، بل أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين لهم الإمامة والولاية، وأنّ الخُمس يختصّ بالقائد وبالحكومة الإسلاميّة لا بأقارب النبي.

علاوة على الروايات، فإنّ مجيء «ذي القربى» بعد «لله وللرسول» وبخاصّة حرف اللام، دليل على أنّ ذا القربى هم أشخاص معيّنون سائرون على نهج الله ورسوله.

- ورد في الروايات أيضاً، أنّ المصارف الأخرى للخُمس هي المساكين وابن السبيل من السادة من بني هاشم، وذلك لحرمة الزكاة على فقرائهم، لذلك كان يجب سدّ عوزهم وفاقتهم عن طريق الخُمس[٤]. إنّ الشريعة الإسلاميّة ومن أجل القضاء على الحرمان والفقر في المجتمع أوجبت أمرين هما: الأوّل، الزكاة الذي يخصّص لجميع فقراء المجتمع، والثاني، الخُمس الذي يُعطى قسمٌ منه للمحتاجين والفقراء من السادة، ويُشار إلى أنّ إعطاء الخُمس والزكاة للفقراء يكون لما يكفيهم لسنة واحدة لا أكثر.

- سُئل الإمام الرضا عليه السلام: أرأيت إن كان صنف من الأصناف أكثر وصنف أقل ما يصنع به؟ قال: «**ذاك إلى الإمام، أرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله كيف يصنع؟ أليس إنّما كان يعطي على ما يرى؟ كذلك الإمام**»[٥].

(١) تفسير الصافي.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٣) نور الثقلين؛ الكافي، ج ١، ص٥٤٤.

(٤) مجمع البيان؛ سائل الشيعة، ج ٦، الخمس.

(٥) تفسير الصافي.

التعاليم:

١ ـ دفع الخُمس واجب، حتى وإن كان المغنم قليلاً، ﴿غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾.

٢ ـ أما وقد نصركم الله في «بدر»، حريّ بكم أن تؤدّوا حقّ الله ورسوله وأهل بيته عليهم السلام من خمس الغنائم، ﴿غَنِمْتُم... فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾.

٣ ـ الإسلام يعترف للشخصية المعنوية بالملكية، ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾.

٤ ـ القضاء على الفقر والحرمان يقع في صميم برامج الإسلام، وينبغي تخصيص غنائم الجهاد لصالح الفقراء والمحرومين، ﴿وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

٥ ـ الإيمان مدعاة للعمل بما تقتضيه المسؤولية والإيثار، ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُ... إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ﴾.

٦ ـ التخلّي عن المال عسير على الإنسان، وأحياناً على المقاتلين أيضاً، ﴿غَنِمْتُم... إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ﴾.

٧ ـ دفع الخُمس دليل على كمال الإيمان، فبعد استعراض الإيمان والعبادة والهجرة والجهاد يقول عزّ وجلّ: ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُ... إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ﴾، من هنا فإنّ وجوب الخُمس دائمي، لا فصلي أو مؤقّت، وذلك لاشتراط الآية الإيمان.

٨ ـ العبوديّة هي سرّ الانتهال من نمير المعارف الإلٰهيّة، والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو العبد الخالص لله تعالى، ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾.

٩ ـ بركة وجود النبي الكريم صلى الله عليه وآله بين المسلمين مدعاة لاستنزال النصر الإلٰهيّ للمسلمين، ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾.

١٠ ـ بنزول المدد الإلٰهيّ في معركة بدر، تجلّت حقّية الإسلام، ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾؛ فكان مظهراً لقدرة الله تعالى وعظمته، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

إشارات:

□ «**العُدوة**» من «**العَدو**» وتعني في الأصل التجاوز، ولكنّها تطلق على أطراف كلّ شيء وحواشيه لأنّها تتجاوز الحدّ الوسط إلى أحد الجوانب. و«**الدنيا**» من «**الدُنُوّ**» بمعنى الأدنى والأقرب، و«**القُصوى**» و«**الأقصى**» هو الأعلى والأبعد. وهاتان منطقتان في ميدان أرض المعركة في بدر، إذ كان المسلمون في الجانب الشمالي من ميدان الحرب الذي هو أقرب إلى جهة المدينة، وكان الأعداء في الجانب الجنوبي وهو الأبعد، أو يحتمل أن يكون المسلمون في القسم الأسفل في الميدان وكان الأعداء في القسم الأعلى منه وهو يعدّ ميزة لهم.

□ لم يكن تفوّق المشركين في معركة بدر يقتصر على العدّة والعديد والاستعداد الجسمي والمعنويات العالية، بل إنّهم كانوا قد تمركزوا في موقع استراتيجي أعلى محاذٍ للبحر الأحمر ما يسمح لهم بالفرار، لكنّ الله تعالى دفع بالمسلمين إلى مواجهة أمر مقدّر، إذ لم يجدوا مفرّاً من قتال المشركين ودخلوا في معركة لم يخطّطوا لها وهم الذين جاؤوا، في الأصل، للإغارة على قافلة قريش فحسب، فكان أن كتب الله لهم النصر في تلك المعركة الخالدة بلطفه وكرمه.

ملامح معركة بدر

إذا ما رسمنا لوحة لمعركة بدر بالاستناد إلى آيات هذه السورة منذ بدايتها وحتى الآن، يتبيّن لنا بوضوح المدد الإلٰهيّ الذي نزل على المسلمين:

١ ـ في هذه المعركة كان هدف المسلمين الإغارة على قافلة المشركين فقط ولم يكونوا متهيّئين لقتال العدو بأيّ حال، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ «الآية ٧».

٢ ـ عندما اندلعت الحرب، امتعض بعض وبدى أن، ﴿فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ «الآية ٥».

٣ ـ كان بعض منهم يفزع من الموت، ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ «الآية ٦».

٤ ـ اضطرب بعضهم واستغاث آخرون، ﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ «الآية ٩».

٥ ـ أنزل عليهم المطر من أجل تطهيرهم من الأرجاس والأدران وتثبيت الأرض الرملية تحت أقدامهم، «الآية ١١».

٦ ـ لم تكن طاعة المسملين تامّة لقيادتهم، ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ «الآية ٢١».

٧ ـ لقد وُصم تاريخ بعضهم بالخيانة، (كأبي لبابة) «الآية ٢٧».

٨ ـ كان قائدهم عرضة للتهديدات والمؤامرات، ﴿يَمْكُرُ بِكَ﴾ «الآية ٣٠».

٩ ـ لو كان الله قد أوكل الأمر إليهم، لما استطاعوا الوصول إلى توافق بسبب المشاكل الكثيرة التي عصفت بهم، ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ﴾.

مضافاً إلى أمثلة أخرى تشير كلّها إلى أنّ وقوع معركة بدر كانت خطّة إلٰهيّة لإبراز قوّة المسلمين وقدرتهم، وتوجيه ضربة مهلكة إلى معنويات الكفّار والمشركين.

لهذا السبب سمّيت معركة بدر في الآية السابقة بـ«يوم الفرقان»، وذلك لأنّ نزول المدد الغيبي كان من الكثافة والوفرة بحيث برزت الحقيقة خلالها مشرقة وساطعة للجميع، لهذا السبب فإنّ من يتنكّر لها إنّما يفعل ذلك عن عناد ولجاج، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

التعاليم:

١ ـ التذكير بحوادث الماضي والمدد الإلٰهيّ ودراستها أمرٌ ضروري، ﴿إِذْ أَنْتُمْ﴾.

٢ ـ عندما تقتضي المشيئة الإلٰهيّة، ترتفع جميع عوامل الضعف والخلل، ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

٣ ـ انتصار المسلمين في معركة بدر، حجّة واضحة ضدّ الشرك ودليل ساطع على حقيّة التوحيد والإسلام، ﴿لِيَقْضِيَ... لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ﴾.

٤ ـ الهداية والإيمان عن وعي أمر ذو قيمة، كما إنّ الهلاك والضلال عن وعي أمرٌ قبيح للغاية، ﴿لِيَهْلِكَ... عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ... عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

٥ ـ يقوم الإسلام على البراهين والأدلة الساطعة المحكمة، ولا جرم أنّ دين كهذا لهو جوهر الحياة، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

٦ ـ لقد كتب الله النصر للمسلمين سلفاً، وهو ما يفسّر اختلاف المشاهد والقرارات، ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾؛ وهنا يمكن أن نتبيّن بأنّه سميع وعليم، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾

إشارات:

- بعد أن تأتي الآية الكريمة على استعراض ألطاف الله ومدده الغيبي الذي أنزله على المسلمين، تتحدّث عن مسألة مهمّة وهي أنّ الله تعالى أظهر الكفّار قلّة في عيون المسلمين، وقد تمّ ذلك على مراحل عدّة هي: إنّ النبي الكريم ﷺ قد رأى في منامه من قبل أنّ قلّة من المشركين تقاتل، ونقل هذه الرؤيا إلى المسلمين فازدادوا إصراراً وعزيمة على القتال. وفي المقابل أراء المسلمين قلّة في عيون الكفّار لئلا يطلبوا تعزيزات إضافية من مكّة لمحاربة المسلمين، (وقد ذُكر ذلك في الآية اللّاحقة).

كما إنّ عاتكة بنت عبد المطلب عمّة النبي ﷺ قد رأت رؤيا موحشة عجيبة وقد تناقلت الأفواه رؤياها فازداد الناس اضطراباً، فقد رأت قبل ثلاثة أيّام من مجيء رسول أبي سفيان إلى مكّة، أنّ شخصاً يصرخ: أيّها الناس تعجّلوا إلى قتلاكم، ثمّ صعد هذا المنادي إلى أعلى جبل أبي قبيس وأخذ حجراً كبيراً فرماه فتلاشى الحجر في الهواء، ولم يبق بيت في مكة لقريش إلّا نزل فيه منه شيء،

كما إنّ وادي مكّة يجري دماً عبيطاً، فلمّا استيقظت فزعة مرعوبة من نومها وقصّت رؤياها على أخيها العبّاس، ذهل الناس لهول هذه الرؤيا. هذه كانت ملامح من تفاصيل الخطّة الإلٰهيّة لنصرة المسلمين في معركة بدر(١).

- يقول النبي الأكرم ﷺ: **«والرؤيا ثلاث فالرؤيا الصالحة بشرى من الله والرؤيا من تحزين الشيطان والرؤيا مما يحدّث بها الرجل نفسه»**(٢). فرؤيا الأنبياء وأولياء الله هي من القسم الأول، لذلك فهي ذات حجّية. وفي حديث شريف روي عن النبي الأكرم ﷺ قوله: **«رؤيا الصالحين بشارة من الله وهي جزء من أجزاء النبوّة»**(٣).

طبعاً، رؤيا أولياء الله بحاجة إلى تأويل، كرؤيا النبي يوسف عليه السلام سجود الشمس والقمر والنجوم له، وأحياناً تكون الرؤيا بياناً لحكم أو واقعة، وهذه لا تحتاج إلى تأويل مثل رؤيا النبي إبراهيم عليه السلام حول ذبح ولده إسماعيل، أو رؤيا النبي الأعظم ﷺ في هذه الآية.

- هذا وإن رؤيا الأنبياء قبس من شعاع الوحي، وقد ذكر القرآن الكريم في مواضع عدّة رؤى صادقة للنبي إبراهيم عليه السلام والنبي الكريم ﷺ.

التعاليم:

١ ـ لا يجوز نشر المعلومات والأرقام أو الكشف عن نقاط القوّة لدى العدوّ، أو كلّ ما يسبّب الاختلاف بين المسلمين ويضعف معنويّاتهم، لا سيّما خلال احتدام المعارك في جبهات القتال، ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ...﴾، (معنويّات المقاتلين تلعب دوراً حاسماً في تحقيق النصر أو الهزيمة).

٢ ـ الله تعالى يحفظ المؤمنين في أحلك الظروف، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٤، ص٤٤١.

(٣) المصدر نفسه، ج ٦١، ص١٧٧.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

إشارات:

□ عندما تراءى للكفّار أنّ المسلمين قلّة صغيرة قالوا: ما هم إلّا أكلة رأس لو بعثنا عليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد[1]، ولكن عندما بدأت الحرب رأوا أعداد المسلمين وكأنّها تضاعفت أضعافاً كثيرة، فارتعبوا وفزعوا[2].

ويقول الله ﷻ في مكان آخر: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾[3].

التعاليم:

١ ـ التقدير الإلٰهيّ لا يسلب الإنسان إرادته، ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ﴾، ترغيب الفريقين في المنازلة في معركة بدر يشي بأنّ خيار الحرب لم يكن خارج إرادتهم.

٢ ـ المدد الإلٰهيّ نزل على المسلمين قبل أن تبدأ المعركة، ﴿فِي مَنَامِكَ﴾ وأثناءها أيضاً، ﴿يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ...﴾.

٣ ـ أحياناً، حين يشاء الله تعالى نصرة المؤمنين يتحكّم بالأبصار من خلال إعمال الولاية التكوينية، ﴿يُرِيكُمُوهُمْ... فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾.

٤ ـ استفادة الإنسان من حواسّه أيضاً بيد الله تعالى، ﴿فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾.

٥ ـ النصر في المعارك لا يعتمد على العدد والكثرة فقط، بل تحسمه عوامل أخرى من قبيل الإيمان ومعنويات المقاتلين وألطاف الله تبارك وتعالى وتقديراته، (في ضوء مفهوم الآية برمّتها).

---

(١) تفسير الصافي.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ الميزان في تفسير القرآن.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٣.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾

إشارات:

❑ المقصود بالذكر ليس الذكر اللساني فقط، وإنّما الخشوع الباطني والتذكير بألطاف الله ومدده ووعوده، والتذكير بعزّته وعظمته وسطوته، يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام في هذا السياق: «**من أشدّ ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيراً**». ثم قال: «**أما لا أعني سبحان الله والحمد لله... وإن كان منه؛ ولكن ذكر الله عند ما أحلّ وحرّم، فإن كان طاعةً عمل بها، وإن كان معصيةً تركها**»(١).

التعاليم:

١ ـ شرط الإيمان ثبات القدم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ... فَٱثْبُتُواْ﴾.

٢ ـ نحن مكلّفون بالثبات في الجبهات، ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾، ولكن حتى هذا الثبات يجب أن ندعو الله تعالى أن يمنحنا إيّاه، ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾(٢).

٣ ـ جبهة المسلمين يجب أن تكون معطّرة بذكر الله، وكلّما زادت المعضلات، اشتدّت الحاجة إلى ذكر الله تعالى، ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

٤ ـ لا يكفي ذكر الله، بل الإكثار من الذكر، ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، فإذا لم يُذكر الله كثيراً عندما يشتدّ وطيس المعارك والحوادث المهمّة في الجبهات، كان احتمال الجنوح عن الهدف والعمل والأسلوب أكبر.

٥ ـ في جبهات القتال، يجب أن يحلّ ذكر الله تعالى محلّ ذكر الزوجة والأبناء، والأموال... إلخ، ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾.

يقول الإمام السجاد زين العابدين عليه السلام في دعائه لأهل الثغور: «**أللهمّ صلّ**

---

(١) بحار الأنوار، ج ٩٠، ص١٦٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٠.

على محمد وآله وأنسهم عند لقائهم العدوّ ذكر دنياهم الخدّاعة الغرور، وامحُ عن قلوبهم خطر المال الفتون، واجعل الجنّة نصب أعينهم»[١].

٦ ـ الثبات وذكر الله هما سرّ الانتصار في المعارك، والفلاح الخالد، ﴿فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا... لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٧ ـ ميادين القتال والجبهات واحدة من مراكز الفلاح، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

إشارات:

- أشارت الآية السابقة إلى عاملين من عوامل انتصار المؤمنين وهما **«الثبات»** و**«ذكر الله»**، وهنا تطرح الآية الكريمة عامل الطاعة والوحدة، ذلك أنّ الآية السابقة ذكرت ثبات القدم كناية عن عامل جسمي وظاهري، أمّا هنا فتذكر الصبر كعامل باطني وروحي.
- **«الريح»** تعبير عن القوّة والهيبة، كالريح التي تجعل العلم يهتزّ خفّاقاً، دلالةً على الثبات والزهو والعظمة. وإذا ذهبت هذه العظمة نتيجة للاختلافات والنزاعات، فستحلّ محلّها الذلّة والهوان. تماماً كما لو أفرغت دواليب السيارة أو الكرة من الهواء الموجود فيها، فإنّ الكثير من الأسفار، والرحلات، والألعاب الرياضية سوف تتعطّل.
- الوحدة واجتناب الاختلاف والفُرقة هي من الأوامر الإلٰهيّة الأكيدة الواردة في العديد من الآيات، والتي ينبغي العمل بها في جميع المجالات، لا سيّما في أوقات الحرب والنزاعات المسلحة مع العدو إذ تكون أكثر إلحاحاً، وقد أثنى الله تبارك وتعالى في سورة الصفّ على مسألة الاتحاد والنظام ورصّ صفوف المجاهدين، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[٢].

---

(١) الصحيفة السجّادية، الدعاء ٢٧. (٢) سورة الصفّ: الآية ٤.

التعاليم:

١ ـ يجب أن ينطلق الجهاد تحت إمرة قائد المسلمين ويحكم من الله ورسوله (أو خليفته الحقيقي)، ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا... وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

٢ ـ الشريعة والقائد الإلٰهيّ يشكّلان محور الوحدة، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ (﴿وَأَطِيعُوا﴾ إشارة إلى الشرائع الإلٰهيّة، و﴿وَرَسُولَهُ﴾ إلى القائد الإلٰهيّ).

٣ ـ النزاعات تجعل باطنكم خواء وظاهركم بلا عزّة وإباء، ﴿فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (كم من مصائب وهزائم تجرّعها المسلمون بسبب تركهم العمل بهذه الآية)!

٤ ـ فلنتمسّك بالطاعة والوحدة، وإذا وُجدت أو حصلت أشياء بعكس ما نشتهي، فلنتصبّر ونتحمّل بعضنا، ﴿وَاصْبِرُوا﴾.

٥ ـ الإيمان بأنّ الله تعالى مع الصابرين، يسوق المرء نحو الصبر والثبات، ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

٦ ـ نصرة الله ومدده ينزلان على الصابرين، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

إشارات:

- لما أفلت أبو سفيان بالقافلة التجارية من قبضة المسلمين، ورجع إلى مكّة سالماً، أرسل إلى أبي جهل أن قد رجعنا إلى مكّة بسلام فارجعوا إن كنتم جئتم لنصرتنا، فتملّك أبا جهل الغرور وركب رأسه قائلاً: لا نرجع حتى نبيدهم عن بكرة أبيهم ونشرب نخب انتصارنا عليهم، لكنّ الله تعالى شاء أن يذوق أبو جهل مرّ الهزيمة في تلك المعركة ويشرب كأس الموت الزؤام.

- توجز الآيتان السابقتان مع هذه الآية أسباب النجاح في عوامل عدّة هي: ثبات القدم وذكر الله، وطاعة القائد، واجتناب الاختلافات، والصبر، وعدم الاغترار وترك الرياء وحبّ الدنيا.

التعاليم:

١ ـ الغرور والرياء من آفات القوّة في جبهات الحرب، ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾.

٢ ـ الفرق الأساس بين الحروب الإسلاميّة وغير الإسلاميّة هو في طبيعة الهدف. فهدف المسلمين منها هو رفع الفتنة (الآية ٣٩ من هذه السورة)، أمّا أهداف الآخرين فهو الوصول إلى السلطة والقدرة، ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾.

٣ ـ وأنت تعتزم الذهاب إلى الجبهة، عليك أن تُخلص النيّة وتتجنّب التظاهر والرياء، ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾؛ (صحيح أنّ سياق الآيات يتعلّق بموضوع معركة بدر، إلّا أنّ مفهومها عام يشمل جميع المنافقين الذين يتواجدون في الجبهات لأغراض الرياء والتظاهر وبثّ الشائعات وإضعاف الروح المعنوية للمقاتلين).

٤ ـ تسعى جبهة الباطل إلى سدّ منافذ الحقّ وصدّ الحركة المعنوية الإلٰهيّة في المجتمع، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ فليعلم الأعداء أنّهم مهما حاولوا الوقوف بوجه الله فلن يخرجوا من دائرة سطوته وحكومته، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾

إشارات:

- كلمة «**جار**» تعني المعين، والمجير، والشريك، والمجاور للدار، والحليف، والمعنى الأوّل هو الأنسب هنا. «**نَكَص**» تعني الإحجام والرجوع القهقرى، و«**عَقِب**» هو كعب الرجل، والمراد بـ «**نكص على عقبيه**» هو أنّه دار على كعبيه وأعطى ظهره.

- قد يكون المقصود بخطاب الشيطان لأتباعه في هذه الآية هو وساوسه، أو أنّه

يحقّق أهدافه وهو في صورة إنسان، فيقوم بالإغواء والوسوسة، ولدينا شواهد من الروايات على ذلك[١].

لمّا اجتمعت قريش للمسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر بن عبد مناف بن كنانة من الحرب وكاد ذلك أن يثنيهم فجاء إبليس في جند من الشياطين فتبدّى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جشع مال كناني ثم المدلجي وكان من أشراف كنانة وقال: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم أي مجيركم من كنانة، فلما رأى إبليس الملائكة نزلوا من السماء وعلم أنّه لا طاقة له بهم نكص على عقبيه، عن ابن عباس والسدي والكلبي وغيرهم، وقيل: إنّهم لما التقوا كان إبليس في صفّ المشركين آخذاً بيد الحارث بن هشام فنكص على عقبيه فقال الحارث: يا سراقة أتخذ لنا على هذه الحال؟ فقال: إنّي أرى ما لا ترون فقال: والله ما نرى إلا جعاسيس يثرب، فدفع في صدر الحارث وانطلق وانهزم الناس، فلما قدموا مكة قالوا: هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فقالوا: إنّك أتيتنا يوم كذا فحلف لهم، فلمّا أسلموا علموا أنّ ذلك كان الشيطان.

□ يلجأ الشيطان إلى الدعاية الإعلامية لصالح جبهة الباطل، إذ يرفع من معنويّاتهم في بداية المعركة، ثمّ عندما يشهد نزول المدد الإلٰهيّ يتركهم وينسحب.

التعاليم:

١ ـ واحد من الأساليب التي يتّبعها الشيطان في الإغواء، تزيين القبائح، ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ نعم، إنّ تصويب الأعمال القبيحة والانحرافات دليل على نفوذ الشيطان في أفكار الإنسان.

٢ ـ الشيطان والمتشيطنون يبرّرون للآخرين الفساد ويزيّنونه لهم، ﴿زَيَّنَ... لَا غَالِبَ... جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾.

٣ ـ الإيمان يستتبع مدد الملائكة ودعمهم، أمّا الكفر فيستتبع دعم الشيطان، ﴿جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان؛ تفسير نور الثقلين.

٤ ـ الشيطان منافق ومخادع وكذّاب وغادر، ﴿جَارٌ لَّكُمْ... بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾.

٥ ـ الشياطين تقدح شرر الفتن والمعارك، لكنّها تتحاشى الدخول فيها، ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾.

٦ ـ التوكّل على غير الله هو سبب إيكال الإنسان إلى نفسه في الملمّات، ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ... إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾.

٧ ـ العلاقات غير الإلٰهيّة تكون مهزوزة وغير موثوقة، ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾.

٨ ـ الشيطان مطّلع على قدرات الملائكة، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ لذلك، حين رأى قدرة الملائكة نكص وتراجع، ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾.

٩ ـ يستطيع الشيطان مشاهدة بعض خبايا الأمور، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾.

١٠ ـ الشيطان يؤمن بالله وبشديد عذابه، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وقد ورد في الرواية عن ابن عبّاس أنّ إبليس كان يكذب في دعواه الخوف من الله، فلو كان يخاف حقّا لما وصل الأمر إلى ما وصل إليه[1].

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

إشارات:

- المنافقون وضعاف الإيمان ممّن لا يؤمنون بالنصرة الإلٰهيّة، كانوا يظنّون أنّ المسلمين مخدوعون، إذ لم يكن يخطر ببالهم أنّهم سينتصرون على الرغم من قلّة عددهم وعدّتهم.

التعاليم:

١ ـ عليل السريرة تجده في خندق واحد مع المنافقين، ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

(١) تفسير «الاثني عشري».

٢ ـ يعتقد المنافقون أنّ المسلمين مغرّر بهم ومغرورن. (فهم يقولون: هل من المعقول أن يحاربوا بهتاف «الله أكبر» وبصدور عارية؟! هل من المعقول...)، ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾؟

٣ ـ الميول والرؤى تترك تأثيراً على طبيعة تصوّرات الإنسان. إذ يمكن بناء تصوّرات عدّة عن عمل واحد، فهذا يعتقد أنّه يتوكّل على الله، وذاك يعتقد أنّه مغرّر به ومغرور، ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ... وَمَن يَتَوَكَّلۡ﴾.

٤ ـ التوكّل على الله شيء، والغرور شيء آخر، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ...﴾ (التوكّل على الله في معركة بدر كان عامل النصر).

٥ ـ يجدر التوكّل على من لا يُقهر، وتتّصف جميع أعماله بالحكمة، ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾؛ (قدرة الله مقرونة بالعزّة والحكمة).

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٥١﴾

إشارات:

- لقد ذكر القرآن الكريم في آيات عدّة مسألة شدّة احتضار الكافر، منها الآية ٢٧ من سورة محمّد، والآية ٩٣ من سورة الأنعام، وذلك في مقابل سهولة احتضار المؤمن كما ورد في الآية ٣٢ من سورة النحل ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.
- «**يتوفّى**»، بمعنى يستوفي، والقرآن الكريم يقول: نحن نتوفّى الكافر بينما يبقى جسده في الدنيا، أي يتمّ استيفاء الروح، وفي هذا دلالة على أنّ حقيقة الإنسان تتلخّص في الروح، فما دام الإنسان حيًّا، في جسمه روح، وبعد الموت تفارق الجسم، فيفنى وتبقى هي.

التعاليم:

١ ـ الله تبارك وتعالى بتعذيبه الكفّار يسرّي عن النبي والمؤمنين، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ...﴾.

٢ ـ الملائكة تميّز المؤمنين من الكافرين، ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

٣ ـ العذاب الأخروي الإلٰهيّ للكافرين يبدأ مع لحظة توفّيهم، ﴿إِذْ يَتَوَفَّى... يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾.

٤ ـ العذاب يشمل عالم البرزخ أيضاً، ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

٥ ـ العقوبات الإلٰهيّة ليست انتقاماً إلهياً بل هي جزاء ما اقترفه الإنسان، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ...﴾.

٦ ـ ظلم شخص واحد، هو ظلم لجميع الناس، ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ (أقلّ الظلم من الله هو ظلم عظيم والله تعالى منزّه عن ذلك).

٧ ـ العذاب الإلٰهيّ يستند إلى العدل، ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ أحياناً يغدو الكفر واللجاج عادة لبعض، وفي هذه الحالة يستحقّ نزول العذاب، ﴿كَدَأْبِ﴾.

٢ ـ جميع الأمم متساوية عند الله، ومن يجنح منها نحو الكفر والضلال، أنزل عليها العذاب، ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ... فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾، إنّ سنّة الله في معاقبة الكفّار ثابتة، وعذاب المشركين في معركة بدر لم يكن حكماً خاصّاً.

٣ ـ المعصية سبب العذاب الإلٰهيّ، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

٤ ـ الله تبارك وتعالى لا يُعجزه أن يعذّب الكافرين، بل إنّ كلّ الأمم (مثل فرعون القوي والمشركين الضعفاء) عاجزة أمام عذاب الله وغضبه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

إشارات:

□ ورد في أحاديث عدّة أنّ عوامل كثيرة تؤدّي إلى تغيير النعم الإلٰهيّة مثل الإقامة على الظلم والمعاصي، أمّا العودة عن المعصية والانحراف والحركة في مسير الحقّ، فتؤدّي إلى نزول أنواع النعم الإلٰهيّة[1].

والحقيقة، أنّ ارتكاب المعاصي والظلم تسلب الإنسان استحقاقه في التمتّع بالألطاف الإلٰهيّة. ويشير الإمام علي عليه السلام إلى هذا الأمر في الخطبة القاصعة، وكذلك نقرأ في دعاء كميل: «**اللّهم اغفر لي الذنوب الّتي تهتك العصم... اللّهم اغفر لى الذّنوب الّتي تغيّر النّعم...**»[2].

□ وفي كتابه إلى مالك الأشتر، يقول الإمام علي عليه السلام: «**وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامةٍ على ظلم، فإنّ الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد**»[3].

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**تعوّذوا بالله من سطوات الله بالليل والنهار**»، قيل: وما سطوات الله؟ فقال: «**الأخذ على المعاصي**»[4].

التعاليم:

١ ـ زوال النعم هو نتيجة لأفعالنا، وإلّا فإنّ سنّة الله تقضي باستمرار النعم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً... حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

٢ ـ الله تبارك وتعالى يهب النعم ويرفعها طبقاً لسنّته وحكمته، ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً... حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا﴾.

٣ ـ لقد سبقت رحمة الله نقمته، ﴿أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.
(٢) مصباح المتهجد وسلاح المتعبد، ج٢، ص ٨٤٤.
(٣) نهج البلاغة، الرسالة٥٣.
(٤) الكافي، ج ٢، ص٢٦٩.

٤ ـ مضافاً إلى العقوبات الفردية، العقوبات الاجتماعيّة أيضاً لها شرائع وقوانين في الإسلام، ﴿عَلَىٰ قَوۡمٍ﴾.

٥ ـ تقوم فطرة الإنسان على الإيمان والطُّهر، لكنّه هو الذي يقوم بتغييرها، ﴿يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾.

٦ ـ الإنسان هو الذي يصنع التاريخ، وليس الاقتصاد أو حتميّة التاريخ أو البيئة تصنع الإنسان، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ...﴾، طبعاً دون أن نغضّ الطرف عن تأثير البيئة والاقتصاد، ولكن ما نريد قوله هو أنّ الدور الرئيس هو لإرادة الإنسان، وليس لأيّ من هذه العوامل أن تجبر الإنسان على فعل ما.

٧ ـ الأفراد هم الذين يشكّلون المجتمع، وأيّ تحوّل إيجابي أو سلبي في المجتمع ينبثق عن التحوّل الفكري والثقافيّ لأفراده، ﴿قَوۡمٍ... يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾.

٨ ـ سعادة الأمم وشقاؤها رهن بالتحوّلات الداخليّة فيها، لا السلطة أو الثروة، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾.

٩ ـ عند دراستنا للمجتمعات، تكون معنويات الأفراد هي المحور لا الحظ أو الخرافات، أو النظم الحاكمة أو حتميّة التاريخ... إلخ، ﴿يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾.

١٠ ـ جميعنا في عين الله، وعذاب الكفّار يستند إلى علم الله المحيط، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٥٤﴾

إشارات:

□ هذا التعبير ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ مكرّر، إذ ورد في الآية قبل السابقة، لكنه تكرار لا يتعارض مع البعد البلاغي للآية، وذلك لاختلاف المواضع. فالآية السابقة تتحدّث عن العذاب الإلٰهيّ للظالم، وهنا عن تغيير النعم بسبب تغيّر

حال الناس. طبعاً، ربّما يكون المقصود في الآية السابقة العذاب الأخروي وهنا العذاب الدنيوي.

التعاليم:

١ ـ علينا استلهام العبر والدروس من سيرة الماضين، ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾.

٢ ـ التكذيب بآيات الله مدعاة لهلاك الإنسان، ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم﴾.

٣ ـ للإنسان حريّة الاختيار، ومصيره رهن عمله، ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

٤ ـ الظلم والمعصية سبب نزول العذاب الإلهيّ، سواء أكان ظلماً للنفس أم للآخرين أم للأنبياء والدين، ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ... كَانُوا ظَـٰلِمِينَ﴾.

٥ ـ بعض الصعاب والشدائد وحوادث الدنيا وزوال النعم هي بسبب معاصي الإنسان، ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾.

٦ ـ التكذيب بآيات الله وارتكاب المعاصي ظلم، ﴿كَذَّبُوا... كَانُوا ظَـٰلِمِينَ﴾.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾

إشارات:

□ في الآية ٢٢ كان المراد بـ «شرّ الدّوابّ» هم الذين لا يعقلون، والمقصود هنا هو أولئك الكافرون الذين لا يؤمنون. لذا، يتبيّن من ذلك أنّ جذور الكفر تعود إلى عدم التعقّل الصحيح. يربط القرآن الكريم قيمة الإنسان وفضله بالعقل والإيمان، فإذا لم يعقل أو كفر، فقد أخرج نفسه من دائرة الإنسانية. الإنسان الحقيقي هو الذي يعقل ويؤمن.

إذن، فالكافر الذي يدرك الحقّ لكنّه لا يؤمن به، هو عند الله أحطّ المخلوقات حتى وإن كان له شأن بين الخلق.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾

إشارات:

□ كانت معاهدة النبي الكريم ﷺ مع اليهود تقضي بعدم مساعدة هؤلاء للمشركين، وعدم إيذائهم المسلمين، لكنّهم نقضوا عهدهم ونصروا المشركين بأن أمدّوهم بالأسلحة والتجهيزات في معركة الخندق.

□ ورد في الرواية: **«ثلاثٌ من كنّ فيه كان منافقاً وإن صام وصلّى وزعم أنّه مسلم؛ من إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف»**[1].

التعاليم:

١ ـ قائد المسلمين له صلاحية عقد المعاهدات مع الكفّار، ﴿عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾، كما هو الحال مع النبي الأكرم ﷺ الذي كان يعقد المعاهدات مع الكفّار، وإن كان بعضهم لا يلتزم بها، ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾.

٢ ـ نقض المعاهدات لا يشكّل مانعاً من عقد معاهدات جديدة، ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾.

٣ ـ نقض العهود لا ينسجم مع مفهوم الإنسانية، ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ... يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾.

٤ ـ الكفر مدعاة لنقض العهود، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا... يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾.

٥ ـ نقض العهود سببه عدم الورع والتقوى، ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ... وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾.

٦ ـ الخطر الأكبر يأتي ممّن أصبح نقض العهد لهم عادة ونهجاً، وبالتالي لا يرون ضيراً في ذلك، ﴿يَنقُضُونَ... فِى كُلِّ مَرَّةٍ... لَا يَتَّقُونَ﴾.

---

(١) الكافي، ج ٢، ص٢٩٠.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

إشارات:

□ **«ثقف»**، تعني بلوغ الشيء بدقّة وسرعة، وفيها إشارة إلى وجوب التنبّه في التعامل مع الكفّار.

□ **«تشريد»**، بمعنى التفريق المقرون بالاضطراب، أي ينبغي أن يكون الهجوم على الكفّار بشكل تتفرّق معه المجموعات الأخرى من الأعداء ممّن يساندهم خلف الجبهات لتلقي في قلوبهم الرعب بحيث لا يفكّرون بالهجوم عليكم مرّة أخرى.

التعاليم:

١ ـ يجب أن يكون تصدّيكم للأعداء مباغتاً وسريعاً ودقيقاً وصاعقاً. وهذه هي من أهمّ مبادئ الحرب والقتال، ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ... فَشَرِّدْ بِهِم﴾.

٢ ـ لا بدّ للقائد من أن يمتلك بصيرة ورؤية واسعة بحيث لا يغفل عن دسائس المتآمرين، وأن يتّخذ القرارات الصحيحة والحاسمة بالتصدّي لهم، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾.

٣ ـ ينبغي أن لا نكتفي بالدفاعات التقليدية الأمامية للجبهة، بل علينا أن نأخذ بالاعتبار الدفاعات الخلفية للعدوّ والقائمين على الخطط، ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، كما هو الحال مع قيادة السيارة، إذ يقتضي الأمر ألّا نركّز نظرنا على المشهد القريب، بل علينا أن ننظر إلى المشاهد البعيدة أيضاً.

٤ ـ عقوبة من ينقض العهود ويعرّض أمن المجتمع واستقراره للخطر أن يُسلب استقراره ويعيش في هلع واضطراب، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾.

٥ ـ الإسلام هو دين الرأفة والرحمة، ولا شكّ في ذلك، إلّا أنّه، في الوقت ذاته، لا يتسامح مع الخيانة، ونقض العهود، والإخلال بالنظام والأمن، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾.

٦ ـ لا بدّ من المحافظة على هيبة المجتمع المسلم ومهابته، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾.

٧ ـ يجب ردع الكفّار لئلا يفكّروا في معاودة الهجوم علينا، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾.

٨ ـ الإسلام دين الدعوة والموعظة، لكنّه أيضاً دين القدرة والتصدّي بحزم لناكثي العهود والمشاغبين، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾، لذا ينبغي أن يكون تعاملنا مع الخطوط الأمامية حازماً ليكون درساً وعبرةً للآخرين، ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

إشارات:

- «**فانبذ إليهم**» من «**نبذ**»، بمعنى الإلقاء أو الإعلام والردّ، والمراد أعلن أوّلاً عن ردّ عهودهم ثمّ نفّذ ذلك، لئلا يُفاجأوا، وكذلك كيلا تكونوا غدرتم بهم.
- «**على سواء**»، إمّا بمعنى المعاملة بالمثل، أي كما إنّهم نقضوا العهد بأعمالهم التي اقترفوها، فألغِهِ أنت من جهتك أيضاً، فهذا حكم عادل، يتساوى وما فعلوه، أو بمعنى الإعلان عن ذلك بأسلوب واضح وصريح لا لبس فيه ولا خدعة[1].
- إذن، مقصود الآية الكريمة هو، أنّه في حال ظهور شواهد وقرائن على خيانة العدو، فيجب توجيه ضربة استباقية لهم من خلال إلغاء المعاهدة.

التعاليم:

١ ـ بالنسبة إلى القضايا العسكرية والاجتماعيّة الحسّاسة، لا ننتظر حدوث الخيانة، ولكن مع ذلك يجب أن نتحسّب أيضاً للاحتمالات المنطقية في الخيانة، ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ... خِيَانَةً﴾.

٢ ـ الإسلام يتمسّك بالعقود والمعاهدات التي يبرمها، والوفاء بها واجب ما لم يُحتمل وجود خيانة، ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ... خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾.

٣ ـ تقدير القرائن والشواهد الخاصة بالخيانة واتّخاذ القرار بإلغاء العقود

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ الميزان في تفسير القرآن.

والمعاهدات كلّ ذلك من صلاحيات قائد المجتمع الإسلامي، ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾؛ (لاحظ أنّ الخطاب موجّه إلى النبي الكريم ﷺ لا إلى الأمّة الإسلامية).

٤ ـ لا بدّ من التمسّك بالمعاهدات طالما لا توجد أمارات على الخيانة، وفي غير هذه الحالة يجب اللّجوء إلى خيار الإلغاء، ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾.

٥ ـ إن كنتم تخشون خيانة العدوّ، فالحل ليس في الغدر، بل في إلغاء المعاهدة والإعلان عن ذلك، ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾.

٦ ـ يجب مراعاة العدل والإنصاف حتى مع العدوّ، ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ تعني بالعدل[1].

٧ ـ إلغاء المعاهدة من باب المعاملة بالمثل، أمرٌ عادل، ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾.

٨ ـ الخيانة محرّمة وقبيحة أيّاً كان مرتكبها كافراً أم مسلماً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

٩ ـ إعلان الحرب على من تربطنا بهم معاهدات ومواثيق، خيانة، ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

١٠ ـ لا يجوز أن نسبق السنن الإلٰهيّة، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ... سَبَقُوٓاْ﴾.

١١ ـ لا بدّ للمسلمين من الإمساك بزمام المبادرة لئلّا يظنّ الكفّار أنّ لهم السبق عليكم، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ﴾.

١٢ ـ لن يحقّق الكافرون أهدافهم بالخيانة، ﴿لَا يُعْجِزُونَ﴾.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾

إشارات:

□ تطلق هذه الآية دعوة استنفار للمسلمين ليتعبّأوا في مواجهة الأعداء من خلال

---

(١) الميزان في تفسير القرآن.

الاستعداد وتجهيز أنفسهم بجميع أنواع الأسلحة والإمكانات والوسائل والأساليب الدعوية وحتى بالشعارات والأناشيد، حيث إنّ تطبيق هذه الأوامر يدخل الرعب في قلوب الأعداء من القوّة القتالية للمسلمين.

- روي أنّ النبي الأكرم ﷺ بلغه أنّ سلاحاً جديداً مؤثّراً صنع في اليمن أيّام معركة حنين، فأرسل فوراً جماعة إلى اليمن لشرائه. ونقل عنه ﷺ قوله: «**إن الله يدخل ثلاثة نفر الجنّة بسهمٍ واحد صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي ومنبله**»[١].
- لقد أجاز الإسلام سباقات الرماية والفروسية، كما أجاز الربح والخسارة فيها، وذلك من أجل الاستعداد القتالي لدى المسلمين.
- مرجع الضمير في «**لهم**» هو الكفّار والذين ذكروا في الآية السابقة ممّن يُخشى خيانتهم. والمعنى هو، يجب الاستعداد في مقابل العدو الذي تحتملون خيانته حتى في إطار العهود والمواثيق.

التعاليم:

١ ـ ينبغي على المسلمين أن يتعبّأوا للقتال على صعيد التجهيزات والعدد والعدّة... إلخ، وأن يكونوا على أهبة الاستعداد لمواجهة خيانة الأعداء أو حملاتهم، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾.

٢ ـ الهدف من التعبئة العسكرية هو صيانة الدين والوطن والمسلمين، لا الإغارة أو الفتوحات والاستعمار... إلخ، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم...﴾.

٣ ـ يجب على الدولة أن لا تألو جهداً في تخصيص الميزانيات الدفاعية لحماية النظام الإسلامي، وإرهاب أعداء الله، ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم﴾.

٤ ـ لا بدّ لجميع المسلمين من أن يتعبّأوا لمواجهة دسائس العدوّ ومؤامراته، وأن يتلقّوا التدريبات العسكرية لهذا الغرض[٢]، ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم﴾.

---

(١) تفسير الفرقان.

(٢) أعلن الإمام الخميني (ره) عن جيش من عشرين مليون بعد انتصار الثورة يوم كان عدد سكان إيران ٣٠ مليون.

٥ ـ لا نرتجي دائماً من المباحثات والحوار خيراً، فقد تضطرّنا الظروف أحياناً إلى اللّجوء إلى القوة، ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾.

٦ ـ في كلّ عصر لا بدّ من توفير أحدث الإمكانات القتالية الدفاعية، وأن لا نستثني أيّ شيء، بما في ذلك القوّة السياسيّة أو العسكرية أو الإمكانات الدعائية والإعلامية واللوجستية، ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾.

٧ ـ يجب أن لا نتورّع عن استخدام أيّ وسيلة لإدخال الرعب في قلوب الأعداء، بما في ذلك الممارسات الظاهرية، ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾، فقد ورد في قوله ﷺ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾؛ الحديث الشريف: «منه الخضاب بالسواد»، لئلا يقول الأعداء إنّ مقاتلي الإسلام من الشيوخ وكبار السنّ[1].

٨ ـ حتى تعليم فنون القتال للنساء يصبح ضرورياً إذا كان الهدف إرهاب العدوّ، ﴿مِّن قُوَّةٍ... تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾.

٩ ـ لا تقنعوا بإمكاناتكم الراهنة، وعليكم أن تدفعوا بالاستعدادات العسكرية والدفاعية إلى حدّ تهديد الأعداء، ﴿مِّن قُوَّةٍ... تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾.

١٠ ـ الوحدة والاتحاد نوع من القوّة، لأنّه لا يمكن إرهاب العدوّ بالفُرقة، ﴿مِّن قُوَّةٍ... تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾.

١١ ـ الجميع جنود تحت لواء الإسلام، والتعبئة الشعبيّة ضرورية، ﴿وَأَعِدُّوا... تُرْهِبُونَ... وَمَا تُنفِقُوا...﴾.

١٢ ـ الخيول الحربية في ذلك العصر، والتجهيزات العسكرية في عصرنا يجب أن تكون في حالة استنفار واستعداد، ﴿رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾.

١٣ ـ جهوزية القوّة البشرية والمعدّات العسكرية، كلاهما لازمان، ﴿مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾.

١٤ ـ يجب أن يكون للإسلام نظام وحكومة، فبدون ذلك لن يرتعب الأعداء، ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

١٥ ـ يجب تقوية البنية الدفاعية للمسلمين في المجالات الثقافيّة، والاقتصادية، والسياسيّة، والعسكرية، والعقدية... إلخ، من أجل أن يرتعب العدو على كلّ صعيد، ويُقضى على مؤامراته ودسائسه، (﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ جاء في صيغة مطلقة).

١٦ ـ يجب المحافظة على القيم الإلٰهيّة والحقوق الإنسانيّة في آنٍ معاً، ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

١٧ ـ الإسلام يهتمّ بالعقيدة والكرامة الإنسانيّة لا بالأهداف الشخصيّة والعنصرية والقومية، ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾.

١٨ ـ ليس كلّ الأعداء معروفين ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾، ربّما كان المقصود المنافقين، ذلك لأنّ العبارة نفسها استعملت في شأنهم في سورة أخرى، ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[1].

١٩ ـ لا تنشغلوا بالتصدّي للأعداء الظاهريين فقط، بل يجب التحوّط للأعداء المسترين راهناً وآتياً، ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾.

٢٠ ـ تأمين القوة الدفاعية تحتاج إلى نفقات، فالشعارات والمواعظ وحدها لا تكفي، ﴿تُنفِقُوا﴾.

٢١ ـ على الشعب أن يساهم في المجهود الحربي وتأمين نفقات الجبهات، ولا يختصّ هذا بأوقات الحرب فقط، ﴿وَمَا تُنفِقُوا...﴾؛ (صيغة الآية مطلقة وتعني أنّه يجب على المسلمين دائماً أن يرصدوا المبالغ للمحافظة على استعدادهم).

٢٢ ـ لا يكفي توفّر الأسلحة والأفراد، بل ينبغي توفّر الدعم المالي، ﴿وَمَا تُنفِقُوا﴾.

٢٣ ـ إرسال المساعدات إلى الجبهات بكلّ الوسائل واجب، بالأموال، والأنفس، والجاه، والمعلومات، والقلم... إلخ، ﴿مِن شَيْءٍ﴾.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠١.

٢٤ ـ أيّ جهد، أو إنفاق، أو تسخير للإمكانات من أجل تقوية البنية العسكرية للحكومة الإسلاميّة يعتبر من أمثلة الإنفاق في سبيل الله تعالى، ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٢٥ ـ يعود الإنفاق بالخير والبركة على صاحبه شرط أن يكون في سبيل الله تعالى، لا طلباً للرياء، أو السمعة، أو التظاهر، أو بسبب العلاقات والاعتبارات الأخرى، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٢٦ ـ المساعدات المالية هي عامل اقتدار الأمّة، ونتيجتها ستعود على الشعب والوضع الاقتصادي للمجتمع وعزّة المسلمين، ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾.

٢٧ ـ إغماط حقوق الآخرين وعدم دفع رواتبهم ومكافآتهم بصورة كاملة، ظلم، ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)﴾

إشارات:

□ كتب الإمام علي عليه السلام إلى عامله مالك الأشتر قائلاً: «**لا تدفعنّ صُلحاً دعاك إليه عَدوّك ولله فيه رضا فإنّ في الصلح دعة لجنودك وراحةً من همومك وأمناً لبلادك، ولكن الحذَر كل الحذَر من عدوّك بعد صُلحِه، فإنّ العدوّ ربّما قارب ليتغفّل**»[1]!

التعاليم:

١ ـ لن يجنح العدوّ للسّلم ما لم يكن المسلمون في أوج قوّتهم، ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾.

٢ ـ الإسلام ليس طالب حرب، ﴿وَإِن جَنَحُوا... فَاجْنَحْ﴾.

٣ ـ قرار الحرب والقبول بالصّلح هو من صلاحيات النبي وقائد المجتمع المسلم.

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

الآية تقول: ﴿فَٱجۡنَحۡ﴾ لا: «فاجنحوا».

٤ ـ لا يجوز استغلال حالة القوّة والاقتدار لإملاء الشروط، ﴿فَٱجۡنَحۡ﴾.

٥ ـ إذا ما قبلتم باقتراح الصلح، توكّلوا على الله، ﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ﴾.

٦ ـ اعلموا أنّه في قبولكم لاقتراح الصلح قد تبرز احتمالات الخطر والتآمر، أو ملامة بعض الأصدقاء، ولكن في كلّ الأحوال يجب التوكّل على الله تعالى، ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ الإيمان بأنّ لله سمع مطلق وعلم شامل، يدعو الإنسان إلى التوكّل عليه، ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

إشارات:

- إذا أردنا تفسير هذه الآية فيجب أن نضعها إلى جانب الآية ٥٨، ليكون المعنى، إذا أيقن القائد الإسلامي من خلال الشواهد والقرائن بأنّ العدوّ يدبّر لخدعة في إطار تقديمه مقترحَ الصلح، فله أن يتصرّف بشكل آخر، ولكن إذا احتمل حسن نيّته فيجب أن يُقدم على الصلح ولكن مع توخّي الحذر والاحتياط.

- فسّرت بعض الروايات مفهوم النصرة الإلٰهيّة في هذه الآية بمساندة الإمام علي عليه السلام وتأييده النبيَّ الكريم صلى الله عليه وآله. فقد جاء في كتاب ابن عساكر عن أبي هريرة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله في حديث قدسي: «**أنا الله الذي لا إله إلّا أنا وحدي لا شريك لي، محمّد عبدي ورسولي، أيّدته بعليّ**»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، «**فكان النّصر عليّاً**»[1].

---

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج ٣، ص١٩٩؛ ملحقات إحقاق الحقّ، ج ٣، ص١٩٤؛ بحار الأنوار، ج ٢٧، ص٢.

التعاليم:

١ ـ على قائد المجتمع المسلم أن يقبل بعرض الصلح الذي يقدّمه العدوّ حتى لا يقال عن المسلمين: إنّهم طلّاب حرب، ولكن مع توخّي الحذر لئلا يكون في الأمر مكيدة، ﴿وَإِن جَنَحُوا... فَاجْنَحْ... وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ﴾؛ (بمعنى إذا كان ثمة احتمال للخديعة).

٢ ـ إذا كان الناس يقظين، وشملهم الله تعالى بلطفه، فسيتمّ دحر كلّ مؤامرات الأعداء، ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾.

٣ ـ إذا قمنا بمسؤوليّاتنا على أتمّ وجه، فلا ينبغي لنا أن نخشى شيئاً، ذلك أنّ الله تعالى هو حلّال المشاكل، ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾.

٤ ـ المدد الإلٰهيّ والدعم الشعبيّ كلّه يصبّ، بمشيئة الله، باتّجاه نصرتكم، ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

٥ ـ الدعم الشعبيّ يكون فاعلاً إذا ما تمّ في إطار المشيئة الإلٰهيّة، ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ... وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

٦ ـ طلب المدد من الناس بعد الله ليس شركاً، ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

٧ ـ الشعب هو الظهير القوي للقائد والذراع الضاربة له، ﴿أَيَّدَكَ... وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ التأليف بين القلوب بيد الله تعالى، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

٢ ـ الوحدة والألفة والمحبّة من نعم الله تعالى التي ذكرها والتي منّ بها على الناس وعلى النبي الكريم ﷺ، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

٣ ـ الأهمّ من الوحدة الظاهرية هو الانسجام القلبي والباطني، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، وإلّا فالكفّار أيضاً متّحدون في الظاهر، لكن قلوبهم متفرّقة،

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[1].

٤ ـ الشعب يكون ذراع القائد عندما يكونون متّحدين، وإلّا فإنّ تفرقتهم تقصم ظهره، ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

٥ ـ كانت القبائل العربيّة قبيل الإسلام في دوامة من العداء الشديد في ما بينها، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ... مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

٦ ـ الثروة والمنصب لا تجلبان المحبّة دوماً، ﴿لَوْ أَنفَقْتَ... مَّآ أَلَّفْتَ﴾.

٧ ـ خلق المحبّة والتواشج بين المؤمنين، قبس من العزّة والحكمة الإلهيّة، ﴿أَلَّفَ بَيْنَهُمْ... عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾

إشارات:

- ربّما أمكن تفسير الآية على النحو التالي: يا أيّها النبي، الله تعالى كافيك وكافي من اتّبعك من المؤمنين.
طبقاً للمعنى الأول، فإنّ المؤمنين يدافعون عن النبي تحت راية الله تعالى، أمّا المعنى الثاني فهو، أنّ الله كافي المؤمنين إلى جانب النبي الأكرم ﷺ.

- نقل بعض المفسّرين أنّ جماعة من يهود بني قريظة وبني النضير قالوا للنبي الكريم ﷺ: نحن نسلم ونتبعك، فنزلت هذه الآية محذّرة النبي من كيدهم ومطمئنة إيّاه بأنّ المعوّل عليه هم المؤمنون. وبالمناسبة، فإنّ هذه الآية تمهيد لحكم الجهاد الذي نزل في الآية اللّاحقة.

- في كتاب «فضائل الصحابة» أورد الحافظ أبو نعيم، وهو من مشاهير علماء السنّة أنّ هذه الآية نزلت في حقّ علي بن أبي طالب، فالمقصود بالمؤمنين هو علي عليه السلام[2].

---

(١) سورة الحشر: الآية ١٤.

(٢) الغدير، ج ٢، ص٥١.

□ إذا كان طلب المعونة من الناس والاتكاء على دعمهم في إطار مشيئة الله تعالى وإرادته، فلا يتنافى ذلك مع التوحيد. فالشرك يبدأ عندما يكون الاتكاء على دعم الآخرين وعونهم في مقابل قدرة الله وإرادته، لذا، فما دامت القلوب والأفكار والمعونات قبسات من الإرادة الإلٰهيّة، فلن يخرج الأمر عن دائرة التوحيد، ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾.

التعاليم:

١ ـ التبعية قيّمة عندما تكون مقرونة بالإيمان، فلا تبعيّة بلا إيمان ولا إيمان بلا تبعيّة، ﴿ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

إشارات:

□ تنفي هذه الآية أن يكون توازن القوى معتمدا على العدد وحده، بل تربطه بقوّة الإيمان والمعنويات العالية والصبر، ولئلا يُتصوّر أنّ غلبة عشرين نفراً على مئتين هو من باب المبالغة، تكرّر الآية المسألة فتزيد العدد قائلة إنّ مئة من المسلمين يغلبون ألفاً إن توفّر فيهم شرطا الإيمان والصبر.

□ في الحقيقة، إنّ أغلب معارك صدر الإسلام التي خاضها المسلمون ضدّ الكفّار لم يكن ميزان القوى لصالحهم أبداً. ففي معركة بدر كان عدد المسلمين ٣١٣ مقاتلاً في مقابل ألف من المشركين، وفي أحد كان عدد المسلمين ٧٠٠ أمّا جيش العدوّ فكان يناهز ٣ آلاف مقاتل، وفي معركة الخندق، كان عدد المسلمين ٣ آلاف والمشركون ١٠ آلاف، وذكروا أنّ عدد المقاتلين المسلمين في معركة مؤتة كان ١٠ آلاف وقد واجهوا جيشاً جراراً للعدو قُدّر بمئة ألف مقاتل.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أما علمتم أنّ الله عزّ وجلّ قد فرض على المؤمن في

أوّل الأمر أن يقاتل الرجل منهم عشرة من المشركين ليس له أن يولّي وجهه عنهم»[١].

التعاليم:

١ ـ من مسؤوليات القائد حثّ الناس على الجهاد وقتال العدوّ. (أهميّة إلقاء قائد الجند الخطب قبل ساعة الصفر للمعارك)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ﴾.

٢ ـ المهمّات الصعبة تحتاج إلى ترغيب وحضّ وتلقين، ﴿حَرِّضِ﴾.

٣ ـ الدعاية في الحرب والجهاد تعدّ أمراً حيوياً، ﴿حَرِّضِ﴾.

٤ ـ الإيمان، والاستقامة، والثبات هي عوامل مصيرية في جبهات القتال، وليس فقط العدد وميزان القوى الظاهري، ﴿عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾.

٥ ـ في صدر الإسلام، كان نصاب حكم الجهاد ينعقد بوجود عُشر قوات العدوّ، ﴿عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾، وهذا يفسّر قوّة إيمان المسلمين في صدر الإسلام ومعرفتهم ويقينهم، إذ كانوا يضمنون نصرهم على قوّة توازي عشرة أضعافهم، (﴿يَغْلِبُواْ﴾ إشارة إلى ضمان النصر).

٦ ـ يجب أن يتوافر جند الإسلام على ثلاث خصائص هي: الإيمان، الصبر، البصيرة. (**«مؤمنون»** و**«صابرون»** بالنسبة إلى المسلمين، وبالنسبة إلى الكفار **«لا يفقهون»**).

٧ ـ التكليف الإلٰهيّ يأخذ بالاعتبار القابليات الفكرية والجسمية للإنسان. (أحياناً يستدعي الأمر أن يقاتل المرء عشرة أشخاص، وهو ما تشير إليه الآية الكريمة، وفي أحيان أخرى قد يتطلّب الأمر أن يقاتل شخصين، وهو موضع إشارة الآية اللّاحقة).

---

(١) الكافي، ج ٥، ص٦٩.

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

إشارات:

- المراد بـ «الضَعف» هنا هو ضعف الإيمان والمعنويات، ذلك أنّ عدّة جيش الإسلام وعديدهم لم ينخفضا.
- في هذه الآية وفي التي سبقتها إشارة إلى ثلاثة عوامل نفسية للنصر، وبدونها تقع الهزيمة لا محالة، وهذه العوامل هي: الصبر، الإيمان والبصيرة. طبعاً، العامل الأساس في تحقيق النصر هو إرادة الله تعالى وإذنه. والدليل على ذلك الهزيمة التي وقعت للمسلمين في معركة حُنين على الرغم من كثرتهم ﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ... ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[1].
- الأحكام المتباينة لهذه الآية وتلك التي سبقتها هي لارتباطها بفريقين مختلفين وفي ظروف مختلفة، لا أنّ حكم الآية الأولى نُسخ بالآية الثانية[2].

التعاليم:

١ ـ في مسير الإدارة، يتطلّب الأمر، أحياناً، تغيير القوانين بسبب تبدّل الظروف لتتناسب مع المتلقّي، ولا يتعارض هذا مع مسألة الحسم والقطع، ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ﴾.

٢ ـ تحديد الواجبات وتغيير القوانين، بيد الله وحده، ﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ﴾.

٣ ـ الإيمان يتأرجح بين المدّ والجزر، ﴿أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

٤ ـ الكثرة ليست دائماً دليل قوّة المعنويات، إذ تجد أحياناً العدد كبير لكنّ المعنويات هابطة، ﴿أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

٥ ـ عند تشريع القوانين، يجب أخذ معنويات الأشخاص واستعداداتهم بالاعتبار،

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٥.
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

﴿خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

٦ ـ العامل الرئيس للهزيمة هو داخليّ وليس خارجياً، ﴿فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

٧ ـ ينبغي على القادة العسكريين أن يتنبّهوا إلى مسألة معنويات جند الإسلام، ونشاطهم، وإصرارهم على القتال، ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

٨ ـ أحياناً يتسبّب ضعف الإرادة في خفض الاستعداد القتالي والنفسي من عشرة أضعاف إلى ضعفين؛ (أي ينخفض بنسبة ٨٠ في المئة) في هذه الآية ﴿مِّائَةٌ... يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾، في حين الآية السابقة تقول: ﴿مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا﴾.

٩ ـ حتى في حال ضعف المعنويات، يجب أن تكون قوة المسلمين ضعف قوة الكفّار، ﴿فِيكُمْ ضَعْفًا... وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾.

١٠ ـ لا ينبغي أن نغترّ بنصرنا، فقد كان بإذن الله، ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

١١ ـ الصابر حبيب الله وفي حرزه ومشمول بمدده، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

١٢ ـ يجب أن يعلو شعار ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ في جبهات القتال وحيثما كانت الحاجة للصمود والصبر، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

إشارات:

- «يثخن» من الثخانة وهي الضخامة والغلظة والثقل، ثمّ استعمل هذا اللفظ بمعنى الثبات والنصر والفوز المعلن المقتدر.
- في هذه الآية تنبيه للمسلمين لئلا ينشغلوا بموضوع الأسرى وأخذ الفدية لإطلاق سراحهم وجمع الغنائم، ويتناسوا الهدف الأصلي للجهاد، فيتلقّوا ضربة قاصمة.

التعاليم:

١ ـ تحديد أساليب القتال والأسر من مسؤوليات النبي، ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ...﴾.

٢ ـ كانت سنّة الأنبياء وسيرتهم عدم أسر العدوّ ما لم يثبّتوا قواعدهم، ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ... حَتَّىٰ يُثْخِنَ﴾.

٣ ـ يجب أن لا يغفل المؤمنون عن خطر التشبّث بالدنيا، ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾.

٤ ـ أثناء احتدام القتال لا يجوز أسر أفراد العدوّ ما لم تتمّ السيطرة التامّة عليه، ﴿مَا كَانَ... حَتَّىٰ يُثْخِنَ﴾.

٥ ـ مهمّة المقاتل أوّلاً تثبيت موقعه، (لا أسر أفراد العدوّ أو جمع الغنائم)، ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

٦ ـ التركيز على الهدف واجتناب التشتّت في الحرب، مسألة حيوية، ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

٧ ـ الدنيا زائلة وفانية، ﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾.

٨ ـ قمع أعداء الدين وتحكيم قاعدة التوحيد هدف أخروي، ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ... وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾.

٩ ـ الهدف الأساس للحرب والجهاد في الإسلام هو تحقيق المصالح الأخروية (استجلاب رضا الله تعالى، ترسيخ الحقّ والسعي من أجل إنقاذ المستضعفين)، لا كسب الغنائم وأسر العدوّ وأخذ الفدية، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾.

١٠ ـ التعاليم الإلٰهيّة في مجال قضايا الحرب، تنطوي على الحكمة، وتطبيقها هو مفتاح العزّة والنصر، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

١١ ـ للدين الإسلامي صلة وثيقة بالقضايا الاجتماعيّة والدنيوية، لا بل إنّه يتدخّل في أدقّ التفاصيل التكتيكية الحربية، (في ضوء مفهوم الآية ككلّ).

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

إشارات:

□ لقد طرح المفسّرون آراء عدّة في معنى ﴿كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ نذكرها هنا:

أ) في العبارة إشارة إلى السنّة الإلهيّة وهي أنه لا يُعذِّب ما لم يبيّن الحكم، ويعضد هذا الرأي ما ورد في آية أخرى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1].

ب) مشيئة الله نصرة المسلمين في معركة بدر، إذ لولا قضاء الله بنصركم لكان أسركم للعدوّ قبل تثبيت مواضعكم بمثابة ضربة قاصمة لكم[2].

ج) أو أنّ المراد هو ما ورد في الآية ٣٣ من هذه السورة وهو أنّه ما دام النبي الكريم ﷺ بين ظهرانيكم، فإنّ الله لن يعذّبكم، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾.

إذن، في ضوء ما قيل، فإنّ معنى الآية يكون: لولا حضورك المبارك بينهم والذي ورد في الكتاب السماوي، لكان أسر المسلمين للكافرين في معركة بدر خطيئة كبيرة ولاستحقّوا عليها عذاباً أليماً.

- الغنائم في هذه الآية، بحسب الروايات، هي نفسها مبلغ الفدية لتحرير كلّ أسير، والذي كان يتراوح بين ٣ آلاف و٤ آلاف درهم.

التعاليم:

١ ـ أسر أفراد العدوّ أثناء احتدام القتال، تستتبعه هزيمة وعذاب أليم، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٢ ـ لا يجوز الانشغال بالغنائم قبل دحر العدوّ بشكل تامّ، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٣ ـ شرط استهلاك الشيء أن يكون حلالاً وطاهراً وطيباً، ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾.

٤ ـ الغنائم لكم ولكن بعد أن تؤدّوا خُمسها، ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا...﴾.

وقد مرّ علينا في الآية ٤١ أيضاً ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ...﴾.

٥ ـ احذروا أن يطغى انشغالكم بالغنائم الحربية والفديات على الهدف الأسمى

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٥.
(٢) تفسير أطيب البيان.

للجهاد، واتقوا الله دائماً، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ (نعم، إنّ الانشغال بتقسيم الغنائم شَرَك).

٦ ـ العفو عن عقوبة التسرّع في أخذ الأسرى في معركة بدر وتحليل الفديات المأخوذة لقاء تحريرهم (على الرغم من عدم مشروعية الأسر) من مظاهر الرحمة والمغفرة الإلٰهيّة، ﴿فَكُلُوا... غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٧ ـ المغفرة الإلٰهيّة شعاع من رحمة الله، ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾

إشارات:

❑ نزلت هذه الآية في العباس، وعقيل، ونوفل، إذ أُسِروا في معركة بدر، **فأطلق** النبي الكريم ﷺ سراحهم بعد أن افتدوا أنفسهم، لكنّه أعاد إليهم فدياتهم بعد أن دخلوا في الإسلام[1].

❑ ورد في كتب التفسير أنّ العباس عمّ النبي الكريم ﷺ كان بين أسرى بدر، فطلبت جماعة من الأنصار أن لا يؤخذ عنه فداء إكراماً لرسول الله فقال ﷺ: **«والله لا تذرون منه درهماً»**؛ (أي إذا كان الفداء قانوناً إسلامياً عامّاً، فلا ينبغي أن يفرّق بين عمّي وبين أيّ أسير آخر). وقال لعمّه العباس: **«افدِ نفسك وافدِ ابن أخيك»**، فقال: يا محمد تتركني أسأل قريشاً في كفي؟ فقال: **«أعطه ما خلفت عند أم الفضل وقلت لها: إن أصابني في وجهي هذا شيء فأنفقيه على ولدك ونفسك»**، فقال له: يا ابن أخي من أخبرك بهذا؟ فقال: **«أتاني به جبرائيل من عند الله عزّ ذكره»**، فقال: ومحلوفه ما علم بهذا أحد إلا أنا وهي، أشهد أنك رسول الله...، وأعلن إسلامه[2].

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) تفسير نمونه، ج٧، ص ٢٥٢.

❑ ثمّة خيارات ثلاثة مشروعة ومقبولة ومطروحة أمام النظام الإسلامي في ما يتعلّق بأسرى الحرب، هي:

١ ـ إطلاق سراحهم دون فداء، كما حصل عند فتح مكة عندما أمكن الله المسلمين من الكافرين، وأتيحت لهم فرصة أسرهم واستفدائهم، غير أنّ النبي الكريم ﷺ، أطلقهم جميعاً بعبارته الشهيرة «أنتم الطلقاء»[1].

٢ ـ إطلاق الأسرى في مقابل أخذ الفدية المالية أو مبادلتهم بأسرى آخرين.

٣ ـ إبقاؤهم في الأسر، ليحول المسلمون دون استعادة العدوّ لقدراته، وفي الوقت ذاته، تعليمهم مبادئ الدين وتعاليمه وهدايتهم للإسلام.

بقي أن نقول، إنّ اختيار أحد هذه الخيارات الثلاثة هو من صلاحيات الحاكم الإسلامي حصراً.

التعاليم:

١ ـ النبي وقائد الحكومة الإسلاميّة مأموران بالحوار مع الأسرى وهدايتهم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم...﴾.

٢ ـ ينبغي معاملة الأسرى معاملة طيبة لكي نمهّد لهدايتهم وإرشادهم. (استعمال كلمتي «خير» و«مغفرة» للمنهزمين تعبير عن هذا المفهوم).

٣ ـ من الضروري دعوة الأسرى وإرشادهم، إذ يتوجّب اغتنام أيّ فرصة سانحة في هذا المجال، ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم﴾.

٤ ـ الخير الحقيقي يكمن في الإسلام والإيمان، ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾.

٥ ـ بشّروا الناس أنّ باستطاعتهم أن ينالوا السعادة بأزهد الخير، ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا﴾.

٦ ـ الهدف من الحرب هو هداية الناس ودحر الطاغوت، لا سفك الدماء والنهب والأسر وأخذ الفدى، ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾.

٧ ـ حتى محاربة الرسول الأكرم ﷺ لا تحول دون قبول التوبة والإنابة ونيل المغفرة الإلٰهيّة، ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم... وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٧، ص ٥٩.

٨ ـ اعتناق الإسلام يمحو ما سبق من ذنوب، ويستنزل اللطف والرحمة الإلٰهيّة، ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا... وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

إشارات:

- يستفاد من هذه الآية والآية السابقة أنّه ينبغي ألّا تحجب الاحتمالات السيئة عنّا مبادئ الإصلاح والإرشاد والهداية. فعلى الرغم ممّا قام به المشركون عبر سنوات طويلة من أذى للنبي الكريم ﷺ ومسلمي صدر الإسلام، إلا أنه عندما اقتضت المصلحة العليا للإسلام إطلاق سراح الأسرى فإنّ احتمال خيانتهم لم يمنع النبي الكريم ﷺ من القيام بالواجب.

إذن، لا إساءة الظنّ بالأسرى مئة في المئة، ولا حسن الظنّ بهم بصورة تامّة، لا عنف تامّ، ولا رأفة خالصة، بل التصرّف بنباهة وحذر وحزم والتوكّل على الله وإظهار الرأفة والعطف واللين تجاههم.

التعاليم:

١ ـ احتمال خيانة الأسرى يجب أن لا يحول دون إطلاق سراحهم، ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ﴾.

٢ ـ للأعداء سوابق في الخيانة، ﴿خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾.

٣ ـ الله هو الحقّ، وهو الذي ينصر المؤمنين، ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾.

٤ ـ الخيانة كانت السبب في الوقوع في أسر المسلمين والتمكين منهم، ﴿خَانُوا۟... فَأَمْكَنَ﴾.

٥ ـ الله أعلم بنوايا العدوّ، لذا فأحكامه نابعة من حكمته وعلمه بالمصلحة، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢﴾

إشارات:

□ في السنة الثالثة عشرة للبعثة، وبعد مضي عشر سنوات على الجهر بالدعوة، واصل مشركو مكّة أذاهم للنبي الكريم ﷺ والمسلمين، بل كانوا يوغلون في أذاهم وتضييق الخناق عليهم، لكنّهم لم يفلحوا في صدّهم عن دينهم، فتوصّلوا، في نهاية المطاف، إلى مؤامرة جماعية مدروسة تتلخّص في قتل النبي الكريم ﷺ وبمشاركة جميع القبائل، فيضربونه ضربة رجل واحد، وبذلك يتمّ لهم اجتثاث الإسلام كما يحلمون.

ولمّا علم الرسول الأكرم ﷺ بكيد المشركين، وشهد، في الوقت ذاته، تضحيات الإمام علي عليه السلام، استعدّ للهجرة، فكان ذلك في غرّة شهر ربيع الأوّل إذ ذهب إلى غار ثور وبقي فيه ثلاثة أيّام متوارياً عن عيون المشركين بصورة إعجازية، وفي هذه الفترة كان الإمام علي عليه السلام يرعى شؤونه ويهيّئ له الطعام ويأتيه بأخبار مكّة، حتى حانت ساعة الحسم، فأمر النبي الكريم ﷺ المسلمين بالهجرة إلى يثرب، كما هاجر هو نفسه إلى هناك مصطحباً أهل بيته معه، فوصل في الثاني عشر من شهر ربيع الأوّل إلى موضع مسجد قبا في يثرب وذلك بعد أن قطع مسافة ٤٠٠ كم تقريباً، ثمّ التحق به بقيّة المهاجرين هناك، إذ كان في انتظارهم أهل يثرب الذين أظهروا حفاوة بالغة في استقبالهم واحتضانهم، وقد غيّر الأنصار اسم مدينتهم من يثرب إلى مدينة النبي أو مدينة الرسول، ثمّ دعا المسلمين من مهاجرين وأنصار إلى مسجد قبا وكان عددهم حوالي ثلاثمئة شخص، وآخى بينهم إذ قال ﷺ: **«تآخوا في الله أخوين أخوين»**، ليثبّت قلوبهم على المحبة والأخوة ويحول دون تفرّقهم واختلافهم[1].

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ سيرة ابن هشام؛ فروغ ابديّت (شعاع الأبديّة)، ج ١، ص٤١٧ - ٤٥٠.

- المهاجرون، هم الذين آمنوا بالرسول الكريم ﷺ في مكّة، فتعرّضوا لأنواع الأذى والعذاب على يد المشركين، ما اضطرّهم إلى ترك بيوتهم وأموالهم هناك وهاجروا إلى المدينة ليلتحقوا بالنبي الكريم ﷺ. أمّا الأنصار فهم المسلمون الذين آووا الرسول والمهاجرين ونصروهم.
- الآية الحاليّة تتناول محاور عدّة مثل: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ضرورة الهجرة، وعدم تولّي المترفين الذين لم يهاجروا، التعاهد بالنصرة بين المهاجرين والأنصار ما لم يكن في ذلك إضرار بالعهود السابقة، وانفراج شدّة المسلمين وخلاصهم.
- جرت عادة الأمم والشعوب على جعل الأحداث والمناسبات العظيمة في حياتهم الاجتماعيّة أو العلمية أو الدينيّة والتي شكّلت نقطة تحوّل في المصير القومي بداية لتأريخهم، على سبيل المثال، اتّخاذ المسيحيين من حادثة ولادة المسيح بن مريم بداية للتاريخ الميلادي، أو اتّخاذ العرب عام الفيل (وهو العام الذي حمل فيه أبرهة الحبشي بجيشه على مكّة فردّ الله كيده وأباده هو ومن معه) بداية لتاريخهم.

إنّ الدين الإسلامي هو الشريعة السماوية الأكمل والمستقلّة عن سائر الأديان التي سبقته، من هنا، لم يتّخذ المسلمون التقويم الميلادي أساساً لتاريخهم، ولا عام الفيل، على الرغم من كونه عام ولادة النبي الأكرم ﷺ، كما لم يتّخذوا ذكرى البعثة النبوية الشريفة مبدأً لتاريخهم. بيد أنّه مع هجرة الرسول الأكرم إلى المدينة، وتأسيسه حكومة مستقلّة استطاع المسلمون في ظلها أن يمارسوا نشاطاتهم وطقوسهم بحريّة كاملة، ولهذا السبب، اختار النبي ﷺ ذكرى هجرته بداية للتقويم الهجري الإسلامي[1].

ويستفاد، أيضاً، من عبارة ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾، في الآية الكريمة ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾[2] والمتعلّقة ببناء مسجد قبا،

---

(١) فروغ ابديّت، ج ١، ص٤٣٥.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٨.

كدليل آخر لاعتماد التقويم الهجري، ذلك أنّ أوّل خطوة أقدم عليها الرسول الأكرم ﷺ هي بناؤه مسجدَ قبا[١]، والحقّ يقال، لولا الهجرة النبوية لظلّ الإسلام محصوراً في مكّة ودفن فيها.

- من المعلوم، أنّ جلّ ما يعانيه الناس من بلايا ومصائب هو نتيجة انغماسهم في الملذات والرفاهية وترك الهجرة الإيجابية البنّاءة، فلو عاد العلماء والمتخصّصون المسلمون الذين يعيشون في بلاد الغرب إلى أوطانهم، لساهموا في إضعاف الأعداء، وفي المقابل تقوية الإسلام والبلدان الإسلامية.

- إنّ موضوع الهجرة لا يختصّ بالنبي الكريم ﷺ وحده، بل إنّ الهجرة من بيئة الشرك، والكفر، والمعاصي هو من أجل المحافظة على الدين والإيمان، أو لإنهاء حالة التمرّد على أوامر الله تعالى، إذ يقول الذين يعزون تلوّثهم بالمعاصي إلى وجودهم في بيئة موبوءة ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ فيردّ الله ﷻ عليهم بالقول ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾[٢]؛ طبعاً، يتبيّن في ضوء كلمة «مستضعفين» أنّه إذا توافر الاستعداد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يجب على المسلم أن يؤدّي الفريضة ويسعى إلى إصلاح المجتمع ولا يتخلّى عنه.

- عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: **«إذا عُصي الله في أرض أنت فيها فاخرج منها إلى غيرها»**[٣].

كما تجب الهجرة لأغراض تلقّي العلوم والمعارف أو لتدريس العلم للآخرين وتفقيههم، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾[٤].

- لقد شهد عصر صدر الإسلام هجرتين: الأولى: في العام الخامس للبعثة،

---

(١) العلّامة جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي، ج ٣، ص٤٠.

(٢) سورة النساء: الآية ٩٧.

(٣) بحار الأنوار، ج ١٩، ص٣٥.

(٤) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

عندما هاجرت طائفة من المسلمين إلى بلاد الحبشة، والثانية: الهجرة من مكّة إلى المدينة في السنة الثالثة عشرة للبعثة.

التعاليم:

١ ـ الإسلام، والإيمان، والعقيدة كلّها لا تكفي ما لم تقترن بالنضال والجهاد. فمسلمو صدر الإسلام إمّا كانوا مهاجرين أو (مؤوين)، أو مجاهدين أو مناصرين للمجاهدين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ...﴾؛ (عندما تتباين الظروف، يصبح لكلٍّ تكليفه الخاص، فهذا يكلّف بالهجرة، وذاك يكلّف بإيواء المهاجرين).

٢ ـ الرابطة الولائية هي من نصيب الذين هاجروا، وجاهدوا، وقدّموا المعونة الآخرين، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

٣ ـ لقد جعل الله تعالى بين المهاجرين والأنصار حقّ الولاية، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

٤ ـ الهجرة صوب المجتمع الإسلامي هي شرط الولاية، ومن لم يهاجر فلا ولاية له، ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم...﴾.

٥ ـ في المجتمع الإسلامي، يجب التمييز بين المجاهدين والمهاجرين وبين المترفين الذين أبوا الهجرة، ﴿ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟﴾.

٦ ـ من لم يهاجر لا يُنصر ولا يُستنصر. (يمكن تفسير كلمة ﴿وَلَٰيَتِهِم﴾ على نحوين: النحو الأول، «تولّيكم ودعمكم إياهم». والنحو الثاني، «تولّيهم ودعمهم إياكم»).

٧ ـ يجب استقبال التائبين الذين يرومون الالتحاق بصفوف المسلمين بالأحضان، ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ (لذا، بمجرّد أن يهاجر من امتنع عن الهجرة سابقاً، علينا أن نفتح له قلوبنا).

٨ ـ إذا تعرّض المسلمون في باقي البلاد لضغوط الكفر، علينا أن نبادر إلى نصرتهم إن طلبوا النصرة، ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾.

٩ ـ في مجال تنظيم العلاقات مع الآخرين يجب ترتيب الأولويات، فما دام الكفّار ملتزمين بمواثيقهم مع المسلمين، فلا يجوز نصرة المسلمين الذين يقبعون تحت سلطتهم، ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾

إشارات:

□ يطرح المفسّرون في معنى ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾، ثلاثة وجوه هي:

أ) إذا لم تطبقوا حكم الله في الولاية بين المؤمنين، وآثرتم بدلاً من ذلك تولّي الكفّار، فسوف ينجم عن ذلك فساد كبير؛ لأنّهم متّحدون وأنتم متفرّقون.

ب) إذا لم تحرّكوا ساكناً بالنسبة إلى المسلمين الذين يتعرّضون لضغوط، فلربّما تعرّضوا لإبادة جماعية، أو أنّهم سيرتدّون عن الإسلام.

ج) إذا لم تراعوا المواثيق والعهود مع الكفّار، من خلال تقديم الدعم والنصرة لطائفة من المسلمين الذين يرزحون تحت سلطة الكفّار، فإنّ هؤلاء سينقلبون ضدّكم وبالنتيجة سيؤدّي ذلك إلى حدوث فتنة كبيرة.

التعاليم:

١ ـ إذا كان بعض الكفّار أولياء بعض، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، وكان المسلمون غير متعاضدين، فسوف تصيبهم فتنة وفساد كبير، ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ﴾.

٢ ـ القبول بولاية الكافرين وسلطتهم فيه فساد وفتنة كبيرة في الأرض، ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ﴾.

٣ ـ إذا لم تربط المسلمين وشائج قوية ومحكمة، فإنّ الكفّار المتحدين سيقضون عليهم، ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الإيمان يسبق العمل، ﴿ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟﴾.

٢ ـ تبرز قيمة الأعمال عندما تصطبغ بصبغة إلٰهيّة، وتنطلق من منطلقات إلٰهيّة، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ يتجسّد الإيمان الحقيقي في هجرة المسلمين، وجهادهم، وإيوائهم إخوانهم المجاهدين ونصرتهم، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

٤ ـ حتى المؤمن الحقيقي ليس بمنجى عن الخطأ والمعصية، وبالتالي يحتاج إلى الحقيقة الإلٰهيّة، ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾.

٥ ـ الهجرة والجهاد عاملا مغفرة واستجلاب للرزق الإلٰهيّ الخاص، ﴿ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟... لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

٦ ـ إذا غضضتم النظر عن الرزق الزهيد من أجل الهجرة والجهاد، فستنالون رزقاً كريماً وطيباً من الله تعالى، ﴿ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟... لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

٧ ـ الإنسان مكلّف دوماً، أحياناً بواجب الجهاد، وأخرى بإيواء المهاجرين، وثالثة بنصرة المقاتلين، (في ضوء مفهوم الآية ككلّ).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾

إشارات:

□ من الأمثلة التي تجسّد مفهوم هذه الآية، الإرث الذي كان معمولاً به قبل الإسلام، إذ كان أحياناً على أساس التبنّي، وأخرى على أساس عقد الأحلاف، فجاء الإسلام وأبطل كلّ هذه الأنواع وثبّت الإرث على أساس

القرابة والنسب والتديّن.

□ لطالما استند الأئمّة والعلماء إلى هذه الآية للبرهنة على موضوع إمامة الإمام علي عليه السلام وخلافته، فمضافاً إلى سوابقه في العلم والجهاد والتقوى، استدلّوا أيضاً بقرابته الخصيصة من النبي الكريم صلى الله عليه وآله، وذلك لإثبات إمامته وخلافته المباشرة(١).

التعاليم:

١ ـ يجب على أوائل المؤمنين أن يؤاخوا من يدخل في الإيمان ويهاجر لاحقاً، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ... فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾، نعم، إنّ الحضن الدافئ للمجتمع الإسلامي مفتوح للجميع، فالمسلم ليس منكفئاً أو منغلقاً على نفسه، حتى وإن كان يحظى بمزايا معنوية أكبر.

٢ ـ المؤمنون ذوو القربى، لهم حقّ الولاية بعضهم على بعض بسبب صلة الرحم، وكذلك ولاية الإيمان، والهجرة، والجهاد، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا... وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

٣ ـ بحسب الشريعة الإلٰهيّة، توجد تراتبية بين الأرحام، ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

٤ ـ الهجرة هي شرط الالتحاق بصفوف المؤمنين الحقيقيين. (الهجرة هي الوعاء الذي يجمع القوى المؤمنة)، ﴿وَهَاجَرُوا...﴾.

«والحَمدُ لِلّه رَبِّ العالَمين»

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، تفسير أطيب البيان.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

السورة: ٩ الجزء: ١٠ ـ ١١

عدد الآيات: ١٢٩

ملامح سورة التوبة

السورة التاسعة في القرآن الكريم، وتضمّ ١٢٩ آية، نزلت في السنة التاسعة للهجرة[١]، نزل قسم منها قبيل معركة تبوك، وقسم آخر أثناءها، وثالث بعد انتهاء المعركة.

اشتهرت السورة باسمين، كما ورد في الروايات، هما التوبة والبراءة. فسبب تسميّتها بالتوبة لما ورد من مزيد الكلام عن توبة الإنسان وعودته إلى لطف الله تعالى، أمّا تسميّتها بالبراءة فهو لجهة أنّها تستهلّ بإعلان البراءة من المشركين.

اعتبر بعض المفسّرين هذه السورة استكمالاً لسورة الأنفال وذلك لارتباط موضوعات السورتين، وهو ما يفسّر، بحسب هؤلاء، عدم شروعها بالبسملة، غير أنّنا نعتقد، بالاستناد إلى ما وردنا عن أهل بيت النبي عليهم السلام، أنّ هذه السورة مستقلة عمّا قبلها، وعدم استهلالها بالبسملة يعود إلى شروعها بعبارة البراءة من المشركين، وذلك لأنّ بسم الله هي للأمان، وأنّ هذه السورة بدأت بالبراءة من المشركين الذين نقضوا العهود، وقد سُئل الإمام علي عليه السلام: لِمَ لم تنزل براءة بالبسملة فقال عليه السلام:

«لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان، وبراءة نزلت لرفع الأمان»[٢].

ويكفي ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله لبيان الأهميّة القصوى لهذه السورة المباركة إذ قال: **«نزلت عليّ براءة والتوحيد في سبعين ألف صفّ من صفوف الملائكة، وكان كلّ صفّ منهم يوصيني بأهميّة هاتين السورتين»**[٣].

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) تفسير مجمع البيان.

(٣) تفسير نمونه، ج٧، ص ٢٧٥.

﴿ ۞ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ ﴾

إشارات:

- ذكرت الروايات أسماء عدّة لهذه السورة مثل «البراءة» و«التوبة»، ونستشفّ من ذلك أنّها ليست تتمّة لسورة الأنفال بل هي سورة مستقلّة.
- نظراً إلى مضمونها الرادع والزاجر، فقد نزلت بدون بسملة. نعلم أنّ البسملة هي جزء من كلّ سورة، وليست إضافة تشريفية أو... تستهلّ كلّ سورة.
- إعلان البراءة من المشركين جاء بسبب نقضهم العهودَ والمواثيقَ كما ورد في الآيتين ٧ و٨، وإلّا فإنّ القاعدة العامة هي مراعاة العهود والالتزام بها ما دام الطرف الآخر ملتزماً بها. ويعضد هذا الرأي ما ورد في الآية ٤: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾.

يشار إلى أنّ المسلمين، وبسبب ضعفهم، كانوا أصلاً ملتزمين بالعهود، غير أنّ مطلبهم الأساس كان اجتثاث الشرك من جذوره وبأسرع وقت.

قصّة إعلان هذه الآيات

- لمّا فتح النبي الكريم ﷺ مكّة في العام الثامن للهجرة، لم يمنع المشركين الحج في تلك السنة وكان سنّة العرب في الحج أنّه من دخل مكة وطاف بالبيت في ثيابه لم يحل له إمساكها، وكانوا يتصدّقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف، فكان من وافى مكة يستعير ثوباً ويطوف فيه ثم يردّه، ومن لم يجد عارية اكترى ثياباً، ومن لم يجد عارية ولا كرياً ولم يكن له إلا ثوب واحد طاف بالبيت، وكانت المرأة إذا أرادت أن تزيد الطواف حول البيت وطلبت عارية وكرياً ولم تجده طافت بالبيت عريانة، وأشرف لها الناس، فشقّ ذلك على الرسول الكريم ﷺ وعلى المسلمين، وقد كانوا في ذروة اقتدارهم

وقوّتهم، فانتظر النبي نزول الوحي فيهم، حتى نزلت آيات من أوّل سورة براءة في المدينة، فدفعها إلى أبي بكر وأمره أن يخرج إلى مكة ويقرأها على الناس بمنى يوم النحر، وقد اختار ﷺ أبا بكرٍ لكونه شيخاً كبيراً ولا يستثير حسّاسية المشركين، فلما خرج أبو بكر ووصل مشارف مكّة نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال: **«يا محمد لا يؤدّي عنك إلّا رجل منك»**، فبعث رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام في طلبه وقال: **«أنا منه وهو منّي»**، فلحقه بالروحاء أخذ منه الآيات وذهب إلى مكّة وقرأها على المشركين. فرجع أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أنزل فيّ شيء؟ فقال: **«لا إنّ الله أمرني أن لا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو رجل منّي»**.

❑ وردت قصّة تلاوة الإمام علي عليه السلام لهذه الآيات في العديد من مصادر أهل السنّة، برواية الصحابة من بينهم أبو بكر، وعلي عليه السلام، وابن عباس، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله الأنصاري[١].

وفي المقابل سعى بعض علماء أهل السنّة[٢] إلى تصوير المسألة على أنّها أمر عادي لا ينطوي على أيّ مزيّة للإمام علي عليه السلام، وأنّ إناطة مهمّة إبلاغ الآيات إليه إنّما هي لتأليف قلبه وليس فضلاً أو مزيّة، في حين نحن نعلم أنّ تأليف قلب شخصٍ ما، يستدعي الرّفق به لا تكليفه بمهمّة شاقّة وصعبة من قبيل إبلاغ آيات البراءة من المشركين في عقر دارهم، خصوصاً من قبل شخص أوغر صدور المشركين بقتله صناديدهم في العديد من الحروب!

❑ فعندما أمر الله تبارك وتعالى النبي موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون لدعوته إلى التوحيد، قال عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، بيد أنّ الإمام عليّاً عليه السلام الذي

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج٣، ص٢١٢ و٢٨٣؛ ج١، ص١٥١ و٣٣٠؛ مستدرك الصحيحين، ج٣، ص٥١؛ تفسير المنار، ج١٠، ص١٥٧؛ تفسير الطبري، ج١٠، ص٤٦؛ تفسير ابن كثير ج٢، ص٣٢٢ ـ ٣٣٣؛ إحقاق الحقّ، ج ٥، ص ٣٦٨؛ وفضائل الخمسة، ج٢، ص٣٤٢؛ وفي الغدير، ج٦، ص ٣٣٨. وردت أسماء ٧٣ راوياً قاموا بنقل هذه الحادثة.

(٢) مثل الفخر الرازي والآلوسي في تفسيريهما.

قتل رؤوس الشرك ذهب بمفرده إلى مكّة وقرأ آيات البراءة على المشركين بنفس مطمئنّة، وفي منطقة مهمّة وحسّاسة مثل منى وبجوار جمرة العقبة.

❑ أمّا البنود التي طرحها الإمام علي عليه السلام في منشوره فهي:

١ ـ إعلان البراءة من المشركين وفسخ المواثيق معهم.

٢ ـ منع المشركين من الحجّ في الموسم القادم.

٣ ـ منع العراة من الطواف.

٤ ـ منع المشركين من دخول البيت الحرام.

❑ هذا وقد ذكر القرآن الكريم في مواضع كثيرة اسم الله واسم رسوله الكريم ﷺ جنباً إلى جنب، مثل:

أ) في الهبة واللطف، ﴿أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾[(١)].

ب) في البيعة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾[(٢)].

ج) في الطاعة والتبعية، ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[(٣)].

د) في البراءة من الآخرين، ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

التعاليم:

١ ـ فسخ العهود والمواثيق مع المشركين، هي من صلاحيات القائد، ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

(المراد عهود عدم الاعتداء والتعرّض المبرمة مع المشركين).

٢ ـ نعم للوفاء بالعهود، ولكن لا للتآمر، ﴿بَرَاءَةٌ... إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم﴾.

٣ ـ إنّنا مكلّفون من الناحية القانونية بالوفاء بالعهود، غير أنّ البراءة القلبية من المشركين والمنحرفين مبدأ ديني[(٤)]، ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٧٤.
(٢) سورة الفتح، الآية ١٠.
(٣) سورة النساء: الآية ٨٠.
(٤) تفسير أطيب البيان.

٤ ـ الله تبارك وتعالى هو المشرّع، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾[١]، بيد أنّه في السيرة والعمل يذكر الله والرسول جنباً إلى جنب، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾.

٥ ـ البراءة دليل حزم واقتدار، والصمت تجاه المؤامرات ونقض العهود دليل ضعف، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾.

٦ ـ لا بأس من إبرام المواثيق والعهود مع المشركين في ظروف معيّنة، ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾.

٧ ـ إذا ألغيت المعاهدة بسبب وجود احتمالات التآمر والخيانة، ينبغي إعلام العدو بذلك لكي لا يشعر بالغدر، ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ... إِلَى... ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾

إشارات:

- إعلان البراءة من المشركين كان في اليوم العاشر من شهر ذي الحجّة (عيد الأضحى)، لذا يكون انتهاء مهلة الأربعة أشهر في العاشر من شهر ربيع الثاني[٢].
- إنّ مهلة الأربعة أشهر، بحسب الروايات[٣]، كانت لمن لم يكن لهم ميثاق من قبل، أمّا أصحاب المواثيق فكانت المهلة انتهاء آجال مواثيقهم، سواء أكانت أقل من أربعة أشهر أم أكثر.

التعاليم:

١ ـ بعد إلغاء المواثيق والعهود، امنحوا العدوّ الفرصة للتفكير، ﴿فَسِيحُوا۟... أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾؛ (بحسب المصادر التاريخية، فإنّ الكثير من المشركين دخلوا في الإسلام في مهلة الأربعة أشهر).

---

(١) سورة الكهف: الآية ٢٦.
(٢) الكافي، ج ٤، ص ٢٩٠.
(٣) تفسير نور الثقلين.

٢ ـ في زمان قوّتكم واقتداركم، لا تحملوا على العدو دونما إنذار مسبّق، ﴿فَسِيحُواْ... أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

٣ ـ فليعلم أولئك الذين يأبون الدخول في الإسلام، أنّهم أينما يولّوا وجوههم فلا مهرب لهم من حاكمية الله تعالى، ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي﴾.

٤ ـ الحرب على الإسلام حرب على الله تعالى، ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي﴾.

٥ ـ قضت سنّة الله تعالى أنّه إذا ضيّع الإنسان فرصة الإنابة إلى الله فسيشقى، ﴿مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾

إشارات:

□ الآية الأولى من السورة كانت إعلان براءة إلى المشركين أنفسهم، وفي هذه الآية الكريمة إعلان براءة من المشركين إلى عامة الناس.

□ ﴿ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ هو يوم عيد الأضحى[١]، أو يوم عرفة أو مناسك الحج[٢]، وهو في مقابل مناسك العمرة المسمّاة بالحجّ الأصغر.

التعاليم:

١ ـ اكشفوا الحقائق للناس منعاً لأيّ تظلّم أو دعاية مضادة لكم، ﴿وَأَذَٰنٌ... إِلَى ٱلنَّاسِ﴾.

٢ ـ لا بدّ للداعية من أن يعرف أهميّة عنصري الزمان والمكان في الدعوة، ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾.

---

(١) الكافي، ج ٤، ص٢٩٠.
(٢) تفسير البرهان.

٣ ـ يجب اللّجوء إلى أسلوب الترغيب والترهيب معاً، ﴿فَإِن تُبْتُمْ... خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا۟﴾.

٤ ـ إذا أردنا قطع الارتباط، فلنترك خطّاً للرجعة، ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾.

٥ ـ مهلة الأربعة أشهر دليل على لطف الله لا عجزه، ﴿غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

إشارات:

- إعلان البراءة يقتصر على المشركين ناكثي العهد والمتآمرين، لأنّ أمثال بني ضمرة وبني خزيمة الذين ظلّوا أوفياء لعهودهم، استُثنوا من البراءة في هذه الآية.
- عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: **«خَطَبَ عَلِيٌّ عليه السلام النَّاسَ وَاخْتَرَطَ سَيْفَهُ فَقَالَ لَا يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ وَلَا يَحُجَّنَّ الْبَيْتَ مُشْرِكٌ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ مُدَّةٌ فَهُوَ إِلَى مُدَّتِهِ وَمَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ مُدَّةٌ فَمُدَّتُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ»**[1].

التعاليم:

١ ـ يجب احترام عهود أولئك الذين يحترمون التزاماتهم وعهودهم، ﴿عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ﴾.

٢ ـ الوفاء بالعهد واجب، حتى مع المشركين، ﴿عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ... فَأَتِمُّوٓا۟﴾.

٣ ـ من ينصر أعداءكم، فهو عدوّ لكم، ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾[2].

٤ ـ الوفاء بالعهد، دليل تقوى، ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

---

(١) بحار الأنوار (ط ـ بيروت)، ج٢١، ص ٢٦٧.

(٢) ذلك أنّ ممّا تنصّ عليه المعاهدات هو عدم مساعدة أعداء الإسلام، إذن، أما وإنّهم قد ساعدوهم، فقد نقضوا المعاهدة وأصبحوا أعداءكم.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

إشارات:

- الكفّار الذين آذوا الرسول الكريم ﷺ والمسلمين في مكّة لمدّة ثلاثة عشر عاماً، ولم يتورّعوا عن الكيد والتآمر على النبيّ والإسلام طيلة تسعة أعوام أخرى بعد الهجرة، أولئك يستحقّون القتل.
- كلمة «حيث» ظرف تستعمل للزمان والمكان معاً، بمعنى متى وأينما وجدتم المشركين.
- سُئل الإمام الباقر عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ فقال: «يعني آمنوا»[1].

التعاليم:

١ ـ إذا استمرّ المشركون في تآمرهم وعداوتهم بعد اجتياز جميع مراحل الدعوة، والاستدلال، وعقد المعاهدات، فلكم أن تلجأوا إلى جميع الأساليب والوسائل لقمعهم مثل: قتلهم وأسرهم، سدّ المنافذ عليهم ومحاصرتهم، ﴿فَٱقْتُلُوا۟... وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾.

٢ ـ الحزم جنباً إلى جنب المرونة، كلاهما مطلوبان، ﴿فَٱقْتُلُوا۟... فَخَلُّوا۟﴾.

٣ ـ نعم لحرّية اعتناق الدين السماوي، ولكن لا للانحراف الفكري وسقوط العقل والإنسانية، ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

٤ ـ على المسلمين أن يكمنوا دوماً للمتآمرين ويتربّصوا بهم الدوائر، ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾.

٥ ـ يجب أن تكون التشكيلات الأمنية للمسلمين قويّة لدرجة تتمكّن معها من رصد تحرّكات المتآمرين في الخارج أيضاً، ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾.

---

(١) الكافي، ج ٥، ص١٠.

٦ ـ من أجل قمع تحرّكات الأعداء المتآمرين، يجب السيطرة على جميع الحدود والمنافذ، ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾.

٧ ـ اقبلوا توبة التائب حتى أثناء الحرب؛ لأنّ الإسلام دين السماحة والعزّة، لا دين العُقد والانتقام، ﴿فَاقْتُلُوا... فَإِن تَابُوا﴾.

٨ ـ يجب أن تقترن التوبة بالفعل، فلا ننخدع بتوبة بلا فعل، ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ...﴾.

٩ ـ التوبة من الشرك إيمان، وعلامة التوبة الحقيقيّة إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ...﴾.

١٠ ـ الصلاة على رأس العبادات، فلا تتعرّضوا لمن يبدي احتراماً للشعائر الدينيّة (الصلاة والزكاة)، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ... فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾

التعاليم:

١ ـ أجيروا العدوّ إذا استجار بكم من أجل أن يتبيّن عقائدكم ويتعرّف على الأفكار الإسلاميّة، ﴿اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾.

٢ ـ طريق الفكر والعقل مفتوح حتى للمشركين مهدوري الدم، وحتى لو احتمل المرء هداية شخص واحد فقط، فذلك أيضاً يستحقّ منه السعي والمحاولة، ﴿أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٣ ـ الإسلام دين الرأفة والشرف والكرامة، ﴿اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾.

٤ ـ حتى العدوّ يستحقّ أن تمنحوه فرصة للتفكّر والاختيار، وفي ظروف الحرب أيضاً لا تحولوا دون الاعتلاء الفكري للناس، ﴿اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾.

٥ ـ اللّجوء إلى خيار الحقّ والقبول بالمعتقدات الصحيحة، يتطلّب مهلة للتفكير، ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾.

٦ ـ القرآن الكريم كلام مفهوم، ويفتح أبواب الهداية أمام الإنسان، وليس صحيحاً أنّه كلام فوق الفهم الإنساني، ﴿يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ ينبغي على الحكومة الإسلاميّة أن تهيّئ المجال للضالّين لسماع كلام الله تعالى وتتيح الفرصة لدراسته، لأنّ ضلال بعض ليس عن حقد بل بسبب قصورنا نحن في الدعوة والإرشاد. إذ لربمّا غيّروا عقائدهم إذا ما أتيحت لهم فرصة الاستماع إلى كلمة الحقّ، ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

٨ ـ الإسلام دين الحريّة، والإيمان النابع من الفهم والتدبّر أفضل من ذلك الذي يأتي بالخوف والإكراه، ﴿فَأَجِرْهُ... يَسْمَعَ... أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾.

٩ ـ الدين الذي يتّخذ من العقل والمنطق نهجاً له، لا يعجله شيء. فلنمنح العدوّ فرصة للاستماع إلى كلام الدين، ثمّ نؤمّنه ليختار ما يراه صالحاً بروية وتدبّر، ﴿يَسْمَعَ... أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾.

١٠ ـ كفر بعضهم نابع من جهلهم، فلو علموا لآمنوا، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾

إشارات:

□ هذه الآية هي استفهام إنكاري وهي تبرّر الآيات الأولى من سورة البراءة، وتبيّن سبب حكم البراءة من المشركين، ذلك أنّهم لا يوفون بعهودهم والتزاماتهم.

□ لمّا كانت أطراف الكعبة حتى ٤٨ ميلاً تعتبر الحرم، فالمعاهدات والأحلاف التي تُبرم ضمن هذه المنطقة يقال لها: ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ كما هو الحال مع صلح الحديبية الذي أبرم على مسافة ١٥ ميلاً من مكّة المكرّمة.

□ ذكر موضع عقد الصلح أي «المسجد الحرام»، إنّما هو إشارة على أهميّة المكان، وإلّا فإنّ الوفاء بجميع المعاهدات الأخرى واجب.

التعاليم:

١ ـ لمّا كان المشركون أكثر الناس عداوةً للمسلمين[١]، فلا يُتوقّع الوفاء من أكثرهم، ﴿كَيْفَ يَكُونُ...﴾.

٢ ـ إذا أردنا النقد، يجب أن لا يكون الكلام عاماً غير محدّد، وأن لا نغفل عن النزيهين ضمن الجماعة، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ﴾.

٣ ـ من الضروري معاملة الأعداء بالمثل، وفاءً بالعهود أو نقضاً لها، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ...﴾.

٤ ـ التقوى والوفاء بالعهد توأمان متلازمان، ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾

إشارات:

□ «الإلّ»، معناها القرابة، والجيرة، والعلاقات العاطفية والإنسانيّة، والعرف[٢].
«الذّمّة»، العهد والميثاق الذي يجب الوفاء به، وإذا نُكث، ذمّ الناس الناكث.

□ وهذه الآية تحمل تفسيراً للحزم والشدّة في التعامل مع المشركين ناكثي العهد.

□ لا يكفي أن نبني على مجرّد توجّسات من أنّ العدوّ سيهجم علينا ويفعل بنا كذا وكذا ونتّخذها ذريعة للهجوم عليه، بل ينبغي وجود قرائن وأدلة على تآمره ونيّته في الاعتداء، إذ لا تصحّ العقوبة قبل الجريمة.

---

(١) ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ﴾ سورة المائدة: الآية ٨٥.

(٢) كانت بين مسلمي صدر الإسلام والمشركين صلة قرابة.

التعاليم:

١ ـ يتبيّن مقدار حقد العدوّ حين تُكتب له الغلبة، لا وقت ضعفه، ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾.

٢ ـ السكوت والتصرّف الساذج إزاء العدوّ الذي لا يتورّع عن فعل أيّ شيء إذا ظهر علينا، يُعتبر خطيئة، ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

٣ ـ المشركون لا يراعون الأمور العاطفية ولا حقوق الجوار ولا يوفون بعهودهم والتزاماتهم، ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

٤ ـ يجب أن لا تخدعنا المظاهر والحيل السياسيّة والدعائية للأعداء، ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾.

٥ ـ نقض العهود والنفاق والتظاهر والحيل السياسية، كلّها فسق، ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

٦ ـ المشركون في غالبيّتهم فاسقون، ولكن مع ذلك لا تخلو صفوفهم من بعض العناصر السليمة، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾؛ (يجب مراعاة العدل والإنصاف عند التوصيف).

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩﴾

التعاليم:

١ ـ الإنسان مخيّر في عمله واختيار طريقه، ﴿اشْتَرَوْا﴾[١].

٢ ـ مهما كان الثمن في مقابل آيات الله، فهو بخس جدّاً، ذلك لأنّ الدنيا وما فيها متاع قليل أمام ألطاف الله تعالى على المؤمنين، ﴿اشْتَرَوْا... ثَمَنًا قَلِيلًا... سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١) الآيات التي تشير إلى معاملة الإنسان لهي دلالة على حريّة الاختيار عند الإنسان.

٣ ـ اللهث وراء زخارف الدنيا هو السبب وراء محاربة الدين وصدّ الناس عن سبيل الله، ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾.

٤ ـ أقبح عمل، بيع الرضا الإلهيّ والجنّة الخالدة في مقابل الدنيا الدنيّة الفانية، ﴿اشْتَرَوْا... ثَمَنًا قَلِيلًا... سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

- هذه الآية بيان للحكمة وراء شدّة الأمر الإلهيّ في البراءة من المشركين.
- تحدّثت الآيتان السابقتان عن مسألة نقض العهود والمواثيق معكم أنتم الحاضرون ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾، فيما تستعمل هذه الآية تعبير ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ﴾ لتبيّن أنّ محاربتهم تشمل أهل الإيمان جميعاً.

التعاليم:

١ ـ المشركون يضمرون العداوة والحقد للمؤمنين، لذا، لا تتردّدوا في التعامل بحزم معهم، ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ﴾.

٢ ـ جريرة المسلمين الكبرى من منظار الكفّار هي إيمانهم بالله تعالى، وهي سبب عداوتهم أهل الإيمان[1]، ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ﴾.

٣ ـ نقض العهود، هو بمثابة عدوان، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

٤ ـ مراعاة حقوق ذوي القربى والوفاء بالعهود واجب، وتجاهلهما نابع من روح العدوان، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

٥ ـ محاربة المشركين الناكثين ذات طابع دفاعي، وكما ذكرت الآية ٣، لسنا نحن الذين بدأنا الحرب، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

---

(١) مثل الآية ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، (سورة البروج: الآية ٨).

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ يقول الله عزّ وجلّ في الآيات السابقة: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فعند ذاك ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾، وهنا يقول تعالى شأنه، ليس فقط لا تتعرّضوا لهم، بل اعملوا على نسيان الماضي، وتعاملوا معهم بأخوّة ومحبة.

التعاليم:

١ ـ في التعاطي مع الآخرين، يجب مراعاة مسألة التدرّج في الخطوات المتّخذة. في البداية، لا تتعرّضوا لهم، ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾، ثمّ بادروهم بالألفة والأخوة، ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

٢ ـ التوبة الحقيقيّة هي التي تكون مقرونة بالعمل، ﴿تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟...﴾.

٣ ـ التاركون للصلاة والزكاة ليسوا أخوتنا في الدين، ﴿فَإِن... وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

٤ ـ الالتحاق بدائرة الأخوة الدينيّة رهن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ﴿وَأَقَامُوا۟... فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾.

٥ ـ الدين هو المعيار في علاقات الحبّ والبغض بالنسبة للمسلم، ﴿فَإِن تَابُوا۟... فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾، وتقول الآية اللّاحقة: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟... فَقَٰتِلُوٓا۟﴾.

٦ ـ يجب أن يكون التعامل مع النادم والتوّاب تعاملاً أخويّاً، ﴿فَإِن تَابُوا۟... فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾.

٧ ـ الهدف من الحروب الإسلاميّة دخول المشركين تحت لواء التوحيد، ﴿فَإِن تَابُوا۟... فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾.

٨ ـ إلى الأمس القريب كان هؤلاء مهدوري الدم، لكنّهم بفضل توبتهم،

وصلاتهم، وزكاتهم، أصبحوا يتمتّعون بحقوق اجتماعيّة متساوية أسوة بالمسلمين، وقتالهم حرام، ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

٩ ـ يفتح العلم والمعرفة آفاق التدبّر في آيات الله، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝١٢﴾

إشارات:

- سُئل الإمام علي عليه السلام: لماذا تتبّعت الفارّين في معركة صفّين ولم تتبّعهم في معركة الجمل؟ فقال عليه السلام: في صفّين كان رأس الكفر لم يزل حيّاً وقد جمع حوله أتباعه ليعيدوا الكرّة، أمّا في معركة الجمل، فإنّه بمقتل قائد الجند، لم يبق لهم محور يجتمعون حوله.
- ويقول الإمام الصادق: «**من طعن في دينكم هذا فقد كفر**»، ثمّ تلا هذه الآية[1].

التعاليم:

١ ـ الارتداد عن الدين، واحد من أمثلة نقض العهود، والاستهزاء بالدين، ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟﴾؛ (ربّما في ذكر ﴿نَّكَثُوٓا۟﴾ بعد ﴿تَابُوا۟﴾ إشارة إلى الارتداد).

٢ ـ عقوبة الطعن بالإسلام والاستهزاء به هي الإعدام، ﴿وَطَعَنُوا۟... فَقَٰتِلُوٓا۟﴾؛ (يجب التصدّي بشدّة للمسيئين للمقدّسات الدينية).

٣ ـ الحكمة من الجهاد الإسلامي هو الدفاع عن الدين، ﴿نَّكَثُوٓا۟... وَطَعَنُوا۟... فَقَٰتِلُوٓا۟﴾.

٤ ـ لمّا كان نقض العهود والاستهزاء بالدين قد وقع من جانب رؤوس الكفر، إذن، فلا بدّ من محاربتهم، ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾.

▪ ـ عند القتال، يجب وضع مسألة القضاء على رؤوس التآمر ومركز القيادة

(١) تفسير نور الثقلين؛ ج٢، ص١٩٠.

والعمليات على رأس الأهداف، ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾.

٦ ـ لا تنخدعوا بأيّ يمين، فأيمان الناكثين لا اعتبار لها، ﴿لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾.

٧ ـ من جملة أهداف الجهاد الإسلامي الحيلولة دون تآمر الأعداء، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾

التعاليم:

١ ـ يجب شرح أهداف الحرب ودوافعها للمقاتل المسلم، ﴿نَّكَثُوٓاْ... وَهَمُّواْ... بَدَءُوكُمۡ﴾ (المعنى: أنّ الأعداء هم الذين بدأوا بنقض العهود، والتآمر على الرسول الكريم ﷺ، وإشعال فتيل الحرب).

٢ ـ حربكم حرب دفاعية، لأنّ العدوّ هو من بدأ قتالكم، ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ﴾.

٣ ـ عندما يشتد أوار الحرب، تجدر المقارنة بين نار الحرب ونار جهنّم لكي يسهل على المقاتل اتّخاذ القرار، ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾.

٤ ـ المؤمن الحقيقي لا يخشى إلّا الله تعالى، ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾

إشارات:

□ **سؤال:** ألم تقل الآية ٣٣ من سورة الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾؟ إذن، كيف نفسّر العذاب في هذه الآية؟

الجواب: المراد بالعذاب في تلك الآية هو العذاب السماوي العاصف كالذي نزل على قوم عاد وثمود، بينما العذاب في هذه الآية هو عذابات الحرب ومآسيها.

التعاليم:

١ ـ جبهات القتال هي مهبط المدد الإلٰهيّ، ﴿قَٰتِلُوهُمۡ... وَيَنصُرۡكُمۡ﴾؛ (منكم الحضور والجهاد ومن الله النصرة والمدد).

٢ ـ المقاتلون هم الذراع القوية للحقّ وأدوات تنفيذ حكم الله تعالى، ﴿يُعَذِّبۡهُمُ... بِأَيۡدِيكُمۡ﴾.

٣ ـ السنن الإلٰهيّة تجري بالأسباب والمجاري الطبيعية، ﴿بِأَيۡدِيكُمۡ﴾.

٤ ـ الهزيمة العسكرية للعدو تستتبع هزيمة نفسية وسياسية، ﴿يُعَذِّبۡهُمُ... وَيُخۡزِهِمۡ﴾.

٥ ـ يريد الله أن يهزم أعداء الدين ويذلّهم، وينصر المؤمنين ويعزّهم، ﴿وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ﴾.

٦ ـ من أهداف الحرب إبادة الكفر وإذلال الكافرين، وإنزال السكينة والطمأنينة على المؤمنين، ﴿يُعَذِّبۡهُمُ... وَيُخۡزِهِمۡ... وَيَشۡفِ صُدُورَ﴾.

٧ ـ الحثّ على القتال والدعاية ضرورية قبيل المعركة، والله يبشّر المؤمنين بشارة أكيدة، ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ... وَيَشۡفِ صُدُورَ﴾.

٨ ـ قلوب المسلمين دائماً (كلمى) من فعال الكافرين، وتموج بالألم والغيظ، ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾.

٩ ـ صحيح أنّ الحرب تترك مآسيَ كثيرة كالشهداء وتخلّف جروحاً غائرة في قلوب الكثير من العوائل المفجوعة، إلّا أنّها تحقّق للأمة الإسلاميّة حياة ملؤها العزّة والطمأنينة والكرامة. لاحظ أنّه ﷻ قال: ﴿صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾، ولم يقل: «صدوركم».

١٠ ـ مصائر المؤمنين في القضايا الاجتماعيّة متشابكة، وإنّ نصركم شفاء لقلوب سائر المؤمنين، ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ... وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾.

﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾

التعاليم:

١ ـ صحيح أنّ الهدف من الحرب هو نيل رضا الله تعالى والحيلولة دون الشرك،

والتآمر، ونقض العهود، غير أنّ من آثارها الجانبية والوضعيّة تسكين القلوب وطمأنة النفوس[١]، ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ﴾.

٢ ـ بعد النصر احتفوا بأولئك الذين يحضرون عندكم للتضامن والتآزر معكم، ولا تعتبوا عليهم قائلين: أين كنتم قبل الآن؟ ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾.

٣ ـ إيّاكم والصدّ عن أولئك الذين يأتون إليكم، بحجّة أنّهم يخدعونكم! فالله أعلم بالتوبة الحقيقية من الرياء، ولكن طبقاً للحكمة الإلٰهيّة، يجب أن نتقبّل ممّن دخل في الإسلام، ولكن مع اتّخاذ التدابير والاحتياطات اللازمة، ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةًۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

- هذه الآية، على غرار سابقاتها، تحثّ المسلمين على الجهاد.
- «الوَليجَة» من «الولوج» مثل كلمة «بطانة»، وتعني الأسرار والأمور الخفيّة، والمراد هنا، الخواص ممّن يُعتمد عليه في كتمان الأسرار.
- بحسب العديد من الروايات، فإنّ المقصود بالمؤمنين الحافظين للأسرار هم الأئمة عليهم السلام الذين لم يتّخذوا الولايج من دون الله[٢].

التعاليم:

١ ـ الكون ومتعلّقاته يسيرون نحو غاية وهدف. فلم يُترك الإنسان لمصيره وشأنه، إذن، يجب أن نغادر عالم الحدس والخيال، ونكون واقعيين، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾.

---

(١) في الآيات مثل ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ سورة الطلاق، الآية ٧؛ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ سورة الانشراح، الآية ٥، إشارة إلى حقيقة أنّ بعد الشدّة الفرج.

(٢) تفسير نور الثقلين.

٢ ـ دعوى الإيمان وحدها لا تكفي، فالذي يفرّق الصفوف عن بعضها هو العمل، والجهاد، والامتحان، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا﴾.

٣ ـ الفائزون في امتحان الإيمان هم الذين لا يبوحون بأسرار المجتمع الإسلامي إلّا إلى الله، والرسول، والمؤمنين الحقيقيين، ﴿وَلِيجَةً﴾؛ (في صدر الإسلام كان بعض الأفراد تربطهم علاقات بالغرباء).

٤ ـ إفشاء الأسرار والمعلومات للغرباء واتّخاذهم بطانة ومخزناً للأسرار، حرام، وهو دليل ضعف وعدم إيمان، وموضع تحذير وتوبيخ، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا... وَلِيجَةً﴾.

٥ ـ مسؤولية المسلمين إزاء الأعداء الأجانب هي الجهاد، وإزاء أعداء الداخل الكتمان وعدم اتّخاذهم بطانة، ﴿جَاهَدُوا... وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾.

٦ ـ الله عليم بأحوال الناس وسرائرهم، وبالتالي فهو لا يحتاج إلى امتحانهم، غير أنّ الامتحان سنّة إلهيّة، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ﴾.

٧ ـ إذا أفشيتم أسراركم للأجانب، فإنّ الله عليم بذلك وسوف يحاسبكم عليه، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

□ صحيح أنّ سبب نزول الآية الكريمة هو عمارة المسجد الحرام، إلّا أنّ حكمها يشمل جميع المساجد، من هنا استعملت الآية لفظة «**مساجد**» بصورة عامة، لا «**المسجد الحرام**» خاصة.

□ سدانة المسجد الحرام، وعمارته، والعناية به، وتولّي شؤونه كانت بيد المشركين منذ صدر الإسلام وحتى فتح مكّة.

□ من النقاط التي تضمّنها إعلان البراءة الذي تلاه الإمام علي عليه السلام على

المشركين، هو سلب المشركين حقّ عمارة المسجد الحرام، بل منعهم من دخول المسجد الحرام أيضاً، (والذي سيأتي ذكره في الآية ٢٧).

التعاليم:

١ ـ ليس للكفّار ولا المشركين دور في بناء المساجد والمؤسّسات الدينيّة والثقافيّة للمسلمين، ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

٢ ـ لا ينبغي الاستعانة بأموال الأغيار في بناء وإدارة المراكز والمؤسّسات المقدّسة، حتى لا يصبح ذلك ذريعة لتدخّلهم، وفخرهم، وطمعهم، ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

٣ ـ العمل وحده لا يكفي، فالنوايا لها دور رئيس، ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا﴾.

٤ ـ ليس كلّ دخل مشروعاً، ولا كلّ مشاركة ذات قيمة. فلا تدعوا حبّكم لبناء المساجد يجنح بكم نحو إشراك الكفّار في الشؤون الدينية لأن هذا دخلٌ غير مشروع وإشراك بلا قيمة، ﴿أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾.

٥ ـ أولئك الذين يجهرون باللادينية، لا يحقّ لهم التدخّل في الشؤون الدينية، ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾.

٦ ـ المشرك هو نفسه الكافر، ﴿لِلْمُشْرِكِينَ... شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾.

٧ ـ الكفر هو سبب محق أعمال الكفّار، وفسادها، وحبطها، ﴿بِالْكُفْرِ... حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

- تعتبر المساجد قواعد مهمّة لعبادة المسلمين واجتماعهم. من هنا، ينبغي للقائمين عليها أن يكونوا أفراداً صالحين ومنزّهين، ويحملون برامج بنّاءة

وتربوية، وأن تكون مداخيلهم حلالاً لا يشوبها المال الحرام، علاوة على ذلك يجب أن يكونوا أشخاصاً ورعين، ومؤمنين، وموضع تكريم وتقدير؛ لأنّه إذا كان عمّار المساجد من الطغاة والسلاطين، وأئمتها من الجهلة والجبناء، وخدمتها أفراد متراخين وكسالى، فلا شكّ في أنّه، في هذه الحالة، ستظلّ المساجد بعيدة عن هدفها الأصلي وهو البناء المعنوي والروحي للإنسان.

- يقول المرحوم الفيض الكاشاني في تفسيره «الصافي»: إنّ عمارة المسجد تشمل ترميمه، وتنظيفه، وفرشه بالسجّاد، وإنارته، وإقامة حلقات التدريس والدعوة فيه.
- وردت في القرآن الكريم كلمة الزكاة ٣٢ مرّة، ٢٨ مرّة منها إلى جانب كلمة الصلاة.
- يقول رسول الله ﷺ: **«إذا رأيتم الرّجُلَ يعتاد المسجدَ فاشهَدُوا له بالإيمان»**(١).

وفي الحديث الكثير من الثناء على من يعتاد المساجد ومن ذلك: **«جليس المسجد على ثلاث خصال أخ مستفاد، أو كلمة محكمة، أو رحمة منتظرة»**(٢).

التعاليم:

١ ـ سدانة المساجد وعمارتها تتطلّب شروطاً هي:

أ) شرط عقدي، الإيمان بالمبدأ والمعاد، ﴿ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

ب) شرط عملي، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ﴿وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ﴾.

ج) شرط روحي، الشجاعة والتحصّن، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ (إذا كان سادن المسجد فرداً شجاعاً، فسيضحي المسجد مركزاً لمقارعة الظلم).

٢ ـ واجب سدنة المساجد وعمّارها، مساعدة المحرومين، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ... وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ﴾.

---

(١) تفسير الدرّ المنثور.

(٢) وسائل الشيعة؛ تفسير الدرّ المنثور.

٣ ـ لا ينفصم الإيمان عن العمل، ﴿ءَامَنَ... وَأَقَامَ﴾، ولا تنفصل الصلاة عن الزكاة، ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ولا ينفصم المسجد عن الثورة، ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ... وَلَمْ يَخْشَ﴾.

٤ ـ يجب أن لا نغترّ، حتى مع توافر شروط الإيمان، والعمل الصالح، والصلاة، والزكاة، والشجاعة؛ لأنّ خطر الانحراف قائم دائماً، ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

❑ ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة أنّ شيبة والعباس كان يفتخر كلّ منهما على صاحبه، وبينما هما يتفاخران إذ مرّ عليهما علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: «**فيم تتفاخران؟**»، فقال العباس: حُبيت بما لم يُحبَ به أحد وهو سقاية الحاج، فقال شيبة: إنّي أعمر المسجد الحرام، وأنا سادن الكعبة، فقال علي عليه السلام: «**على أنّي مستحيٍ منكما، فلي مع صغر سنّي ما ليس عندكما**»، فقالا: وما ذاك؟ فقال: «**جاهدت بسيفي حتى آمنتما بالله ورسوله** صلى الله عليه وآله». فخرج العباس مغضباً إلى النبي الكريم صلى الله عليه وآله شاكياً علياً عليه السلام، فقال: ألا ترى ما يقول؟ فقال النبي الكريم صلى الله عليه وآله: «**ادعُ لي علياً**»، فلّما جاءه عليّ قال صلى الله عليه وآله: «**لِمَ كلّمت عمّك العباس بمثل هذا الكلام**»؟ فقال عليه السلام: «**إذا كنت أغضبته، فلما بيّنتُ من الحقّ، فمن شاء فليرضَ بالقول الحقّ ومن شاء فليغضب**». فنزل جبرئيل عليه السلام وقال: «**يا محمّد إنّ ربّك يقرئك السلام ويقول: اتلُ هذه الآيات:** ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ الكافي، ج ٨، ص ٢٠٤.

□ يُشار إلى أنّ الإمام علياً عليه السلام احتجّ مراراً بهذه الآية للتأكيد على فضله، وذلك لأنّ الإيمان والجهاد أفضل وأشرف من الخدمات غير المعنوية التي كان يقدّمها المشركون أيّام الشرك.

التعاليم:

١ ـ ينبغي أن لا يؤخذ المرء بالعمل وحده، فالعمل بلا إيمان، هو سراب، وزيف، وجسد بلا روح، ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ... كَمَنْ آمَنَ﴾.

٢ ـ المجاهد المخلص أعظم درجة، وإن كان للآخرين خدمات في مجالات أخرى، ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ... كَمَنْ... وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٣ ـ المساواة بين المجاهدين المؤمنين وبين الآخرين، أمر مذموم ومثال للظلم الاجتماعي، ﴿أَجَعَلْتُمْ... كَمَنْ... وَجَاهَدَ... الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الإيمان، والهجرة، والجهاد كالتقوى، على رأس جميع الفضائل، ﴿آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا... أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾.

٢ ـ إذا كان معيار الفضل عند الناس هو العلاقات العشائرية والعرقية، فالإيمان، والهجرة، والجهاد هي المعيار في ميزان الحساب الإلٰهيّ[1]، ﴿عِندَ اللَّهِ﴾.

٣ ـ الإيمان هو الأساس في الفضائل الأخرى، ﴿آمَنُوا﴾.

٤ ـ النيّة هي أساس الفضل في جميع الأعمال، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٥ ـ الفوز والفلاح إنّما يتحقّقان في ظلّ الإيمان والهجرة والجهاد، ﴿آمَنُوا... وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

---

(١) لو اجتمع المسلمون وصحابة النبي الكريم صلى الله عليه وآله كلّهم في صفّ واحد، فمن سيكون أوّلهم إيماناً وأطولهم مكوثاً في الجبهات وأكثرهم تعرّضاً للمصائب والمحن غير الإمام علي عليه السلام؟

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

□ الإنسان ضئيل وفانٍ، لكنّ الله تعالى يشتريه بأغلى الأثمان، ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، على الرغم من أنّه تعالى هو الواهب لكلّ ما نملك.

التعاليم:

١ ـ الله تبارك وتعالى يبشّر المؤمنين المهاجرين والمجاهدين بالجنّة[1]، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾.

٢ ـ دليل جامعية وشموليّة الدين هو انسجامه مع الفطرة، وزرعه الأمل في نفوس أتباعه، ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾.

٣ ـ البشارة والثواب من شؤون الربوبيّة، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾.

٤ ـ الحظوة بالرحمة الإلٰهيّة وجنّة الرضوان دليل فوز وفلاح، ﴿الْفَائِزُونَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾.

٥ ـ رحمة الله تعالى ورضوانه، فوق النعم المادّية، ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ﴾؛ (لاحظ أنّ الرحمة والرضوان وردتا قبل الجنّة).

٦ ـ روضات الجنّات زاخرة بالنعم[2]، ﴿نَعِيمٌ﴾.

٧ ـ إذا غضضنا النظر عن النعم الفانية في سبيل مرضاة الله، فسوف نصل إلى النعيم الأبدي، ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

٨ ـ الفناء آفة النعم الدنيوية، وهذه الآفة غير موجودة في الثواب الأخروي القيامة، ﴿مُّقِيمٌ... خَالِدِينَ... أَبَدًا﴾.

---

(١) وردت بشارات أخرى في آيات كثيرة مثل: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ سورة الإنسان، الآية ٢١؛ ﴿صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ سورة البقرة: الآية ١٥٧.

(٢) جاء في مفردات الراغب أنّ النعيم هو النعمة الكثيرة.

٩ ـ الثواب الأكبر بيده وحده ﷻ، أمّا ثواب الآخرين أيّاً كانوا ومهما كانوا، فهو ثواب ضئيل وحقير مهما عظُم، فذكر كلمة ﴿عِندِهِۦ﴾ قبل ﴿أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ علامة على الحصر.

١٠ ـ الله تعالى يصف الدنيا كلّها بأنّها قليلة، وثواب المجاهدين بال «عظيم».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

- تهديدات القرآن الكريم إزاء التحذير من القبول بولاية الكفّار مرعبة، فمن هذه التهديدات، ما ورد في سورة المائدة ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾[1].

  وكذلك في سورة آل عمران: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾[2].
- تعرّض بعض المسلمين الذين هاجروا إلى المدينة لغضب الوالدين، لكنّهم آثروا الدفاع عن حمى الدين على رضاهم.
- ينبغي رفض ولاية الوالدين المشرِكَيْن، لكنّ هذا شيء، وبرّهما شيء آخر.

التعاليم:

١ ـ ليس للأب الكافر ولاية على ابنه المسلم؛ لأنّ حفظ الروابط الدينيّة أهمّ من أي رابطة، ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾.

٢ ـ لا ينبغي للعواطف أن تتغلّب على القيم الدينية، ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ﴾.

٣ ـ ولاية الكافر لا تجوز، وإن كان أقرب شخص، ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ... أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ﴾.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥١.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٢٨.

٤ ـ ضوابط الدين والعقيدة مقدّمة على أيّ قرابة أو نسب، ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ... إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ﴾.

٥ ـ القبول بولاية الكفّار ظلم، ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾

إشارات:

- سأل الإمام علي عليه السلام جماعة: لماذا لا تهاجرون إلى المدينة وتلتحقون بالنبي الكريم صلى الله عليه وآله وتنصرونه؟ فقالوا: إنّنا مع أخوتنا وأرحامنا، ونُدافع عن ديارنا[1].
- الطوائف التي استعرضتها الآية الكريمة هنا هي من باب المثال، ولهذا السبب فإنّ ذكر الآباء يشمل الأمهات أيضاً، والأبناء يعني الذكور والإناث، والإخوان يشمل الإخوة والأخوات.

التعاليم:

١ ـ يمكن معرفة إيمان المرء حين يقف على مفترق طريقي الدنيا والآخرة، ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ﴾.

٢ ـ لاجتياز الجسور المادّية، يجب ترسيخ المعتقدات والتقرّب إلى الله تعالى، ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ... وَأَمۡوَٰلٌ... أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾.

٣ ـ لا ينبغي لعوامل القرابة، والرحم، وتوافر الإمكانات المادّية أن تكون حاجزاً دون الجهاد، وحيثما أصبحت كذلك، سوف تكون مقدمة للغضب الإلٰهيّ، ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ... وَأَمۡوَٰلٌ... أَحَبَّ... فَتَرَبَّصُواْ...﴾؛ (يجب التضحية بكل شيء من أجل التقرّب إلى الله والجهاد في سبيله. ذلك أنّ المحافظة على الدين أولى

(١) الميزان في تفسير القرآن.

من المحافظة على علاقات الرحم، والعاطفة، والمنافع الاقتصاديّة).

٤ ـ إذا شكّلت الرفاهية والرخاء ركناً أساساً في الحياة، فسوف تسقط الإنسانيّة وتبتعد عن الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ، وحينذاك على الإنسانيّة أن تنتظر عذاباً إلهياً من حيث لا تحتسب، ﴿يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

٥ ـ المترفون اللامسؤولون لن تشملهم الهداية الإلٰهيّة، ﴿لَا يَهْدِى﴾.

٦ ـ ترجيح الأمور المادّية على القيم المعنوية دليل فسق، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم... ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ (الخط الفاصل بين الإيمان والفسق هو ترك القيم المعنوية).

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

- الآيات السابقة تشجّع على الجهاد وتحذّر من الموانع والعلائق المعيقة له، وهنا تستعرض الآية ألطاف الله ومدده الغيبي لتزرع الدوافع الجهادية في الإنسان.
- وقوله ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ ذكر لنصرته تعالى لهم في مواطن كثيرة ومواضع متعدّدة، ويدل السياق على أنها مواطن الحروب كوقائع بدر، وأحد، والخندق، وخيبر، وغيرها، وقد بلغ تعدادها ٨٠ موطناً[1].
- روي أنّه: عندما سُمّ الخليفة العباسي المتوكّل، نذر إن عوفي أن يتصدّق بمالٍ كثير، فلمّا عوفي سأل الفقهاء عن حدّ المال الكثير فاختلفوا عليه فقال بعضهم: مئة ألف، وقال بعضهم: عشرة آلاف، فقالوا فيه أقاويل مختلفة، فاشتبه عليه الأمر فقال رجل من ندمائه يقال له صفعان: ألا تبعث إلى هذا الأسود فتسأل عنه؟ فقال له المتوكّل: من تعني ويحك، فقال له: ابن الرضا، فقال له: وهو يحسن من هذا شيئاً؟ فقال: إن أخرجك من هذا فلي عليك كذا

---

(١) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج٧، ص ٤٦٤.

وكذا وإلّا فاضربني مئة مقرعة، فقال المتوكّل: قد رضيت يا جعفر بن محمود، صر إليه وسله عن حدّ المال الكثير، فصار جعفر بن محمود إلى أبي الحسن علي بن محمد عليه السلام فسأله عن حدّ المال الكثير فقال: «الكثير ثمانون»، فقال له جعفر: يا سيدي إنّه يسألني عن العلّة فيه، فقال أبو الحسن عليه السلام: «إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ فعددنا تلك المواطن فكانت ثمانين»[1].

ملامح معركة حنين

- حُنين منطقة قريبة من الطائف، وسمّيت الغزوة باسمها لوقوعها فيها، وقد عُبّر عنها في القرآن بـ «يوم حنين»، ولها من الأسماء غزوة أوطاس وغزوة هوازن أيضاً، وذلك لأنّ إحدى القبائل تُدعى هوازن قد شاركت فيها.

في العام الثامن للهجرة، عقد النبي الكريم ﷺ لواءه وسلّمه عليّاً عليه السلام، وأمر حملة الرايات الذين ساهموا في فتح مكّة أن يتوجّهوا براياتهم مع علي بن أبي طالب عليه السلام إلى حُنين، وقد كان عددهم حوالي عشرة آلاف رجل، وانضمّ إليهم ألفا شخص كانوا قد أسلموا في فتح مكّة، فصاروا حوالي اثني عشر ألفاً.

وقعت الحرب بعد صلاة الصبح حينما فوجئ المسلمون بهجوم هوازن من كلّ جانب وأصبح المسلمون مرمى لسهامهم، ففرّ معظم المقاتلين حديثي الإسلام من مقدّمة الجيش، فكان أن ذُهل المسلمون واضطربوا وفرّ الكثير منهم، إلّا أنّ عليّاً عليه السلام حامل لواء النبي الكريم ﷺ بقي يقاتل مع عدّة قليلة، وكان النبي في قلب الجيش وحوله بنو هاشم، وفيهم عمّه العباس، وكانوا لا يتجاوزون تسعة أشخاص عاشرهم أيمن بن أمّ أيمن، فمرّت مقدمة الجيش في فرارها من المعركة على النبيّ فأمر النبي عمّه العباس ـ وكان جهير الصوت ـ أن يصعد على تلّ قريب وينادي فوراً: يا معشر المهاجرين والأنصار، يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، إلى أين تفرّون؟ هذا رسول الله ﷺ، فلمّا سمع المسلمون صوت

(١) تفسير أطيب البيان.

العبّاس رجعوا وقالوا: لبّيك لبّيك، ولا سيّما الأنصار إذ عادوا مسرعين وحملوا على العدوّ من كلّ جانب حملة شديدة، وتقدّموا بإذن الله، فنصرهم، بحيث تفرّقت هوازن شذر مذر مذعورة، والمسلمون ما زالوا يحملون عليها، فقُتل حوالي مئة شخص من هوازن، وغنم المسلمون أموالهم كما أسروا عدّة منهم، فانتهت الحرب بنصر من الله مؤزّر للمسلمين. ولقد قيل كلام كثير حول عدد الأسرى ومقدار الغنائم التي حصل عليها المسلمون، وكيفية تقسيمها وما عرض لهذه الحرب وما تمخّضت عنه، وقد بسطت مصادر التاريخ وكتب المغازي الحديث في ذلك.

التعاليم:

١ ـ السبب الرئيس وراء انتصار المسلمين في صدر الإسلام هو النصرة والمدد الإلٰهيّ، ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ...﴾.

٢ ـ ذكر الألطاف الإلٰهيّة، يقوّي المعنويات والإيمان في الإنسان، ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٣ ـ معركة حُنين ذات أهميّة كبرى. (عبارة ﴿مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ تشمل معركة حُنين أيضاً، وقد ذكرت بشكل مستقل لأهميّتها)، ﴿مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾.

٤ ـ أحياناً تؤدّي الكثرة والإمكانات المادّية إلى الغرور والغفلة، وبالتالي إلى الهزيمة، ﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾.

٥ ـ لا تنقطع الحاجة إلى المدد الإلٰهيّ في أيّ وقت، سواء في حال الضعف أم في حال القوّة والقدرة. فالمسلمون في معركة بدر كانوا قلّة، لكنّهم انتصروا بفضل النصرة الإلٰهيّة، وفي حُنين كانوا كثرة، ولكن لم تُغنِهم كثرتهم شيئاً لولا النصرة الإلٰهيّة، ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ... وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾.

٦ ـ لا تأثير للأسباب المادّيّة لولا المشيئة الإلٰهيّة، ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾.

٧ ـ أحياناً، يستدعي الأمر تذكير الإنسان بنقاط ضعفه لحمله على التعبّد والتواضع، ولتحطيم غروره وكبريائه الفارغ، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾

إشارات:

- وردت كلمة «سكينة» ستّ مرات في القرآن الكريم، خمس منها لأغراض الحرب.
- لقد تعدّدت ألطاف الله تعالى على المؤمنين في معركة حُنين فبلغت أربعة أنواع، هي: السكينة، جنود غير مرئيين، العذاب على الكفّار، وقبول توبة الفارّين، (كما سيأتي ذلك في الآية اللّاحقة).
- قال رجل من الكفّار للمؤمنين وهو أسير في أيديهم: أين الخيل البلق والرجال عليهم الثياب البيض؟ فإنّما كان قتلنا بأيديهم، وما كنّا نراكم فيهم إلا كهيئة الشامة، قالوا: تلك الملائكة[1].

التعاليم:

١ ـ سقطات المقاتلين وزلّاتهم في جبهات القتال، تؤدّي إلى حرمانهم من المدد الإلٰهيّ الغيبي، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾.

٢ ـ المدد الغيبي هو سرّ انتصار المسلمين، ﴿أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾.

٣ ـ امتلاك المعنويات العالية والسكينة المنبثقة عن الإيمان من العوامل الرئيسة لإحراز النصر في المعارك، ﴿سَكِينَتَهُ﴾.

٤ ـ السكينة والاطمئنان ضروريان للقائد ولأتباعه في آنٍ معاً، ﴿سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، ففي هذه الآية أنزل الله سكينة على الرسول ﷺ الذي كان قلقاً من فرار المقاتلين واضطراب الناس، وعلى الناس الذين أصابهم الفزع.

٥ ـ الله تبارك وتعالى هو الذي أنزل السكينة الروحية على المؤمنين ﴿سَكِينَتَهُ﴾،

---

(١) تفسير الصافي.

وفي آية أخرى يقول ﷻ: ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1].

٦ ـ الإيمان بحضور الملائكة والمأمورين الإلٰهيّين في المعركة لنصرة المؤمنين هو عقيدة قرآنية، ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

٧ ـ الموت في المعركة لمن يؤمن بالمبدأ والمعاد فخر، وهو للكافرين عذاب، ﴿وَعَذَّبَ﴾.

٨ ـ عاقبة جميع الكفّار الهزيمة والذلّة، ﴿وَعَذَّبَ... وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٧﴾

التعاليم:

١ ـ قبول التوبة ليس واجباً على الله تعالى، بل هو فضل مرتبط بحكمته، ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

٢ ـ الله تبارك وتعالى، يغفر ذنوب الإنسان ويرأف به ويحبّه، ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٨﴾

إشارات:

- واحدٌ من البنود الأربعة التي تلاها الإمام علي عليه السلام على المشركين في موسم الحجّ في العام التاسع للهجرة هو أنّه لن يحقّ لهم ابتداءً من العام القادم دخول المسجد الحرام.

التعاليم:

١ ـ الشرك نجسٌ، ﴿نَجَسٌ﴾، والطهارة الحقيقيّة هي في ظلّ الإيمان.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٨.

٢ ـ على المؤمن أن يبرأ من المشرك وينفر منه، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

٣ ـ عند إعلان برامجنا وآرائنا، ينبغي أن نلاحظ قدرتنا على التنفيذ، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ (صحيح أنّ نجاسة المشركين تتعلّق بالعام التاسع للهجرة، ولم يكن ذلك عام البراءة، إلّا أنّ البراءة أعلِنت بسبب تعاظم شوكة المسلمين وقوّتهم).

٤ ـ الاقتراب مقدّمة للدخول؛ لذا لا يجوز للمشركين حتى الاقتراب من البقاع المقدّسة، ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ﴾.

٥ ـ لقد بيّن الله ﷻ الحكمة وراء بعض النهي والتحريم الذي ورد في القرآن الكريم، ﴿نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ﴾.

٦ ـ ليست كلّ البقاع متساوية في القداسة، ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾.

٧ ـ لا بدّ من المداراة مع المناوئين وإمهالهم، ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ﴾.

٨ ـ عند إصدار الأحكام والتعليمات يجب الانتباه إلى ما يترتّب عليها من توتّرات ونتائج، ﴿نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ... وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً...﴾.

٩ ـ حذار أن تعمل الضائقات الاقتصاديّة والضغوط المالية على تراخي التزامنا بديننا، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾.

١٠ ـ حيثما برز شعور اجتماعي بالقلق، ألحّت الحاجة على بعث روح الأمل والتوكّل على الله في الناس، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

١١ ـ أرزاقنا ليست بيد الآخرين (المسافرين والسيّاح) بل بيد الله تعالى، ﴿يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾.

١٢ ـ لا تقلقوا لقطع العلاقات الاقتصاديّة مع الكفّار إذا كان من أجل الدين، ﴿يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾.

١٣ ـ الناس مدينون بغناهم للفضل الإلٰهيّ أوّلاً ثمّ مهارتهم، وحنكة إدارتهم،

وقوة رأسمالهم ثانياً، ﴿يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

١٤ ـ أحكام الدين قائمة على علم الله وحكمته، ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

إشارات:

- كان الكلام في الآيات السابقة عن نجاسة المشركين وضرورة قتالهم، وهذه الآية تشرح أسلوب التعامل مع أهل الكتاب، إذ تضع أمامهم طريقين هما: الحرب أو دفع الجزية.

- كما أنّ المسلمين وفي مقابل دفعهم الخُمس والزكاة للدولة الإسلاميّة يحصلون على الخدمات والأمن، فإنّ أهل الكتاب، أيضاً، عبر دفعهم مبلغاً معيّناً (الجزية) يقومون، إلى حدّ ما، بتأمين نفقات قيام الدولة بواجباتها تجاههم.

القائد الإسلامي هو الذي يقرّر مقدار الجزية. وبطبيعة الحال، يجب أن لا تكون مرتفعة بحيث تُثقل كاهل أهل الكتاب، ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾.

سُئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ما حدّ الجزية على أهل الكتاب؟ وهل عليهم في ذلك شيء موظف لا ينبغي أن يجوزوا إلى غيره؟ فقال: «**ذلك إلى الإمام يأخذ من كلّ إنسان منهم ما شاء على قدر ما له بما يطيق إنّما هم قوم فدوا أنفسهم من أن يُستعبدوا أو يُقتلوا، فالجزية تؤخذ منهم على قدر ما يطيقون له أن يأخذهم به حتى يسلموا، فإنّ الله تبارك وتعالى قال: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ وكيف يكون صاغراً وهو لا يكترث لما يؤخذ منه، حتى يجد ذُلّاً لما أخذ منه، فيألم لذلك فيُسلم**»[1].

- من المعلوم أنّ أهل الكتاب يؤمنون بالله وبيوم القيامة؛ لكنّا نلاحظ أنّ الآية

---

(١) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ٣، ص ٥٦٦.

الكريمة تصفهم بأنّهم لا يؤمنون، ذلك أنّ القرآن الكريم يصف الذين يؤمنون ببعض المعارف وينكرون بعضها الآخر بأنّهم كافرون[١]. هذا فضلاً عن أنّ الإيمان بالمبدأ والمعاد إذا كان مختلطاً بالخرافات فهو بمثابة الكفر[٢].

التعاليم:

١ ـ إذا لم يعمل أهل الكتاب بتعاليم أنبيائهم فهم عاصون، ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ... وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ وحده الدين الإسلامي دين الحقّ، وسائر الأديان الأخرى ليست كذلك؛ لأنّها محرّفة ومشوبة بالخرافات، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾.

٣ ـ أمام كفّار أهل الكتاب طريقان لا ثالث لهما: إمّا الحرب أو دفع الجزية، ﴿قَٰتِلُواْ... حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾.

٤ ـ فرض الضرائب على أفراد أهل الكتاب إلزامي، ويجب أن يتمّ ذلك من منطلق قوّة وأن يكون المال المستوفى نقداً، ويكونوا صاغرين، ﴿عَن يَدٖ... صَٰغِرُونَ﴾.

٥ ـ لا بدّ للدولة الإسلاميّة أن تمتلك القوة والمنعة حتى يخضع لها الآخرون، ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ... وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾.

٦ ـ يجب أن تخضع الأقليات الدينيّة للنظام الإسلامي، ﴿صَٰغِرُونَ﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠﴾

إشارات:

□ «عُزير»، في لغة العرب و«عَزرا» في لغة اليهود، مثلما «عيسى» معرّب «يَسوع» و«يحيى» معرّب «يوحَنّا».

---

(١) ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ... هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ سورة النساء: الآية ١٥٠.

(٢) تفسير الصافي.

عُزير هو أحد كبار علماء اليهود، وله مكانة خاصة في تاريخهم، حتى إنّهم يسمّونه «**منقذ اليهود**»، وذلك لأنّ نبوخذنصّر ملك بابل قتل رجالهم، وهدّم معابدهم، وأحرق توراتهم، وسبى نساءهم، وجاء بهم إلى بابل فمكثوا هناك، حتى جاء كورش ملك فارس وفتح بابل، فجاءه عزير فاستشفعه في اليهود فشفّعه فيهم، فرجعوا إلى ديارهم.

- هذه الآية، على نحوٍ ما، توضيح ودليل للآية التي سبقتها والتي قالت: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.
- يعتقد الباحثون أنّ الكثير من تعاليم التوراة والإنجيل قد اختلطت بخرافات البوذيين، والبراهمة، ومعتقدات الإغريق، حتى إنّ الكثير من قصص الإنجيل موجودة في الديانة البوذية والبراهمانية.

بطبيعة الحال، فاليهود في عصرنا الحاضر لا يؤمنون ببنوّة عزير لله، لكنّهم كانوا كذلك في عصر النبي الكريم ﷺ، ونحن نقرأ في الروايات أنّ الرسول ﷺ سألهم بما مؤدّاه (إذا كنتم تُجلّون عزيراً، وتكرّمونه لخدماته العظمى، وتطلقون عليه هذا الاسم، فعلام لا تسمّون موسى وهو أعظم عندكم من عزير بهذا الاسم؟ فلم يجدوا للسؤال جواباً وأطرقوا برؤوسهم[1].

التعاليم:

١ ـ على الرغم من أنّ فئة صغيرة من اليهود تؤمن بأنّ عزيراً ابن الله، ولكنّ القرآن الكريم يصف الطائفة برمّتها بالانحراف، والسبب هو أنّ الآخرين سكتوا عن هذا الفعل ولم يعترضوا، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾.

٢ ـ حذار من الغلوّ في شأن الشخصيات الدينيّة والإلهيّة، ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ...﴾.

٣ ـ اختلطت معتقدات اليهود والنصارى بالخرافات، ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾.

٤ ـ عقيدة المشركين هي أنّ الأصنام شركاء لله، والملائكة بنات الله، ويؤمن

(١) تفسير الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

اليهود بأنّ عزيراً ابن الله، ويؤمن المسيحيون بأنّ عيسى ابن الله، من هذا المنطلق فإنّ كلامهم يضاهي كلام الكفّار، ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

٥ ـ يعود أصل الخرافات في الديانتين اليهودية والمسيحية إلى معتقدات الكفّار في الأمم السابقة، ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

- «**أَحبار**»، جمع «حبر»، ومعناه العالِم، و«**رُهبان**»، جمع «راهب»، وتطلق على من ترك دنياه وسكن الدير وأكبّ على العبادة. وهؤلاء على الرغم من قدسيّتهم، فهم لا يخرجون عن كونهم عباداً لله لا معبودين.
- طاعة الأحبار والرهبان دون قيد أو شرط هي نوع من العبادة، والإمام الصادق عليه السلام يقول: «**مَن أطاعَ رجلاً في معصية اللّهِ فقد عَبَدَه**»(١).
- وعنه عليه السلام أيضاً: «**والله ما صلّوا ولا صاموا لهم ولكنّهم أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً فاتّبعوهم**»(٢).
- في يوم القيامة تأخذ المشركين حسرات لأنّهم جعلوا لله شركاء، ويقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٣).

التعاليم:

١ ـ الطاعة المطلقة لغير الله نوع من العبادة، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾.

٢ ـ عبادة الإنسان بأيّ شكل كانت، شرك. يجب أن لا نحوّل أيّ شخصيّة إلى صنم يُعبد، ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.
(٢) بحار الأنوار، ج٢، ص ٩٨.
(٣) سورة الشعراء: الآية ٩٨.

٣ ـ النبي المعصوم الذي لا همّ له ولا هدف سوى الله تعالى، مقامه يختلف عن مقام العلماء؛ لذلك نجد أنّ اسم المسيح ذُكر مستقلاً في الآية، ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ... وَالْمَسِيحَ﴾.

٤ ـ يجب أن تكون للمحبّة والطاعة حدود، فأيّ نظام، أو قطب، أو مراد، أو مرشد، أو طاعة لتشكيل أو حزب... إلخ؛ إذا لم ينتهل من نمير الوحي والأمر الإلٰهيّ فلا يعدو عن كونه شركاً، ﴿اتَّخَذُوا... أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾.

٥ ـ خطر الجنوح عن التوحيد نحو الشرك قائم في كلّ عصر ومصر، ﴿اتَّخَذُوا... أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾.

٦ ـ التشريع بيد الله تعالى وحده. وأولئك الذين يؤمنون بغير شريعة الله، قد خرجوا عن نطاق الإسلام، ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾.

٧ ـ الغلوّ في الأنبياء أو عبادتهم أو القول إنّهم أبناء الله، كلّ ذلك شرك، ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

إشارات:

□ صعد رسول الله ﷺ المنبر فقال: «**إنّ الله نظر إلى أهل الأرض نظرة فاختارني منهم، ثمّ نظر ثانية فاختار عليّاً أخي، ووزيري، ووارثي، ووصيّي، وخليفتي في أمّتي، ووليّ كلّ مؤمنٍ بعدي، من تولّاه تولّى الله، ومن عاداه عادى الله، ومن أحبّه أحبّ الله، ومن أبغضه أبغض الله، والله لا يحبّه إلّا مؤمن، ولا يُبغضه إلّا كافر، وهو نور الأرض بعدي وركنها، وهو كلمة التقوى والعروة الوثقى**»، ثمّ تلا هذه الآية[1].

(١) بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٣٢٠.

التعاليم:

١ ـ مؤامرات الأعداء لا تتوقّف، ﴿يُرِيدُونَ﴾؛ (صيغة الفعل المضارع تدلّ على الاستمرار).

٢ ـ أحكام الإسلام ودين الله نور على نور وينبوع الحياة، ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ الكفّار مذاهب، كلّ مذهب يسعى ويستميت، لكنّهم جميعاً يلتقون عند هدف واحد وهو إطفاء شعلة الدين، ﴿يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ استماتة الكفّار في محاربة الدين كمن ينفخ في الشمس ليطفئها[١]، ﴿يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

٥ ـ الدعاية، واحدة من محاولات أعداء الدين، ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

٦ ـ إذا كانت دعوة الإسلام على لسان النبي الكريم ﷺ نوراً، فلا شكّ أنّ استمرارها في الإمامة إتمام للنور[٢]، ﴿يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾.

٧ ـ الله تبارك وتعالى يزفّ بشرى النصر لأنصار الحقّ، ﴿أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ...﴾.

٨ ـ الله تعالى يحفظ شعلة الدين، لا بل ينشرها، ﴿يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾.

٩ ـ فليعلم الكفّار أنّهم يواجهون الإرادة النافذة لله تعالى والقاضية بنصرة دين الحقّ، وأنّ أيّ محاولة ضدّ الدين الإسلامي محكومة بالفشل والخذلان، ﴿يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾.

١٠ ـ الإسلام دين خالد ﴿يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، ومن يعاديه فهو كافر، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

١١ ـ إرادة الله تعالى تسير باتجاه إرضاء نبيّه الكريم ﷺ، وإن لم يعجب ذلك الكافرين[٣]، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

---

(١) آل النمرود، وآل فرعون، وبنو أميّة، وبنو العبّاس أمثلة حيّة على الكفّار.

(٢) كما في آية إكمال الدين إذ تطرح مسألة الإمامة بوصفها إتماماً للنعمة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ (سورة المائدة: الآية ٣).

(٣) كما في قصّة تغيير القبلة إذ ولّى نبيّه الكريم ﷺ قبلة رضي بها ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ (سورة البقرة: الآية ١٤٤)، وكذلك ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ (سورة الضحى، الآية ٥).

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾

إشارات:

- لقد وردت هذه الآية الكريمة نفسها تقريباً في سورتين أخريين أيضاً هما: الآية ٢٨ من سورة الفتح، والآية ٩ من سورة الصف.
- الدين الإسلامي هو المنتصر دوماً بما يتوافر عليه من منطق ودلائل، غير أنّ مراد هذه الآية هو السيطرة الفعلية الظاهرية وبسط حاكميّة الإسلام على العالم. ويدلّ على ذلك أنّ كلمة «ظهر» جاءت في آيات أخرى بهذا المعنى، أي الغلبة والسيطرة، كما في الآية ﴿إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ﴾[1]. وآية أخرى حول الكفّار ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ﴾[2].
- من جهة، إنّ هذه الآية لم يتحقّق مضمونها على أرض الواقع بعد، ومن جهة ثانية، نعلم أنّ الله تبارك وتعالى قد وعد بالحاكمية المطلقة والشاملة للإسلام، وهو جلّ وعلا لا يخلف الميعاد، إذن، نستنتج في ضوء ما ورد في روايات كثيرة أنّها تتحدّث عن ظهور الإمام المهدي عليه السلام.
- لقد تواتر ذكر ظهور الإمام المهدي عليه السلام وثورته العالميّة في العديد من الروايات عن طرق الفريقين، كما ورد في معظم مصادر الحديث للعامّة، وهي من المسلّمات العقدية عند المسلمين، وإن أصرّ بعض، على رأسهم الفرقة الوهابيّة، على حصرها في الشيعة فقط[3].
- عن أبي جعفرالإمام الباقر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾، **«يكون أن لا يبقى أحد، إلّا أقرّ بمحمد صلى الله عليه وآله»**[4].

كثيرة هي الروايات بشأن بسط حاكميّة الدين في أرجاء المعمورة، من

---

(١) سورة الكهف: الآية ٢٠.
(٢) سورة التوبة: الآية ٨.
(٣) منتخب الأثر.
(٤) تفسير نور الثقلين.

جملتها رواية منقولة عن الإمام علي عليه السلام يُخبر فيها عن ظهور الإمام المهدي عليه السلام: «**فوالذي نفسي بيده حتى لا يبقى قرية إلا وتنادي بشهادة أن لا إله إلا الله، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وآله بكرة وعشياً**»[1].

التعاليم:

١ ـ الحقّ هو محور الدين الإسلامي وركنه، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾؛ (الأديان السماوية الأخرى كلّها حقّ، بيد أنّ حقّيتها خُدشت بسبب ما جرى عليها من تحريف).

٢ ـ الحقّ يظهر على الباطل، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾.

٣ ـ فلنجعل إرادة الله تعالى محور حركتنا وإرادتنا، وإلّا فإنّنا سنمحى ونهلك، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ... وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾

إشارات:

- مرّ ذكر معنى الأحبار والرهبان في الآية ٣١ من هذه السورة.
- لقد كتم أحبار اليهود الحقّ، من أجل المحافظة على مصالحهم الشخصيّة، ولم يعترفوا بحقيّة الدين الإسلامي، أو أنّهم تلقّوا الرشا ليغفروا الذنوب بزعمهم، أو نصبوا المحاكم لتفتيش العقائد ورمي الآخرين بالزندقة.
- استغلال الإنسان منصبه حرام، والفساد المالي هو أكبر خطر يتهدّد علماء الدين، ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾؛ (من أمثلة هذه الآية الذين يتولّون إدارة الموقوفات ولا ينفقون ريعها في المصارف المخصّصة لها).

---

(١) تفسير الصافي.

الزكاة في الروايات

□ عن الصادق عليه السلام أنه سئل في كم تجب الزكاة من المال؟ فقال: «**الزكاة الظاهرة أم الباطنة تريد؟**» فقيل: أريدهما جميعاً، فقال: «**أمّا الظاهرة ففي كلّ ألف خمسة وعشرون، وأمّا الباطنة فلا تستأثر على أخيك بما هو أحوج إليه منك**»[(١)].

▪ وعنه عليه السلام أيضاً في رواية أخرى: «**إنّما أعطاكم اللّه هذه الفضول من الأموال لتوجّهوها حيث وجّهها الله تعالى ولم يعطكموها لتكنِزوها**»[(٢)].

▪ ورد في الروايات: «**إذا ظهر القائم حرّم جميع الكنوز والأموال المدّخرة حتى يؤتى بها إليه فيستعين بها على عدوّه**».

▪ قال النبي الكريم صلى الله عليه وآله: «**إنّ الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم القدرَ الّذي يَسَعُ فقراءهم... إلّا أنّ اللّه يحاسبهم حساباً شديداً ويعذّبهم عذاباً أليماً**»[(٣)].

▪ وعن رسول الله صلى الله عليه وآله عندما نزلت هذه الآية: «**كل مال تؤدى زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وكل مال لا تؤدى زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض**»[(٤)].

أبو ذر وآية الكنز

□ نقرأ في سيرة أبي ذر (رحمه الله) الصحابي الجليل، أنّه عندما كان في الشام، كان يعترض على معاوية، وعثمان، وعمّال الخليفة بشأن كنزهم الذهب والفضة، وكذلك لما كان يتعرّض له بيت المال من نهب وهدر، وكان يصيح بصوت عالٍ صباحاً مساءً أمام معاوية ثمّ عثمان: بشّر أهل الكنوز بكيٍّ في الجباه وكيٍّ بالجنوب وكيٍّ بالظهور أبداً حتى يتردّد الحرّ في أجوافهم. وكان يقول: إنّ هذه الآية لا تختصّ بمانعي الزكاة، بل تشمل غيرهم أيضاً.

---

(١) تفسير الصافي.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) تفسير كنز الدقائق.

يقول صاحب تفسير الميزان (رحمه الله): إنّه يتبيّن من سلوك أبي ذرّ مع عثمان، ومعاوية، وكعب الأحبار أنّه كان يرى أنّ كنز الأموال في المجتمع الفقير حرام، حتى وإن جُمعت بطرق مشروعة ودفعت منها الزكاة. طبعاً كان بعضٌ يرى أنّ ذلك اجتهاد شخصيّ لأبي ذر، لكنّ أبا ذر كان يقول: **«ما قلتُ لهم الّا ما سَمعتُ من نبيّهم»**.

لم تقتصر سيرة هذا الصحابي الجليل على مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إزاء الحكّام فقط، ومحاربته مظاهرَ البذخ والترف الاقتصادي، كما لم يكن صراعه مع عثمان بن عفان على المال والجاه، بل إنّ معارضته كانت لمنكر اجتماعي يهمّ المجتمع بأكمله.

وعلى أيّ حال، فإنّ الصحابي الزاهد أبا ذر (رحمه الله) لمّا واجه الخليفة عثمان بشدّة ضاق الأخير به ذرعاً فنفاه إلى بلاد الشام، ثمّ بعد ذلك كتب إلى عامله على الشام معاوية ليرسله إلى المدينة قائلاً له: أن ابعث أبا ذر في جماعة من شرطتك ولا ترفّه عليه، وليجدّوا به السير ليل نهار، ولا يدعوه يستريح لحظة واحدة، حتى إنّ أبا ذر لمّا وصل المدينة مرض هناك، ولمّا لم يكن وجوده في المدينة هيّناً على عثمان وأتباعه، نفاه إلى الربذة حتى مات فيها. وقد حاول الآخرون تبرئة عثمان من فعلته بأبي ذر، فألصقوا بهذا الصحابي تهمة الاشتراكية والفكر الاشتراكي ومعارضته الملكية الخاصة، غير أنّ العلّامة الأميني (قدس سرّه) كتب في موسوعته الغدير بحثاً مفصّلاً لردّ هذه التهمة[١].

إنّ النفي المتكرّر لهذا الصحابي الورع والمضايقات المستمرّة التي تعرّض لها كانت بسبب صراعه مع جهاز الحكم وصرخات الاعتراض التي أطلقها ضدّ السياسة المالية لعثمان ونهج معاوية في اكتناز الذهب والفضة، وتبرير كعب الأحبار هذه السياسات، وهو أمر دأبت على ذكره مصادر التاريخ لكلا الفريقين[٢]، وإن حاول بعضٌ بنحو أو بآخر تبرير تلك المضايقات بتسويق بعض الأكاذيب للتأكيد على أنّ ذلك كان من أمارات حرّية التعبير عن الرأي التي كفلها

---

(١) الغدير، ج ٨، ص ٣٣٥.

(٢) تفسير الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

الخليفة عثمان في ذلك العصر، أو ما قاله بعض المتزلّفين من أنّ نفي أبي ذر كان عملاً بقاعدة «تقديم دفع المفسدة على جلب المصلحة» وأنّ حضوره في المدينة أو الشام هو الشرّ، وأنّ نفيه إلى الربذة كان مراعاةً للمصلحة[1]، بيد أنّ الحقيقة الماثلة هي أنّ هذا السلوك المشين مع صاحب رسول الله ﷺ لا يمكن تبريره بأيّ شكل من الأشكال، هذا الصحابي الورع الذي رفع صوته عالياً عملاً بواجبه في محاربة الانحرافات وتطبيقاً لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

التعاليم:

١ ـ ليس كلّ علماء أهل الكتاب سيئين، ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ﴾.

٢ ـ انتفاع العلماء بأموال الناس دون أن ينفعوا الناس بشيء سوف يؤدّي إلى نفور هؤلاء من الدين، وربّما كان ذلك مصداقاً للصدّ عن سبيل الله، ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ... وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ علماء اليهود والنصارى كانوا يصدّون الناس عن سبيل الحقّ من أجل دنياهم، ﴿وَيَصُدُّونَ... يَكْنِزُونَ﴾.

٤ ـ لا توجد في الإسلام قيود على الثروات والرساميل، ولكن ثمّة شروط لطرق كسبها، فاكتناز الذهب وسوء إنفاق الثروات حرام، ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ (إذا كان اكتناز الذهب حراماً، فمن باب أولى أنّ احتكار أرزاق الناس حرام أيضاً).

٥ ـ اكتناز الأموال والجشع هو في الحقيقة احتكار وإخفاء، لأنّه يتسبّب في خلق الكثير من المشكلات للمجتمع، ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ... وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾.

٦ ـ لهث العلماء وراء الدنيا واكتناز الأثرياء للأموال مدعاة لنزول العذاب الإلهيّ، ﴿فَبَشِّرْهُم...﴾.

(١) ومنهم صاحب تفسير المنار، ج١٠، ص٤٠٦ ـ ٤٠٧.

٧ ـ اكتناز الذهب والفضة والأموال واحتكارها وعدم إنفاقها، هي من الكبائر، لأنّ الله تعالى توعّد مرتكبيها بالعذاب، ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ... بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾

إشارات:

- «**تُكوى**» مشتقّة من «**الكيّ**»، وتعني إلصاق الحار من الحديد والنار بالموضع المقصود حتى يحترق الجلد.
- وقد قيل في سبب ذكر هذه المواضع الثلاثة (الجباه والظهور والجنوب) من بين سائر أعضاء الجسم: «**حتى يتردّد الحرّ في أجوافهم**»؛ أي إنّ الحرارة المحرقة التي تمسّ هذه المواضع الثلاثة تنفذ إلى سائر الجسم وتستوعبه كلّه[(١)]، أو إنّ السبب في ذكر هذه المواضع الثلاثة دون غيرها هو أنّ أصحاب الثروة حين كان يأتيهم المحروم أو الفقير كان ردّ فعلهم يظهر على جباههم أحياناً حيث يزوون ما بين عيونهم ويقبضون وجوههم، فيظهرون عدم الاعتناء بهم، وتارةً ينحرفون عنهم، وتارةً يديرون ظهورهم لهم، أو أنّ المراد بالجباه هو مقاديم الجسم، والظهر هو خلف الجسم والجنب هو طرفا الجسم، والمعنى أنّ الكيّ يستوعب الجسم كلّه.
- وعن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام حديث طويل يذكر فيه الكبائر وفيه: «**ومنع الزكوة المفروضة لأنّ الله تعالى يقول:** ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾»[(٢)].
- وفي إحدى الروايات نُقل عن أبي ذر قوله: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو

---

(١) تفسير الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
(٢) تفسير كنز الدقائق.

جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال: «**هم الأخسرون ورب الكعبة**»، فقلت: ومن هم؟ قال: «**الأكثرون أموالاً**»[١].

التعاليم:

١ ـ الله القادر على بعث الإنسان على نفس صورته الأولى، قادرٌ أيضاً على إحضار الأشياء مثل الذهب والفضة بنفس صورتها الدنيوية الأولى، ﴿هَٰذَا﴾.

٢ ـ يتناسب عذاب الإنسان وثوابه في يوم القيامة مع ما عمل في هذه الدنيا، ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾.

٣ ـ أموال الدنيا هي إحدى أدوات التعذيب في يوم القيامة، ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾.

٤ ـ في يوم القيامة سوف يسلب الله من ذائقة المكتنزين لذّة المال والكنوز، ﴿فَذُوقُوا﴾.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

- السنة اثنا عشر شهراً، ومن الملفت أنّ كلمة «الشهر» أيضاً وردت في القرآن الكريم إثنتي عشرة مرّة[٢].
- أمّا العدد (١٢) فقد ورد مرّات عدّة في القرآن الكريم، وهو عدد مبارك، فهو عدد نقباء بني إسرائيل، وعدد العيون التي فجّرها الله تعالى لموسى، وعدد أئمة أهل البيت عليهم السلام... إلخ.
- الأشهر الأربعة الحُرُم هي: ذي القعدة، ذي الحجّة، محرّم ورجب، والأشهر

---

(١) تفسير مجمع البيان.
(٢) الإعجاز العددي للقرآن.

الثلاثة الأولى متوالية وتسمّى الأشهر السّرد، ويسمّى رجب بالشهر الفرد[١].

- لقد قضت إرادة الله تعالى منذ بدء الخليقة بوجود نظام لدوران القمر حول الأرض وبحركة الكواكب داخل المجموعة الشمسية طيلة العام.

- إنّ احترام الأشهر الحُرُم نافذ المفعول ما دام العدو يحترمها ولا يستغلّ هذا التحريم لمهاجمة المسلمين خلال هذه الأشهر، أمّا إذا فعل ذلك، فلا شكّ في وجوب قتاله من قبل المسلمين استناداً للآية ١٩٤ من سورة البقرة، ﴿وَالْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

- ربّما في التعبير عن نفاذ هذا القانون واستمراره، إشارة إلى أنّ احترام الأشهر الأربعة الحُرُم كان قائماً في جميع الأديان السماوية، (حسبما ورد في الروايات).

- ورد في بعض الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ هذه الآية أُوّلت في الأئمة الاثني عشر[٢].

التعاليم:

١ ـ التقويم التاريخي الأفضل هو الذي يكون ثابتاً وطبيعياً وعامّاً، والأشهر القمرية تتّصف بهذه الخصائص الثلاث، ﴿عِدَّةَ الشُّهُورِ...﴾.

٢ ـ الأشهر الاثنا عشر لم توجد تدريجياً، بل إنّها وُجدت مذ خُلقت السموات والأرض، ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا... يَوْمَ خَلَقَ...﴾.

٣ ـ المجاهدون وأُسَرهم بحاجة إلى الزيارة، والتعليم، والراحة، ومتابعة شؤونهم الحياتية. إذن، لا بدّ من أن تخمد الحرب ثُلث العام لتتيح لهم الفرصة لترتيب أوضاعهم، ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، حتى الحرب لها قواعد وأصول ينبغي احترامها والامتناع عن التعرّض للغافلين والنساء وكبار السنّ والأطفال، وألّا يُهاجموا دون سبب وسابق إنذار.

---

(١) الكافي، ج٤، ص ٢٤٠.

(٢) تفسير كنز الدقائق.

٤ ـ ليست كلّ الأزمنة متساوية من حيث القدسية، ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾.

٥ ـ يوجد في الإسلام مكان آمن هو (مكّة)، وزمان آمن أيضاً (الأشهر الحُرُم). والملفت أنّ محور الأشهر الثلاثة (ذي القعدة وذي الحجّة ومحرّم) من الأشهر الأربعة الحُرُم هو شهر الحجّ (ذو الحجّة).

٦ ـ ضرر عدم الالتزام بالأشهر الحُرُم يصيب الإنسان نفسه، ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾.

٧ ـ الحرب ليست خيار الإسلام، فهو يقوم على الفكر، والبرهان، والحكمة، والموعظة، والتعايش السلمي، ولكن إذا فرضت من أجل دفع المعتدين على أمن المجتمع، أو ردع المستكبرين، أو الدفاع عن النفس، فحينئذ لا مناص منها حتى في الأشهر الحُرُم، ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٨ ـ يجب أن لا نسمح للعدو بإساءة استغلال مقدّساتنا الدينيّة وأحكامنا الفقهية، ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾، فإذا هجم العدوّ في الأشهر الحُرُم، يجب الردّ بالمثل، فلا مجال في هذه الحالة للتمسّك بالمثاليات الفارغة والقدسانية الجوفاء.

٩ ـ الهجوم على العدوّ يجب أن يكون بمثل ما اعتدى عليكم، ﴿كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾.

١٠ ـ يتحقّق النصر في ظلّ التقوى، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

□ «النَّسيء» و«النسيئة» من أصل واحد. وتطلق على ما يؤجّل من إعطاء المال وقبضه لقاء السلعة، وكذلك تعني تأخير بعض الأشهر الحُرُم إلى شهر آخر.

□ كان الكفّار، أحياناً، يتفلسفون فيغيّرون في شريعة الله، وذلك بالقتال في الشهر الحرام، ويحرّمون بدله شهراً آخر غير حرام[١].

التعاليم:

١ ـ لنحترم المقدّسات، فالتغيير والتبديل في شريعة الله تعالى، كفرٌ، ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾، الخطورة لا تكمن في التحريم في الأشهر الأربعة الحرام، بل التمرّد على شرع الله وحكمه.

٢ ـ للكفر مراتب ومراحل، ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.

٣ ـ أحد عوامل ضلال الكفّار هو تنسئة الأشهر الحُرُم، ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

٤ ـ التفسيرات والتأويلات الخاطئة من أجل تغيير أحكام الله وشرائعه هي أحد أسباب انحراف الناس، ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا...﴾.

٥ ـ عرب الجاهلية كانوا مؤمنين بعدّة الأشهر الحُرُم على الرغم من أنّهم كانوا ينسؤونها، ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾.

٦ ـ الهداية لمن يقرّ بفساد أعماله ممكنة، ولكنّها عسيرة لمن يرى صوابها، ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى...﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾

إشارات:

□ جاء في سبب نزول هذه الآية، أنّها نزلت في معركة تبوك، عندما تثاقل المسلمون عن المشاركة فيها، وكانت حجّتهم بعد المسافة بين المدينة وتبوك (حوالي ٦٠٠ كم)، وأنّ الوقت كان صيفاً قائظاً، مضافاً إلى أنّ الموسم كان موسم قطاف الثمار وجمع المحاصيل الزراعية، ناهيك عن نشاطات المنافقين

(١) تفسير نور الثقلين.

في تثبيط عزائم المسلمين وتهويل المواجهة وذلك بتضخيم قدرة جيش الروم وعظمة استعداداته[١].

التعاليم:

١ ـ يتطلّب الأمر، أحياناً، توجيه النقد واللوم للمؤمنين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ...﴾.

٢ ـ التعلّق بحبائل الدنيا والأمور الماديّة، يحول دون انفكاك الإنسان عن الثرى والتحليق إلى الثريا، ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ...﴾؛ (طالب الدنيا يكون قصير الهمّة).

٣ ـ قيمة الإنسان ومكانته أسمى من أن يركن لهذه الدنيا الدنيّة، ﴿أَرَضِيتُم﴾.

٤ ـ لا شكّ في أنّ الذي يؤثر الآخرة على متاع الدنيا الفانية، سوف يُقبل على جبهات القتال ويعرض عن الدنيا، ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

إشارات:

- في هذه الآية والآية السابقة تأكيد على موضوع الجهاد من ثمانية وجوه هي: مخاطبة المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، الاستفهام الاستنكاري والتوبيخ ﴿مَا لَكُمْ﴾، التعبير عن الجهاد بـ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، الأمر بالحركة نحو ميادين الجهاد ﴿ٱنفِرُوا۟﴾، التهديد بالعذاب ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾، التهديد باستبدال المخاطبين ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾، التهديد بأنّهم بتركهم جبهات القتال لن يضرّوا سوى أنفسهم ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾، التهديد بالقدرة الإلٰهيّة ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.
- طبقاً لما ورد في بعض الروايات، فإنّ المقصود بالقوم الآخرين «قوماً غيركم»، هم أهل فارس واليمن الذي هبّوا لنصرة دين الله تعالى[٢].

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٥، ص ٤٧.

(٢) تفسير الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ كنز الدقائق.

التعاليم:

١ ـ عقوبة الفرار من جبهات القتال، العذاب والذلّة في الدنيا، والدخول في نار جهنّم في الآخرة، ﴿عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

٢ ـ الله تبارك وتعالى قادر على أن يستبدلنا بقومٍ آخرين، وسيفعل ذلك متى أراد ذلك، ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾.

٣ ـ جمودنا وعدم تحرّكنا سيعود علينا بالضرر ولن يضرّ الله شيئاً، ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾؛ (كسلنا وتقاعسنا مدعاة لاستبدالنا بقوم آخرين).

٤ ـ قدرة الله اللامحدودة هي عامل استبدالنا بقوم آخرين، ﴿وَيَسْتَبْدِلْ... وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٥ ـ من يمتلك قدرة لا محدودة، لن يضرّه أيّ شيء، ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا... عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾

إشارات:

□ الآية موضع البحث تشير إلى مؤامرة المشركين الخبيثة لاغتيال النبي الأكرم ﷺ، والتي تُعرف بقصة «ليلة المبيت»، إذ قرّرت قريش أن تنتدب من كلّ قبيلة رجلاً ليهجموا على النبي الكريم ﷺ هجمة رجل واحد ويقتلوه ليتفرّق دمه بين القبائل، فلا يستطيع بنو هاشم المطالبة بدمه. ولكنّ الله تعالى أطلع نبيه على تلك المكيدة، فاستخلف عليّاً عليه السلام في فراشه، وخرج ليلاً من مكة للهجرة إلى المدينة وكان معه أبو بكر فتوجّها نحو غار ثور الذي يقع جنوب مكة. وقام الكفّار بتعقّب أثر النبي الكريم ﷺ حتى وصلا غار ثور، لكنّهم عادوا آيسين

إلى مكّة بعد أن رأوا خيوط العنكبوت قد نسجت على فتحة الغار، فمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام يختلف إليهم بالطعام عامر بن فهيرة مولى أبي بكر وعلي يجهّزهم، فاشتروا ثلاثة أباعر من إبل البحرين واستأجر لهم دليلاً، فلمّا كان بعض الليل من الليلة الثالثة أتاهم علي ﷺ بالإبل والدليل، فركب رسول الله ﷺ راحلته وركب أبو بكر أخرى والثالثة لدليلهما فتوجهوا نحو المدينة»[1].

التعاليم:

١ ـ الإسلام ليس بحاجة لنصرتنا، الله ينصر دينه، فلا ينبغي أن نغترّ بنصرتنا إيّاه، ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾.

٢ ـ لقد ضمن الله تعالى النصر للمسلمين في تبوك، ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾.

٣ ـ انتصارات المسلمين مظاهر للقدرة الإلٰهيّة، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾.

٤ ـ خروج النبي الكريم ﷺ من مكّة كان بسبب أجواء الرعب والضغط التي خلقها الكفّار، ﴿أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

٥ ـ عندما يشاء الله تعالى فإنّه يحامي عن أشرف خلقه النبي الأكرم ﷺ بأوهن البيوت (بيت العنكبوت)، ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ...﴾.

٦ ـ السكينة والطمأنينة هبة من الله، لا يمكن توفيرها بالوسائل الماديّة، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾.

٧ ـ لقد أمدّ الملائكة بأمر الله تعالى المؤمنين بمدد، ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

٨ ـ الهجرة هي سبب عزّة الإسلام وتلاشي الكفر، ﴿أَخْرَجَهُ... وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن؛ الدرّ المنثور.

٩ ـ إرادة الله أقوى من أيّ إرادة أو رغبة، ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾.

١٠ ـ قوى الاستكبار بكل ما تملك من خبرات وإمكانات مادّية لا تستطيع مجاراة قوة السكينة والطمأنينة عند المؤمنين[١]، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾.

١١ ـ العزّة، واعتلاء كلمة الله، والقضاء على مؤامرات الكفّار ودسائسهم، مظهر لعزة الله تعالى وحكمته، ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ... وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

إشارات:

- لهاتين الكلمتين المتقابلتين «**خِفاف**» و«**ثِقال**»، مفهوم شامل وواسع يستوعب جميع حالات الإنسان من بينها: متزوّجون أم عزّاب، فقراء أم أغنياء، مشاة أم راكبون، معيلون أم غير معيلين، أصحاب تجارة أم أصحاب زراعة.

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال في قوله عزّ وجلّ: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾: «**شباباً وشيوخاً**»[٢].

- جاء في تفسير «في ظلال القرآن» أنّ أشخاصاً مثل أبي أيّوب الأنصاري ومقداد وأبي طلحة كانوا في سنّ الشيخوخة وكان يتهيّأون للذهاب إلى جبهات القتال، وعندما كان يقال لهم إنّكم شيوخ، كانوا يردّون بتلاوة هذه الآية.

التعاليم:

١ ـ عندما يصدر أمر التعبئة العامة للذهاب إلى جبهات القتال، لا ينبغي للمرء أن

---

(١) في إشارة إلى الآية ٣٠ من سورة الأنفال ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

(٢) بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٤٨.

يضع العصي في الدواليب أو يختلق الأعذار، ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾؛ (المشاكل الحياتية ليست أعذاراً للتخلّف عن الجهاد).

٢ ـ أحياناً يكون لا مناص من إعلان التعبئة العامة في مقابل العدوّ، وإن كانت التجهيزات العسكرية قليلة، ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

٣ ـ الدين أغلى من المال والنفس، فكلّ شيء فداء للدين، أموالنا وأرواحنا. لاحظ أنّ الآية الكريمة تقول: ﴿بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، ولم تقل: «**بأموالكم أو أنفسكم**».

٤ ـ الجهاد بالنفس على الفقراء والجهاد بالمال والنفس على الأغنياء، ﴿بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾.

٥ ـ الإخلاص هو ميزان قيمة الأعمال، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٦ ـ الأحكام الإلٰهيّة، بما فيها حكم الجهاد، تصبّ في خانة المصالح الحقيقيّة للإنسان، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٧ ـ بعض الناس لا يعرفون أين تكمن مصالحهم الحقيقيّة، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٨ ـ كسب القيم الحقيقيّة يتيسّر في ظلّ العلم والمعرفة، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢)﴾

إشارات:

□ هذه الآية من آيات الإخبار بالغيب في القرآن الكريم، إذ تنبئ بالحدث قبل وقوعه، وهو معركة تبوك، ذلك أنّ منطقة تبوك تفصلها عن المدينة المنورة مسافة طويلة، وموقعها على تخوم الحجاز.

□ عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾: «**غنيمة قريبة لاتّبعوك**»[1].

(١) تفسير نور الثقلين.

التعاليم:

١ ـ أموال الدنيا وغنائمها متاعٌ فانٍ، ﴿عَرَضًا﴾.

٢ ـ الحرب محكّ جيّد لاختبار الإنسان، ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾.

٣ ـ من الضروري تعرية نفسيّات المنافقين وفضح سرائرهم، ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا... لَّٱتَّبَعُوكَ﴾.

٤ ـ اشتراك المنافقين في بعض الحروب كان من أجل أن يصيبوا بعض المكاسب المادّيّة، ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا... لَّٱتَّبَعُوكَ﴾.

٥ ـ القبول بالأعمال المربحة كثيرة المنفعة ليس دليل رشد وإيثار، ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾.

٦ ـ لا تستقيم روحية المسلم الحقيقي مع حياة الكسل والترف الباذخ، ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾.

٧ ـ الكذب والنفاق توأمان، فالمنافق من أجل الفرار من العمل، يلجأ إلى اليمين الكاذبة، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾.

٨ ـ اليمين الكاذبة ديدن المنافقين، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾.

٩ ـ لا يمكن محو آثار ترك الجهاد بالتبريرات الواهية والكذب، لأنّ نتيجتها الحتميّة هي التعاسة والثبور، ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

١٠ ـ عواقب الفرار من أرض المعركة ستصيب الفارّ وحده، ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾

إشارات:

- يبدو أنّ بعض المنافقين كانوا يأتون النبي الكريم ﷺ ويلتمسون الأعذار للتملّص من المشاركة في معركة تبوك. وكان الرسول الكريم يأذن لهم بالانصراف، فنزلت هذه الآية في إطار عتاب مبطّن، وتأمره أن لا يأذن بالانصراف إلّا لمن لديه موانع حقيقيّة لا أعذار واهية.

- تصرّح الآية التالية بأنّ الله تعالى قد حرم المنافقين من توفيق المشاركة في المعركة ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ...﴾، على هذا، فإنّ إذن النبي الكريم ﷺ

ينسجم مع كره الله ذهاب المنافقين إلى القتال، وأنّ العتب الإلٰهيّ إنّما كان بسبب التعجّل في فضحهم. ويعضد هذا الرأي ما جاء في الآية ٤٧ أيضاً إذ تتحدّث عن الأضرار التي ينطوي عليها حضور المنافقين في الجبهات، لذلك، وفي ضوء ما تقدّم، فإنّ إذن النبي الكريم ﷺ لا هو بمعصية، ولا هو دليل على سوء تقدير أو تدبير (والعياذ بالله).

التعاليم:

١ ـ يُحسن بالمرء أن يتعلّم أصول الإدارة والتدبير من معلّم الكون الله تبارك وتعالى، فهو يقرن العتب بالعفو والرحمة، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾.

٢ ـ سدّوا منافذ التحجّج والأعذار بوجه المنافقين، ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾.

٣ ـ التخلّف عن المشاركة في الحرب يحتاج إلى إذن القائد، ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾.

٤ ـ الحرب محكّ جيّد للكشف عن معادن الأفراد، ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ...﴾.

٥ ـ ستر العيوب ليس دائماً ذا قيمة، فأحياناً يستلزم الأمر نزع الستار، ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ... وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

٦ ـ من أجل الكشف عن معدن المنافقين يجب التدقيق في سجلهم في زمن الحرب والجهاد، ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

٧ ـ حركة المجتمع المسلم يجب أن تتّسم بالصدقيّة لكي ينفضح أمر المنافقين، ﴿يَتَبَيَّنَ... وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

٨ ـ حضور المنافقين في جبهات القتال لا يشكّل قيمة، غير أنّ فرارهم من أرض المعركة عارٌ يوصم به جبينهم، ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾

إشارات:

❑ المؤمن الحقيقي الذي يعشق الجهاد والشهادة، لا يأبى من مواجهة الموت،

ولا يفتّش عن حجج وأعذار. وليس أدلّ على ذلك أنّ جماعة من المؤمنين كانت تصرّ على النبي الكريم ﷺ أن يأذن لها بالمشاركة في القتال، وعندما لم يأذن ﷺ بسبب قلّة الإمكانات والتجهيزات، كانوا يبكون من فرط الضيق والحسرة[1].

□ «وَخَرَجَ النَّاسُ فِي غَزَاةِ تَبُوكَ قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ عليه السلام: أَخْرُجُ مَعَكَ، فَقَالَ لَهُ نَبِيُّ اللَّهِ: لَا؛ فَبَكَى عَلِيٌّ عليه السلام فَقَالَ لَهُ: أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ لَا يَنْبَغِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَّا وَ أَنْتَ خَلِيفَتِي»[2].

التعاليم:

١ ـ المؤمن لا يتملّص من المسؤولية، ﴿لَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾.

٢ ـ المتخلّفون عن غزوة تبوك هم جماعة لا إيمان لهم، ﴿لَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾.

٣ ـ الإيمان بالمبدأ والمعاد هو السبب الأساس للتقوى، وطلب الشهادة، والحضور في جبهات القتال، ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

٤ ـ ينبغي على المجاهدين الحقيقيين أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

٥ ـ التقوى تمنع التخلّف عن الجهاد بالمال والنفس، ﴿أَن يُجَاهِدُوا... وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

٦ ـ الإيمان بعلم الله تعالى يزرع الطمأنينة في نفس المؤمن عند الجهاد، ﴿أَن يُجَاهِدُوا... وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

٧ ـ الورع يكشف عن معدنه في الحرب والجبهات، لا في البيت وأيّام السلم، ﴿أَن يُجَاهِدُوا... وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٩٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٣٨، ص ٢٤٢.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

إشارات:

❑ يقول الإمام علي عليه السلام: «... **ومن تردّد في الريب وطئته سنابك الشياطين**»[(١)].

التعاليم:

١ ـ الحرب محك لاختبار صدق الإيمان والاعتقاد، ﴿يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾.

٢ ـ المنافق لا يؤمن بالهدف، لذلك تجده دائماً يفتّش عن أعذار وحجج وعن مهرب وإذن، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.

٣ ـ وجود الإيمان أو عدمه هو الباعث الأصلي وراء الذهاب إلى الجبهات أو الفرار منها، ﴿يُؤْمِنُونَ... لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٤ ـ أسوأ من الريب البقاء عليه، ﴿فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾

إشارات:

❑ تثبيط الله المنافقين ومنعهم من المشاركة في جبهات الجهاد هو بمعنى سلبهم توفيق المشاركة لا المنع العملي.

التعاليم:

١ ـ لم يكن المنافقون يرومون أبداً الذهاب إلى الجبهات، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟... لَأَعَدُّوا۟﴾.

٢ ـ التمهيد للواجب، واجب، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟... لَأَعَدُّوا۟﴾.

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة رقم ٣١.

٣ ـ المؤمن كلّه استعداد للجهاد، وينتظر الذهاب إلى الجبهات بفارغ الصبر، وهو لا تنقصه الدوافع ولا غير مكترث، ﴿لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾.

٤ ـ المشاركة في الجهاد توفيق من الله وفضل، لا يحظى غير الأكفاء بشرف امتلاكه، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾.

٥ ـ لا ينبغي للمتخلّفين عن الحرب والجهاد أن يحظوا بالاحترام، ﴿اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

إشارات:

□ «**الخَبال**» هو الاضطراب والتردّد. و«**الخَبَل**»، يعني الجنون أمّا «**الخَبْل**» فمعناه فساد الأعضاء.

«**أوضعوا**»، من «**الإيضاع**»، هو الإسراع في الحركة والنفوذ بين صفوف المقاتلين.

«**الفِتنة**» هنا جاءت للتعبير عن الفُرقة والضلال.

«**السَّمّاع**»، تطلق على الجاسوس الذي يعمل بما يؤمّن مصالح العدوّ وذلك من خلال التجسّس على المسلمين وجمع الأخبار للمنافقين.

التعاليم:

١ ـ جند الإسلام يجب أن يكونوا خُلّصاً ومصطَفين، فالعدد والكمية ليست معياراً، ﴿لَوْ خَرَجُواْ... مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾.

٢ ـ الله تبارك وتعالى يسلّي المؤمنين لئلا يحزنوا بسبب تخلّف جماعة من المنافقين عن الجبهات، ﴿لَوْ خَرَجُواْ... مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾.

٣ ـ حضور المنافقين في الجبهات، مدعاة لإضعاف المعنويّات وللفُرقة والريبة،

﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾.

٤ ـ تحرّكات المنافقين سريعة للغاية، ﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾.

٥ ـ ليس جميع المسلمين يدركون الخطر الذي يشكّله المنافقون، فبعض البسطاء تنطلي عليهم أقاويلهم ويتأثرون بها بسرعة، ﴿سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾.

٦ ـ المنافق ظالم، والله تعالى ينذره، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨)﴾

التعاليم:

١ ـ المنافقون يذهبون في أثر الفتنة عن سابق إصرار وترصّد، ﴿ابْتَغَوُا﴾.

٢ ـ متى ما أطلّت الفتنة برأسها، وجدتم أنّها تحمل بصمات المنافقين، ﴿ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾.

٣ ـ انتبهوا إلى ماضي أولئك الذين لم يخلصوا النيّة في توبتهم، ﴿مِن قَبْلُ﴾.

٤ ـ تزييف الحقائق ورفع التقارير المحرّفة إلى القائد، من شيم النفاق، ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾.

٥ ـ على قائد الأمّة الإسلاميّة أن يتوخّى الحيطة والفطنة، وأن لا يثق بأيّ تقرير يُرفع إليه، ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾.

٦ ـ الفتنة والفُرقة، هو الأسلوب الذي خبره المنافقون، ولن يكفّوا أيديهم عن ذلك إلّا بتحقّق النصر الأكيد لجبهة الحقّ، ﴿ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ... حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾.

٧ ـ المدد الإلٰهيّ جعل مخطّطات المنافقين هواءً في شبك. فبالرغم من كلّ الفتن التي تثار ضدّ الإسلام، نجده يعلو ويتألّق بدلاً من أن يهوي ويسقط، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾.

٨ ـ المنافق لا يصفو قلبه للنظام الإسلامي أبداً، ﴿كَارِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٩﴾

إشارات:

□ قال جماعة من المفسّرين: إنّ النبي ﷺ كان يُعبّئ المسلمين ويُهيّئهم لمعركة تبوك ويدعوهم إلى التحرّك نحوها، فبينا هو على هذه الحال إذا برجلٍ من رؤساء طائفة «بني سلمة» يُدعى «جدّ بن قيس» وكان في صفوف المنافقين، فجاء إلى النبي ﷺ مستأذناً أن لا يشهد المعركة، متذرعاً بأنّ فيه شبقاً إلى النساء، وإذا ما وقعت عيناه على بنات الروم فربّما سيهيم ولهاً بهنّ وينسحب من المعركة، فأذن له النبي بالانصراف. فنزلت الآية أعلاه معنّفةً هذا الشخص. فالتفت النبي الكريم ﷺ إلى بني سلمة وقال: «**من كبيركم؟**» فقالوا: جدّ بن قيس، إلّا أنّه رجل بخيل وجبان، فقال: «**وأيّ شيء أبشع من البخيل؟**» ثمّ قال: «**إنّ كبيركم ذلك الشاب الوضيء الوجه بشر بن براء**» (وكان رجلاً سخيّاً سمحاً بشوشاً)»[1].

التعاليم:

١ ـ القيادة العامة للقوات هي من مسؤوليات النبي وقائد المجتمع الإسلامي، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾.

٢ ـ المنافقون الوقحون كانوا يعتبرون النبي الكريم ﷺ فتنة، ﴿ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾.

٣ ـ الجهاد في سبيل الله من وجهة نظر المنافقين بلاء ومصيبة، ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾.

٤ ـ الحرب هي محكّ للفتنة والاختبار، ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾.

٥ ـ يلجأ بعض المنافقين إلى بعض الطروحات والمسائل الدينيّة من أجل خداع

---

(١) تفسير الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

المتديِّنين، ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾؛ (فهذا المنافق يتخلّف عن حكم الله ورسوله بذريعة عدم النظر إلى بنات الروم والافتتان بهنّ)!

٦ ـ أولئك الذين يفرّون من فتنة الحرب، سيقعون في فتنة أعظم، ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ﴾.

٧ ـ لا يمكن الفرار من الاختبار الإلٰهيّ أبداً[1]. فعلى الرغم من قوله ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ فقد ابتُلي بها، ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ﴾؟

٨ ـ حجج المنافقين للفرار من الجهاد مدعاة للكفر، ﴿ٱئْذَن لِّي... بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٩ ـ إحاطة جهنّم بالكافرين هي لجهة إحاطة المعصية بهم[2]، ﴿لَمُحِيطَةُۢ﴾.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٞ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠﴾

التعاليم:

١ ـ النبي والقائد هما واجهة النظام الإسلامي والأمّة. فكلمة ﴿تُصِبْكَ﴾ استُعملت بدلاً من «تصبكم».

٢ ـ في منعرجات الحياة وعندما يدلهمّ الخطب يتميّز العدو من الصديق، ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٞ تَسُؤْهُمْۖ...﴾.

٣ ـ في غزوات الرسول الكريم ﷺ، كان للنصر والهزيمة حضور، ﴿حَسَنَةٞ... مُصِيبَةٞ﴾.

٤ ـ المنافقون الانتهازيّون يستغلّون مصائب المسلمين لصالحهم، حتى يروّجوا لفطنتهم واستشرافهم للمستقبل، ﴿أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾.

---

(١) ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (سورة العنكبوت: الآية ٢).

(٢) وفي موضع نقرأ: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ سورة البقرة: الآية ٨١.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

التعاليم:

١ ـ القائد والأمّة يقتسمان الأفراح والأتراح. الآية السابقة تقول: ﴿تُصِبْكَ﴾، وهنا تقول: ﴿يُصِيبَنَآ﴾.

٢ ـ إنّنا مأمورون بأداء التكليف، وليس علينا أن نضمن النتائج. فالجهاد علينا لكنّ التقدير بيد الله تعالى، ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

٣ ـ يرى المؤمن الحقيقي أنّه حتى صعوبات الجبهة ومشاكلها هي في صالحه، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

٤ ـ مقادير الإنسان خُطّت على جبينه قبل مولده، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

٥ ـ الخير كلّ الخير في ما قدّر الله للمؤمن؛ لأنّ المولى لا يبغي بعبده شرّاً، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾.

٦ ـ المؤمن يرى نفسه تحت ولاية الله ووصايته، ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ .

٧ ـ أسمى مراتب التوحيد، أن يتحرّك الإنسان في مدار الشرائع الإلٰهيّة، ويسلّم أمره لله الحكيم، ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾.

٨ ـ يجب الاتكاء على الله وحده، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾.

٩ ـ شرط الإيمان هو التوكّل على الله تعالى، ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾

إشارات:

□ هذه الآية شرح لما سبقها من أنّ الله تعالى هو مولى المؤمنين، لا يكتب لنا إلّا الخير، حتى لو كانت الشهادة.

□ يقول الإمام الباقر عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾: «قال إمّا موت في طاعة الله تعالى أو إدراك ظهور إمام»[1].

التعاليم:

١ ـ يجب أن نشرح المراد من ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ للصديق والعدوّ ونقوم بالدعوة لها، ﴿قُلْ﴾.

٢ ـ القيم ومعايير التقييم، تختلف عند المؤمنين والمنافقين، ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾، عند أهل الإيمان، فإنّ العمل بالتكليف هو المهم، وليس الذهاب أو البقاء، المهم الاستمرار على النهج، لذا، فكلاهما نصر، الفتح أو الشهادة.

٣ ـ المنافقون إذا ما قُتلوا في حربهم ضدّ النظام الإسلامي، أو ماتوا ميتة طبيعية فهم في الحالتين يَرِدون جهنّم. إذن، فهم سوف يُعذّبون في الحالتين، إنْ على يد المؤمنين أو بعذابٍ من عند الله، ﴿مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾.

٤ ـ المؤمن متيقّن من هدف عمله ونتيجته، ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾

إشارات:

□ بحسب ما جاء في بعض التفاسير، فإنّ هذه الآية تتحدّث عن فريق من المنافقين تخلّف عن غزوة تبوك فأراد أن يشارك بأمواله في دعم الجبهة لتكون له حصّة، حسب ظنّه، في النصر الذي حقّقه المؤمنون في تلك الغزوة.

□ تفسير عدم قبول الله تعالى الدعم المالي من المنافقين إمّا أن يكون عدم أخذ الأموال والمساعدات منهم في هذه الدنيا، أو أنّهم لن يُثابوا عليها في الآخرة.

---

(١) الكافي، ج ٨، ص ٢٨٦.

التعاليم:

١ ـ لا يُقصد من الإنفاق إشباع البطون فحسب، بل أيضاً إصلاح الروح والارتقاء المعنوي الذي ينشده الإسلام، ﴿أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾.

٢ ـ روح الإنسان وقصديّته وسريرته كلّها عوامل تلعب دوراً في إضفاء القيمة على أعماله. فالمنافق الذي يغتمّ لنصر المسلمين، ويُسرّ لأذاهم، لن ينفعه عمله إذا كانت سريرته على هذا النحو من البشاعة، ﴿أَنفِقُوا۟... لَّن يُتَقَبَّلَ﴾.

٣ ـ لا قيمة لإنفاق المنافقين وخدماتهم، فهي لن تُقبل وسيحبطها الله، ﴿أَنفِقُوا۟... لَّن يُتَقَبَّلَ﴾.

٤ ـ لا ينبغي قبول المساعدة من أيٍّ كان، ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾.

٥ ـ التقوى وطهارة القلب هما شرطا قبول الأعمال، وثمة رابط يربط بين القضايا السياسيّة والاجتماعيّة والعبادية والأخلاقية، ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ... كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾.

٦ ـ الفسق حجاب حاجز دون قبول الأعمال، ﴿إِنَّكُمْ... فَـٰسِقِينَ﴾.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

إشارات:

- بيّنت الآية السابقة، جدلاً، أنّ المنافقين سواء أنفقوا رغبة أم كُرهاً، فلن يقبل الله تعالى منهم عملهم، وهنا تتحدّث بلغة الواقع، والحاصل فعلاً هو أنّ إنفاقهم كان عن كُره لا عن رغبة.

- من المزايا التي تتميّز بها مداخيل الحكومة الإسلاميّة من قبيل الخُمس والزكاة والصدقات والإنفاقات الأخرى، على سائر مداخيل الدولة الأخرى هي:

١ ـ أنّ الفرد يؤدّي هذه الأموال بملء إرادته واختياره وبوحي من الوازع الديني.

٢ ـ يؤدّيها دون خوف وبقصد القُربة إلى الله تعالى.

٣ ـ هو يؤمن بأنّ هذه الأموال مغنمٌ له وذخرٌ في يوم القيامة.

٤ ـ يختار عالِماً عادلاً ليؤدّي إليه هذه الأموال.

٥ ـ إنّه يعرف ويراقب مصارف هذه الأموال.

٦ ـ يؤمن بأنّ الزهد هو الشرط الأساس لمن يأخذ منه هذه الأموال، ويشكر الله ويحمده.

التعاليم:

١ ـ لن تُقبل أعمال الخير المشفوعة بالكفر والكسل والإكراه، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ...﴾.

٢ ـ لقد وصف الله تعالى المنافق في العديد من آيات القرآن بالكفر، ﴿أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾.

٣ ـ المتخلّفون عن غزوة تبوك مسلمون بالاسم، لكنّ الكفر يملأ باطنهم، ﴿أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾.

٤ ـ القيمة الحقيقيّة للأعمال تكمن في النوايا والشوق واللهفة. نعم، النوايا والدوافع هي المهمّة، لا الحركات الظاهرية[1]، ﴿كُسَالَىٰ... كَٰرِهُونَ﴾.

٥ ـ هدف الإسلام من الإنفاق هو التطوّر المعنوي وليس إشباع البطون فقط، ذلك أنّ مساعدة المنافقين تُشبع البطون ولكن لا يحصل تطوّر معنوي عند من قام بالمساعدة، ﴿كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ... وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

٦ ـ من علائم النفاق التكاسل في إقامة الصلاة، ﴿كُسَالَىٰ﴾ والإنفاق المُكرَه، ﴿كَٰرِهُونَ﴾.

---

(١) في قصّة يوسف، غلّقت زليخا جميع الأبواب وأرادت أن تحقّق مآربها من يوسف ﷺ، غير أنّه فرّ صوب الباب وكانت زليخا تتبعه، فظاهر الأمر أنّ الاثنين يؤدّيان بعض الحركات الظاهرية، وكلاهما يركض، ولكن نيّة أحدهما الفرار من المعصية، ونيّة الآخر ارتكاب المعصية، وهذا هو المراد بمعنى النيّة والدافع في أعمال الإنسان.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

إشارات:

- كلمة «تَزهَق» تعني الخروج بصعوبة وأسف وحسرة.
- نهي الله تعالى عن التعجّب، لا يعني وجوده في النبي الكريم ﷺ، بل إنّ الخطاب ينطوي على بعد تحذيري، أي على طريقة إيّاك أعني واسمعي يا جارة.
- في نهج البلاغة، يصف الإمام علي عليه السلام في إحدى خطبه لحظات احتضار فئة وهي تسلم الروح إذ تتجسّد أموالها أمام ناظريها، فتتركها وتذهب على حسرة ومضض[١].
- طرق العذاب بواسطة المال هي: في طريقة تهيئته وجمعه، في المحافظة عليه من السرقة والحريق وحسد الناس، في تركه على مضض، عند الاحتضار وفي تعرّضه للحساب يوم القيامة، وسؤاله كيف جمعه، وفيم أنفقه؟

التعاليم:

١ ـ كان المؤمنون المعاصرون للنبي الكريم ﷺ يعانون فقراً مالياً بالمقارنة بالمنافقين آنذاك، ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ...﴾.

٢ ـ كم من نعمة باطنها نقمة، وكم من إمكانات اقتصاديّة أصبحت على صاحبها وسيلة للهلاك والشقاء، ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾.

٣ ـ من السنن الإلٰهيّة إذلال المنافقين الأغنياء، ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾.

٤ ـ العذاب الإلٰهيّ لا يقتصر على الآخرة، بل ثمّة عذاب في هذه الدنيا أيضاً، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٨.

٥ ـ الموت هو مفارقة الروح البدنَ، لا انعدامها وفناؤها، ﴿وَتَزْهَقَ﴾.

٦ ـ روح المنافق لا تستوفى لأنها لا قيمة لها، فهي تزهق من تلقائها، ﴿وَتَزْهَقَ﴾.

٧ ـ الاحتضار يكون شديداً على المنافق الثري، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾.

٨ ـ المال والبنون بالنسبة إلى المنافق تمهيد لأن يموت على الكفر، ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ... وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

٩ ـ انظروا إلى عواقب الأمور لا ظواهرها، ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ... وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾

إشارات:

□ «يَفرَقون»، من الفَرَق بمعنى شدّة الخوف، فكأنّهم لشدّة خوفهم تكاد قلوبهم أن تتفرّق وتتلاشى.

التعاليم:

١ ـ اليمين الكاذبة أحد الأساليب التي يلجأ إليها المنافق، ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾.

٢ ـ لا تعجلوا في قبول توبة المنافق وتصديق مدّعياته، فهو كذّاب، ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾.

٣ ـ لا بدّ من تعرية المنافقين وفضحهم، ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾.

٤ ـ الاستيحاش القلبي من علامات المنافق، ﴿قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾

إشارات:

□ «المَلجَأ» يعني الحصن أو الحرز، وهو ما يأوي إليه الخائف عادة،

و«المَغارات»، جمع «مَغارة». «مُدخل» وهو السرب في الأرض والنفق، كالنقب مثلاً. «يَجمحون» من «جماح» أي يسرعون، لا يرد وجوههم شيء، ويقال أيضاً للخيول المسرعة الجامحة التي لا تطاوع أصحابها.

◻ المنافقون يظهرون الإيمان إمّا لخوف أو طمع في مال أو جاه. هذه الآية تشير إلى الطائفة الأولى[١].

التعاليم:

١ ـ المنافق فَرِقٌ يتحيّن الفرص للفرار من الوضع الحالي، ﴿لَوْ يَجِدُونَ...﴾.

٢ ـ أجواء المجتمع الإسلامي لا تطاق بالنسبة إلى المنافق، ﴿لَوْ يَجِدُونَ...﴾؛ (المنافق يعيش حياة التشرّد، وهو يتعايش مع المسلمين اضطراراً).

٣ ـ معاناة المنافقين واضطرابهم في المجتمع الإسلامي على الرغم من امتلاكهم الأموالَ والبنين، هو مثال لعذابهم في الحياة الدنيا. فالله ﷻ يقول في آية سابقة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وفي هذه الآية ﴿لَوْ يَجِدُونَ...﴾.

٤ ـ المنافق في كرّه وفرّه خفيف الحركة وماكر، ﴿يَجْمَحُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾

إشارات:

◻ «اللَّمز»، هو الاغتياب في الوجه، و«الهَمز» الاغتياب بظهر الغيب.

◻ قَالَ الطَّبْرِسِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ قِسْماً وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَانَتْ غَنَائِمَ هَوَازِنَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ جَاءَهُ ابْنُ أَبِي الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيُّ وَهُوَ حُرْقُوصُ بْنُ زُهَيْرٍ أَصْلُ الْخَوَارِجِ فَقَالَ، **اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ**، فَقَالَ: **وَيْلَكَ**

(١) تفسير أطيب البيان.

وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَاباً يَحْتَقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ[1]. فنزلت هذه الآية. ويشار إلى أنّ حرقوص هذا قد هلك في معركة النهروان بسيف الإمام علي عليه السلام.

التعاليم:

١ ـ المنافق لا يتورّع عن إساءة الأدب والطعن حتى مع النبي الكريم ﷺ، ﴿يَلْمِزُكَ﴾.

٢ ـ القائد هو هدف المنافقين في هجماتهم ودعاياتهم المسمومة، ﴿يَلْمِزُكَ﴾.

٣ ـ لم يكن جميع صحابة النبي الكريم ﷺ عدولاً، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾.

٤ ـ يجب على المسؤولين في النظام الإسلامي ألّا يتأثّروا بهمز المنافقين ولمزهم، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾.

٥ ـ الأنانية هي منشأ بعض الانحرافات، والإساءات، والتصرّفات الوقحة تجاه القائد، (في ضوء سبب نزول الآية).

٦ ـ دوافع الانتقادات، تكون، أحياناً، نابعة من المصالح الشخصيّة لا الحرص، ﴿فَإِنْ أُعْطُوا﴾.

٧ ـ وضع السياسات المالية والاقتصادية في المجتمع الإسلامي هي من اختصاص النبي الكريم ﷺ وضمن صلاحيات القائد، ﴿فَإِنْ أُعْطُوا... وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا﴾.

٨ ـ المنافق لا يقنع بنصيبه، فهو أناني ويفتقر إلى المنطق، ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا... يَسْخَطُونَ﴾.

٩ ـ الحقد، والعداوة، والطعن، وإساءة الحكم عند بعض الناس كلّها صفات نابعة من مصالحهم الماديّة والشخصيّة[2]، ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا... يَسْخَطُونَ﴾؛

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٣٨.

(٢) عن الإمام الصادق: «**إنّ ثلثي الناس على هذه الشاكلة**»، الكافي، ج٢، ص٢٢٨.

(نعم، إنّ منشأ بعض الأحكام الخاطئة والتفسيرات غير الصائبة هو البواعث الداخليّة).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾

إشارات:

تطرح هذه الآية أربع مراحل هي:

١ ـ الرضا والتسليم بما قسم الله تعالى، ﴿رَضُوا مَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ الرضا باللسان، ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾.

٣ ـ الأمل بفضل الله تعالى وكرمه، ﴿سَيُؤْتِينَا﴾.

٤ ـ عدم التعلّق بالدنيا والتوجّه إلى الله تعالى، ﴿إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾.

التعاليم:

١ ـ لن يرضى المنافقون عن الله وعمّا قسم لهم أبداً، ﴿وَلَوْ﴾.

٢ ـ وضع السياسات والخطط لتوزيع موارد بيت المال وتسيير الشؤون المالية والاقتصادية بيد الله ومن اختصاص النبي وقائد الأمّة الإسلاميّة، ﴿ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

٣ ـ يجب أن لا ننظر إلى المصاعب والشدائد فقط، إذ يمكن بالصبر تحقيق مستقبل أفضل، ﴿سَيُؤْتِينَا﴾.

٤ ـ مرارة حرمان المؤمنين في الدنيا يمكن أن تتحوّل بالوعود الإلٰهيّة الحتميّة بنعيم الجنّة إلى شهد، ﴿سَيُؤْتِينَا﴾.

٥ ـ ليست لنا أيّ حقوق عند الله، فما جاد به علينا إنّما هو من فضله ونعمه، ﴿فَضْلِهِۦ﴾.

٦ ـ ألطاف الله تعالى تنزل علينا بواسطة الأنبياء والأولياء، ﴿فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾.

٧ ـ حبّ الله يهيّئ لمستلزمات الصبر، والرضا، والقناعة، ﴿إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾

إشارات:

- «**الصَّدقة**» و«**الصّداق**»، مشتقتان من «**الصِّدق**». و«**الصَّدقة**»، علامة الصدق في الإيمان بالله تعالى، و«**الصَّداق**» أو المهر، هو علامة على صدق المحبّة للزوجة.
- والمراد بالصدقة هنا في هذه الآية هو الزكاة الواجبة.
- «**الفَقير**»، من «**الفَقر**»، بمعنى حطّم الفقر عموده الفقري. و«**المسكين**»، من «**المَسكن**»، وهو من لزم مسكنه من الفقر. بحسب بعض الروايات، فإنّ الفقير هو الشخص الذي يعاني حاجة مالية لكنّه متعفّف لا يسأل أحداً، أمّا المسكين فهو أشدّ حاجة من الفقير، وهو بذلك مضطرّ ليستعطي الناس ويسألهم[1].
- من سياق الآيات السابقة التي بيّنت أنّ المنافقين لمزوا النبي الكريم ﷺ عندما قام بتقسيم الأموال ﴿يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، ثمّ هذه الآية التي تجيز صرف الزكاة لشرائح خاصّة، يتبيّن لنا أنّ المنافقين كانوا يأملون أن يكون لهم سهمٌ في الزكاة.
- ﴿...وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾، هم الساعون في جباية الزكاة، وجمعها وحفظها وتوزيعها وتنظيم حساباتها، ويتمّ دفع أجرتهم من أموال الزكاة.
- ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾، قوم وحّدوا الله ولم تدخل المعرفة قلوبهم ـ أنّ محمداً رسول الله ﷺ ـ فكان رسول الله ﷺ يتألّفهم، ويعلّمهم كي ما يعرفوا فجعل الله لهم نصيباً في الصدقات لكي يعرفوا ويرغبوهم.
- بطبيعة الحال؛ إنّ دفع الزكاة لتأليف قلوب هؤلاء لا يعني شراء إيمانهم بالمال، ولكنّها وسيلة ليدركوا جوهر الإسلام ويتعلّموه ومن ثمّ بلوغ مرتبة المعرفة والإيمان، «**يتألّفهم، ويعلّمهم كيما يعرفوا**»[2].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن. (٢) تفسير نور الثقلين.

❑ ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ شريحة أخرى لمصارف الزكاة، وهم الذين عجزوا عن أداء ديونهم ولم يكن هذا العجز بتقصير منهم، بل لأسباب خارجة عن إرادتهم مثل الحريق أو السيل أو غرق السفن، والكوارث الطبيعية، وأدّى بهم إلى أن يخسروا كلّ ما يملكون.

❑ يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«أيّما مؤمن أو مسلمٍ ماتَ وترك دَيْناً ولم يكن في فسادٍ ولا إسراف فعلى الإمام أن يقضيه»**[1].

❑ ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، جميع الأعمال الخيّرة التي تؤدّي إلى تقوية الدين الإلٰهيّ ونشره، وتشمل الدعوة والتبليغ الديني، الخدمات الترفيهية والأعمال التي تعمل على حلّ مشاكل المسلمين، وإن كان التجسيد الأمثل لها، كما ورد في معظم التفاسير، هو الحرب والجهاد.

❑ ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، والمراد الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقره وماله، فإنه يعطى منها وإن كان غنياً في بلده، ولا يلزمه أن يشغل ذمته بالاقتراض.

نبذة عن الزكاة

❑ نزل حكم الزكاة في مكّة، ولكن، بسبب قلّة عدد المسلمين وبالأخصّ أولئك الذين تجب عليهم الزكاة آنذاك، بادر المسلمون جميعاً إلى دفع الزكاة. وبعد أن توطّدت أركان الحكومة الإسلاميّة في المدينة، ظهرت من جديد مسألة جباية الزكاة وجمعها في بيت المال، ومركزتها بيد الحاكم الإسلامي، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾[2].

❑ وفي الحقيقة، إنّ الزكاة لا تختصّ بالإسلام وحده، بل إنّ هذا الحكم كان مشرّعاً في جميع الأديان السابقة. فالنبي عيسى عليه السلام قال وهو في مهده: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾[3]، وكذلك النبي موسى عليه السلام إذ خاطب بني إسرائيل بالقول ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[4]، وبالنسبة إلى سائر الأنبياء جاء

---

(١) تفسير كنز الدقائق.
(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٣.
(٣) سورة مريم: الآية ٣١.
(٤) سورة البقرة: الآية ٤٣.

أيضاً ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[١].

- لقد عبّر القرآن الكريم عن الزكاة بأربعة أوجه هي:
  ١ ـ إيتاء المال، ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٢].
  ٢ ـ الصدقة، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾[٣].
  ٣ ـ الإنفاق، ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟﴾[٤].
  ٤ ـ الزكاة، ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[٥].

- درج القرآن الكريم على ذكر الزكاة إلى جانب الصلاة، وطبقاً للروايات فإنّ شرط قبول الصلاة هو تأدية الزكاة. وتؤشّر هذه المعادلة إلى علاقة الإنسان وارتباطه بربه من جهة، وارتباط الإنسان بالناس من جهة ثانية. والحقيقة، أنّه لم يقترن أيٌّ من واجبات الدين بالصلاة كاقتران الزكاة بها.

- لقد حُرّمت الزكاة على السادة من ذرّيّة الرسول الأكرم ﷺ، إذ يروى أنّ أناساً من بني هاشم أتوا رسول الله ﷺ فسألوه أن يستعملهم على صدقات المواشي وقالوا: يكون لنا هذا السهم الذي جعله الله للعاملين عليها فنحن أولى به، فقال رسول الله ﷺ: **«يا بني عبد المطلب إنّ الصّدقة لا تحلّ لي ولا لكم ولكنّي قد وُعدت بالشفاعة»**[٦] إلّا إذا كان المعطي والآخذ كلاهما من بني هاشم.

- ليس المقصود من تشريع قانون الزكاة، أنّ الإسلام يريد تقسيم المجتمع إلى شريحة فقيرة تأخذ الزكاة وأخرى ثريّة تدفعه، بل إنّه يمثّل حلاً لظاهرة حقيقيّة موجودة في المجتمع. كما إنّ الأغنياء أنفسهم قد يتعرّضون أحياناً إلى حوادث مختلفة مثل السرقة، أو الحريق، أو الدهس أو الحرب أو الأسر، ومن هنا لا بدّ للنظام الإسلامي من أن يخصّص ميزانية لشؤون الضمان الاجتماعي.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٧.
(٣) سورة التوبة: الآية ١٠٣.
(٤) سورة إبراهيم: الآية ٣١.
(٥) سورة المائدة: الآية ٥٥.
(٦) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ٤، ص ٥٨.

❑ جاء في رواية: **«إنّ الله عزّ وجلّ فرض للفقراء في أموال الأغنياء ما يسعهم، ولو علم أنّ ذلك لا يسعهم لزادهم، إنّهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عزّ وجلّ، ولكن أوتوا من منع من منعهم حقّهم، لا ممّا فرض الله لهم، ولو أنّ الناس أدّوا حقوقهم لكانوا عائشين بخير ولو أنّ الناس أدّوا زكاة أموالهم، ما بقي مسلم فقير محتاج»**(١).

❑ وبخلاف ما يعتقد البعض بالنسبة لتحديد دخل الفرد، فإنّ الإسلام يقول بضرورة منح الإنسان حرّية نسبية في هذا المجال، حتى يتمكّن من تنمية أمواله بجهوده ونشاطاته الذاتيّة وتسخير الإمكانات الطبيعية؛ ولكن شرط أن يدفع ما عليه من حقوق مثل الزكاة.

❑ إنّ شرط إنفاق الزكاة في سبيل الله ليس الفقر، بل يمكنه الإنفاق حيثما كان ذلك في مصلحة ترسيخ حاكمية الإسلام(٢).

❑ كما أنّه يمكن الاستفادة من الزكاة لإنقاذ المجتمع من شرّ الأشرار، وهذا يندرج ضمن بند **«المؤلّفة قلوبهم»**(٣).

❑ أمّا إذا كان أحدهم مديناً بالدية ولم يقوَ على دفعها، فهو من الغارمين، إذ يمكن مساعدته لدفع الديّة من أموال الزكاة(٤).

❑ أمّا تعبير **«وفي الرقاب»**، فيشمل صرف الزكاة لتحرير السجناء أو تأمين نفقاتهم.

❑ إنّ صرف أموال الزكاة على الحالات الثماني المذكورة لا يعني بالضرورة توزيعها بالتساوي، بل تخضع لرأي الحاكم الإسلامي يوزّعها بما يراه مناسباً.

والحقيقة أنّ الزكاة هي:

❑ سبب لعدالة توزيع الثروات.

❑ والشكر العملي على مواهب الله تعالى ونعمه.

❑ وهي تقلّل من الفوارق الطبقيّة، وتُذهب بالبغضاء التي في نفوس الفقراء تجاه الأغنياء.

---

(١) وسائل الشيعة، ج٦، ص٤.

(٢) تفسير روح المعاني.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) تفسير المراغي.

❑ والزكاة، تبعث في الإنسان روح السخاء والرأفة، وتخفّف من شدّة تعلّقه بالدنيا والعلائق المادّية.

❑ وتشكّل دعامة الضمان الاجتماعي للمحرومين، وكأنّها تقول للفقير: لا تقلق، وللمفلس: لا تيأس، وللمسافر: لا تخش أن تنقطع بك السبل، وللموظف: حصّتك محفوظة، وهي تَعِدُ العبيد بالحريّة والخلاص، وتضفي الانتعاش على حقل الخدمات الإلٰهيّة، وتجذب قلوب الناس نحو الإسلام.

❑ أمّا ثمرة التكاثر وكنز الأموال فهي الغفلة عن ذكر الله، استغلال الناس، قسوة القلب، الطغيان والترف الباذخ، ودواء جميع هذه الأمراض هو الزكاة.

❑ ومضافاً إلى رفع الحرمان من المجتمع، فإنّ الزكاة تزيد من ميل الأفراد نحو الإسلام، أو على الأقل، تمنعهم من الاستمرار في مساعدة أعداء الإسلام. وقد ورد في الروايات أنّ أفراداً من ضعاف الإيمان يقوى إيمانهم بعد أن يُعطوا من أموال الزكاة ويتقرّبون من الإسلام(١).

❑ وإذا أردنا أن نوجز الزكاة في بضع كلمات نقول: هي صورة مشرقة للنظام الإسلامي، ومقدّمة لإرساء أسس العدالة الاجتماعية، ومحو الفقر وتأمين معيشة الموظّفين، وطريق إلى الشهرة العالميّة وحرّية الرقيق والأسرى، وتشغيل القوى، والمحافظة على شرعة المسلمين وكيانهم، وتوسيع للخدمات العامة.

التعاليم:

١ ـ الزكاة دليل صدق الإيمان، ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾.

٢ ـ توزيع الزكاة يتمّ على أساس ما جاء به الوحي وليس الأماني. لقد ردّ ﷻ على لمزات المنافقين بالقول: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ و...﴾.

٣ ـ لا يجوز إنفاق الزكاة في غير مصارفها الثمانية التي ورد ذكرها في الآية، ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾.

(١) تفسير نور الثقلين.

٤ ـ واحد من أصول العدالة الاجتماعيّة الإسلاميّة، التكافل الاجتماعي وتأمين حياة المحرومين، ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾.

٥ ـ ثروة الإنسان ليست ملكه وحده، بل للآخرين نصيب فيها، ﴿لِلۡفُقَرَآءِ و...﴾.

٦ ـ لا يجوز لمن يؤدّي الزكاة أن يمنّ على الفقراء؛ لأنّ نصيب هؤلاء من الزكاة هو ملك لهم، ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾.

٧ ـ محاربة الفقر يجب أن تكون على رأس برامج النظام الإسلامي، ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾؛ فالآية الكريمة ذكرت الفقراء ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ ثمّ عقّبت بالمصارف الأخرى.

٨ ـ يجب تأمين معائش الذين يسعون إلى إقامة الأحكام والتكاليف الدينية، ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾.

٩ ـ لكلّ عمل قيمة وثمن، سواء أكان الساعي به فقيراً أم غنياً، ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾.

١٠ ـ كما إنّه لا بدّ من تأمين القاضي مادّياً حتى لا يفكّر بالارتشاء، فإنّه يجب أيضاً تأمين العاملين على الزكاة حتى لا يجنحوا نحو الرشوة والاختلاس، ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾.

١١ ـ من أجل جمع الزكاة، يجب أن تنتدب الدولة الإسلاميّة أشخاصاً للقيام بهذه المهمّة، ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾.

١٢ ـ نلاحظ بوضوح اختلاط القضايا المادّية والمعنوية بعضها ببعضها الآخر، ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾.

١٣ ـ الإسلام، وبخلاف المستعمرين الأفّاقين والخدّاعين، ينشر عقيدته عبر حلّ المشاكل وبقصد القربة إلى الله، وباستخدام البراهين والإرشادات والنُّصُح، ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾.

١٤ ـ من مسؤوليات الدولة الإسلاميّة أن تجعل من الأموال وسيلة لتأليف القلوب وجذبها[١]، ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾.

---

(١) الهدية والإطعام وما شابه، هم من الوسائل التي يقرّها الإسلام لجذب قلوب الناس.

١٥ ـ لقد خصّص الإسلام ميزانية لتحرير الرقيق، ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾.

١٦ ـ نفقات الهيئات والتشكيلات الخاصة بالزكاة لا تشكّل عبئاً، بل العمليّة تقوم على الاكتفاء الذاتي، ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾.

١٧ ـ الدولة الإسلاميّة مسؤولة عن جباية الزكاة وتوزيعها على الفقراء، ومن فوائد هذه العملية، ألّا يضطرّ الفقراء إلى الذهاب إلى الأغنياء مباشرة وما ينطوي عليه ذلك من شعور بالصغار والضعة[1]، ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾.

١٨ ـ يتمّ تأمين ميزانية الجهاد والدفاع عن البلاد الإسلاميّة من أموال الزكاة والناس، ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

١٩ ـ لا بدّ للمال من أن يكون وسيلة للتقرّب إلى الله تعالى، ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٢٠ ـ تأمين نفقات من انقطعت بهم السبل، دليل على الأهميّة التي يوليها الإسلام لقضايا السفر، والتجارة، والسياحة، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٢١ ـ قانون الزكاة، قانون مدروس وحكيم، ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ... فَرِيضَةً... عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٢٢ ـ ليس الإسلام دين عبادة فحسب، بل إنّه يتضمن قوانين اقتصادية، ﴿فَرِيضَةً﴾.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

إشارات:

- الضمير «منهم» إمّا أنّه يعود على المنافقين، أو بعض الأفراد ضعاف الإيمان الذين تخلّفوا عن القتال بسبب جبنهم وخوفهم، ثمّ بعد أن وضعت الحرب أوزارها جاؤوا إلى النبي بالحجج والأعذار.

---

(١) آية أخرى تقول: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ (سورة التوبة: الآية ١٠٣).

□ ورد عن النبي ﷺ حديث طويل يقول فيه وقد ذكر علياً عليه السلام وما أوصى الله فيه: **«وذكَّر المنافقين، والآثمين، والمستهزئين بالإسلام، وكثرةِ أذاهم لي حتى سمّوني أُذناً، وزعموا أنّي كذلك لكثرة ملازمته إيّاي وإقبالي عليه حتى أنزل الله ﷻ في ذلك ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾»**[(١)].

□ وعنه ﷺ أيضاً أنّه قال: **«مَن آذاني في عترتي فعليه لعنة الله»**. وقال في بضعته السيّدة الزهراء عليها السلام كذلك: **«مَن آذاها فقد آذاني»**[(٢)].

التعاليم:

١ ـ دأبت جماعة على إيذاء النبي الأكرم ﷺ، ﴿يُؤْذُونَ﴾؛ (صيغة الفعل المضارع تدل على الاستمرار).

٢ ـ لم يكن جميع صحابة النبي الكريم ﷺ عدولاً، فمنهم من كان يؤذيه، ﴿يُؤْذُونَ﴾.

٣ ـ قيادة الأمّة مقرونة بالأذى من القريب والغريب، ﴿يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾.

٤ ـ أذى النبي كفر[(٣)]، لاحظ التقابل بين ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ وبين ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

٥ ـ كانت الدعاية المسمومة للمنافقين وتشويشهم يطال حتى شخص النبي الكريم ﷺ، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾.

٦ ـ الله تبارك وتعالى يُطلع رسوله الكريم ﷺ على الأحاديث السريّة والخصوصية للمناوئين، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾.

٧ ـ اسمحوا لجميع الناس بالتعبير عن آرائهم حتى وإن قيل: إنّكم أُذن، لكيلا نُتّهم بأنّنا لا نسمع لهم، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾.

٨ ـ من آداب الإنصات الانتباه بكلّ جوارحنا إلى كلام المتكلّم. كلمة ﴿أُذُنٌ﴾ تعني أنّه ينصت لكلام الناس بكلّ مشاعره.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) ملحقات إحقاق الحقّ، ج ١٨، ص ٤٥٨ و٤٣٩.

(٣) تفسير المنار.

٩ ـ أحياناً، يستوجب الأمر أن يتغاضى الإنسان عن بعض ما يسمع من أجل المحافظة على المصلحة العليا للأمّة، ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾.

١٠ ـ أحياناً تكون الآثار التربوية والاجتماعيّة أو السياسيّة للسكوت أبلغ من التحرّك أو الإعلان عن موقف، ﴿أُذُنٌ﴾.

١١ ـ القائد الحكيم يتّصف برحابة الصدر والإنصات لمطالب جميع الفئات، والسلوك الودّي تجاهها، وستر العيوب، والإبقاء على باب الاعتذار والتوبة مفتوحاً أمام الناس، ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾.

١٢ ـ أنصتوا لحديث الناس بوجه طلق وسريرة محبّة للخير، ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾.

١٣ ـ السكوت على المسموعات ليس دائماً علامة على الرضا، ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾.

١٤ ـ دافعوا عن المعذّبين. لقد ذكر الله تعالى أربع فضائل للنبي الكريم ﷺ لاستماعه لكلام العدوّ الذي كان يصفه بأنّه «أذن»، هي: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾، ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾، ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

١٥ ـ إذا جاءكم مؤمن بنبأٍ فصدّقوه، ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٦ ـ صحيحٌ أنّ النبي الكريم ﷺ بُعث رحمةً للعالمين، إلّا أنّ الانتهال من فيض هذه الرحمة خاصّ بالمؤمنين، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

١٧ ـ احذروا عاقبة أذى النبي الكريم ﷺ، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ يعيش المنافق دوماً في ريبة ووحشة واضطراب، ويحاول استغلال المعتقدات

الدينيّة للناس باليمين الكاذبة والتظاهر من أجل أن يجذب انتباههم، ﴿يَحۡلِفُونَ... لَكُمۡ﴾.

٢ ـ لا تنخدعوا بأيّ يمين، فالمقدّسات، أحياناً، تصير ذريعة بيد الأشرار، ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾.

٣ ـ بالنسبة إلى المؤمن، رضا الله تعالى هو المهم، لا إرضاء الناس، ﴿وَٱللَّهُ... أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾.

٤ ـ رضا الرسول الكريم ﷺ من رضا الله تعالى. يقول ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ لا «يرضوهما»[1].

٥ ـ من يؤثر رضا المخلوق على رضا الخالق، فله حصّة من النفاق، ويجب أن يُوبّخ، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾.

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٣﴾

إشارات:

□ ﴿يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾، من «المحادّة» وتعني إبداء العداوة لله وتجاوز حدوده.

يقول الفخر الرازي في تفسيره: حاددته أي خالفته، والمحاددة كالمجانبة والمعاداة والمخالفة، واشتقاقه من الحدّ، ومعنى حادّ فلان فلاناً، أي صار في حدّ غير حدّه كقوله: شاقّه، أي صار في شقّ غير شقّه، ومعنى ﴿يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ أي يصير في حدّ غير حدّ أولياء الله بالمخالفة.

وقال أبو مسلم: المحادة مأخوذة من الحديد حديد السلاح، ثم للمفسرين هنا عبارات: يخالف الله، وقيل: يحارب الله، وقيل: يعاند الله.

---

(١) طبعاً قد يكون سبب عدم قوله «يرضوهما» هو أنّه ما من أحد مثل الله تعالى بما في ذلك النبي الكريم ﷺ.

التعاليم:

١ ـ محاددة القائد الحقّ، محاددة لله تعالى، ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٢ ـ اليمين الكاذبة التي تهدف إلى حفظ ماء الوجه، دليل على محاددة الله تعالى وعداوته، ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ... يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾.

٣ ـ عاقبة لجاج الإنسان العالِم في دين الله، أن يخلّد في جهنّم، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ... فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.

٤ ـ ذكر جهنّم قد يمنع الإنسان من اللجاج والعناد، ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

إشارات:

❑ قيل في سبب نزول هذه الآية الكريمة: إنّ جمعاً من المنافقين كانوا قد قرّروا قتل النبي ﷺ عند رجوعه من غزوة تبوك، وكانت خطّتهم أن ينصبوا كميناً في إحدى عقبات الجبال الصعبة، وعندما يمرّ النبي الكريم ﷺ من تلك العقبة يُنفرون بعيره، فأطلع الله نبيّه على ذلك، فأمر جماعة من المسلمين بمراقبة الطريق والحذر، فلمّا وصل النبي ﷺ إلى العقبة ـ وكان عمّار يقود الدابّة، وحذيفة يسوقها ـ اقترب المنافقون متلثّمين لتنفيذ مؤامرتهم، فأمر النبي حذيفة أن يضرب وجوه دوابهم ويدفعهم، ففعل حذيفة ذلك. فلمّا جاوز النبي العقبة ـ وقد زال الخطر ـ قال لحذيفة: هل عرفتهم؟ فقال: لم أعرف أحداً منهم، فعرّفه رسول الله ﷺ بهم، فقال حذيفة: ألا ترسل إليهم من يقتلهم؟ فقال: «**إنّي أكره أن تقول العرب: إنّ محمداً لمّا انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه**»[1].

---

(١) تفاسير: الميزان؛ في ظلال القرآن؛ مجمع البيان؛ التفسير الكبير، الفخر الرازي؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

□ لمّا رأى المنافقون النبي الكريم ﷺ وقد تهيّأ للقتال قال هؤلاء بسخرية: أيظنّ هذا الرجل أنّه سيفتح حصون الشام الحصينة ويسكن قصورها، إنّ هذا لشيء محال، فأطلع الله نبيّه على ذلك، فأمر رسول الله ﷺ أن يسدّوا عليهم المنافذ والطرق، ثمّ ناداهم ولامهم وأخبرهم بما قالوا، فاعتذروا بأنّهم إنّما كانوا يمزحون وأقسموا على ذلك[1].

□ «السورة»، هي مجموعة من الآيات، وقد أطلق اللفظ اصطلاحاً على سور القرآن الـ١١٤. ولم يكن هذا المصطلح معروفا قبل الإسلام.

التعاليم:

١ ـ المنافق يتنابه القلق في كلّ لحظة لئلا ينفضح أمره، ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾.

٢ ـ لقد علم المنافقون أنّ الله تعالى مطّلع على أعمالهم وأنّ النبي الكريم ﷺ على حقّ، وينزل عليه الوحي من ربّه، ولهذا السبب، كانوا قلقين من نزول سورة من عند الله تفضح سرائرهم، ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ...﴾.

٣ ـ لقد نزلت آيات القرآن تدريجياً وبحسب المتطلّبات، ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾.

٤ ـ السخرية والاستهزاء هو ديدن المنافقين، ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾؛ (لعلّ المراد بالاستهزاء هو النفاق).

٥ ـ سنّة الله ووعده الذي لا يُخلف هو فضح المنافقين وتعريتهم، إذن، فلا خشية من أنيابهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾.

٦ ـ إرادة الله تعالى غالبة على أهواء المنافقين، ﴿يَحْذَرُ... إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾.

٧ ـ لا بدّ من تهديد المنافقين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾.

---

(١) . تفسير مجمع البيان.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾

إشارات:

- «الخَوْض» في اللغة هو الدخول التدريجي في مائع كالماء أو الطين، وفي القرآن الكريم يعني الشروع بالأعمال القبيحة.
- الآية تتعلّق بغزوة تبوك، حين عزم المنافقون على قتل النبي الكريم ﷺ عند عودته من الغزوة، فقال أحدهم: وإذا افتضح أمرنا؟ فقال آخر: نقول: إنّه كان مزاحاً، فكان عذرهم أقبح من ذنبهم[1].

التعاليم:

١ ـ الكذب والتبرير هو الأسلوب الدائم عند المنافقين، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾.

٢ ـ من علامات المنافق، التراجع، والشعور بالضعف، والتدليس، والمداومة على الذنب حتى بعد افتضاح مؤامرته، ﴿لَيَقُولُنَّ... نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

٣ ـ لقد فضح الله تعالى المنافقين وأخبر عن تبريراتهم وعاقبتهم، ﴿لَيَقُولُنَّ... نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

٤ ـ من أجل تبرئة أنفسهم، لجأ المنافقون إلى اليمين الكاذبة والقول إنّهم كانوا يمزحون؛ (لام القسم في ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ و«إنّما» تدلّان على الحصر).

٥ ـ لقد أمر النبي الكريم ﷺ بتوبيخ المنافقين، ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ...﴾.

٦ ـ لا يجوز اتّخاذ المقدّسات الدينيّة هزواً ولعباً، ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

---

(١) المصدر نفسه.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

إشارات:

□ توجد أقوال حول من هي الطائفة التي عفا الله عنها، فمنهم من يقول:

أ) أولئك الذين تابوا[١].

ب) إنّ الطائفتين كانوا ثلاثة، استهزأ اثنان وضحك واحد، فالطائفة الأولى الضاحك، والثانية الهازيان، وقال المفسرون: لما كان ذنب الضاحك أخفّ لا جرم عفا الله عنه، وذنب الهازيين أغلظ، فلا جرم ما عفا الله عنهما[٢]. لكنّه تعالى لم يعف عن رؤوسهم.

ج) أولئك الذين كان العفو عنهم لصالح النظام والدولة[٣].

د) العفو كان عن طائفة انحرفت لفترة قصيرة فحسب، في مقابل طائفة كان ذنبها أطول وأعمق واستمرّت عليه، ﴿كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا يُقبل عذر الكذّابين والمستهزئين في كلّ حين، ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾.

٢ ـ لا عذر مع الارتداد، ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

٣ ـ لا تغترّ بإيمان اليوم، فخطر سوء العاقبة والارتداد قائم، ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

٤ ـ الإساءة والاستهزاء بالله ورسوله وآيات الله كفر، ﴿تَسْتَهْزِءُونَ... كَفَرْتُم﴾.

٥ ـ المنافق هو، في الحقيقة، كافر، ﴿كَفَرْتُم﴾.

٦ ـ عند تهديد المعارضين والمنافقين المتآمرين، يستحسن أن لا نغلق جميع الأبواب بوجههم، ﴿نَّعْفُ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي.

(٣) الميزان في تفسير القرآن.

٧ ـ بعض المنافقين يمكن الصفح عنهم، شرط أن يتوبوا، ﴿نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ﴾ (للنفاق أيضاً درجات).

٨ ـ سبب عذاب المنافقين هو كفرهم وأنّهم مردوا على المعصية، ﴿نُعَذِّبْ... كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾

إشارات:

□ لقد عرف عصر صدر الإسلام ظهور نساء منافقات كانت لهنّ، كما المنافقون، حصّة كبيرة في الفساد.

□ **سؤال**: من المعلوم أنّ الله تعالى لا ينسى، كما تقول الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[١]، إذن ماذا تقصد الآية الكريمة بقولها: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ﴾؟

الجواب: إنّ نسبة النسيان إلى الله تعالى هنا هي من باب المجاز، بمعنى، أنّ الله يعاملهم كمنسيّين (لا أنّه ينساهم).

سُئل الإمام الرضا عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ﴾؟ فقال: **«إنّ الله لا يسهو ولا ينسى، وإنّما ينسى ويسهو المخلوق والمحدث»**[٢] وعن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: **«يعني بالنسيان أنه لم يثبهم كما يثيب أولياءه الذين كانوا في دار الدنيا مطيعين ذاكرين حين آمنوا به وبرسوله وخافوه بالغيب»**[٣].

التعاليم:

١ ـ المرأة والرجل، كلاهما له دور في إصلاح المجتمع أو إفساده، ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾.

---

(١) سورة مريم: الآية ٦٤.

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) تفسير البرهان.

٢ ـ يلعب بعض المنافقين دور القائد، وبعضهم الآخر دور المنقاد والمتأثّر، ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ (للنفاق درجات).

٣ ـ المنافقون، على اختلاف درجاتهم، تجمعهم مبادئ وأعمال مشتركة، ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾.

٤ ـ لا تصدّقوا قول المنافقين في أنّهم منكم مهما حلفوا لكم، فبعضهم أولياء بعض، ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾.

٥ ـ ثمّة علاقة قويّة تشدّ بعض المنافقين إلى بعضهم الآخر، ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾.

٦ ـ إشاعة الفواحش والدعوة إلى المنكرات والنهي عن المعروف من علامات النفاق، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾.

٧ ـ لا يوجد في قاموس المنافقين شيء اسمه فعل الخيرات، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾.

٨ ـ ترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإنفاق في سبيل الله، من علائم نسيان الله تعالى، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾.

٩ ـ نسيان الله عبدَه وحرمانه من لطفه، هو نتيجة نسيان العبد ربَّهُ، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾.

١٠ ـ العقوبات الإلٰهيّة تتناسب مع أفعال الإنسان، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

١١ ـ المنافق يحسب حساباً للناس وليس لله تعالى، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾.

١٢ ـ النفاق فسق، ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

التعاليم:

١ ـ المرأة والرجل متساويان في ما يتعلّق بالتكاليف الإلٰهيّة، ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾.

٢ ـ العذاب الإلٰهيّ هو نتيجة لعملنا وهو ردٌّ بالمثل. (تقول الآية ٦٥: إنّ

المنافقين قد اتّخذوا المسلمين هزواً، وفي هذه الآية يستهزئ الله بهم حين يخاطبهم بكلمة ﴿وَعَدَ﴾ التي تستعمل عادةً في الخيرات و﴿حَسْبُهُمْ﴾ للإشارة إلى الاكتفاء والرضا).

٣ ـ الله تبارك وتعالى يتوعّد المنافقين بجهنّم ومن ثمّ الكافرين، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ﴾.

٤ ـ مهما حاول المنافقون أن يصطفّوا في الدنيا في صفوف المؤمنين، إلّا أنّ موقعهم في الآخرة سيكون مع الكافرين، ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ... وَٱلْكُفَّارَ﴾.

٥ ـ تجمع جهنّم كلّ أصناف العذاب والبلاء، لذلك، فهي تكفي كعذاب للمنافقين والكفّار، ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

إشارات:

□ «**الخَلاق**» في الآية بمعنى النصيب والحصّة.

□ قد يكون المراد من حبط الأعمال في الدنيا هو الكشف عن الوجه الحقيقي للمنافق وبطلان أعماله الصالحة.

التعاليم:

١ ـ تاريخ الأمم ومصائرها شبيهة بعضها ببعض، ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

٢ ـ طريق الكفر والنفاق كان وما يزال موجوداً، وأنّ السنّة الإلٰهيّة هي نفسها لم تتغيّر، ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

٣ ـ القوة العسكرية، ﴿قُوَّةً﴾ والاقتصادية ﴿أَمْوَٰلًا﴾ والموارد البشرية، ﴿وَأَوْلَٰدًا﴾لا تحول دون نزول العذاب الإلٰهيّ.

٤ ـ المنافقون والكفّار يتكئون على سلطتهم وأموالهم وأولادهم، ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً...﴾.

٥ ـ لا يشترط وجود الإيمان للتمتّع بنعم الدنيا، فالكفّار والمنافقون أيضاً لهم نصيب من هذه النعم، ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ﴾.

٦ ـ المُتَع واللذائذ الدنيوية أمدها قصير، ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾.

٧ ـ ليست كلّ لذّة أو نعمة دليل لطف الله تعالى، ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ... حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾.

٨ ـ لقد جعل الله تعالى نصيباً للمنحرفين عن الحقّ في هذه الدنيا، ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ لكنّهم في الآخرة محرومون من أيّ نصيب أو نعمة[1].

٩ ـ الانغماس في المفاسد ومحاربة الدين هو عامل انحدار وسقوط، ﴿وَخُضْتُمْ﴾ ﴿خَاضُوٓاْ﴾، غير أنّ التوبة والإنابة بعد كلّ معصية يمكن أن تشكّل حبل نجاة للإنسان.

١٠ ـ الكفر والنفاق مدعاة لحبط الأعمال، ﴿حَبِطَتْ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

إشارات:

□ لكلّ قومٍ بلاء، فقوم نوح عليه السلام، هلكوا بالطوفان والغرق، وقوم عاد (قوم النبي هود عليه السلام) ابتلوا بالرياح الباردة والسموم، وقوم ثمود (قوم النبي صالح عليه السلام) بالزلازل والهدم والدمار، وقوم مدين (أصحاب النبي شعيب عليه السلام) بالصواعق المحرقة، وقوم لوط عليه السلام بخسف قريتهم وفنائهم جميعاً.

□ «المؤتَفِكات» من «الائتفاك» بمعنى انقلاب الأسفل إلى الأعلى وبالعكس وهي إشارة إلى مدن قوم لوط التي قلب عاليها سافلها نتيجة الزلزلة.

---

(١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ (سورة آل عمران: الآية ٧٧).

التعاليم:

١ ـ العذاب الدنيوي من السنن الإلٰهيّة، ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ...﴾ بمعنى، أنّ هذه السنن تسري عليكم أيضاً.

٢ ـ من كان وعيه أكبر، كانت مسؤوليته أكبر، ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ...﴾؛ الناس في عصر النبي الكريم ﷺ كانوا مطّلعين على مصائر الأمم السالفة.

٣ ـ تاريخ الأمم السالفة وأخبارهم تزخر بفوائد ودروس كثيرة. كلمة «نبأ» تقال للخبر المهم والمفيد.

٤ ـ من لم يتّعظ من دروس التاريخ، استحقّ التوبيخ والتقريع، ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ الاعتبار بالتاريخ أفضل درس للحياة الراهنة.

٥ ـ العذاب الإلٰهيّ ينزل دائماً بعد إتمام الحجّة، ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾.

٦ ـ التمرّد على الأوامر الإلٰهيّة، ظلم للنفس، ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

٧ ـ الإنسان مخيّر، وبإمكانه اتّخاذ القرار حيال المعجزات، ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم... وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

٨ ـ نزول العذاب الإلٰهيّ هو بسبب الإصرار على الظلم، ﴿كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾

إشارات:

□ ذكرت الآية ٦٧ عبارة ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ بالنسبة إلى المنافقين، وهذه الآية تقول عن المؤمنين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، ربّما يعود الاختلاف في التعبير إلى أنّ الوحدة والالتحام بالولاية هو الذي يشدّ المؤمنين بعضهم لبعضهم الآخر، بينما يفتقد المنافقون هذا الشعور، بدليل أنّه عندما يكون الحديث عن المصالح

الشخصيّة يغيب الوفاء بينهم وتتلاشى وحدتهم الظاهرية الصورية كما يصف القرآن الكريم ذلك بأحسن العبارات ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[١].

- لقد ذكرت الآية الكريمة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وذلك لأنّها الأساس الذي تقوم عليه الفرائض الأخرى[٢].

التعاليم:

١ ـ لكلّ من المرأة والرجل دور في إصلاح المجتمع، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾.

٢ ـ المؤمنون في المجتمع الإسلامي لهم حقّ الولاية المقرونة بالمحبّة من الله تجاه بعضهم، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

٣ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة واجبة على جميع الناس رجالاً ونساءً، وهي نابعة من حقّ الولاية في ما بينهم، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ... وَيَنْهَوْنَ﴾.

٤ ـ الأمر والنهي ممكنان في ظلّ المحبّة والولاية، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ... يَأْمُرُونَ...﴾.

٥ ـ الاهتمام بحياة المحرومين وتطبيق قانون التكافل الاجتماعي للفقراء يقعان في خانة المسائل العبادية، ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ...﴾.

٦ ـ الإيمان بإصلاح الفرد والمجتمع له دور مهم، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ... يَأْمُرُونَ... وَيَنْهَوْنَ... وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ﴾.

٧ ـ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الله ورسوله، كلّها واجبات دائمة مفروضة على المؤمنين، ﴿يَأْمُرُونَ... وَيَنْهَوْنَ... وَيُقِيمُونَ... وَيُؤْتُونَ... وَيُطِيعُونَ﴾؛ (الفعل المضارع يدل على الاستمرار).

٨ ـ أولئك الذين يدعون الآخرين إلى فعل الخير، يجب أن يكونوا هم أنفسهم يعملون بما يقولون، ﴿يَأْمُرُونَ... وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ﴾.

٩ ـ طاعة الله ورسوله يجب أن تنبع من الرغبة والتوق، ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ (الطاعة في اللغة تعني الانقياد مع الميل والرغبة).

---

(١) سورة الحشر: الآية ١٤. (٢) تحف العقول ص ٢٣٧.

١٠ ـ طاعة الله لازمة في البرامج العبادية، وكذلك طاعة الرسول في البرامج الحكومية، ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

١١ ـ أعمال الإنسان هي التي تمهّد لنزول الرحمة الإلٰهيّة، ﴿يَأْمُرُونَ... وَيَنْهَوْنَ... وَيُقِيمُونَ... وَيُؤْتُونَ... وَيُطِيعُونَ... سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

١٢ ـ الرجل والمرأة متساويان في الانتهال من فيض الرحمة الإلٰهيّة، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ... سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

إشارات:

- تبيّن هذه الآية كيفية تحقّق الرحمة الإلٰهيّة التي ورد ذكرها في الآية السابقة، ﴿سَيَرْحَمُهُمُ﴾.
- طبقاً للروايات فإنّ «جنّات عدن» هي أشرف وأفضل بقعة في الجنّة، وهي مستقرّ الأنبياء والصدّيقين والشهداء، وهي بقعة، من حيث السموّ والشرف، لا تخطر على بال بشر[1].
- المقارنة بين المنافقين والمؤمنين (الآيتان ٦٧ و٦٨ مع ٧١ و٧٢).

١ ـ المنافقون، **«بعضهم من بعض»**، بينما المؤمنون **«بعضهم أولياء بعض»**.

٢ ـ المنافقون، **«يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف»**، ولكن المؤمنين **«يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»**.

٣ ـ المنافقون، **«نسوا الله»**، أمّا المؤمنون فـ**«يقيمون الصّلاة»**.

٤ ـ المنافقون، **«يقبضون أيديهم »**، والمؤمنون **«يؤتون الزكاة»**.

٥ ـ المنافقون، **«فاسقون»**، والمؤمنون **«يطيعون الله»**.

٦ ـ توعّد الله المنافقين بـ**«نار جهنّم»**، لكنّه بشّر المؤمنين بـ **«جنّات، ومساكن»**.

---

(١) تفسير كنز الدقائق.

٧ ـ المنافقون «لعنهم الله»، فيما يحظى المؤمنون بـ«رضوان من الله».

٨ ـ المنافقون لهم «عذاب مقيم»، والمؤمنون لهم «فوز عظيم».

التعاليم:

١ ـ المرأة والرجل متساويان في التمتّع بالنعم الإلٰهيّة ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

٢ ـ المزيّة الكبرى للجنّة هي خلود الإنسان فيها وخلود نعيمها، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

٣ ـ حياة الآخرة ليست حياة معنوية صرفة بل هي حياة مادّيّة وجسمانية أيضاً، ﴿جَنَّٰتٍ... وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾.

٤ ـ المسكن يكون ذا قيمة عندما يكون موقعه راقياً، ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.

٥ ـ ينبغي توظيف ميل الإنسان الطبيعي نحو الماء، والخضرة، والرياض، والبساتين، والمساكن لترسيخ الاتجاهات المعنوية والروحانية لديه، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ... جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ...﴾.

٦ ـ النعيم المعنوي والروحي للجنّة أسمى من نعيمها المادّي، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

٧ ـ للجنّة درجات ومراتب، ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي...جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

٨ ـ الوصول إلى الثواب الأخروي ورضا الله تعالى، هو الفلاح الأكبر، ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

إشارات:

□ ما لم يلجأ المنافقون إلى الحرب والتآمر، ويصبحوا مثل الكافر الحربي، فإنّ جهادهم يكون باللسان فقط[1].

---

(١) تفسير المنار.

□ قبل نزول هذه الآية، كانت معاملة الرسول للمنافقين معاملة كريمة، ولكن بعد نزولها اتّسمت معاملته ﷺ لهم بالشدّة والغلظة[1].

التعاليم:

١ ـ يجب أن يكون الجهاد بأمر وليّ أمر المسلمين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ﴾.

٢ ـ في النظام الإسلامي، الإمام هو القائد العام للقوات المسلحة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ﴾.

٣ ـ الإسلام هو شريعة الجهاد ضدّ الكفر والنفاق، ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

٤ ـ فلنجاهد العدو الأجنبي الظاهر، ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾، وكذلك العدو الداخليّ المستتر، ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

٥ ـ ولي أمر المسلمين يجب أن يُظهر الحزم في مواجهة الاستكبار، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ... وَٱغْلُظْ﴾.

٦ ـ معلوم أنّ النبي الكريم ﷺ هو ينبوع الرحمة والرأفة، لكنّ أمر الله تعالى في هذه الآية بالتشديد وإظهار الغلظة إنّما هو بسبب كفر الأعداء ونفاقهم، ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾.

٧ ـ جهاد الكفّار والمنافقين إنّما هو جزاؤهم في الدنيا؛ لأنّ لهم عذاب جهنّم في الآخرة، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

٨ ـ المنافق له عاقبة السوء، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

إشارات:

□ نلاحظ أنّ الآية ٦٦ تذكر قول النبي الكريم ﷺ للمنافقين ﴿كَفَرْتُم بَعْدَ

(١) تفسير في ظلال القرآن.

إِيمَٰنِكُمْ﴾، فيما يقول الله تعالى هنا: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾، بمعنى أنّ النبي استعمل في الآية السابقة تعبير الإيمان بالنسبة إلى هؤلاء بينما يستعمل الله تعالى هنا تعبير الإسلام في حديثه عنهم، وتفسير هذا الاختلاف هو أنّ النبي ﷺ ليس له إلّا أن يحكم بالظاهر، وبما أنّهم أسلموا فكان يعتبرهم مؤمنين، أمّا الله تعالى العليم بما تخفي صدور هؤلاء فقد وصفهم بما هم عليه، أي مسلمين لا مؤمنين(١).

- تشمل الآية جميع المؤامرات والدسائس التي حاكها المنافقون ضدّ النبي الكريم ﷺ والإسلام، غير أنّ تفاسير الفريقين تعتبر الآية إشارة خاصّة إلى ليلة العقبة حيث تربّص المنافقون بالنبي الأعظم ﷺ في العقبة ليفتكوا به بعد أن ينفروا بعيره، لكنّ الله فضح كيدهم ولم ينالوا ما همّوا به، ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾.

- روي أنّ أحد المنافقين ويدعى جلّاس سمع بعضاً من خطب الرسول الكريم ﷺ أيّام غزوة تبوك، وأنكرها بشدّة وكذبها، وبعد رجوع المسلمين إلى المدينة حضر رجل يقال له: عامر بن قيس ـ كان قد سمع جلّاساً ـ عند النبي ﷺ وأبلغه كلام هذا المنافق فلمّا حضر جلّاس وسأله النبي ﷺ عن ذلك أنكر، فأمرهما النبي ﷺ أن يقسما بالله ـ في المسجد عند المنبر ـ أنّهما لا يكذبان فاقتربا من المنبر في المسجد، وأقسما، إلّا أنّ عامراً دعا بعد القسم وقال: أللهمّ أنزل على نبيّك آية تعرّف الصادق. فأمّن النبي ﷺ والمسلمون على دعائه. فنزل جبرئيل بهذه الآية. فلّما بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ قال جلّاس: يا رسول الله إنّ الله اقترح عليّ التوبة، وإنّي قد ندمت على ما كان منّي وأتوب منه، فقبل النبي ﷺ توبته(٢).

التعاليم:

١ ـ الكذب واليمين الكاذبة، من علامات المنافق، ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن. (٢) الميزان في تفسير القرآن.

٢ ـ المنافقون جاحدون، فقد نالوا بفضل الإسلام ما نالوا، لكنّهم مع ذلك لم يتوبوا عن الهمز واللمز وقبيح الكلام، ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ...﴾.

٣ ـ اقتران اسم الرسول الكريم مع لفظ الجلالة (الله) تبارك وتعالى ونسبة الأعمال إليهما معاً ليس شركاً، ﴿أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

٤ ـ الله تبارك وتعالى هو وحده ينبوع الفضل. لاحظ أنه ﷻ يقول: ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ لا «من فضلهما»[1].

٥ ـ عمل الإسلام على الارتقاء بالتربية الفكرية والأخلاقية، وكذلك تحسين الأوضاع المادّية للحياة الإنسانية، ﴿أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

٦ ـ طريق التوبة مفتوح حتى لأولئك الذين همّوا بقتل النبي الأكرم ﷺ، ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾.

٧ ـ المنافقون يلقون عذاباً في الدنيا لأنّ نظام علل الكون يقوم على الصدق، ﴿يُعَذِّبۡهُمُ... فِي ٱلدُّنۡيَا﴾.

٨ ـ عذاب المنافقين في الدنيا هو التشريد، والحيرة، والاستيحاش الباطني، فهم في اضطراب دائم[2]، ﴿يُعَذِّبۡهُمُ... فِي ٱلدُّنۡيَا﴾.

٩ ـ عاقبة المنافقين أن يصبحوا بلا نصير، وأن تتلاشى تنظيماتهم ويركنوا إلى العزلة والمهانة، مجرّدين من أيّ دعم شعبيّ أو حكومي، ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥
فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦﴾

إشارات:

□ قيل في سبب نزول الآية الكريمة: إنّ رجلاً من الأنصار يدعى ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عوف وكان من الأنصار قال للنبي ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالاً،

---

(١) الآية ٦٢ من هذه السورة ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ ولم يقل: «يرضوهما».

(٢) ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ سورة المنافقون، الآية ٤.

فقال: «**يا ثعلبة قليلٌ تؤدي شكره خيرٌ من كثير لا تطيقه، أما لك في رسول الله أسوة حسنة، والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضّة لسارت**»، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق لئن رزقني مالاً لأعطينّ كلّ ذي حقّ حقّه، فقال: «**أللهمّ ارزق ثعلبة مالاً**»، قال: فاتّخذ غنماً فنمت كما ينمي الدود فضاقت عليه المدينة، فتنحّى منها فنزل وادياً من أوديتها ثم كثرت حتى تباعد عن المدينة، فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة، فبعث رسول الله ﷺ المصدّق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل، وقال ما هذه إلّا أخت الجزية، فقال رسول الله ﷺ: «**يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة**» فأنزل الله ﷻ الآيات[١].

- يذكر الفخر الرازي في تفسيره أنّ ثعلبة أتى الرسول الكريم ﷺ وسأله أن يقبل فقال النبي: «**إنّ الله منعني من قبول ذلك**». الحقيقة، إنّ الإنسان لا يعلم صلاحه وخيره، فأحياناً يصرّ على ما فيه ضرره، لذلك، يجب عليه التسليم بما قسم الله تعالى له.
- شبيه بذلك، عدم الوفاء بعهد الله تعالى، إذ جاء في سورة الأعراف ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾[٢].

التعاليم:

١ ـ الإنسان جاحد لا يشكر ربّه ولا يفي بعهده تجاهه تعالى، ﴿عَٰهَدَ اللَّهَ... لَنَصَّدَّقَنَّ... بَخِلُوا بِهِۦ﴾.

٢ ـ لا تعوّلوا كثيراً على العهود التي تُبرم في أوقات الفقر والشدّة، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم... بَخِلُوا﴾.

٣ ـ ما لم يتوافر الإنسان على الجدارة والأهلية ربّما تتحوّل نِعَم الله إلى نقم تنزل عليه. يكون المال ذا قيمة إذا لم يؤدِّ إلى سقوط الإنسان، ﴿ءَاتَىٰهُم... وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) سورة الأعراف: الآيتان ١٨٩ ـ ١٩٠.

٤ ـ التعلّق بزخارف الدنيا يودي بالإنسان إلى مصير أسود، فمن يبخل في أداء الزكاة والصدقات، سيطوي عن دينه كشحاً رويداً رويدا، ﴿بَخِلُوا... وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾

التعاليم:

١ ـ نقض عهود الله تعالى والبخل على المحرومين، يؤدّي بالإنسان إلى سوء العاقبة، ﴿بَخِلُوا... فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾.

٢ ـ للنفاق درجات، باللسان وبالسلوك وفي القلب، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

٣ ـ يكون النفاق، أحياناً، مؤقتاً، وأحياناً أخرى دائماً[١]، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾.

٤ ـ نقض العهود والكذب، تستتبع النفاق، كما إنّ الذنب لا يولّد إلّا الذنب، ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا... بِمَا أَخْلَفُوا... وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

٥ ـ الإنسان هو مصدر شقائه، ﴿بِمَا أَخْلَفُوا... وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾

إشارات:

□ ربّما يكون المراد بـ «السرّ» هو الكفر الباطني للمنافقين، وبـ «النجوى» المؤامرات الجماعية، و«الغيوب» أهدافهم ونواياهم[٢].

التعاليم:

١ ـ يسعى المنافقون إلى التغطية على مؤامراتهم، لكنّ الله تعالى يحذّرهم بشأنها، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا...﴾.

---

(١) عن الإمام علي عليه السلام: أنّ المراد بـ ﴿يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾، هو يوم القيامة. بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ١٣٢.

(٢) تفسير الفرقان.

٢ ـ المعرفة الناقصة تولّد عملاً ناقصاً، ﴿أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ... أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾.

لو يعلم الإنسان أنّ الله تعالى يعلم سرّه وجهره، لزاده ذلك تقوىً، وأذهب بنفاقه، ولما تعرّض للتوبيخ.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

إشارات:

- ورد في سبب نزول هذه الآية أنّ رسول الله ﷺ كان قد صمّم على إعداد جيش المسلمين لمقابلة العدو، وكان محتاجاً لمعونة الناس في هذا الأمر، فلمّا أخبرهم بذلك سارع الأغنياء إلى بذل الكثير من أموالهم سواء كان هذا البذل من باب الزكاة أو غيرها، ووضعوا هذه الأموال تحت تصرّف النبي الكريم ﷺ. أمّا الفقراء كأبي عقيل الأنصاري، أو سالم بن عمير الأنصاري، لمّا لم يجدوا ما ينفقونه لمساعدة جنود الإسلام، فقد عمدوا إلى مضاعفة عملهم، واستقاء الماء ليلاً، فحصلوا على صاعين من التمر، فادّخروا منه صاعاً لمعيشتهم وأهليهم، وأتوا بالآخر إلى النبي ﷺ وقدّموه وشاركوا بهذا الشيء اليسير. غير أنّ المنافقين عابوا كلا الفريقين، فاتّهموا الأغنياء بأنهم ينفقون رياءً وسمعة، وسخروا من الفقراء بأنّ جيش الإسلام هل يحتاج إلى هذا المقدار اليسير؟ فنزلت هذه الآيات[1].
- شرط الإنفاق ليس المال والثروة، بل الإخلاص، والإيمان، والسخاء. قرأنا في الآية ٧٩ أنّ ثعلبة، وعلى الرغم من ثروته الهائلة، لم يؤدّ حقوق الله تعالى عليه، بينما قدّم أبو عقيل الأنصاري العامل البسيط بضعَ تمرات لنصرة جبهة الإسلام.

---

(١) «يَلمِزون» التي تعني تتبع المعاب هي بالنسبة إلى المؤمنين النافذين، أمّا «يَسخرون» فهي للمؤمنين الفقراء المستضعفين.

□ يقول الإمام الرضا عليه السلام: **«إنّ الله تعالى لا يسخر، ولا يستهزئ، ولا يمكر، ولا يخادع، ولكنّه تعالى يجازيهم جزاء السخرية، وجزاء الاستهزاء، وجزاء المكر والخديعة، تعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً»**[١].

التعاليم:

١ ـ الاستهزاء والسخرية أسلوب اعتاده المنافقون. لا يصدّقون لكنّهم يلمزون الآخرين في الصدّقات، ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾.

٢ ـ المؤمنون ينفقون عن رغبة وطيب خاطر، ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾؛ (بمعنى عن تطوّع ورغبة).

٣ ـ إضعاف الروح المعنوية للذين يقدّمون الدعم للجبهات عمل محرّم ويتّسم بالنفاق، ﴿يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ... وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٤ ـ يريد المنافقون ثني الناس عن الجهاد وتجريدهم من الدوافع من خلال السخرية والدعاية المسمومة، ﴿يَلْمِزُونَ... فَيَسْخَرُونَ﴾[٢].

٥ ـ المنافق يعطي الأهميّة لمقدار المال لا للنوايا والخصال؛ لذلك تجده يستهزئ بالمؤمنين الفقراء ويعيب عليهم قلّة ما ينفقون، ﴿يَلْمِزُونَ... وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾.

٦ ـ يجب توظيف جميع الإمكانات لسدّ حاجات المجتمع، ﴿جُهْدَهُمْ﴾.

٧ ـ لكلٍّ مسؤولية تتناسب وطاقته، ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾.

٨ ـ علينا أن نؤدّي واجبنا وأن لا يثنينا عنه استهزاء العدوّ، ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾؛ لأنّ الله تعالى سيجازيهم على أعمالهم، ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾.

٩ ـ يجب أن تكون العقوبة على قدر الجريمة، ﴿فَيَسْخَرُونَ... سَخِرَ اللَّهُ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج٣، ص ٣١٩.

(٢) تقول الآية ٧ من سورة المنافقون ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

إشارات:

- العدد سبعون يراد به الكثرة والمبالغة لا بيان عدد بعينه. ومعنى الآية هو، مهما استغفرت لهم فلن يكون لاستغفارك أثر، وليس لأحد أن يقول: إنّ الرسول الكريم ﷺ لو استغفر إحدى وسبعين مرّة فسيغفر الله تعالى لهم، ونظير ذلك ورد في الآية ٦ من سورة المنافقون ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ إذ لم تذكر الآية الكريمة عدداً معيّناً. كما روي عن النبي الكريم ﷺ قوله: «**لو علمت أنّه لو زدت على السبعين مرّة غفر لهم لفعلتُ**»[١].
- أحياناً يبلغ الإنسان حدّاً من الانحدار لا ينجيه بعده شيء، كالمريض، مثلاً، الذي لو فارقت روحه جسده، فلن يكون لمحاولات الأطباء حينذاك أيّ أثر.

التعاليم:

١ ـ معصية الاستهزاء بالدين عظيمة لدرجة لا ينفع معها استغفار النبي الكريم ﷺ، ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ... فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

٢ ـ ما لم يغيّر الإنسان نفسه، ويحدث ثورة في داخله، فلن يجدي معه حتى دعاء النبي الكريم ﷺ، ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ... كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾.

٣ ـ التعاطف والرأفة بالمنافق اللجوج لا طائل من ورائه، ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ... فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ﴾.

٤ ـ الله تبارك تعالى ليس ضنيناً على هداية عباده، لكنّ المنافقين فقدوا الأهلية والاستحقاق، ﴿كَفَرُوا۟﴾.

٥ ـ الكفر يحول دون المغفرة، والفسق حجاب الهداية، ﴿كَفَرُوا۟... ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

(١) تفسير مجمع البيان.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾

إشارات:

- سبب نزول الآية هو معركة تبوك. فهي تذكر ثلاث علائم للمنافقين:
أ) أنّهم فرحون بتخلّفهم عن الذهاب إلى جبهات القتال بدلاً من إبداء الندم.
ب) يشقّ عليهم الجهاد بالمال والنفس.
ج) تثبيط الآخرين عن الذهاب إلى الجبهات.
- بحسب ما ورد في الآيات السابقة، فإنّ المنافقين كانوا يحاولون إضعاف عزيمة الآخرين في تقديم المعونات، وبحسب هذه الآية، يتخلّفون عن الحضور في جبهات القتال ويثبّطون عزيمة الآخرين عن الحضور.

التعاليم:

١ ـ إبداء الفرحة لعدم الذهاب إلى الجبهات وعدم إطاعة أوامر الرسول الكريم ﷺ دليل على النفاق، ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾.

٢ ـ أنكى من التخلّف عن الجبهات، الإساءة إلى حرمة ولي أمر المسلمين وقدسيّته، وعدم طاعة أوامره، ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل «بمقعدهم عن الجهاد».

٣ ـ الطاعة التامّة لأوامر رسول الله ﷺ واجبة، ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ ثمة فرق بين المؤمن الجبان وبين المنافق. الأوّل يقدّم معونات مالية، ويحمل في قلبه رغبة للجهاد، فيما المنافق لا يساعد ولا رغبة له في ذلك، ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ﴾.

٥ ـ يحاول المنافقون من خلال تثبيط الناس والتعلّل ببعض المشاكل مثل حرارة الجو، ثني الناس عن الجهاد، ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾.

٦ ـ حينما تُقرع طبول الحرب، يجب أن نستعدّ لها لكي نقضي على شائعات المنافقين ودعايتهم المسمومة، ﴿وَقَالُواْ... قُلْ﴾.

٧ ـ الردّ على دعاية العدوّ تكون باستخدام مفرداته نفسها، ﴿ٱلْحَرِّ... أَشَدُّ حَرًّا﴾.

٨ ـ ذكر المعاد محرّك قوي نحو الجبهات، ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾، المؤمن الحقيقي لا تمنعه حرارة الجوّ من الجهاد أبداً.

٩ ـ المنافقون أناس سطحيون يهتمّون بالظواهر، ولا يملكون معرفة عميقة، ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾.

﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

إشارات:

□ لو يعلم المنافقون أيّ ثواب ضيّعوا بتركهم الجهاد، وأيّ فرص أهدروا وأيّ نِعَم جحدوا، لضحكوا قليلاً وبكوا كثيراً، ولو أنّهم بكوا العمر كلّه لن يوافوا طول بكائهم في يوم القيامة.

التعاليم:

١ ـ البكاء والعويل على المكاره، هو الجزاء الدنيوي للمتخلّفين عن الجهاد، ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ... وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءً﴾.

٢ ـ العقوبة على قدر الجريمة ومتناسب معها، ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ... وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾.

٣ ـ بضعة أيّام من الضحكات والمسرّات للمنافق سوف يعقبها حسرات وبكاء طويل، ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ... وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

إشارات:

□ «**خالف**»، تأتي بمعنى المتخلّف عن الحرب، وكذلك بمعنى المخالف، وهناك

معنى ثالث يقول به بعضهم وهو المتخلّف عن الجبهة لشيخوخة أو مرض أو عجز.

- من تاب توبة نصوحاً، تقبّل الله منه، لكنّ طلب المنافقين الذهاب إلى الجبهة هو رياء وتظاهر بالثوريّة.
- يستفاد من الآية الكريمة أنّ النبي الكريم ﷺ قد خرج بنفسه من المدينة إلى تبوك، وبعدما وضعت الحرب أوزارها عاد إليها. كما تخبر الآية عن أساليب المنافقين في المستقبل ليقوم النبي الكريم ﷺ بفضحها وتعريتها.

التعاليم:

١ ـ لا تعوّلوا على دعوات المنافقين للمشاركة في الجهاد، ﴿فَإِن رَّجَعَكَ... فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ... فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟...﴾؛ هؤلاء عند توجّه الركب إلى الجبهة يستأذنونك بالبقاء، وعند العودة يستأذنونك بالمشاركة!

٢ ـ حذار من أولئك الذين كانوا بالأمس متخلّفين عن القتال، واليوم أصبحوا متطوّعين، ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾.

٣ ـ لا تنسوا الماضي الأسود لبعض الأفراد، ﴿رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

٤ ـ قاطعوا المنافقين واحتقروهم، ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾؛ القتال إلى جانب النبي الكريم ﷺ، نعمة إلٰهيّة يجب أن يُحرم منها وإلى الأبد المنافقون الفرحون بترك الجبهة، ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ﴾.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾

إشارات:

- دأب النبي الكريم ﷺ في سيرته العطرة على المشاركة في مراسم تشييع ودفن أموات المسلمين، والدعاء لهم والصلاة عليهم. في هذه الآية، يمنع الله تعالى نبيه الكريم ﷺ من حضور جنائز المنافقين أو الصلاة عليهم.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام: **«كان رسول الله ﷺ إذا صلّى على ميّت كبّر وتشهّد، ثم كبّر وصلّى على الأنبياء، ثم كبّر ودعا للمؤمنين، ثم كبّر الرابعة ودعا للميّت، ثم كبّر وانصرف، فلما نهاه الله ﷻ عن الصلوة على المنافقين كبّر وتشهّد ثم كبّر وصلّى على النبيّين صلّى الله عليهم، ثم كبّر ودعا للمؤمنين، ثم كبّر الرابعة وانصرف ولم يدع للميت»**[1].

التعاليم:

١ ـ أحد أساليب النضال ضدّ المنافقين هو النضال السلبي، ﴿وَلَا تُصَلِّ... وَلَا تَقُمْ﴾.

٢ ـ أموات المنافقين أيضاً يجب أن يُحتقروا، من خلال عدم المشاركة في تشييع جنائزهم والامتناع عن زيارة قبورهم، ﴿وَلَا تُصَلِّ... وَلَا تَقُمْ﴾.

٣ ـ يجب استخدام الصلاة كسلاح لمعاقبة المخالفين، ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾.

٤ ـ الصلاة على الميّت وزيارة القبور، دليل على حرمة المؤمن واحترامه بعد الموت، وهو عمل ممدوح، ولمّا كان المنافق لا حرمة له، فقد قال ﷻ: ﴿وَلَا تُصَلِّ... وَلَا تَقُمْ﴾.

٥ ـ المنافق كافر وفاسق، ﴿كَفَرُوا... فَٰسِقُونَ﴾.

٦ ـ إنّما الأعمال بخواتيمها، فالخطر كلّ الخطر حين يعاجل الإنسان بالموت قبل التوبة وهو في حال الفسق، ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

إشارات:

□ المنافقون في صدر الإسلام كانوا يتمتّعون بالأموال والأولاد ووفرة الإمكانات،

---

(١) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ٣، ص ١٨١.

ولم يكن ذاك حال المسلمين؛ لذا كان خطر انجذاب المسلمين إلى هؤلاء والتأثّر بأساليبهم قائماً، فنزل التحذير الإلٰهيّ للمسلمين بهذا الشأن في هذه الآية والآية ٥٥ من هذه السورة مع اختلاف قليل في الألفاظ.

□ كلمة **«تَزهَق»** تعني الخروج بصعوبة وأسف وحسرة.

التعاليم:

١ ـ يجب أن لا نشعر بالحقارة والصغار أمام تمتّع الآخرين بالإمكانات والثروات، ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾.

٢ ـ أحياناً يكون المال والبنون وسيلة ابتلاء وعذاب لا سعادة ورفاهية، ﴿يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾.

٣ ـ أحياناً تشكّل المظاهر الدنيوية أدوات العذاب الإلٰهيّ، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾.

٤ ـ الموت هو مفارقة الروح الجسم، لا فناؤها، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾.

٥ ـ لا شكّ في أنّ عمراً يقضيه الإنسان في نكران الجميل والجحود يجعله في لحظة الاحتضار يغادر الدنيا كافراً، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

٦ ـ معيار القيمة هو حسن العاقبة والموت على الإيمان، لا التمتّع بزخارف الدنيا لأيّام معدودات، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾

إشارات:

□ **«الطَّوْل»**، بمعنى القدرة والإمكانات المادّية، و**«أولو الطَّول»** هم المستطيعون والقادرون مالياً وجسمياً.

□ المراد بـ **«السورة»** مجموعة من الآيات التي تتناول موضوعاً معيّناً؛ لذا فإنّه يطلق لفظ سورة أيضاً على جزء منها.

التعاليم:

١ ـ الجهاد هو شرط الإيمان بالله تعالى، ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا﴾.

٢ ـ النبي الكريم ﷺ كان يتقدّم الصفوف في جبهات القتال، ﴿مَعَ رَسُولِهِ﴾.

٣ ـ لا بدّ للجهاد من أن يكون بإذن ولي أمر المسلمين وبمعيّته، ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ...﴾

٤ ـ لا يجوز للإنسان أن يبرّر ضعفه، ونفاقه، وخوفه من المشاركة في الجهاد بأخذ الإذن، ﴿اسْتَأْذَنَكَ﴾.

٥ ـ الجهاد هو أهمّ ما يخيف المرفّهين الكسالى؛ لذا لا تعوّل على مشاركتهم، ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ﴾

٦ ـ المنافقون لهم قلوب يائسة، ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

٧ ـ طلب الدنيا، والانغماس في الرفاهية، وروح النفاق كلّها تسلب الإنسان صواب الرؤية وعمق المعرفة، ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾.

﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨)﴾

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي أن نحزن من عدم مشاركة المنافقين والمترفين في الحرب، ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ...﴾.

٢ ـ يظنّ المنافقون أنّ تخلّفهم عن الجهاد سيجعل الإسلام بلا نصير، ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ...﴾.

٣ ـ القائد يتقدّم صفوف المقاتلين، ﴿الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾.

٤ ـ الإيمان بالنبي غير كافٍ وحده، بل يجب أن يقترن بمصاحبته وملازمته، ﴿ءَامَنُوا مَعَهُ﴾.

٥ ـ لا بدّ للجهاد من أن يكون متعدّد الأبعاد، ﴿جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

٦ ـ الفوز والفلاح يتحقّق في ظلال الإيمان والجهاد، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

٧ ـ الحرب والجهاد من أسباب نزول الخيرات والبركات الإلٰهيّة على المجاهدين، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾.

٨ ـ المجاهدون مفلحون، سواء انتصروا أم هُزموا (ظاهرياً)، ﴿جَٰهَدُواْ... ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٨٩﴾

التعاليم:

١ ـ ثواب المجاهدين معدّ سلفاً، ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾.

٢ ـ الجنّة مخلوقة، وهي موجودة فعلاً، ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾.

٣ ـ لنسخّر الغرائز والرغبات الطبيعية في طريق الاعتلاء والهداية. (الإنسان بطبيعته يتوق إلى الحدائق، والروضات، والأنهار)، ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

٤ ـ الإقامة الدائمة في جنّة الرحمة الإلٰهيّة هي السعادة الحقيقيّة، ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٩٠﴾

إشارات:

□ «المُعذّر» بالتشديد فيه قولان: أحدهما أنّه المحقّ؛ فهو في المعنى المعتذر، لأنّ له عذراً، فيكون «المعذرون» على هذه أصله المعتذرون، ولكن التاء قُلبت ذالاً فأُدْغِمت فيها وجعلت حركتها على العين؛ كما قُرئ «يخصّمون»؛ والقول الآخر إنّ المعذّر قد يكون غير محقّ، وهو الذي يعتذر ولا عذر له والمعنى أنهم اعتذروا بالكذب[1].

(١) من باب التفعيل، فيكون معذّراً (أي لا عذر له)، ومن باب الافتعال يكون معتذراً (فيكون له عذر مقبول). نقلاً عن تفسير راهنما (التفسير المرشد).

□ بعض هؤلاء كانوا محقّين في أعذارهم، أي كانت لهم أعذار حقيقيّة، ومن هذا الباب أُذن لهم بالقعود، بيد أنّ فئة من هؤلاء تخلّفت عن الجهاد بغير عذر، وهي المقصودة بالعذاب.

□ «الأعراب»، هم سكّان البادية الذين يعيشون في البراري، وهم البعيدون عن أيّ حضارة أو تمدّن.

التعاليم:

١ ـ في معركة تبوك صدر الأمر بالتعبئة العامة، ومن كان معذوراً كان يقدّم عذره بين يدي النبي الكريم ﷺ فيأذن له بالقعود بصورة رسميّة، ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾.

٢ ـ الجهاد أمر حكومي لا شخصي؛ لذلك فإنّ الحضور في الجبهات والتخلّف عنها يجب أن يكون بأمر قائد المسلمين[١]، ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ... لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾.

٣ ـ أولئك الذين أعرضوا عن فريضة الجهاد، وهمّوا بالفرار، في إيمانهم خلل وكذب، ﴿كَذَبُوا۟﴾.

٤ ـ الكذب ليس باللسان فقط، فعمل الإنسان، أحياناً، قد يكون ينطوي على دلائل تكذّب المدّعى، ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟﴾.

٥ ـ سيلقى المعذّرون عاجلاً جزاءهم لفرارهم من التكليف المناط بهم، ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ... سَيُصِيبُ... عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾

إشارات:

□ ورد في سبب نزول الآية أنّ أحد أصحاب رسول الله ﷺ قال له: يا رسول الله، إنّي شيخ كبير أعمى وعاجز، وليس لي حتى من يأخذ بيدي ليذهب بي

(١) بالنسبة إلى مسألة الحضور في الجبهات، مرّ علينا في الآيات السابقة ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾.

إلى ميدان القتال، فهل أُعذَر إذا لم أحضر وأشارك في الجهاد؟ فسكت النبي ﷺ، فنزلت الآية وعذرت مثل هؤلاء الأفراد[١].

عجباً لعشّاق الإسلام، فهذا شيخ كبير وأعمى وعذره معه، ولكن مع ذلك، ضميره لم يسمح له بترك الجبهة فجاء إلى النبي ﷺ ليأمره بما يرى!

- ربّما يكون المقصود بالحرج وعدم وجود ما ينفقون هو أنّ تأمين نفقات عوائلهم وأبنائهم لا يتيسّر إلّا بوجودهم، ومن هذا الباب، فإنّهم إذا ذهبوا إلى الجبهة، لن يوجد من يعيل عوائلهم[٢].
- الدين الإسلامي ليس فيه حرج ولا يكلّف الإنسان فوق طاقته، إنّه دين سَمِح ومرن، ولا يعرف الانسداد. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**وما أُمروا إلّا بدون سعتهم وكلّ شيء أُمر الناس به فهم يسعون له وكلّ شيء لا يسعون له فهو موضوع عنهم ولكن الناس لا خير فيهم**»، ثمّ تلا هذه الآية ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

التعاليم:

١ ـ التكاليف الإلٰهيّة على قدر استطاعة البشر ووسعهم، ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ... حَرَجٌ﴾؛ (الضعفاء والمرضى الذين عدموا الصحّة والقدرة الجسمية معذورون من الجهاد بالنفس والفقراء الذين لا قدرة مالية لهم معذورون من الجهاد بالمال).

٢ ـ لا يُرفع التكليف بفعل الخير عن أحد أبداً، فكلٌّ حسب استطاعته ووسعه، فالضعفاء مكلّفون بفعل الخير وتقديم الدعم على النحو الذي يستطيعون، بما في ذلك العميان الأصحاء، فهم مأمورون بالدعاء للمجاهدين بالخير بألسنتهم وقلوبهم، ﴿إِذَا نَصَحُوا۟﴾.

٣ ـ أولئك الذين تتوق نفوسهم إلى الجهاد؛ لكنّهم أُعفوا منه، هم من المحسنين، ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٥، ص ٩١.

(٢) تفسير راهنما.

(٣) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج١، ص١٦٥.

٤ ـ لا مؤاخذة ولا ضمان على الأمين الذي يرتكب خطأً خارجاً عن إرادته ودون قصور أو تفريط منه[١]، ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

إشارات:

□ تحدّث الآية السابقة عن أولئك الذين يفتقدون الاستطاعة المالية لمساعدة جبهات الجهاد، وهنا تتحدّث عن الفقراء الذين لا يجدون، لشدّة فقرهم، مطيّة أو مركباً يركبونه للذهاب إلى الجبهات، فيتحرّقون أسفاً وحسرة وتفيض عيونهم بالدموع، هؤلاء لهم من الثواب مثل ما للمجاهدين. روي عن الحسن البصري قوله: إنّ رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة تبوك، فأشرف على المدينة قال: «**لقد تركتم بالمدينة رجالاً ما سرتم في مسير، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم فيه**». قالوا: يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «**حبسهم العذر**»[٢].

التعاليم:

١ ـ تأمين التجهيزات العسكرية للمقاتلين على عاتق الدولة، ﴿أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾.

٢ ـ قيمة الإنسان بالنوايا والروح المعنوية التي يحملها، وليس فقط بالحركة والتجهيزات المادّيّة والمالية، ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾؛ (تثني الآية على الفقراء الذين لا مال لهم ولا إمكانات، ولكن لديهم إيماناً راسخاً ويتحرّقون للمشاركة في الجهاد).

---

(١) مثل الموظف الأمين الذي يتعرّض إلى السرقة أثناء نقله نقود المصرف، أو الحمّال الذي يتعرّض إلى حادث مروري أثناء حمله بضاعة. إذن، فكل خطوة إصلاحية نابعة عن دوافع خيّرة غير مغرضة، تتعرّض إلى حادث طارئ وأضرار غير متوقّعة، فلا ضمان على صاحبها. وفي الفقه أيضاً توجد قاعدة في هذا الشأن هي قاعدة «الإحسان ونفي الحرج».

(٢) تفسير الدرّ المنثور.

٣ ـ المؤمن يتحرّق ألماً وتفيض عيناه بالدمع لعدم مشاركته في الجهاد، ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾.

الجزء (١١)

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾

إشارات:

□ لاحظ الهوّة العميقة التي تفصل المؤمن عن المنافق! فالآية السابقة حدّثتنا عن المؤمن الذي تفيض عيناه بالدمع لعدم امتلاكه مطيّة أو مركباً ليشارك في الجهاد، ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾، فيما نرى في هذه الآية كيف يسعى المنافقون الأغنياء بكافة الوسائل للتملّص من الذهاب إلى جبهات الجهاد فهم يستأذنون النبي الكريم للبقاء!!

التعاليم:

١ ـ لا فرق بين فقير وغني للذهاب إلى الجبهة، فالثروة لا تشكّل ميزة ولا عذراً للتخلّف عن الجهاد، ﴿...عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾.

٢ ـ التملّص من المسؤولية مدعاة لسوء العاقبة وفقدان الرؤية الصحيحة، ﴿وَطَبَعَ... لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾

إشارات:

□ نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين يبلغ عددهم ثمانين رجلاً؛ لأنّ النبي

الكريم ﷺ لمّا رجع من غزوة تبوك أمر أن لا يجالسهم أحد ولا يكلّمهم، فلمّا رأى هؤلاء هذه المقاطعة الاجتماعيّة الشديدة بدأوا يعتذرون عمّا بدر منهم، فنزلت هذه الآيات لتبيّن حال هؤلاء وحقيقتهم[١].

التعاليم:

١ ـ ينبغي للمسلمين أن يكونوا مقتدرين بحيث يجبرون المسيئين على الاعتذار إليهم، ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾.

٢ ـ يجب التصدّي بحزم للمنافقين المعتذرين، ﴿لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾.

٣ ـ الله تعالى يخبر من غيبه نبيّه الكريم ﷺ عن أحوال المنافقين وأعمال الناس، ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ﴾.

٤ ـ بعد أن تضع الحرب أوزارها، يبدأ المنافقون بتقديم الحجج والأعذار، ﴿يَعۡتَذِرُونَ... إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾.

٥ ـ علم الله تعالى إزاء الغيب، والشهود، والظاهر، والباطن، واحد، فهو لا يخفى عليه شيء، ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

٦ ـ ذكر يوم القيامة، هو من أفضل وسائل تهذيب الإنسان وبناء روحه، ﴿تُرَدُّونَ... فَيُنَبِّئُكُم﴾.

٧ ـ الإنسان مسؤول عن أفعاله كلّها، ويوم القيامة هو يوم الفضيحة، ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾.

﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٥﴾

إشارات:

□ الإعراض إمّا أن يكون عن سماحة ونبل وصفح أو عن غضب ونفور، وقد اشتملت هذه الآية على كلا المعنيين؛ فهؤلاء طلبوا إعراض الصفح، فأعطوا إعراض المقت[٢].

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٥، ص ٩٣.

(٢) التفسير الكبير، الفخر الرازي.

☐ لقد أمر رسول الله ﷺ بعد عودته من تبوك، ألّا يجالس أحدٌ المنافقين المتخلّفين عن الجبهة أو يكلّمهم[١].

☐ في الآية السابقة، لم يُقبل من المنافقين اعتذارهم، وفي هذه الآية، توسّلوا باليمين الكاذبة بسبب ضعف موقفهم والذلّة والهوان الذي أصابهم.

التعاليم:

١ ـ ما كلّ يمين ينبغي الركون إليها والوثوق بها، ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ... فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾.

٢ ـ المنافقون يسيؤون استغلال المقدّسات ولفظ الجلالة (الله)، ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾.

٣ ـ لا بدّ للمسلم من أن يكون من أهل التولّي والتبرّي، وصاحب موقف، ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾.

٤ ـ قاطعوا المعذّرين المتخلّفين عن جبهات القتال والجهاد واعزلوهم وضيّقوا عليهم الخناق، ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾.

٥ ـ فلنبتعد عن الفاسدين والأجواء الفاسدة؛ لأنّ روحيّة النفاق والمعايب الإنسانيّة كالأمراض المُعدية، ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾.

٦ ـ النفاق رجس الباطن وداء الروح، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾.

٧ ـ جهنّم هي أثر فعل فعال الإنسان نفسه، وليست انتقاماً إلهياً، ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

إشارات:

☐ يمين المنافقين في الآية السابقة هي لتهدئة خواطر المؤمنين لكيلا يتعرّضوا لهم، أمّا يمينهم في هذه الآية فإنّها تشير إلى أنّهم أرادوا من المؤمنين مضافاً إلى سكوتهم العملي إظهار الرضا القلبي عنهم، ﴿لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾، والملفت

(١) تفسير المراغي.

أنّهم لم يكونوا يقيمون لرضا المؤمنين وزناً، لكنّ إصرارهم على كسب هذا الرضا إنّما كان الهدف منه اتّقاء ردّة فعل المؤمنين وغضبتهم، حتى يحافظوا على مركزهم الاجتماعي ونفوذهم في داخل المجتمع!

❑ **يقول النبي الأكرم ﷺ: «مَن التمسَ رضى الله بسخطِ الناسِ رضيَ الله عنه وأرضى عنه الناسَ، ومن التمس رضى الناس بسخطِ اللهِ سخط الله عليه وأسخَط عليه الناسَ»**[1].

التعاليم:

١ ـ يحاول المنافقون كسب رضا الناس وتثبيت موقعهم بينهم، فهم لا يهمّهم رضا الله تعالى ولا التوبة، ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾.

٢ ـ لنسع إلى كسب رضا الله تعالى، لا رضا الناس، فعفو الناس غير مهمّ، بل المهمّ هو عفو الله وعذابه، ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ﴾.

٣ ـ لمّا كان الله تعالى غير راضٍ عن المنافقين، إذن، أولئك الذين يرضون عنهم قد انشقّوا عن طريق الله. وطريقهم بعيد عن طريق الله، ﴿فَإِن تَرْضَوْا... فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ﴾.

٤ ـ رضا المؤمنين لا يعني دائماً رضا الله تعالى، ﴿فَإِن تَرْضَوْا... فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ﴾.

٥ ـ لا ترض عن الفاسق أبداً ما دام سادراً في فسقه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

إشارات:

❑ **«الأعراب»** هم سكّان البادية، مفردها «أعرابي» وليس «عرب».

---

(١) تفسير نور الثقلين.

□ وصف الأعرابي يعني البعد عن الثقافة والتعاليم الدينية. ذكرت كلمة «الأعراب» عشر مرّات في القرآن الكريم. عدا مرّة واحدة، البقيّة كلّها موضع ذمّ.

□ وجاء في رواية منقولة عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**تفقّهوا في الدّين فإنّه مَن لم يتفقّه في الدين فهو أعرابي**». وفي رواية نقرأ: «**نحن بنو هاشم وشيعتنا العربُ وسائر الناسِ أعراب**»[1].

□ الناس على عصر النبي الكريم ﷺ كانوا فئتين: سكّان البادية، وسكّان المدن، وبما أنّ الآيات السابقة تتحدّث عن انتصار المسلمين في معركة تبوك؛ لذا قد يكون في الآية الكريمة إشارة إلى أنّه يجب عدم الغفلة عن سكّان البوادي المجاورين الجهلة، إذ لربّما حرّكهم الأعداء لإثارة الفتن والقلاقل.

التعاليم:

١ ـ البداوة تلازم، عادة، الابتعاد عن الثقافة والعادت الدينية، ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا﴾.

٢ ـ البيئة الاجتماعيّة والثقافيّة للإنسان لها تأثير على وعيه ومواقفه إزاء الحقائق والمعارف، ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا﴾.

٣ ـ أحياناً يضحي الأشخاص غير الواعين الذين لا يملكون حظّاً من الثقافة، ألعوبة بيد الكفّار والمنافقين، وربّما تفوّقوا عليهم في الحماقة، ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾.

٤ ـ للكفر والنفاق درجات، ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾.

٥ ـ الجهل هو أحد عوامل الكفر والنفاق، ﴿أَشَدُّ كُفْرًا... أَلَّا يَعْلَمُوا﴾.

٦ ـ معرفة أحكام الدين واجبة وإلا يكون المرء أعرابياً، ﴿يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٧ ـ سكّان المدينة الجاهلون بحدود الله هم كالأعراب بل أدنى منزلة، ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

---

(١) المصدر نفسه.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

إشارات:

□ «**المَغرَم**»، من «**الغرامة**»، بمعنى ملازمة الشيء؛ ولذلك يقال: «غريم» للدائن والمدين اللذين لا يدع كلّ منهما صاحبه. ويقال للغرامة التي تلازم الإنسان ولا تنقطع عنه إلّا بأدائها، «**مَغرم**».

□ «**دَوائر**»، جمع «**دائرة**»، تقال للحادثة الصعبة والأليمة التي تحلّ بالإنسان.

التعاليم:

١ ـ يعتقد المنافق ومن ليس له علم أو إيمان بحدود الله والتعاليم الإسلاميّة أنّ الإنفاق خسارة وغرامة، ﴿يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾.

٢ ـ المنافق حسود لا يتمنّى للآخرين غير الشرّ، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾.

٣ ـ من حفر حفرة لأخيه وقع فيها، فمن يتمنّى الشرّ للآخرين، أصابه ذلك الشرّ، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾.

٤ ـ الله تبارك وتعالى عليم بأقوال الإنسان وخصاله، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا يمنعنا توبيخ جماعة أن نثني في الوقت نفسه على أخيارها. لاحظ أنّ الله عَزَّوَجَلَّ وبّخ فريقاً من الأعراب ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا﴾، لكنّه تعالى أثنى بعد ذلك على أخيارهم، ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ...﴾.

٢ ـ ينبغي أن لا تحجب حياة البداوة والبيئة الاجتماعيّة عن الإنسان خيار الرشد والتطوّر، ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ...﴾.

٣ ـ الإيمان يمهّد للإنفاق والطمأنينة، ﴿يُؤۡمِنُ... وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ﴾.

٤ ـ فلنسخّر الإمكانات الماديّة في سبيل التقرّب إلى الله تعالى، ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ﴾.

٥ ـ ليس العمل وحده بل العمل المقرون بالنيّة الخالصة مدعاة للقرب من الله تعالى. فتجد المؤمن والمنافق كلاهما ينفق، لكنّ الله امتدح إنفاق المؤمن فقط، ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ﴾.

٦ ـ العمل على كسب رضا رسول الله ﷺ لا يتعارض مع التوحيد، ﴿إِنَّهَا قُرۡبَةٞ﴾.

٧ ـ المؤمن المنفق مشمول بدعاء الرسول الكريم ﷺ، ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾.

٨ ـ المؤمن ينعم في كنف رحمة الله تعالى، ﴿فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾؛ والمنافق غارق في المكاره والحوادث المريرة، ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ (الآية السابقة).

٩ ـ الإنفاق الخالص للأعراب الذين يعيشون في أجواء تنعدم فيها الثقافة والتعليم، أجدر بالاحترام والتقدير، ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ... فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ... غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾

إشارات:

□ الآية الكريمة تقسّم مسلمي صدر الإسلام إلى ثلاث فئات هي:

١ ـ السابقون في الإسلام والهجرة.

٢ ـ السابقون في نصرة النبي وحماية أصحابه المهاجرين.

٣ ـ الذين جاؤوا بعد هذين القسمين واتّبعوا خطواتهم ونهجهم.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«فبدأ بالمهاجرين الأوّلين على درجة سبقهم، ثمّ ثنّى بالأنصار، ثمّ ثلّث بالتابعين لهم بإحسان، فوضع كلّ قومٍ على قدر درجاتهم ومنازلهم عنده»**[1].

(١) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج٢، ص٤١.

□ بإجماع المسلمين، فإنّ خديجة الكبرى عليها السلام زوج النبي الكريم صلى الله عليه وآله هي أوّل امرأة آمنت بالدعوة ودخلت في الإسلام، وبإجماع الشيعة وفريق كبير من أهل السنّة، فإنّ أوّل رجل آمن بالدعوة هو علي بن أبي طالب عليه السلام[1]. كما قال أحد المؤرخين: لا أعلم خلافاً بين أصحاب التواريخ أنّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه) أوّلهم إسلاماً، وإنّما اختلفوا في بلوغه[2].

طبعاً، لمّا لم يستطع جماعة إنكار سبق علي عليه السلام في الإيمان والإسلام فسعَوا إلى إنكار ذلك بأساليب أخرى، أو التقليل من أهميته، بالقول: إنّ عليّاً عليه السلام في ذلك الوقت كان في العاشرة من عمره، وهو غير بالغ طبعاً، وعلى هذا فإنّ إسلامه يعني إسلام صبيّ ومثل هذا الإسلام لم يكن له تأثير في تقوية جبهة المسلمين وزيادة اقتدارهم في مقابل الأعداء. لكنّنا نقول ردّاً على هؤلاء: إنّ عيسى ويحيى عليهما السلام تبوّآ مقام النبوّة صبيّين، وكان لذلك قيمة!

التعاليم:

١ ـ السبق في العمل الصالح له قيمة، ولا بدّ من صيانة مكانة طلائع الثورات، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

٢ ـ تبعيّة السلف في أعمالهم الصالحة، وليس أيّ تبعيّة، هي التي تنطوي على قيمة، ﴿ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾.

٣ ـ الله تعالى يرضى عن المؤمن ما دام المؤمن راضياً بقضاء الله، ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

٤ ـ الجنّة في ظلال الإيمان والسبق والهجرة والنصرة والاتّباع بإحسان، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ... وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾.

---

(١) وردت بعض الروايات في موسوعة الغدير، ج٣، ص ٢٢٠ ـ ٢٤٠؛ إحقاق الحقّ، ج٣، ص١١٤ ـ ١٢٠.

(٢) تفسير القرطبي ج ٥، ص ٣٠٧٥؛ نقلاً عن مستدرك الحاكم.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)﴾

إشارات:

□ «مَرَدوا» تعني التمرين والقيام على صفة أو عادة ما، لدرجة أن تتحول إلى طبيعة جديدة.

□ العذاب مرّتان، ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾، الأوّل، الفضيحة أمام الناس وهتك أسرارهم، والثاني، شدّة الاحتضار وتسليم الروح، بدليل ما ورد في الآية ٥٠ من سورة الأنفال ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾، أو يحتمل أن يكون المراد بالعذاب مرّتين هو المعاناة النفسية والعذاب الروحي، مضافاً إلى العذاب الجسمي.

التعاليم:

١ ـ خذوا حذركم من المنافقين المتربّصين بكم هنا وهناك، ﴿حَوْلَكُمْ﴾.

٢ ـ نعم، إنّ كفر الأعراب ونفاقهم شديد لكنّه جهار، بينما نفاق بعض أهل المدينة مستتر وخفيّ، ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ﴾.

٣ ـ للنفاق أوجه، وجه سطحي وظاهر، وآخر عميق ومتجذّر، ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ...﴾.

٤ ـ النبي الكريم ﷺ لا يعلم الغيب من دون عناية الله تعالى وتعليمه إيّاه، ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾.

٥ ـ أولئك الذين يصرّون على انتهاج طريق الانحراف وتمرّسوا عليه، لهم عذاب أشدّ، ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ... سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾.

٦ ـ المنافق مضنوك في الدنيا والآخرة، وضنكه ليس ببعيد، ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾

إشارات:

□ نزلت الآية الكريمة في جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ امتنعوا عن الاشتراك في غزوة تبوك، ليس نفاقاً بل منعهم حبّهم للحياة والدنيا. لكنّهم لمّا سمعوا الآيات التي نزلت في ذمّ المتخلّفين ندموا أشدّ الندم فجاؤوا إلى مسجد النبي الكريم ﷺ وربطوا أنفسهم بأعمدته، فنزلت هذه الآية وقبل الله توبتهم، ففكّ رسول الله ﷺ قيدهم[1].

التعاليم:

١ ـ لم يكن جميع صحابة النبي ﷺ عدولاً، فمنهم من ارتكب السيّئات، ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾.

٢ ـ يجدر بالإنسان أن لا يركّز على حسناته فحسب، بل عليه أن يفتّش عن سيّئاته وإصلاحها، ﴿ٱعۡتَرَفُواْ... خَلَطُواْ﴾.

٣ ـ الاعتراف بالخطأ ونقد الذات مضافاً إلى توفّر رصيد من الأعمال الصالحة، كلّها تمهّد للعفو الإلٰهيّ، ﴿ٱعۡتَرَفُواْ... يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾.

٤ ـ صحيح أنّ الله تعالى وعد عباده بالمغفرة، بيد أنّ على الإنسان أن يتوسّط الخوف والرجاء، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾.

٥ ـ المذنب النادم بحاجة إلى الأمل، وحضن الإسلام مفتوح لاستقباله، ﴿ٱعۡتَرَفُواْ... إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾

إشارات:

□ الآية الكريمة مدنيّة نزلت في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، وبعد نزولها

---

(١) تفسير نمونه، ج ٨، ص ١١٤.

أمر رسول الله ﷺ مناديه فنادى في الناس: إنّ الله فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة... أيها المسلمون، زكّوا أموالكم تقبل صلواتكم.

□ يصلّي النبي الكريم ﷺ على المزكّين، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، فيما يصلّي الله تبارك وتعالى على المجاهدين المضرّجين بدمائهم وهم يدفعون الأعداء، ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ إحدى وظائف الحاكم الإسلامي هي أخذ الزكاة من الناس، ﴿خُذْ﴾.

٢ ـ الإسلام يسمح بالملكيّة الخاصة، ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.

٣ ـ الزكاة جزء صغير من المال، حبّذا لو أدّيتموها عن طيب نفس وخاطر، ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.

٤ ـ تأدية الزكاة دليل صدق دعوى الإيمان لدى الإنسان، ﴿صَدَقَةً﴾.

٥ ـ الزكاة تطهّر الروح من البخل، وحبّ الدنيا، وحبّ المال، ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾.

٦ ـ الزكاة مدعاة لسموّ الفضائل الأخلاقيّة لدى الفرد والمجتمع، ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾.

٧ ـ كان الرسول الأكرم ﷺ يصلّي على الناس العاديّين؛ لأنّ إعطاء الأهميّة للناس سيشجّعهم على فعل الخيرات ويقوّي من عناصر شخصيّتهم، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾.

٨ ـ يجب أن تكون العلاقة بين دافعي الضرائب وجباتها علاقة حميمة ومعنوية، ﴿خُذْ... وَصَلِّ﴾.

٩ ـ دعاء النبي الكريم ﷺ في حقّ الناس مستجاب، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾.

١٠ ـ لا يليق القول إنّ الزكاة فرض عليهم فلا حاجة لشكرهم، بل يجدر بنا شكرهم، ﴿خُذْ... وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٧.

١١ ـ ليس بالضرورة أن يكون الثواب ماديّاً، أحياناً الثواب المعنوي يكون أبلغ أثراً، ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾.

١٢ ـ الشكر والثناء يخفّف من عبء التكليف، ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾.

١٣ ـ العلم الإلٰهيّ هو مصدر الأوامر والتكاليف، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

إشارات:

□ بعض المذنبين ممّن تخلّفوا عن غزوة تبوك جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وأصرّوا عليه ليقبل توبتهم فنزلت هذه الآية لتقول لهم: إنّ التوبة ليست بيد النبي الكريم ﷺ بل بيد الله سبحانه الغفور الرحيم، وما يعطى من صدقات وزكاة للنبي الكريم ﷺ إنّما يُعطى لله تبارك وتعالى.

□ لمّا كان النبي الكريم ﷺ يأخذ الزكاة من الناس بأمر من الله تعالى، على هذا، فإنّ الله هو الآخذ الحقيقي لها، وكذلك الحال مع آية البيعة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[١].

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام: «وما تقع في يد السائل [الصدقات] حتى تقع في يد الربّ تبارك وتعالى، ألم يقل في هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾»[٢].

□ عن علي بن حسان الواسطي عن بعض أصحابه عن الإمام الصادق عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ جارية هي في الإمام بعد رسول الله ﷺ؟ قال: «نعم»[٣].

---

(١) سورة الفتح: الآية ١٠.
(٢) تفسير البرهان.
(٣) تفسير نور الثقلين.

التعاليم:

١ ـ حتى النبي الكريم ﷺ لا يحقّ له قبول التوبة أو رفضها، فما بالك بالقساوسة ورعاة الكنيسة، فهذا الأمر خاصّ بالله تعالى وحده، ﴿هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾.

٢ ـ أداء الزكاة شرط التوبة الحقيقيّة، ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ... وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

٣ ـ الإصلاح الباطني للإنسان مرجّح على تقديم المعونات الماديّة، ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ... وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

٤ ـ التوبة لا تقتصر على الندم فقط، بل لا بدّ من أن يتبعها الإصلاح والعمل، ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ... وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

٥ ـ لمّا كان الله تبارك وتعالى هو الذي يلي الصدقات، فيجب علينا، إذن، أن نعطي الصدقات عن طيب خاطر، وأن تكون من أفضل أموالنا وبأحسن أسلوب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ... وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

٦ ـ الزكاة ضريبة إسلاميّة تنطوي على قدسيّة، ذلك أنّ الله تبارك وتعالى هو من يليها، ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

إشارات:

- تبرهن هذه الآية على عقيدة الشيعة في **«عرض الأعمال»** على أولياء الله تعالى، إذ تبيّن صراحة علم الله تعالى، ورسوله، والمؤمنين بأعمالنا. ويتمّ عرض الأعمال هذا بصورة يومية، أو أسبوعية، أو في رأس كلّ شهر، فإذا كانت صالحة سُرّ لها أولياء الله، أمّا إذا كانت سيئّة، اغتمّوا وحزنوا. والحقيقة أنّ الإيمان بهذه العقيدة (عرض الأعمال) له أثر في زرع التقوى والحياء في نفس الإنسان، والإمام الصادق عليه السلام يقول: **«ما لكم تسوؤون رسول الله ﷺ»**؟ فقال له رجل: كيف نسوؤه؟ فقال: **«أما تعلمون أنّ أعمالكم تعرض عليه؟ فإذا رأى**

فيها معصية ساءه ذلك فلا تسوؤوا رسول الله ﷺ وسرّوه»[١].

□ وبحسب ما ورد في الروايات، فإنّ المراد بـ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، الأئمة المعصومون حيث يطلعهم الله تعالى على أعمالنا[٢].

التعاليم:

١ ـ الإنسان مخيّر في أعماله لا مجبر، ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾.

٢ ـ إذا عرف الإنسان أنّ أعماله تحت بصر الله وسمعه، فسيحترز من ارتكاب المعاصي، ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾.

٣ ـ كلّما كان الرقباء على الأعمال أكثر، ازداد حياء الإنسان من ارتكاب المعاصي، فكيف إذا كان هؤلاء الرقباء هم الله، ونبيّه، والمؤمنين، ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ...﴾.

٤ ـ العمل ميزان التقييم، فما يعرض في هذه الدنيا على أولياء الله وما يعرض في يوم القيامة للحساب هو العمل، ﴿ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ... فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٥ ـ أعمال الإنسان تنطوي على حقائق سوف تظهر له في يوم القيامة، ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ... فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

إشارات:

□ **«مُرجَون»** من **«الإرجاء»**، بمعنى التأخير والتوقيف، وفي الأصل أخذت من الرجاء أي الأمل، ولما كان الإنسان قد يؤخّر شيئاً ما أحياناً رجاء تحقّق هدف من هذا التأخير، فإنّ هذه الكلمة قد جاءت بمعنى التأخير، إلّا أنّه تأخير ممزوج بنوع من الأمل.

---

(١) تفسير كنز الدقائق.

(٢) المصدر نفسه.

□ يذكر الله ﷻ في هذه الآيات ثلاث طوائف هي:

أ) المنافقون المستترون في المدينة، (الآية ١٠١).

ب) الذين ارتكبوا معصية واعترفوا بفعلتهم وأملوا في التوبة، (آيه ١٠٢).

ج) المنحرفون الذين أصرّوا على المعصية ولم يتوبوا، مصيرهم بيد الله تعالى، (الآية موضع البحث).

□ جاء في الروايات[١]، أنّ المرجين قوم كانوا مشركين فقتلوا مثل حمزة، وجعفر الطيّار، وأشباههما من المؤمنين، ثم إنّهم دخلوا في الإسلام فوحّدوا الله وتركوا الشرك ولم يعرفوا الإيمان بقلوبهم، فيكونون من المؤمنين فتجب لهم الجنّة ولم يكونوا على جحودهم فيكفروا فتجب لهم النار، فهم على تلك الحال إمّا يعذّبهم وإمّا يتوب عليهم، أو أنّهم الذين تخلّفوا عن معركة تبوك وندموا لكنّهم لم يعترفوا بلسانهم بخطأهم.

التعاليم:

١ ـ الأمر بيد الله تعالى، إن شاء يعفو عن المذنبين وإن شاء يعذّبهم، ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾.

٢ ـ من أجل إصلاح مذنبين مختلفين، ينبغي استخدام أساليب مختلفة، فمن الضروري أن نبقي بعض الأفراد في حالة بين الخوف والرجاء، ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾.

٣ ـ العذاب أو اللطف الإلهيّ منشأهما العلم والحكمة لا الانتقام، ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

إشارات:

□ سبب نزولها هو أنّ قوماً من المنافقين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن

(١) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج٢، ص ٤٠٧.

يسمح لهم ببناء مسجد في حيّ بني سليم ـ قرب مسجد قبا ـ حتى يصلّي فيه العاجزون، والمرضى، والشيوخ، وكذلك ليصلّي فيه جماعة من الناس الذين لا يستطيعون أن يحضروا مسجد قبا في الأيّام الممطرة، ويؤدّوا فرائضهم الإسلاميّة، وكان ذلك في الوقت الذي كان فيه النبي ﷺ عازماً على التوجّه إلى تبوك. فأذن لهم النبيّ ﷺ، إلّا أنّهم لم يكتفوا بذلك، بل طلبوا منه أن يصلّي فيه، فأخبرهم بأنّه عازم على السفر الآن، وعند عودته بإذن الله فسوف يأتي مسجدهم فيصلّي فيه. فلمّا رجع النبي ﷺ من تبوك حضروا عنده وطلبوا منه الحضور في مسجدهم والصلاة فيه، وأن يدعوَ الله لهم بالبركة، وكان النبي ﷺ لم يدخل بعد أبواب المدينة، فنزل الوحي وتلا عليه هذه الآيات، وكشف الستار عن أعمال هؤلاء، فأمر النبي بحرق المسجد المذكور وبهدم بقاياه وأن يُجعل مكانه محلاً لرمي القاذورات والأوساخ(١).

□ وبحسب بعض الروايات فإنّ بناء مسجد ضرار في المدينة كان بأمر من أبي عامر ـ والد حنظلة غسيل الملائكة ـ وقد كان من الزهّاد والعبّاد النصارى، وله نفوذ واسع في الخزرج. عندما هاجر النبي الأكرم ﷺ إلى المدينة واحتضنه المسلمون ونصروه، وبعد انتصار المسلمين على المشركين في معركة بدر، رأى أبو عامر ـ الذي كان يوماً من المبشّرين بظهور النبي الكريم ﷺ ـ أنّ الناس قد انفضّوا من حوله، وبقي وحيداً، عند ذلك قرّر محاربة الإسلام، فهرب من المدينة إلى كفّار مكّة، واستمدّ منهم القوّة لمحاربة النبي ﷺ ودعا قبائل العرب إلى ذلك. فكان ينفّذ ويقود جزءاً من مخطّطات معركة أحد، ولمّا انتهت هذه المعركة هرب أبو عامر من المدينة وذهب إلى هرقل ملك الروم ليستعين به على قتال النبي ﷺ. ويا للعجب العجاب، فرأس النفاق والكفر يخرج من صلبه حنظلة عاشق الإسلام والنبي الكريم والشهيد الذي غسّلته الملائكة(٢)!

□ عندما طلب هؤلاء من النبي الكريم ﷺ الصلاة في مسجد ضرار كانوا قد

---

(١) تفاسير: مجمع البيان؛ المنار؛ نور الثقلين. (٢) تفسير الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

طرحوا ثلاثة أسباب لطلبهم هي: حبّهم في إقامة صلاة الجماعة، خدمة المصلّين من العاجزين والشيوخ، وحبّهم في النبي وصلاته. وجميع هذه الأسباب كانت مغلّفة بالنفاق، فهذا ديدن المنافقين دائماً، فالسامريّ تآمر على النبي موسى عليه السلام، والمسجد الأموي يشيّد في مقابل المسجد النبوي، والمصاحف ترفع على رؤوس الرماح أمام الإمام علي عليه السلام. فكما أُحرق عجل السامريّ، فكذلك يُحرق مسجد المنافقين ليكون درساً للتاريخ.

شُيّدت في الكوفة والشام مساجد كثيرة ابتهاجاً بنصر يزيد على الإمام الحسين عليه السلام، وقد كان أئمّتنا يطلقون عليها المساجد الملعونة!

□ الإسلام يحرّم أيّ ضرر، «**لا ضرر ولا ضرار في الإسلام**»[1]، ومن الأضرار المحرّمة:

أ) الإضرار بالنفس، ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[2].

ب) الإضرار بالناس، ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[3].

ج) الإضرار بالزوجة، ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾[4].

د) الإضرار بالأبناء، ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾[5].

هـ) الإضرار بالورثة، ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾[6].

و) العلم المضرّ، ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾[7].

ز) الإضرار في المعاملات والديون، ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾[8].

ح) الإضرار بالدين والوحدة، ﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾.

التعاليم:

١ ـ العدوّ يستغلّ المسجد والدين ليحارب بهما الدين، فحذار أن ننخدع

---

(١) وسائل الشيعة، ج٢٦، ص١٤.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٥.
(٣) سورة المائدة: الآية ٢.
(٤) سورة الطلاق: الآية ٦.
(٥) سورة البقرة: الآية ٢٣٣.
(٦) سورة النساء: الآية ١٢.
(٧) سورة البقرة: الآية ١٠٢.
(٨) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

بالشعارات البرّاقة والألقاب، ﴿ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾.

٢ ـ حتى صلاة النبي الكريم ﷺ يريد المتآمرون استغلالها لصالحهم؛ (في ضوء سبب نزول الآية).

٣ ـ بناء المسجد مهمّ؛ ولكن الأهم هو توفّر النوايا الخالصة للباني والسادن، ﴿ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾.

٤ ـ الإضرار بكلّ أنواعه محرّمٌ في الإسلام حتى وإن كان تحت غطاء المسجد، ﴿ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾.

٥ ـ احترام المسجد وقدسيّته تذهب في حال كان وسيلة للاستغلال بيد الأعداء؛ (في ضوء سبب نزول الآية).

٦ ـ الله تبارك وتعالى يدافع عن نبيّه الكريم ﷺ وعن دينه، ويفضح مؤامرات المنافقين عن طريق وحيه، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا...﴾.

٧ ـ كلّ مسجد يثير الفُرقة بين المسلمين هو مسجد ضرار، ﴿ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا... وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

٨ ـ المنافقون في خدمة الكفّار، ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ﴾.

٩ ـ ونحن نحارب العدو الخارجي، ينبغي أن لا نغفل عن مؤامرات أعداء الداخل. لقد طلب المنافقون من النبي الكريم ﷺ قبل معركة تبوك افتتاح مقرّهم رسمياً غير أنه ﷺ خلّف علياً عليه السلام في المدينة، وبعد عودته هدّم مسجد ضرار.

١٠ ـ الإضرار بوحدة المسلمين صنو الكفر، ﴿وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

١١ ـ اليمين الكاذبة هي أسلوب المنافقين، ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ﴾.

١٢ ـ لا تنخدعوا بمزاعم العدوّ ودعاياتهم الكاذبة، ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

١٣ ـ الكذب خصلة الكفّار والمنافقين، ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

إشارات:

- مسجد قبا هو المسجد الذي أُسّس على التقوى من أوّل يوم، حيث بُني بعد هجرة النبي الكريم ﷺ إلى المدينة[1].
- يقول الفخر الرازي: بيّن الله تعالى أن المسجد الذي بني من أول الأمر على التقوى أحق بالقيام فيه من المسجد الذي لا يكون كذلك. وثبت أن عليّاً ما كفر بالله طرفة عين، فوجب أن يكون أولى بالقيام بالإمامة ممن كفر بالله في أول أمره[2].

التعاليم:

١ ـ لا تصلّوا في مسجد اتُّخِذَ كقاعدة لمناوئي النظام الإسلامي، ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ﴾.

٢ ـ العبادة لا تنفصل عن السياسة، حتى الصلاة يجب أن لا تكون وسيلة لتقوية الباطل ونصرته، ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ﴾؛ (مناصرة الكفر والنفاق والفُرقة حرام).

٣ ـ القائد هو قدوة للآخرين، لم يدخل النبي الكريم ﷺ مسجد ضرار، لكيلا يدخله الآخرون أيضاً؛ لذا فخطاب الآية موجّه إلى النبي، ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾.

٤ ـ لا بدّ للقائد من أن يكون سبّاقاً في اتّخاذ المواقف، ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾.

٥ ـ في حال نهينا الناس عن الذهاب إلى مراكز الفساد، علينا في المقابل أن نوفّر لهم أماكن بديلة سليمة ومفيدة ونرشدهم إليها، ﴿لَا تَقُمْ... تَقُومَ﴾.

٦ ـ قيمة كلّ شيء رهن بالأهداف والدوافع التي تحكم القائمين عليه، ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير.

٧ ـ المسجد بمثابة فرصة للتطهّر من أدران الجسم والروح، ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾.

٨ ـ مجالسة الصالحين ميزة وقيمة، ﴿فِيهِ رِجَالٌ...﴾.

٩ ـ قيمة الأماكن من قيمة الذين يرتادونها. فقيمة المسجد بمصلّيه، لا بقبّته ومئذنته، ﴿لَمَسْجِدٌ... أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾.

١٠ ـ الصلاة والمسجد وسيلتا تهذيب وتطهير، ﴿لَمَسْجِدٌ... فِيهِ... يَتَطَهَّرُوا۟﴾.

١١ ـ الميل إلى الكمال والطهارة هو في حدّ ذاته كمال، ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾.

١٢ ـ المتطهّر حبيب الله، ﴿يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

إشارات:

- الآية السابقة تعقد مقارنة بين مسجدين، مسجد ضرار ومسجد قبا، وهنا مقارنة بين فريقين: المؤمنون الذين بنوا مسجد قبا، والمنافقون الذين بنوا مسجد ضرار على أساس الكفر، والنفاق، والتفرقة.
- كلمة «شَفا»، بمعنى حافة الشيء وطرفه. و«جُرُف»، حافة النهر أو حافة البئر التي جرف الماء ما تحتها فأصبحت كالهاوية. و«هار»، المتصدّع المشرف على السقوط.

التعاليم:

١ ـ قيمة الأعمال بالنيّات، لا بظواهرها. فمسجد قبا أُسّس لله ومن أجل نيل مرضاته، بينما مسجد ضرار أُسّس للتفريق بين المسلمين، ﴿أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ﴾!

٢ ـ البنيان الباطل أساسه في الهواء، ﴿بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾.

٣ ـ أحياناً يكون المسجد منحدراً يودي بمؤسّسيه إلى هاوية جهنّم، ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ﴾.

٤ ـ إساءة استغلال المراكز الدينيّة والمعتقدات الدينيّة للناس ظلم، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ البنيان العقدي للمنافقين واهٍ ومبنيّ على الشك والريبة، ﴿بَنَوْا۟ رِيبَةً﴾.

٢ ـ أحياناً تضحي الأمراض الروحية والنفسية بمثابة طبيعة متأصّلة تستعصي على التغيير، ﴿لَا يَزَالُ... رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

٣ ـ الأمراض النفسية والروحية لا تبرأ بالتوبة الظاهرية واللسانية، ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ﴾.

٤ ـ للمنافقين قاعدة وتشكيلات خاصّة بهم، ﴿بُنْيَٰنُهُمُ﴾.

٥ ـ المنافق يفتقد الشعور بالطمأنينة والراحة، ﴿رِيبَةً﴾.

٦ ـ الله تبارك وتعالى كان مطّلعاً على نيّة المنافقين في تأسيس مسجد ضرار، ﴿عَلِيمٌ﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

إشارات:

- الدنيا سوق، والناس زبائنه، فهم البائعون، والله تعالى المشتري، وأموالهم وأنفسهم متاعٌ وبضاعة، والثمن هو الجنّة، فإذا باعوا لله، فقد أنجزوا صفقة مربحة لا خسارة فيها أبداً، وإذا باعوا لغيره، فصفقتهم خاسرة لا ربح فيها.

□ وينطوي البيع لله على مزايا عدّة منها:

١ ـ إنّنا وما نملك لا نعدو كوننا من فيض الله وملكه، فلا يجدر أن نبيع بضاعته لغيره.

٢ ـ الله تعالى يشتري القليل أيضاً، ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾.

٣ ـ إنّه تعالى يقبل بمعايب البضاعة وهو الذي يصلحها ولا يفضح صاحبها.

٤ ـ الثمن الذي يدفعه هو الجنّة، فهو يزايد على البضاعة، ويشتري بأعلى الأثمان، فمن الحمق والخسران أن يبيع الإنسان لغيره.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام: **«إنّه ليس لأنفسكم ثمن إلّا الجنّة فلا تبيعوها إلّا بها»**[1].

التعاليم:

١ ـ هل مع الله تعالى يبحث الإنسان عن مشترٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾؟

٢ ـ الله تعالى يشتري نفس المؤمن، لا نفس المنافق أو الكافر، ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣ ـ الجهاد بالنفس أولى بالقبول عند الله من الجهاد بالمال، ﴿أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾.

٤ ـ الجنّة في ظلال الجهاد، والسيوف، وبذل النفس والمال في سبيل الله تعالى، ﴿لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ إذا كان الجهاد في سبيل الله ومن أجل مرضاته، فسيّان عند المؤمن أن يقتل أو يُقتل، ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

٦ ـ هدف المؤمن من الحرب هو محق الباطل وأهله أوّلاً، ومن ثمّ الشهادة، ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

٧ ـ الصفقة مع الله تعالى مربحة بلا أدنى ريب، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾؛ في المعاملة مع الله لا يجد الإنسان إلا الحقّ، بخلاف المعاملة مع الآخرين، الذين إمّا

(١) تفسير مجمع البيان.

أن تنقصهم الجديّة أو الدوافع الصادقة كأن يشوبها الغلوّ والأهواء أو من أجل إزاحة الغريم.

٨ ـ فضل الجهاد والمجاهدين والشهداء لا يقتصر على الإسلام فحسب، بل إنّ ذلك كان موجوداً في التوراة والإنجيل أيضاً، وإذا لم نجدها اليوم في كتبهم، فذاك دليل على التحريف، ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾.

٩ ـ لا حقوق لنا على الله تعالى، إلّا ما ألزم ذاته المقدّسة تجاهنا، تفضّلاً منه ومنّة، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾.

١٠ ـ لقد عقد الله تبارك وتعالى صفقته مع المجاهدين المخلصين. الآية الكريمة تقول: ﴿بَايَعْتُم﴾ لا: «بعتم».

١١ ـ البشارة الأعظم هي تبديل الفناء خلوداً والدنيا بالآخرة، وكلّ ما سوى ذلك خسران وحسرات، ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا﴾.

١٢ ـ إلى جانب توبيخ المنافقين المتخلّفين عن الجهاد، لا بدّ من الثناء على المؤمنين المجاهدين، ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا﴾.

١٣ ـ الفلاح الأكبر لا يتحقّق إلّا في ظلّ المعاملة مع الله تعالى، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

إشارات:

- تذكر الآية الكريمة تسع خصال للمؤمنين المجاهدين هي: التوبة من الذنوب، الدوران في مدار العبادة، الحمد باللسان، والسعي بالأرجل، والركوع والسجود بالأبدان، وبعد تهذيب النفس، يبادرون إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح المجتمع، والتزام دائرة الشرائع الإلٰهيّة.
- التوبة من الذنوب تمهّد الطريق للعبادة، اللسان الشاكر المقرون بالنشاط

والحركة، يخلق في النفس الاستعداد للركوع والسجود في حضرة الله تعالى، أمّا الأمر والنهي عن المنكر فيصون الحدود الإلٰهيّة في المجتمع.

- «**التائبون**»، تعني أنّ المؤمنين الذين يبيعون أنفسهم وأموالهم لله تعالى، إنّما أشعلوا في دواخلهم ثورة الإصلاح، والتهذيب، والإعراض عمّا سبق من أعمالهم الشائنة، والدخول في صفقة مربحة مع الله سبحانه وتعالى[١].
- لقي عُبّاد البصري الإمام علي بن الحسين عليه السلام في طريق مكّة فقال له: يا علي بن الحسين تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت على الحجّ ولينه، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؟ فقال علي بن الحسين عليه السلام: «**أتمّ الآية**» فقال: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ...﴾، فقال علي بن الحسين عليه السلام: «**إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحجّة**»[٢].
- جاء في الحديث الشريف في المراد بـ ﴿السَّائِحُونَ﴾: «**إنّ السائحين هم الصائمون**»[٣].

التعاليم:

١ ـ وفاء الله تعالى بعهده لابن آدم مشروط بثبات الأخير على حفظ الحدود الإلٰهيّة، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ... التَّائِبُونَ﴾.

٢ ـ الجهاد الأكبر والتهذيب هو شرط الجهاد الأصغر في الجبهات، ﴿يُقَاتِلُونَ... التَّائِبُونَ﴾.

٣ ـ الإسلام دين شامل وجامع، الدمع إلى جانب السيف، والعبادة مع السياحة، ﴿يُقَاتِلُونَ... التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ... السَّائِحُونَ﴾.

---

(١) وقد حدث ذلك على أرض الطف أيضاً، فأسماء مثل زهير والحرّ لم تكن لامعة قبل تلك الواقعة، لكنّهما وبعد التحوّل الذي أصابهما والصفقة التي عقداها مع الله تعالى، والتي بموجبها باعا نفسيهما لله ليحلّقا في سماء المجد والخلود الأبدي.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص٤٦.

(٣) تفسير نور الثقلين.

٤ ـ المطلوب هو أن تكون الكمالات عادة وملكة للإنسان، ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ...﴾.

٥ ـ تقوية الروح المعنوية لجند الإسلام تكون بذكر الله والعبادة، لا بالخمر والموسيقى... كما يحصل في جبهة العدو، ﴿يُقَاتِلُونَ... التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ...﴾.

٦ ـ الحركة، السعي، السياحة، الهجرة، تهذيب النفس، كلّها فضائل إذا كانت لنيل الكمال والقرب الإلٰهيّ، ﴿السَّائِحُونَ﴾؛ (الرجال المؤمنون لا يتسمّرون في مكان واحد).

٧ ـ الجندي الإسلامي هو من يحرص على إقامة الصلاة والعبادات، ﴿يُقَاتِلُونَ... الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾.

٨ ـ مسيرة الكمال تتطلّب أوّلاً تهذيب النفس ومن ثمّ تهذيب المجتمع، ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ... الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ...﴾.

٩ ـ ينبغي ألّا يشغلنا قتال الأعداء على الحدود، عن المفاسد والمنكرات في الداخل، ﴿يُقَاتِلُونَ... الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ...﴾.

١٠ ـ إذا أردنا حفظ حدود الله، علينا أن نحارب العدو الخارجيّ ومفاسد الداخل في آنٍ معاً، ﴿يُقَاتِلُونَ... وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)﴾

إشارات:

- نقل بعض مفسّري العامة بعض الأحاديث الموضوعة لعدد من الرواة الوضّاعين، زاعمين أنّ هذه الآية نزلت في أبي طالب! في حين أنّ الأدلة والقرائن العديدة تشير إلى إيمان أبي طالب. يشار إلى أنّ راوي الأحاديث الموضوعة في شأن أبي طالب هو سعيد بن المسيّب وهو من أعداء الإمام علي عليه السلام، أمّا ذنب أبي طالب فهو كونه والد الإمام علي عليه السلام[1]!

---

(١) تفسير نمونه، ج ٨، ص ١٥٧.

التعاليم:

١ ـ النبي الكريم ﷺ وسائر المسلمين سواسية أمام الشريعة، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾.

٢ ـ الشرك ذنب لا يغتفر، حتى مع استغفار النبي الكريم ﷺ للمشركين، ﴿مَا كَانَ... أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

٣ ـ الروابط الدينيّة أقوى وأهمّ من الروابط العاطفية، فلا ينبغي لعواطف القرابة أن تتغلّب على الدين، ﴿مَا كَانَ... وَلَوْ كَانُوٓا أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾.

٤ ـ قرابة النبي الكريم ﷺ لا تقي من ورود جهنّم، ﴿وَلَوْ كَانُوٓا أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾.

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

إشارات:

□ في الآية السابقة كان الحديث عن أنّه لا يحقّ للنبي الكريم ﷺ ولا المؤمنين أن يستغفروا للمشركين، وإن كانوا ذوي قربى، وهنا تدفع الآية شبهة الوعد الذي وعده النبي إبراهيم عليه السلام لعمّه آزر بالاستغفار ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾[1]، قائلةً إنّ وعد إبراهيم كان على أمل هدايته، ولكن لمّا مات عمّه على الشرك، ترك الاستغفار.

□ **سؤال**: إذن، لماذا استمرّ النبي إبراهيم عليه السلام بالدعاء والاستغفار لعمّه حتى بعد وفاته ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾[2]؟

الجواب: الوالد تطلق على الأب الحقيقي، غير أنّ كلمة أب تدلّ مضافاً إلى المعنى المعروف، على المعلم والعم ووالد الزوجة والجدّ أيضاً. لذا، فدعاء إبراهيم عليه السلام كان لوالده الحقيقي وليس لعمّه المشرك.

(١) سورة مريم: الآية ٤٧. (٢) سورة إبراهيم: الآية ٤١.

□ يطلق القرآن الكريم وصف «أب» على عمّ إبراهيم في ١١ آية، ليذكّره بالإنسان الذي كان يكفله، لكنّه مع ذلك لم يتأثّر به.

□ نقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله في «أوّاه»: **«كثير الدعاء والخاشع المتذلّل»**[1].

التعاليم:

١ ـ يجب رفع أيّ شبهة تدور حول أولياء الله، وتقديم التفسير الصحيح بشأنها، ﴿مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ﴾.

٢ ـ الوفاء بالعهد واجب حتى مع الكفّار، ﴿مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ﴾.

٣ ـ علم الأنبياء محدود، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ...﴾.

٤ ـ لا تفقدوا صبركم إزاء سلوك الكفّار العنيف[2]، ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ... لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

٥ ـ البراءة من العم في سبيل الله دلالة على حبّ إبراهيم عليه السلام لله تعالى وخشوعه له، ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

إشارات:

□ الآية الكريمة إشارة إلى أحوال أولئك الذين دخلوا في الإسلام لكنّهم رحلوا عن هذه الدنيا قبل أن يؤدّوا واجباتهم[3]، أو أنّها إشارة إلى الآية السابقة في وجوب التبرّي من أعداء الله تعالى، وأنّهم إذا واصلوا نهجهم في عدم الاكتراث واللامبالاة، فهم أيضاً ضالّون، وسيلتحقون بأعداء الله. أو ربّما نزلت

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) لقد هدّد آزر إبراهيم بالرجم إذا لم يكفّ عن دعوته: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ سورة مريم: الآية ٤٦، ولكن مع ذلك ظلّ النبي إبراهيم عليه السلام محافظاً على حلمه وصبره.

(٣) تفسير مجمع البيان.

الآية لطمأنة أولئك الذين استغفروا للمشركين قبل العلم بحرمة الاستغفار.

□ عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: **«أما علمت أنّ الإمام الفرض عليه والواجب من الله إذا خاف الفوت على نفسه أن يحتج في الإمام من بعده، والحجة معروفة مبينة، إنّ الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ فطب نفساً وطيّب نفس أصحابك، فإنّ الأمر يجيء على غير ما تحذرون إن شاء الله»**[1].

□ الإضلال عذابٌ يصيب به الله من آثر العافية ولم يكترث بهداية الله. المعارضة الواعية لتعاليم الله تعالى مدعاة لسلب الهداية الإلٰهيّة، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ... حَتَّىٰ يُبَيِّنَ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا ينزل العذاب الإلٰهيّ إلّا بعد التوضيح والتبيين وإتمام الحجّة، ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ﴾.

٢ ـ الهداية الإلٰهيّة هداية تامّة، فهي مضافاً إلى شرح أسباب السعادة، تنذر بمصادر الخطر والتهديد أيضاً، ﴿يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾، يقول الإمام الصادق عليه السلام في هذه الآية الكريمة: **«حتى يعرّفهم ما يرضيه وما يسخطه»**[2].

٣ ـ عندما ينهى الله تعالى عن شيء إنّما ينبع ذلك من علمه وحكمته، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

التعاليم:

١ ـ بدلاً من تقوية العلاقات مع ذوي القربى المشركين، قوّوا علاقتكم بالله مالك السموات والأرض، فهؤلاء عاجزون عن النصرة في مقابل قدرة الله تعالى، ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ... وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ...﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) الكافي، ج١، ص١٦٣.

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١١٧﴾

إشارات:

❑ حملت معركة تبوك مصاعب جمّة للمسلمين منها: بُعد الطريق، الجوّ القائظ، موسم جني المحاصيل وقطف الثمار، ناهيك عن قوّة العدوّ ورهبته في النفوس. من هنا، آثر بعض المسلمين من غير المنافقين مثل أبي خثيمة، الفراش الوثير الناعم، والزوجة، والطعام اللذيذ، والظلال الوارفة على الجبهة ومشقّاتها، لكنّه تذكّر فجأة النبي الكريم ﷺ، فقام من فوره وركب راحلته وانطلق إلى النبي ﷺ والمسلمين فأدركهم بعد أيّام قليلة.

❑ المنافقون في معركة تبوك كانوا على ثلاث فئات:

١ ـ فئة تخلّفت عن الجبهة بذريعة الافتتان بنساء الروم الجميلات.

٢ ـ فئة كانت تثبّط الناس عن الذهاب إلى الجبهة.

٣ ـ فئة تذرّعت بشدّة حرارة الجوّ، أو استأذنت فأُذن لها.

وفي المقابل، كانت توجد فئة ذهبت مع النبي الأكرم ﷺ إلى جبهات القتال بدافع الحبّ والإخلاص، ومنهم من لم يكن يملك مطيّة أو مركباً، فكانت أعينهم تفيض بالدمع وقلوبهم بالحسرات. ومن هؤلاء الصحابي الجليل أبو ذرّ الغفاري الذي تخلّف عن الجبهة لعدم امتلاكه مركباً، لكنّه أوصل نفسه في الوقت المناسب إلى النبي الكريم ﷺ.

❑ لقد عانى المسلمون في معركة تبوك أوضاعاً عصيبة للغاية لدرجة أنّ أشخاصاً عدّة كانوا يشتركون في تمرة واحدة[1].

❑ قد تكون هذه الآية وراء تسمية السورة بالتوبة مضافاً إلى البراءة.

---

(١) تفسير مجمع البيان.

التعاليم:

١ ـ لقد كان لطف الله تعالى يشمل نبيّه الكريم ﷺ والمقاتلين المسلمين في أوقات الشدّة والخطر، ﴿تَابَ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ جميع البشر وعلى الأخصّ الأنبياء، محتاجون إلى لطف الله وكرمه، ﴿تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾.

٣ ـ التوبة الإلٰهيّة تعني اللطف الإلٰهيّ الخاصّ بالنبي الكريم ﷺ والمؤمنين، إذ ينعكس اللطف أحياناً في صورة العفو والصفح عن المذنبين، ﴿تَّابَ ٱللَّهُ﴾.

٤ ـ علامة الإيمان الحقيقي هي طاعة القائد في أحلك الظروف، ﴿ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾.

٥ ـ شدائد الحياة ومصاعبها ليست سوى سويعات قليلة ثمّ تنتهي، ﴿سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾.

٦ ـ الإنسان معرّض في كلّ لحظة للانحراف والانحدار؛ لذا ينبغي التوجّه إلى الله تعالى، ﴿كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ﴾.

٧ ـ اللطف الإلٰهيّ هو حبل النجاة من السقوط، ﴿تَابَ ٱللَّهُ...﴾.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

إشارات:

□ لقد ندم المسلمون الثلاثة الذين امتنعوا من المسير مع النبي ﷺ والاشتراك في غزوة تبوك، ولمّا رجع النبي ﷺ أبدوا ندمهم وطلبوا منه العفو إلّا أنّ النبي لم يكلّمهم وأمر المسلمين أيضاً أن لا يكلّموهم، وأمر زوجاتهم أيضاً أن لا يقتربوا منهم. فضاق فضاء المدينة عليهم واضطرّوا للالتجاء إلى الجبال في أطراف المدينة، وكانوا يستغفرون ويتضرّعون ويبكون كلّ بمعزل عن صاحبه،

وأخيراً، وبعد خمسين يوماً من التوبة والتضرّع إلى الله سبحانه وتعالى قبلت توبتهم ونزلت الآية في ذلك[1].

التعاليم:

١ ـ يجب معاقبة المتثاقلين عن الحرب، العاصين أمرَ القائد، وذلك بمقاطعتهم لفترة معيّنة، ﴿خُلِّفُوا﴾.

٢ ـ الخصام، والتجاهل، والمقاطعة من الأساليب التأديبية بحقّ المتخلّفين والمجرمين، ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ... وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾.

٣ ـ النضال السلبي ضدّ المتخلّفين يجعل المجتمع بالنسبة إليهم سجناً بلا أسوار ولا حرّاس، ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ﴾.

٤ ـ صحيح أنّ النبي الكريم ﷺ هو مجلى الرحمة الإلٰهيّة، إلّا أنّه بإمكانه استخدام أسلوب الخصام والمقاطعة بصفته مربياً، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

٥ ـ عذاب الضمير، من العذابات التي يعاني منها الإنسان، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

٦ ـ اليأس من الناس تمهيد للتوبة والتوجّه إلى الله تعالى، ﴿لَّا مَلْجَأَ... ثُمَّ تَابَ﴾.

٧ ـ توفيق التوبة أيضاً ممكن في ظلّ لطف الله وعنايته، في البداية يرجع الله بفضله على الإنسان، ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ حتى يتاح للإنسان توفيق الندم، والاعتذار، والتوبة، ﴿لِيَتُوبُوا﴾، حينذاك، وعندما يتوب الإنسان يقبل الله توبته، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾.

٨ ـ وهكذا، وبعد فترة من النضال السلبي ضدّ المذنبين، وتركهم ومقاطعتهم، نقوم بتهيئة أجواء مناسبة لإصلاحهم، ليعودوا إلى أحضان المجتمع فنعاود معاملتهم باللطف والرأفة، ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾

(١) بحار الأنوار، ج٢١، ص ٢٣٧.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾

إشارات:

- يُستفاد من روايات الفريقين أنّ المراد بـ ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الآية الكريمة النبي الكريم ﷺ، وآل بيته الكرام عليهم السلام.
- الآية ١٧٧ من سورة البقرة تقول: إنّ الصادقين هم المؤمنون، والمنفقون الذين يقيمون الصلاة، ويوفون بعهودهم، ويصبرون على المشاكل، وتعرّف الآية ١٥ من سورة الحجر والآية ٨ من سورة الحشر الصادقين بأنّهم المهاجرون الذين أوذوا وأخرجوا من ديارهم وضحّوا بما لديهم.

التعاليم:

١ ـ الصداقة والصحبة ومعاشرة الصادقين من جملة عوامل التربية والحيلولة دون وقوع الإنسان في مستنقع الانحراف، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

٢ ـ علينا بملازمة القادة الإلٰهيّين وعدم مفارقتهم، ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

٣ ـ القادة الإلٰهيّون معصومون، ولولا ذلك لما أمر الله تعالى بملازمتهم[1]، ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

٤ ـ كمال المجتمع يتيسّر في ظلّ الإيمان والتقوى وطاعة المعصوم، ﴿ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ... مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

٥ ـ لا بدّ للناس في كلّ عصر من معصوم يتبعونه، ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

---

(١) عجباً من صاحب التفسير الكبير الذي يقول: إنّ المعصوم فرد عادي، غير أنّ إجماع الأمة معصوم من الخطأ!! فهل أنّ إجماع البشر الخطّائين والفاسقين يوجب العصمة؟

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

إشارات:

❑ يستفاد من هذه الآية الكريمة عدّة مبادئ في الحرب هي:

١ ـ الإيمان بأنّ تحمّل مصاعب الحرب عمل صالح يترتب عليه مرضاة الله تعالى.

٢ ـ المقاومة والصمود إزاء المصاعب والتحديّات.

٣ ـ إذلال العدو وقهره.

التعاليم:

١ ـ أصحاب القائد ومن حوله ممّن يحظون بعلم وإمكانات أوسع، تقع عليهم مسؤولية أكبر، ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ... أَن يَتَخَلَّفُوا﴾.

٢ ـ عندما تكون المسألة الدفاع عن حياض الإسلام، فلا أهميّة للقرية أو المدينة، ﴿لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم﴾.

٣ ـ الطاعة التامّة للنبي الكريم ﷺ واجبة، وليس لأحد أن يتخلّف عن أوامره الحكومية، ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ... أَن يَتَخَلَّفُوا﴾.

٤ ـ من مسؤوليات الرسول، القيادة العسكرية العامة في الحرب، ﴿يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾.

٥ ـ نفس النبي الكريم ﷺ أولى من نفوس المسلمين، على المسلم أن يفتدي قائده الإلٰهيّ بنفسه، ﴿وَلَا يَرْغَبُوا...﴾.

٦ ـ على المسلمين أن يكونوا مستعدّين لتحمّل الصعاب والضغوط في سبيل العقيدة، ﴿ظَمَأٌ...نَصَبٌ... مَخْمَصَةٌ﴾.

٧ ـ يجب على المجتمع الإسلامي أن يحارب الكفر، ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾.

٨ ـ المسيرات والتحركات الجماعية للمسلمين التي تؤدّي إلى إغاظة الكفّار وإخافتهم لهم فيها ثواب عند الله، ﴿مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾.

٩ ـ ليس الدفاع والقتال فحسب، بل كلّ حركة، أو جهد، أو مشقّة في الجبهة تحتسب عند الله تعالى وهو يثيب عليها، ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ... عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾.

١٠ ـ مقدّمات الجهاد والقتال أيضاً تندرج ضمن الأعمال الصالحة والعبادات، ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا... عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾.

١١ ـ المحسن الحقيقي يكون ثورياً ومجاهداً في الجبهات، ﴿أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ (الجود بالنفس غاية الإحسان).

١٢ ـ الحصول على الثواب الإلٰهيّ يأتي في ظلّ تحمّل الصعاب والآلام، فمن جدّ وجد، ﴿ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ... أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١٣ ـ الإيمان برضا الله وثوابه، يهوّن على الإنسان الصعاب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

إشارات:

□ لعلّ المقصود بـ ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أنّ ثواب الله تعالى أفضل من عمل المجاهدين، أو أنّ أفضل ما يقومون به هو الجهاد بأموالهم وأنفسهم.

التعاليم:

١ ـ الكمّ والمقدار في الإنفاق ليس مهمًّا، فالله تعالى يثيب عليه سواء أكان قليلاً أم كثيراً، ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾.

٢ ـ أعمال الخير لا تذهب سدىً، فأعمال الإنسان كلّها مسجّلة عند الله، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ... وَلَا يَقْطَعُونَ... إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾.

٣ ـ التحرّك نحو جبهات القتال من أفضل الأعمال، ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٤ ـ الثواب الإلٰهيّ أفضل وأعظم من عمل الإنسان، ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ...﴾.

٥ ـ مواصلة العمل الصالح، مدعاة لمضاعفة ثوابه، ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٦ ـ سنّة الله هي في أن يُعلي دينه بجهود المؤمنين وهممهم؛ (لولا الحاجة إلى جهودهم، لما حفلت الآيتان بكلّ هذا التشجيع والحضّ).

﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

إشارات:

- منذ أن نزلت الآيات التي حملت بشدّة على المتخلّفين عن الغزوات، والتي أدّت إلى انتهاج النبي الكريم ﷺ أسلوباً شديداً معهم، أخذ المسلمون يسارعون إلى الجهاد والاستعداد للغزوات اللّاحقة، لدرجة أنّهم كانوا يتركون رسول الله ﷺ وحيداً في المدينة، فنزلت هذه الآية لتنبّه المسلمين إلى هذا الأمر، وأن ينظّموا مسألة خروجهم إلى الجبهات[1].

- كان الأعراب المسلمون يتقاطرون على المدينة لتعلّم أصول الدين وتعاليمه، الأمر الذي أدّى إلى هجرتهم إلى المدن وما انطوى عليه ذلك من تبعات وآثار سلبية. من هنا، نزلت الآية الكريمة لتأمرهم بأن تأتي طائفة منهم فقط للتفقّه في الدين، ثمّ ترجع إلى ديارها لنشر ما تعلّموه من أحكام الدين.

- المقصود بـ«الدين»، هو مجموعة الأحكام والتشريعات الإلٰهيّة والتعاليم الظاهرة والباطنة للإسلام. الإسلام، وهو الدين الوحيد المقبول عند الله تعالى، ﴿إِنَّ

---

(١) تفسير مجمع البيان.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[١] يعني التسليم لله.

□ التفقّه في الدين، هو بذل الجهد لاكتساب المعرفة العميقة بالدين، والعقائد، والأحكام الإسلاميّة. أحياناً قد تكون دوافع التفقّه في الدين عند الإنسان دنيا يصيبها، أو منصباً رفيعاً يسعى إليه، أو رغبة في متابعة الدروس والبحث والدراسة، أو تمضية الوقت وعدم التخلّف عن ركب الأصدقاء، أو يكون في أحيان أخرى من أجل رفعة دين الله وكسب مرضاته تعالى والفوز بالجنّة وخلاص الأمّة. والآية الكريمة ترفع من قيمة الخيار الأخير لذلك تحذّر الناس لئلا يكون جهادهم لغير الأمور المعنوية وتدعوهم إلى طريق الله تعالى، ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾، ولنا في وصيّة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لولده خير دليل على ذلك إذ يقول له: **«تفقّه في الدّين فإنّ الفقهاء ورثة الأنبياء»**[٢]. وفي ليلة عاشوراء، كان للإمام الحسين عليه السلام عبارات مشابهة إذ يثني على الله تبارك وتعالى بالقول: **«الحمد لله الذي فقّهنا في الدين»**[٣].

□ سُئل الإمام الصادق عليه السلام: إذا حدث على الإمام حدثٌ كيف يصنع الناس؟ قال: **«أين قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾؟** قال: **«هم في عذرٍ ما داموا في الطلب، وهؤلاء الذين ينتظرونهم في عذر حتى يرجع إليهم أصحابهم»**[٤].

التعاليم:

١ ـ لا بدّ للإنسان من أن يكون ذا نظرة شموليّة عند التخطيط والإدارة، حتى لا يؤدّي التركيز على مسألة واحدة إلى الإخلال بباقي المسائل، ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾.

٢ ـ الهجرة والإيمان متلازمان، فإمّا أن تكون هجرتكم للدفاع عن حياض الدين

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩.
(٢) بحار الأنوار، ج١، ص٢١٦.
(٣) موسوعة كلمات الإمام الحسين.
(٤) تفسير نور الثقلين.

أو للتفقه في تعاليمه وأصوله، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾.

٣ ـ ينبغي إرسال الأفراد إلى المراكز العلمية ليتفقّهوا في الدين الإسلامي، ليكون لدينا طلبة دينيون في جميع المناطق، ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾.

٤ ـ العالِم الذي لا ينفر في البلاد الأخرى ليس بفقيه كامل، ﴿نَفَرَ﴾، روي عن أحد أئمّتنا قوله في من يلزم بيته: «كيف يتفقّه في الدين»[١]؟

٥ ـ التفقّه في الدين وتعليمه للناس واجب كفائي، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ... مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾؛ (الجهاد والاجتهاد كلاهما واجب كفائي[٢]؛ لذا ينبغي التخطيط بشكل يضمن عدم تعرّض النظام العلمي لطلبة العلوم الدينيّة للتداخل والالتباس).

٦ ـ الهدف من التفقّه هو تحذير الناس، وتوعيتهم، وإنقاذهم من الغفلة، وعدم الاكتراث حيال المشاكل، ﴿وَلِيُنذِرُوا﴾.

٧ ـ يجب عدم تجاهل القضايا الفكرية والعقدية والأخلاقيّة حتى في زمن الحرب، وأن لا يشغلنا العدوّ عن العدوّ الداخليّ (الجهل والغفلة)، ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا... فَلَوْلَا نَفَرَ... لِّيَتَفَقَّهُوا﴾.

٨ ـ التفقّه لا يعني تعلّم أحكام الدين فحسب، بل يشمل جميع المعارف الدينيّة التي تتيح الدراسة والدقّة والتعمّق، ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾.

٩ ـ المعارف الدينيّة يجب أن تكون عميقة وغائرة، ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾.

١٠ ـ الدعوة الدينيّة تتطلّب وعياً عميقاً بها، ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا... وَلِيُنذِرُوا﴾.

١١ ـ يمكن الوثوق بكلام الفقيه المتخصّص بالإسلام، ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا... وَلِيُنذِرُوا﴾؛

---

(١) تفسير كنز الدقائق.

(٢) يقول الإمام علي عليه السلام: «والجهاد فرض على جميع المسلمين، لقول الله عزّ وجلّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾، فإن قامت بالجهاد طائفة من المسلمين وسع سائرهم التخلّف عنه ما لم يحتج الذين يلون الجهاد إلى المدد فإن احتاجوا لزم الجميع أن يمدّوهم حتى يكتفوا، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾، وإن دهم أمرٌ يحتاج فيه إلى جماعتهم نفروا كلّهم. قال الله عزّ وجلّ: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾». بحار الأنوار، ج٩٧، ص ٤٨.

(أحياناً يكون شخص واحد فقط في تلك المنطقة؛ إذن، خبر الواحد له حجيّة).

١٢ ـ التفقّه في الدين له قيمة حين يكون الفقيه محيطاً بعصره، واعياً بمسارب العدو وما يحيكه من مؤامرات، لكي يستطيع بالتالي أن ينذر قومه، ﴿لِيَتَفَقَّهُوا... وَلِيُنذِرُوا﴾.

١٣ ـ هجرتان ضروريّتان لطلبة العلوم الدينية، الأولى الهجرة إلى الحوزات العلمية، والثانية من الحوزات صوب المدن والقرى؛ لذا لا يجوز البقاء في الحوزات لغير الأساتذة، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ... لِيَتَفَقَّهُوا... وَلِيُنذِرُوا... إِذَا رَجَعُوا﴾.

١٤ ـ مسقط رأس الداعية أولى بنشاطه الدعوي وعمله الثقافي، ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾.

١٥ ـ على العلماء أن يذهبوا إلى الناس، لا أن ينتظروا قدومهم، ﴿رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾.

١٦ ـ محور الدعوة يجب أن يدور حول خلق التقوى وذكر المعاد، ﴿وَلِيُنذِرُوا... لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

١٧ ـ لا ينبغي للفقهاء أن يتوقّعوا أن يطيعهم جميع الناس طاعة مطلقة، ذلك أنّ فريقاً منهم لن يسلكوا طريق الله والدين أبداً، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

إشارات:

❑ قتال العدوّ الأدنى ينطوي على مزايا نذكر منها: تكلّف مالاً وإمكانات أقل، معلوماتنا عنه أكثر، اختيار جبهة القتال تكون أسهل، وإمكان التعبئة العامة لمواجهته أكبر، ناهيك عن أنّ خطر هذا العدوّ أقرب، وسبيل دفعه أقصر والوصول إلى منطقة القتال أسرع، فهو عدوّ، وفي الوقت ذاته، ظهير لعدوّ أبعد.

- «**غِلظة**» بمعنى شدّة وصلابة، وقدرة وحميّة، من غير قساوة القلب أو اكفهرار. من هنا، كلّما أظهر جيش الإسلام قدرة أكبر في المسائل العسكرية، والتدريبات، والاستعراضات، والمسيرات العسكرية، والزيّ والشعارات، كان أدعى للثناء والاحتفاء. ولنا في رسول الله ﷺ خير قدوة، فعندما دخل مكّة أمر المسلمين بأن ينظمّوا مسيرة أمام ناظري أبي سفيان، ليستعرضوا قوّة الإسلام واقتداره وعظمة جند الإسلام، وليمعن عن هذا الطريق في إضعاف الروح المعنوية عند المشركين.

- مفهوم «الأقربُ فالأقرب»، هو إعطاء الأولوية لما هو أقرب للإنسان في جميع المسائل التي تتعلّق بالتعاليم الإسلاميّة، ففي الإنفاق والصدقات، الأولوية هي لليتيم والفقير من ذوي القربى، وفي تقديم الزكاة يجب أن يبدأ الإنسان بالمحتاجين في منطقته القريبة، وفي الحرب يجب معالجة العدو الأقرب، وفي الدعوة والإرشاد الأولوية لذوي القربى وأبناء المحلة أو المنطقة القريبة، وفي المسجد يحظى الجار بالأولوية، وفي الطعام والضيافة الأولوية تكون لذوي القربى، والوقوف في الصفّ الأوّل في صلاة الجماعة يكون لمن هم أقرب إلى الإمام في خصالهم وكمالهم.

- تطرح هذه الآية الكريمة فكرة جهاد الفتح والتحرير لا الجهاد الدفاعي، من هنا، فهي تستعرض خصال المقاتلين المسلمين، ولا تتحدّث عن الظروف الخاصة بهجوم الكفّار[١].

- ثمّة أمثلة كثيرة في السيرة النبوية الشريفة حيث يوصي فيها النبي الكريم ﷺ جند الإسلام مراعاة التقوى في الحرب وأن لا يؤذوا نساء الكفّار، وألّا يقطعوا شجرة، وقد روي أنّه ﷺ تألّم كثيراً لمقتل فتاة من الكفّار[٢].

التعاليم:

١ ـ يجب أن يقترن الإيمان بالعمل والكفاح، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟﴾.

---

(١) تفسير في ظلال القرآن. (٢) المصدر نفسه.

٢ ـ دفع شرّ العدوّ الأقرب أولى، ﴿يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾؛ (الاستراتيجية القتالية للإسلام تتمثّل في التصدّي أوّلاً للعدوّ الأقرب، وفي الحرب الفكرية والعقدية، يجب البدء بالشبهات الشائعة والمطروحة).

٣ ـ يجب تهيئة كلّ ما من شأنه خلق عناصر الصلابة والشدّة، بدءاً بشجاعة المقاتلين إلى توفير الأسلحة والعتاد المتطوّر لهم، وليس انتهاءً بتقديم التعليم والتكنولوجيا المتخصّصة، ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾.

٤ ـ لا بدّ للجيش الإسلامي من أن يتمتّع بالصلابة والهيبة، ﴿غِلْظَةً﴾.

٥ ـ يجب أن تقترن الشجاعة الداخليّة بالصلابة الظاهرية، ﴿وَلْيَجِدُواْ﴾.

٦ ـ الغلظة والصلابة الإسلاميّة جنباً إلى جنب التقوى والورع، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٧ ـ الجهاد هو أحد تجليّات التقوى الإلٰهيّة، ﴿قَـٰتِلُواْ... أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٨ ـ التقوى عنصر أساس ومهمّ للمقاتلين في الجبهات ذلك أنّهم في الحرب قد يقعون تحت طائلة الأهواء والشهوات والأحقاد، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ إبداء السخرية واتّخاذ المواقف السلبية حين نزول الوحي القرآني كلّها علائم النفاق، ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ... يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ...﴾.

٢ ـ المنافقون من خلال أسئلتهم المغرضة، يحاولون نقل معنوياتهم السلبية إلى الآخرين، ﴿يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا...﴾.

٣ ـ للإيمان مراتب، ومراحل من الزيادة والنقصان، كما إنّ النفاق ينبسط ويتمدّد، ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾.

٤ ـ القرآن وسيلة فضلى لتمييز المؤمن من المنافق، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾.

٥ ـ الشعور بالسرور والنشاط النفسي جراء الاستماع إلى آيات القرآن الكريم، علامة على الكمال ورقيّ الإيمان، ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

٦ ـ القرآن الكريم عامل بشرى لأهل الإيمان، ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

إشارات:

□ من المعلوم، أنّه كلّما زاد هطول المطر على الميتة المرميّة في بركة، فاحت رائحة النتن من البركة أكثر فأكثر، وهذه الرائحة الكريهة ليست بسبب المطر، بل بسبب الميتة نفسها. كذلك هو الحال مع روح اللجاج والتكبّر عند الإنسان، فكلّما نزلت شآبيب الوحي الإلٰهيّ، زاد مرضى القلوب والمتكبّرون لجاجاً وتعصّباً وعناداً.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي «شكّاً إلى شكّهم»[1].

التعاليم:

١ ـ الأمراض النفسية كالأمراض الجسمية، إذا لم نبادر إلى معالجتها، فسوف تستفحل حتى تقضي على الإنسان، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾.

٢ ـ الكفر والجحود والتعمية على الحقّ هي أمراض خطيرة تصيب روح الإنسان وفؤاده، ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

٣ ـ عاقبة المنافق وخيمة، ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

التعاليم:

١ ـ امتحان الإنسان من السنن الإلٰهيّة الثابتة على مرّ العصور والأزمان، ﴿فِي كُلِّ عَامٍ﴾.

٢ ـ الحكمة من الحوادث والامتحانات الإلٰهيّة هي التوبة واليقظة، ﴿لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

٣ ـ قسوة القلب وسوء العاقبة هما مآل المنافق، ﴿لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

إشارات:

- المنافقون لا يتأثّرون بأيٍّ من التحذيرات التي يطلقها القرآن الكريم، فهم كالمصباح المعطوب لا يضيء مهما أوصلناه بالطاقة الكهربائية.

التعاليم:

١ ـ المنافق يخشى افتضاح سريرته الخبيثة واضطراب أمره، ولهذا تجده يسعى إلى الإخفاء والتستّر، ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾.

٢ ـ المنافقون ينفرون من نزول الآيات الإلٰهيّة، ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾.

٣ ـ المنافقون يفرّون من مجالس القرآن الكريم، ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ... انصَرَفُوا﴾، الابتعاد عن القرآن علامة النفاق والروح العليلة.

٤ ـ نزول العذاب الإلٰهيّ سببه نفور روح الإنسان من الهداية، ﴿انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ﴾.

٥ ـ سبب إعراضهم عن القرآن الكريم، افتقادهم الإدراك والفهم الصحيح، ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

إشارات:

- لم يخاطب الله تبارك وتعالى أحداً من عباده بهاتين الصفتين سوى نبيّه الكريم ﷺ. ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.
- إذا ما تأمّلنا قليلاً صفات القادة الإلٰهيّين التي استعرضتها هذه الآية وقارنّاها بصفات القادة البشريين، سنقف على مدى اللطف الذي أحاط به الله تبارك وتعالى عباده ووجوب طاعتهم أولئك القادة.

التعاليم:

١ ـ رسول الله ﷺ اختير من بين الناس، ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

٢ ـ رسول الله ﷺ حامل همّ أمّته، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.

٣ ـ على القادة المسلمين أن يشاركوا الناس أفراحهم وأتراحهم، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.

٤ ـ النبي الكريم ﷺ لا يدخّر جهداً لهداية الناس وإرشادهم، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾.

٥ ـ من عوامل تأثير الكلام في نفوس الآخرين أن يكون المرء ممّن ينشد الخير لهم، ويحرص على تحقيق مصالحهم، ويعطف عليهم، ولا ينتظر منهم جزاءً ولا شكوراً، وكذلك أن يتواضع لهم، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ... حَرِيصٌ عَلَيْكُم... رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

٦ ـ القائد المسلم رؤوف ورحيم بالمؤمنين فقط، وبالعدو غليظ شديد، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩﴾

إشارات:

- تحدّثت الآية السابقة عن رحمة النبي الكريم ﷺ ورأفته بالمؤمنين، وهنا تستدرك هذه الآية بألّا يعتقد هؤلاء أنّ رأفة النبي ورحمته بهم هو لحاجته إليهم، فلئن أعرض جميعهم عنه ﷺ، فإنّ الله تعالى معه ولن يتركه. وكذلك، لو أنّ جميع الناس أداروا ظهورهم للشمس فلن يضرّوا الشمس شيئاً.
- يقول الإمام الصادق عليه السلام في ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾: «**هو المُلك العظيم**»[1].
- الله تبارك وتعالى الذي حفظ بتدبيره نظام الكون العظيم، قادر على أن يحفظ الإنسان الصغير بلطفه.
- يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة مخاطباً ربّه:

«ماذا وَجَد مَن فَقدك؟ وماذا فَقَد مَن وجدك»؟

التعاليم:

١ ـ إعراض الناس عن الدين يجب أن لا يؤثّر على إيماننا ومعنويّاتنا، ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ من كان الله معه، فماذا ينقصه ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾؟

٣ ـ التوكّل على الله سرّ الانتصار على المشاكل، ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ... عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾.

«والحَمدُ لله ربّ العالَمين»

(١) تفسير نور الثقلين؛ الشيخ الصدوق، التوحيد، ص ٣٢١.

سُورَةُ يُونُس

السورة: ١٠ الجزء: ١١

عدد الآيات: ١٠٩

ملامح سورة يونس

هي السورة العاشرة في ترتيب سور القرآن الكريم، وهي مكّية ونزلت في أوائل البعثة الشريفة، آياتها تسع ومئة، ومحاور موضوعاتها تدور حول التوحيد وحقّية القرآن الكريم والردّ على منكري الوحي، وإنذار المشركين وإخافتهم، وبيان عظمة الخلق والخالق، والتنبيه إلى أنّ الدنيا فانية وضرورة التركيز على الآخرة.

تطرّقت السورة السابقة (التوبة) إلى سلوك المنافقين وعذابهم، وترسم هذه السورة بعض ملامح سلوك المشركين.

❖ ❖ ❖

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ①﴾

إشارات:

□ عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث طويل يقول فيه: «و﴿الر﴾ معناه: **أنا الله الرؤوف**»[1].

ورواية أخرى تقول: هذه الحروف هي متشابهات القرآن[2].

التعاليم:

١ ـ القرآن الكريم ذو رفعة وعظمة يفصح عنها اسم الإشارة للبعيد، ﴿تِلْكَ﴾.

٢ ـ القرآن الكريم كتاب حكيم، فهو الحَكَم، ويحوي تعاليم حكيمة، وكذلك ذو مضمون محكم؛ (لم يتمكّن التاريخ ومضيّ الزمان ولا الأعداء أن يحدثوا فيه ثغرة أو خللاً)، ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ②﴾

إشارات:

□ ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ تحمل أوجهاً ومعانيَ هي:

١ ـ حُسن السابقة، كما يقال لأحدهم: **«له قدمٌ في الحرب، وقدم في الإسلام»**. أي له قصب السبق في الجهاد وفي الإسلام.

٢ ـ صدق المنزلة وسموّها.

٣ ـ بمعنى القائد والمرشد الصادق. لقد وردت روايات من طرق الفريقين

---

(١) تفسير نور الثقلين. (٢) المصدر نفسه.

تفسّر قدم الصدق بأنّه النبي الكريم ﷺ وولاية علي عليه السلام[١].

ـ الشفاعة، وفي رواية أنّ معنى قدم صدق شفاعة محمد ﷺ[٢].

□ لم يقدّم الكافرون أيّ برهان منطقي على سبب رفضهم دعوة النبي الكريم ﷺ، بل إنّهم كانوا يعتبرونها أمراً مستبعداً؛ لذلك كانوا يكفرون بها. وحتى الأصول العقدية كانوا ينكرونها بإبداء التعجّب فقط، مثلاً:

ـ في التوحيد كانوا يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[٣].

ـ في النبوّة: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾[٤].

ـ في المعاد: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[٥].

ـ في الإمامة: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا...وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾[٦].

التعاليم:

١ ـ جذور الكفر تعود، في العادة، إلى استبعاد نزول الوحي والتعجّب منه، ﴿عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾.

٢ ـ الجدارة المعنوية للإنسان لا تظهر عليه عياناً، فإذا ما حظي أحدهم بلطف خاص من لدن الله تعالى فلنتقبّل ذلك ولا نستبعده، ﴿رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾.

٣ ـ الأنبياء مطّلعون على آلام الناس وهمومهم، فهم قدوات، ﴿مِّنْهُمْ﴾.

٤ ـ مسؤولية الأنبياء تقديم البشائر والنُّذُر، ﴿أَنذِرِ... وَبَشِّرِ﴾.

٥ ـ ليس كلّ ما لا تبلغه أفهامنا ننكره، فالإنكار والافتراء من أساليب الكفّار، ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾.

٦ ـ الإيمان تمهيد لأن يكون للإنسان قدم صدق ومنزلة خاصّة عند ربّه، ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

---

(١) تفسير القرطبي؛ تفسير البرهان.

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) سورة ص: الآية ٥.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٤١.

(٥) سورة يس: الآية ٧٨.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٤٧.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾

إشارات:

- ستّة أيّام هنا تعني ستّ مراحل في الخلق، وربّما كان المقصود فترة تعادل ستّة أيّام.
- «**العَرش**»، بمعنى مركز التدبير، وهو كناية عن السلطة والاقتدار، كما نقول: فلان تربّع على العرش، أو أزيح عن العرش، فنعني بذلك استلام السلطة أو فقدانها. فسلطة الله تبارك وتعالى كانت قبل أن تُخلق السموات والأرض في حيّز الوجود، ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾[1]، وكذلك بعد خلقتها وبعد نهاية الكون، وستبقى سلطة الله تعالى على جميع الكون حتى يوم القيامة، ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[2].
- يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«إنّه إنّما سمّيت كعبة لأنّها مربعة، وصارت مربعة لأنّها بحذاء البيت المعمور وهو مربّع، وصار البيت المعمور مربعاً لأنّه بحذاء العرش وهو مربع، وصار العرش مربعاً لأنّ الكلمات التي بني عليها الإسلام أربع، وهي: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر»**[3].

التعاليم:

١ ـ خلق الكون تمّ بدقّة وعلى مراحل، ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ (إذا كان الكون محكوماً بنظام وتدبير دقيق، فهل يعقل أن يكون خلق الإنسان وهو أشرف المخلوقات بدون نظام)؟!

٢ ـ معرفة الله أوّلاً، ومن ثمّ عبادته سبحانه، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي... فَاعْبُدُوهُ﴾.

٣ ـ للكون قانون وهو يسير نحو غايته. تدبير الأمور يقتضي الإحاطة بالعاقبة

---

(١) سورة هود: الآية ٧.

(٢) سورة الحاقة: الآية ١٧

(٣) علل الشرايع، ص ٣٩٨.

وامتلاك هدف وقانون، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾.

٤ ـ العبادة تليق بمن امتلك أمر الخلقة والتدبير، وليس بغيره، ﴿خَلَقَ... يُدَبِّرُ... ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

٥ ـ الله خالق الكون ﴿خَلَقَ﴾ يمسك به، ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ ويدبّر شؤونه بحكمة، ﴿يُدَبِّرُ﴾ ولا مجال لأحد دون إذنه، ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾، لذا، فإنّ تأمّل هذه الحقائق يخلق في الإنسان روح العبودية والخضوع لله تعالى، ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾.

٦ ـ شفاعة أيّ مخلوق يجب أن تكون بإذن الله تعالى، فلا نجعل الأصنام شفعاؤنا، ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾.

٧ ـ لا انفصام للألوهية عن الربوبيّة. فالطواغيت يسعون إلى اعتبار الله هو الخالق، وهم الساسة والمدبّرون لشؤون الخلق، وبذلك يفصلون بين الدين والدولة، ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

٨ ـ الإنسان يؤمن بخالقه؛ لكنّه يحتاج فقط إلى تذكير، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

إشارات:

□ تتحدّث هذه الآية عن مسألة المعاد ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، وعن إمكانه أيضاً ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وغايته، الثواب أو العذاب، ﴿لِيَجْزِىَ﴾.

□ لعلّ المراد بـ ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ هو أنّ الله تعالى يثيب أهل الإيمان لقسطهم وعدلهم[1]. بطبيعة الحال، إنّ الفضل الإلٰهيّ لا يتنافى مع القسط، إذ توجد إشارات في آيات أخرى إلى الثواب الإلٰهيّ المضاعف، من جملتها ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[2]، و﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾[3].

(١) تفسير مجمع البيان والتفسير الكبير للفخر الرازي.

(٢) سورة يونس، الآية ٢٦. (٣) سورة فاطر، الآية ٣٠.

التعاليم:

١ ـ مآبنا إلى الله تبارك وتعالى، فلا يحسن أن نفكّر عبثاً في إرضاء هذا وذاك، ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.

٢ ـ كلّ البشر سوف يُبعثون بعد الموت، ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾.

٣ ـ المعاد هو مادّي وجسماني، ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؛ (الإعادة تعني عودة الشيء نفسه كما كان).

٤ ـ قدرة الله تعالى على الخلق دليل على قدرته على البعث والنشور، ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

٥ ـ ليس الإنسان فقط، بل جميع الخلائق سوف تُبعث، ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

٦ ـ كما إنّ الله تبارك وتعالى خلق الكون بأكمله من أجل البشر، فإنّه تعالى سيعيد الخلق كلّه من أجل إثابة البشر، ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ...﴾.

٧ ـ لا يزال الخلق مستمراً، ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾.

٨ ـ الهدف الأصلي للمعاد هو إثابة المؤمنين، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ومعاقبة الكافرين، وفقاً لميزان العدل الإلٰهيّ.

٩ ـ الثواب الإلٰهيّ يكون على أساس القسط والعدل. (ولا يتنافى ذلك مع الاستزادة من فضله)، ﴿لِيَجْزِيَ... بِالْقِسْطِ﴾.

١٠ ـ فضل الأعمال الخيّرة رهن بالنوايا والأهداف الخيّرة، ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

١١ ـ مواصلة الكفر والإصرار عليه، يوجبان العذاب، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥)﴾

إشارات:

□ دأب القرآن الكريم على وصف الشمس بكلمات من قبيل «سراج» و«ضياء»،

والذي يقصد منه النور القوي الشديد، في حين وردت كلمة «نور» و«منير» للتعبير عن ضوء القمر وذلك للدلالة على ضعفه.

بيد أنّنا إذا اعتبرنا «ضياء» جمع «ضوء» فربّما تكون العبارة إشارة إلى أنّ الشمس ذات أنوار مختلفة[١].

- قد يراد بـ «تفصيل الآيات» التوسّع في الخلق، بمعنى أنّ قدرة الله مطلقة في خلق الوجود، والتوسّع في الخلق واضح لذوي الأفهام[٢].
- كما وضع الله الحكيم نجوماً وكواكب في السماء كعلامات يستدلّ بها الإنسان في حساب السنين، فإنّه سبحانه وضع في الأرض رسلاً وهداة يستهدي بهم البشر ويسترشدون، وبديهي، أنّ هؤلاء الهداة أهمّ للإنسان من حساب السنين[٣].

التعاليم:

١ ـ لا شكّ في أنّ حركة الكواكب السماوية في مدار ثابت، تلبّي متطلبات الإنسان، ﴿لِتَعۡلَمُواْ﴾.

٢ ـ النظم والترتيب الموجود في حركة القمر جعل منه تقويماً طبيعياً عامّاً ودائماً، ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾؛ (التغييرات التي تطرأ على شكل القمر، هي بمثابة تقويم للأيام).

٣ ـ معيار الحساب في المسائل الشرعيّة هو الشهر والسنة القمرية، ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ...﴾.

٤ ـ الأعداد، والإحصاء، والحساب...، كلّ ذلك يلعب أدواراً مهمّة في حياة الإنسان، ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾.

٥ ـ لم يخلق الكون عبثاً، بل هو قائم على الحقّ، ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾.

---

(١) تفسير راهنما، (التفسير المرشد).
(٢) الميزان في تفسير القرآن.
(٣) تفسير روح المعاني.

٦ ـ من أساليب التربية والتعليم تفصيل الأمور لا الإجمال، ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾.

٧ ـ الإحاطة بأسرار الخلق، تتطلّب التدبّر والتعلّم، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

إشارات:

- استعرضت الآية السابقة الآيات الإلٰهيّة وفصّلتها للعالمين ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، وهذه الآية تفصّلها للمتّقين ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾، والنتيجة هي أنّ الفائزين هم الذين يعلمون وفي الوقت ذاته يتّقون الله تعالى، وإلّا، فالمتّقون الغافلون أو العالمون غير المتّقين لا يستفيدون من آيات الله كما ينبغي.

- كلمة «إختلاف» تأتي بمعنى مجيء كل واحد منهما خلف الآخر وتعاقبهما، وكذلك بمعنى التباين والمخالفة.

- الليل والنهار يختلفان من أوجه عدّة هي:

أ) استخلافهما وتعاقبهما[1].

ب) الليل سكن، والنهار لكسب المعاش[2].

ج) زيادة ونقصان ساعاتهما طيلة فصول السنة.

د) اختلاف ساعات كلّ منهما في مناطق العالم.

- **سؤال:** لماذا ينكر بعض العلماء وجود الله تعالى؟

الجواب هو: لأنّ العلم وحده غير كافٍ لمعرفة الله تعالى، بل يجب أن تنطلق الرؤى ممّن لهم أهداف ودوافع محدّدة ومن أناس يسعون في طلب الحقّ والحقيقة، ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.

---

(١) ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ سورة الإسراء: الآية ١٢.

(٢) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ سورة النبأ: الآية ١٠.

التعاليم:

١ ـ الكون كلّه يشهد تغييراً، ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ و...﴾.

٢ ـ لا يجدر بنا أن نمرّ بالظواهر الطبيعية غافلين، ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ... لَأٓيَٰتٍ﴾.

٣ ـ التلوّث بالمعاصي يترك أثراً سيئاً على معرفة الإنسان وتحليله، ﴿لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَّقُونَ﴾ (التقوى سبيل المعرفة الصحيحة في الوجود).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨﴾

إشارات:

□ روي عن النبي المصطفى ﷺ قوله: «مَن أَحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه»[1]. وفي آخر آية من سورة الكهف نقرأ ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾.

التعاليم:

١ ـ الأمل واليأس لهما أبلغ الأثر في إصلاح الإنسان أو إفساده، ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾.

٢ ـ كلّما زادت غفلة الإنسان ويأسه من يوم القيامة، زاد تشبّثه بالدنيا. إذن، ينبغي على المؤمنين بيوم القيامة ألّا يكونوا طلّاب دنيا، ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

٣ ـ الطمأنينة الحقيقيّة تتحقّق بذكر الله فقط، والدنيا مسكّن كاذب للغافلين، ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا... غَٰفِلُونَ﴾.

٤ ـ العوامل التي تدفع بالإنسان إلى جهنّم هي:

أ) التنكّر للمعاد والثواب الأخروي، ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾.

---

(١) تفسير الفرقان.

ب) الركون إلى الدنيا الفانية، ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

ج) الغفلة عن آيات الله تبارك وتعالى، ﴿هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾.

د) العمل القبيح، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

٥ ـ جهنّم عاقبة عمل الإنسان، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾

إشارات:

- جاء في الحديث النبوي الشريف: «**إنّ المؤمن إذا خرج من قبره صُوّر له عمله في صورة حسنة، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنّة**»[1].

- هداية الله هي عمليّة مستمرة، ففي كلّ لحظة يزيد سبحانه وتعالى من هداية المؤمنين، ويحفظهم من السقوط في المهاوي، كما يفتح انسدادات الدنيا أمامهم ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[2]، وينير الدرب أمامهم ﴿نُورًا يَمْشِى بِهِۦ﴾[3]، ويحلّ لهم عقد المكاره، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[4]، ويكفيهم في كلّ المواقف ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[5]، وفي يوم القيامة يهديهم إلى جنات النعيم، ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾[6].

كلّ هذه الهدايات تُستلهم من المفهوم العام لكلمة ﴿يَهْدِيهِمْ﴾، فنظراً إلى أنّه لم يتمّ تحديدها فقد أخذت معنىً عامّاً.

التعاليم:

١ ـ لا ينفكّ الإيمان عن العمل، ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
(٢) سورة الطلاق: الآية ٢.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.
(٤) سورة محمد: الآية ٢.
(٥) سورة الطلاق: الآية ٣.
(٦) سورة الحديد: الآية ١٢.

٢ ـ نعم، المؤمن مهديّ، لكنّه مع ذلك لا يستغني عن الهداية الإلٰهيّة أبداً[١]، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾.

٣ ـ علينا نحن أن نخلق مستلزمات الهداية، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾.

٤ ـ إذا كانت ثمّة مقارنة بين الإيمان والعمل، فالإيمان هو الأصل. يقول ﷻ: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ ولم يقل: «بإيمانهم وعملهم».

٥ ـ هداية الله تعالى المؤمنين مطلقة وشاملة. فكلمة ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ في صيغة المطلق.

٦ ـ ربوبيّة الله تعالى هي التي تجعله دائماً يأخذ بيد المؤمنين، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾.

٧ ـ الأنهار في الجنّة لا تجري فقط من تحت الأشجار، بل ومن تحت القصور أيضاً، ﴿مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

❑ تحيّة «سلام» حديث أهل الجنّة، إذ يمتلئ فضاء الجنّة بالسلام، فالله تعالى يحيّي المؤمنين بتحيّة السلام ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[٢]، والملائكة تحيّيهم بالسلام ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾[٣]، وأهل الجنّة يحيّي بعضهم بعضاً بإفشاء السلام[٤]، ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾[٥].

❑ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، هو كلام الأنبياء والأولياء، فالنبي نوح عليه السلام بعد أن نجّاه الله من القوم الظالمين قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[٦]، والنبي إبراهيم عليه السلام كذلك حمد الله تعالى وأثنى عليه عندما وهبه الله تعالى على الكبر إسماعيل وإسحاق[٧]،

---

(١) حتّى رسول الله ﷺ والأئمة المعصومون عليهم السلام كانوا يقولون: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

(٢) سورة يس: الآية ٥٨.

(٣) سورة الزمر: الآية ٧٣.

(٤) تفسير المراغي.

(٥) سورة الواقعة: الآية ٢٦.

(٦) سورة المؤمنون: الآية ٢٨.

(٧) سورة إبراهيم: الآية ٣٩.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هو كلام المؤمنين[1] وأهل الجنّة.

□ ورد عن النبي الكريم ﷺ في حديث طويل عن حال أهل الجنّة: «**إنّما دعواه إذا أراد أن يقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ فإذا قالها تبادرت إليه الخدّام بما اشتهى من غير أن يكون طلبه منهم أو أمر به، وذلك قول الله ﷻ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾**»[2].

□ وفي الحديث أيضاً: «**أُخبرت أنّ أهل الجنّة إذا مرّ بهم الطائر يشتهونه قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ وذلك دعاؤهم به فيأتيهم الملك بما اشتهوا، فإذا جاء الملك به يسلم عليهم فيردون عليه وذلك قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ فإذا أكلوا قدر حاجتهم قالوا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾**»[3].

التعاليم:

١ ـ ذكر الله تبارك وتعالى لا يقتصر على هذه الدنيا، بل هو مستمرّ حتى في الدار الآخرة، ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾.

٢ ـ يصل الإنسان إلى منزلة راقية حتى تصبح دعواته ورغباته حمداً وتسبيحاً لله تعالى.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ﴾، وهذا التسبيح والثناء هو فوز لهم بأصناف الكرامات.

٣ ـ المؤمنون ينعتون الله بنعوت الجلالة ويمجّدونه بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، ويحيّون بعضهم بعضاً بالقول: ﴿سَلَٰمٌ﴾، أمّا حين يفوزون بنعم الله تعالى فيحمدون الله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٤ ـ المؤمن يعشق الله تعالى، ولا يصرفه عن ذكر معشوقه شيء بما فيها الجنّة ونعيمها، فهو يرى قدرة الله ولطفه في كلّ شيء، ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ... ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٤٣.
(٢) تفسير نور الثقلين.
(٣) تفسير روح المعاني.

٥ ـ يستهلّ المؤمنون كلامهم بالتسبيح ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، ويختمونه بالتحميد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ (يستفاد من عبارة ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أنّ أوّل كلامهم هو التسبيح ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾).

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

- نظير مفهوم هذه الآية ورد في سورة الكهف الآية ٥٨ وسورة فاطر الآية ٤٥، وهو إذا ما عجّل الله تعالى العقوبة للمسيئين فسيفنون جميعاً. عدا ذلك، فإنّ الاختيار الذي هو شرط التكليف، سينتفي، وستصبح الطاعة إكراهاً واضطراراً.
- ربّما كان معنى ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ هو أنّ سنّة الله هي الاستعجال في إيصال الخير، والإمهال في إنزال العذاب، فيصبح مفهوم الآية أنّ الله تعالى يستعجل إيصال الخير.

التعاليم:

١ ـ جُبل الإنسان على العجلة، ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾[1].

٢ ـ لو عجّل الله العذاب للمسيئين في هذه الدنيا لما بقي أحد منهم على وجه الأرض ولانقرضت البشرية، ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ... لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.

٣ ـ إحدى السنن الإلٰهيّة هي «الاستدراج» في العذاب وإمهال الظالمين، ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ...﴾.

٤ ـ عدم هلاك الكفّار، ليس دليلاً على حقّيّتهم، ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾.

٥ ـ أولئك الذين انقطعوا عن الله تعالى وانشغلوا بأنفسهم، ليس لهم هدف، وهم حيارى، ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

---

(١) وجاء في آية أخرى ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ سورة الأنبياء: الآية ٣٧.

٦ ـ الإنكار وعدم الاكتراث بيوم القيامة، مدعاة لأن يطغى الإنسان، ويكله الله إلى نفسه ويحرمه ألطافه، ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

- في مرّات عدّة يوبّخ الله تعالى الإنسان على جحوده مبيّناً أنّه كلّما اضطرّته الشدائد التجأ إلى الله ودعاه أن يفرّج عنه كربته، لكنّه بعد أن تُحلّ مشكلته، ينصرف عن الله وينساه كأن لم يدعه من قبل.

التعاليم:

١ ـ الإيمان بالله تعالى يسكن في أعماق الضمير والفطرة الإنسانية، وكلّما عصفت به الحوادث أيقظته من سباته، ﴿مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾.

٢ ـ أولئك الذين يذكرون الله في المناسبات فقط هم موضع انتقاد وتوبيخ، ولا قيمة لعملهم، ﴿مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾.

٣ ـ الدعاء جائز في كلّ الأحوال، سواء أكان المرء قائماً أم قاعداً أم مستلقياً، ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾.

٤ ـ الدعاء الخالص مدعاة لرفع الكُرب، ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾.

٥ ـ الترف والرفاهية تمهّد للغفلة، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾.

٦ ـ الإنسان جاحد، ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾.

٧ ـ أولئك الذين نسوا الله تعالى، زُيّنت لهم الحياة المادّية، ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾.

٨ ـ نسيان ألطاف الله تعالى، هو نوع من الإسراف، ﴿مَرَّ... لِلْمُسْرِفِينَ﴾.

٩ ـ من نسي الدعاء في السّراء وتذكّره في الضراء فهو مسرف، ﴿مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا... فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ... زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾.

١٠ ـ المترفون مغروون، ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

□ **«قُرون»** جمع **«قَرن»**، تقال للقوم أو الجماعة الذين يعيشون في عصر واحد.

التعاليم:

١ ـ الظلم مقدّمة لانحدار الشعوب، ﴿أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ... لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾.

٢ ـ العذاب الإلٰهيّ ينزل بعد إتمام الحجّة، ﴿أَهْلَكْنَا... وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٣ ـ الهلاك للظالمين الذين لا أمل في إيمانهم أو إصلاحهم، ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾.

٤ ـ مضافاً إلى التاريخ، يجب شرح فلسفة التاريخ لتكون عبرة ودرساً للآخرين[1]، ﴿أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ... كَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾.

٥ ـ السنن الإلٰهيّة دائمية، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الحكم والمُكنة، وسيلة الاختبار الإلٰهيّ، ﴿جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ... لِنَنظُرَ﴾.

٢ ـ المدير الذي ينيط بالآخرين المسؤولية، ينبغي عليه مراقبتهم أيضاً، ﴿جَعَلْنَٰكُمْ... لِنَنظُرَ﴾.

---

(١) هلاك الأمم السالفة، هو تاريخ، وأسرار هلاكهم والذي هو الظلم والمعاصي، فهو فلسفة التاريخ.

٣ ـ الله تعالى ينظر إلى أعمالنا، ﴿لِنَنظُرَ﴾.

٤ ـ كلّ الأمم سواسية عند الله تعالى، وقانون الامتحان الإلٰهيّ يسري على الجميع، ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

٥ ـ مصائر الناس ترسمها أعمالهم، ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الآيات نزلت في نفر عدّة من عبدة الأوثان، ذلك أنّهم أتوا إلى النبي الكريم ﷺ وقالوا له: إنّ ما ورد في هذا القرآن من الأمر بترك عبادة أصنامنا الكبيرة، وذمّ الآلهة ممّا لا يمكن أن نتحمّله، فإذا أردت أن نتبعك فأت بقرآنٍ آخر لا يوجد فيه هذا الذمّ والتوبيخ لآلهتنا أو غيّر على الأقل هذه الأمور التي وردت في هذا القرآن فنزلت هذه الآيات. طبعاً هذا هو مطلب الذين كانوا يجدون في التعاليم السماوية تعارضاً مع أهوائهم النفسية.

التعاليم:

١ ـ يجب توضيح الآيات ودلائل المعرفة الإلٰهيّة للناس، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ...﴾.

٢ ـ ليس بمقدور أحد، حتى النبي الكريم ﷺ، تغيير الشريعة الإلٰهيّة، ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾.

٣ ـ لا تذعنوا لتبريرات الناس وأهوائهم مطلقاً. الأصل هو ما يقوله الله تعالى لا ما يريده الناس، ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾.

٤ ـ ليس لبشر، بما في ذلك النبي الكريم ﷺ، أن يبدّل القرآن الكريم، ﴿مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾.

٥ ـ لا قيمة لاكتساب الأتباع إذا كان الثمن هو تبديل أو تحريف الدين والتخلّي عن المبادئ. (لاحظ سبب نزول الآية).

٦ ـ الأنبياء معصومون، وهم لا يتّبعون سوى الوحي، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ﴾.

٧ ـ ذكر المعاد، عامل تقوى وتحصين ضدّ المعصية، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، كما إنّ الغفلة عن المعاد مدعاة للتحجّج والتبرير، ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾.

٨ ـ الإيمان واليقين بالمعاد هما ينبوع عصمة الأنبياء، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

□ خطاب الآية موجّه إلى الذين يطالبون رسول الله ﷺ بأن يبدّل القرآن الكريم فيقول: لقد عاش النبي أربعين سنة بين ظهرانيكم، فلو كان القرآن من بنات أفكاره، لعرض صوراً مختلفة عن أفكاره خلال هذه الفترة.

التعاليم:

١ ـ رسول الله ﷺ لا يفعل شيئاً دون إذن الله وإرادته، ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ﴾.

٢ ـ القرآن معجزة إلٰهيّة، لا نتاج الفكر البشري، ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ... وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾.

٣ ـ سابقة النبي الكريم ﷺ في النزاهة، والطهر، والأميّة، كلّها أدلة قاطعة على حقّيته، ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا... أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

□ تستمر الآية الكريمة في الردّ على من طالبوا النبي الأكرم ﷺ بتبديل القرآن،

وهو مطلب عُدّ بمثابة افتراء على الله تعالى. وقد ورد شبيه هذا المضمون في آيات أخرى من القرآن الكريم مثل ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ أكبر الظلم هو الظلم الفكري والعقدي وتحريف الآيات، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾.

٢ ـ كلّما كانت الشخصيّة أعظم، كان الافتراء عليها أشدّ وأخطر، ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ الذي يفتري على الدين ويكذّب به، بمنزلة الكافر، ﴿ٱفْتَرَىٰ... كَذَّبَ﴾.

٤ ـ البدعة جرم، ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

٥ ـ إذا طرح الداعية أفكاره الخاصّة باسم الدين كان جديراً بألفاظ مثل «أظلم»، «لا يفلح» و«مجرم».

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

- اتّخذ صاحب تفسير المراغي من هذه الآية دليلاً لدحض مسألة التوسّل بالأولياء وزيارة القبور، في حين أنّه: أوّلاً، استعملت الآية كلمة «يعبدون» ونحن عند الزيارة والتوسّل لا نعبد أحداً إلا الله، ثانياً، إنّنا نؤمن بحياة البرزخ، والقرآن يقول عن الشهداء: إنّهم أحياء، من هنا، فإنّنا نتوسّل بالأولياء، الذين استشهدوا في سبيل الله، أن يدعوا لنا، ولا جرم أنّ مقارنة الشهداء بالحجر والخشب فيه الكثير من التجنّي.
- عبادة الأصنام تكون إمّا بدافع الخوف أو الأمل بإيصال منفعة، وهي لا تضرّ

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٣.

لكي تُعبد دفعاً لضررها، ولا تنفع، لتُعبد أملاً في نفعها. لذا، فلا عذر منطقي في عبادة الأصنام، ﴿لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾.

التعاليم:

١ ـ عبدة الأصنام لا يحتكمون إلى منطق، وعبادة الأصنام عملٌ خالٍ من أيّ منطق، ﴿وَيَعْبُدُونَ... مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾.

٢ ـ كان عبدة الأصنام يؤمنون بالله، ويتّخذون الأصنام شفعاء لهم، لذلك كانوا يعبدونها، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

❑ حين هبط آدم وحواء إلى الأرض، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1]؛ لذا فإنّ مكوث الإنسان على الأرض، ومنذ اليوم الأوّل لهبوطه، كان بمثابة مهلة مؤقّتة له، من هنا، ربّما كانت العبارة ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ في هذه الآية، إشارة إلى ما قدّر للإنسان وخُطّط له.

التعاليم:

١ ـ كان البشر منذ البداية أمّة واحدة وموحّدة منسجمة الفكر والعقيدة، ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

٢ ـ منذ البداية، عاش الإنسان حياة اجتماعية، ﴿أُمَّةً﴾.

٣ ـ الإمهال هو من شؤون الربوبيّة الإلٰهيّة، ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾.

٤ ـ قضت السنّة الإلٰهيّة إمهال الإنسان من أجل أن يختار ويعمل بما يختار، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ... لَقُضِىَ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٦.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ بعض الناس يغضّون النظر عن القرآن الكريم وعن مئات الآيات فيه، ويطالبون بآية أخرى، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾.

٢ ـ المعجزة تحدث بإرادة الله تعالى وإذنه، فأمرها ليس بيد النبي الكريم ﷺ، ولا هي تتبع أهواء الناس ونزواتهم، ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾.

٣ ـ الإمهال، سنّة الله تعالى وشريعته، ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ...﴾.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

إشارات:

- أشارت الآية السابقة إلى احتجاجاتهم: لماذا لا يُنزل الله تعالى على نبيّه آية. وهنا تتطرّق إلى لجاجهم وعنادهم، إذ إنّهم لجأوا إلى الحيلة والخداع حتى بعد نزول الآية.

- قيل: قحط أهل مكة سبع سنين حتى كادوا يهلكون، ثم لمّا رحمهم الله بالمطر ببركة وجود رسول الله ﷺ بينهم إذا هم (المشركون) يقدحون في آيات الله قائلين: إنّ نزول المطر كان ببركة الأصنام، فنزلت هذه الآية لتفضح كيدهم ومكرهم[١].

- ذكرت معظم التفاسير أنّ من سلوكيات الكفّار الإساءة إلى شخصيّة النبي الكريم ﷺ والاستهزاء بآيات الله تعالى.

---

(١) التفاسير: الصافي؛ في ظلال القرآن؛ والكبير، الفخر الرازي.

التعاليم:

١ ـ النعم التي يتمتّع الإنسان بها تعدّ جانباً من الرحمة الإلٰهيّة اللامتناهية، ﴿أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾.

٢ ـ يسيء بعض الناس استغلال النعم الإلٰهيّة، فتراهم يمكرون بدل أن يشكروا، ﴿أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً... إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾.

٣ ـ من يمكر سيتعرّض لمكر الله وتدبيره القاهر، ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ... ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾.

٤ ـ العذاب الإلٰهيّ يتناسب وطبيعة المعصية، ﴿لَهُم مَّكْرٌ... ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

□ يقول الآلوسي والمراغي في تفسيريهما: إنّ الشيعة يتوسّلون بأئمّتهم في الشدائد، بينما كان المشركون يلوذون بالله عند الكربات!! وقد تناسى هذان المفسّران أنّه شتّان بين التوسّل بإمام معصوم شهيد حيّ ـ بتصريح القرآن الكريم ـ وبين التوسّل بصنم.

التعاليم:

١ ـ نواميس الطبيعة موضوعة من قبل الله تعالى وتسير بإرادته، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾.

٢ ـ أعمال الإنسان تُنسب إلى الله أيضاً، لأنّها نابعة من قدرته سبحانه وإرادته. فعلى الرغم من أنّ السير هو فعل الإنسان ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، إلّا أنه ﷻ يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾.

٣ ـ مهما بلغ الإنسان من تطوّر علمي، فمع ذلك، لن يكون بمأمن من الكوارث

الطبيعية، ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾.

٤ ـ لا يظنّ المترفون أنّ ترفهم هذا دائم، ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا... أُحِيطَ بِهِمۡ﴾.

٥ ـ الكوارث الطبيعية تكسر غرور الإنسان وكبرياءه، وتذلّه أمام عظمة الله تعالى وقدرته، ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾.

٦ ـ عندما يدلهمّ الخطر، يستغيث الإنسان بالمنجي الأصلي، ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾.

٧ ـ لا بدّ للإيمان والإخلاص أن يكونا دائمين لا مؤقتين عند الشعور بالخطر فقط، ﴿أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾.

٨ ـ عندما تقصر يد الإنسان عن كلّ شيء يتعهّد بألف ميثاق، وما أن يزول الخطر حتى يضرب عرض الحائط كلّ تعهّداته، ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾.

٩ ـ الجحود وكفران النعم من جملة العوامل التي تهيّئ لنزول العذاب والشدائد، ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

- «البغي» طلب تجاوز الاقتصاد في ما يتحرّى، تجاوزه أم لم يتجاوزه، فتارة يعتبر في القدر الذي هو الكمية، وتارة يعتبر في الوصف الذي هو الكيفية، يقال: بغيت الشيء، إذا طلبت أكثر مما يجب، وابتغيت كذلك[١].

التعاليم:

١ ـ الكافر لا وفاء له ولا ذمّة، وهو جاحد وناكر للجميل، ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ... يَبۡغُونَ﴾ (في الآية السابقة تعهّد إذا أنجاه الله ليكوننّ من الشاكرين، وبعد أن نجّاه جحد).

(١) مفردات الراغب، مادة «بغى».

٢ ـ ظلم الناس، هو ظلم للنفس، لأنّ بعضنا من بعض[1]، ﴿بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾.

٣ ـ جزاء الظلم والبغي ينزل في الدنيا وفي الآخرة أيضاً، ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم... إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾.

٤ ـ الظالمون يتمتّعون لأيّام قلائل في هذه الدنيا، وهذا لا يساوي شيئاً في مقابل عذاب الآخرة، ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٥ ـ أساس الظلم يكمن في تعلّق الإنسان بالدنيا، ﴿مَّتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٦ ـ ذكر القيامة أحد عوامل الاحتراز من ارتكاب المعاصي، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ... إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾.

٧ ـ الله عليم بجميع أعمال الإنسان، وسيطّلع الإنسان أيضاً في يوم القيامة على جميع أعماله، ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

- أشارت الآية السابقة إلى أنّ الدنيا متاع قليل، وهنا تشرح الآية الكريمة حال الدنيا ضمن تشبيه.

- جاء في بعض الروايات، أنّ هذه الآية تشير إلى ظهور الإمام المهدي عليه السلام، فمتى ما امتلأت الأرض بالزخارف والزبارج وطغت الأمور المادّية، جاء الله بثورة عقدية ودينيّة لتنقلب الأوضاع رأساً على عقب[2].

---

(١) ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ سورة آل عمران: الآية ١٩٥.

(٢) تفسير نور الثقلين.

□ أحسن الأمثلة هي المأخوذة من بطن الطبيعة، لأنّها لا تقدم بقدم العهد والزمان، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ﴾.

التعاليم:

١ ـ التمثيل هو الأسلوب الأمثل في الدعوة والتعليم، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٢ ـ الإنسان والحيوان لهما حقوق في الاستفادة من المواهب المادّية للطبيعة، غير أنّ فضل الإنسان هو في استلهام المعنويات، ﴿يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾.

٣ ـ تناسب الخضرة مع متطلبات الإنسان والحيوان تعدّ من الألطاف الإلٰهيّة، ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ... يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾.

٤ ـ الإيمان زينة الإنسان[1]، والنبات زينة الأرض، ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾.

٥ ـ الدنيا خدّاعة، فهي تجعل الإنسان يغرق في الأحلام والخيال، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ﴾.

٦ ـ كما إنّ إنبات الأرض هو بيد الله تعالى[2]، فإنّ تدميرها أيضاً بيده، ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾.

٧ ـ الدنيا وزخارفها في مهبّ رياح الحوادث والكوارث، ﴿وَٱزَّيَّنَتْ... حَصِيدًا﴾.

٨ ـ عمر الإنسان في الدنيا كعمر الجنابذ والأزهار قصير وسريع، ﴿مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا... كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾.

٩ ـ أحياناً يكون غضب الله شديداً وصاعقاً لا يبقي ولا يذر، ﴿لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾.

١٠ ـ تمثيلات القرآن الكريم، مدعاة للتدبّر والتفكّر، لذا، ينبغي ألّا نمرّ بها مرور الغافلين، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

---

(١) ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ سورة الحجرات: الآية ٧.

(٢) ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ سورة الواقعة: الآية ٦٤.

١١ ـ التعلّق بالدنيا والاغترار بها، دليل على قصر النظر، وفي المقابل، فإنّ عدم الاغترار بالدنيا هو دليل بعد نظر وتدبّر، ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾

إشارات:

- «دار السلام»، أحد أسماء الجنّة؛ لأنّه لا وجود فيها لنزاعات، أو صراعات، أو جدال، أو استغلال، ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾[(١)].
- السلام هو أحد أسماء الله الحسنى، ودار السلام تعني في جوار رحمة الله، وبيت السلام حيث تحيّة أهله السلام، كما إنّ الله يحيّيهم بتحيّة السلام، ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾[(٢)].
- ذكرت الروايات، أنّ طريق الإمام أمير المؤمنين علي والأئمة المعصومين عليهم السلام هو خير مثال للصراط المستقيم.

التعاليم:

١ ـ الدعوة الإلٰهيّة تجسّد اللطف الإلٰهيّ الخاص بعباده، ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾.

٢ ـ الصحة والسلامة في هذه الدنيا أمر مؤقت، فيما السلامة في الآخرة دائمة وخالدة، ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

٣ ـ الصراط المستقيم عامل استقرار فمضافاً إلى الآخرة، يصنع من هذه الدنيا دار السلام، ﴿يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

٤ ـ الحياة السليمة والمجتمع السليم منشؤهما الله تعالى، ﴿يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

٥ ـ الله تبارك وتعالى يدعو الخلق ويهديهم إلى الطريق السويّ أيضاً، ﴿يَدۡعُوٓاْ... وَيَهۡدِي﴾.

٦ ـ الدعوة الإلٰهيّة موجّهة إلى الجميع، بينما الهداية الخاصة هي لمن يحبه الله

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٤٣.
(٢) سورة يس: الآية ٥٨.

ويرتضيه، ويعتمد هذا الرضا على توعية المرء لنفسه، ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

٧ ـ الحركة على الصراط المستقيم هي توفيق من الله تعالى، ﴿وَيَهْدِي... إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾

إشارات:

- «رَهَق» تعني التغطية القهرية والجبرية، و«القَتر» هو الغبار، والدخان، والرماد.
- إعطاء الثواب المضاعف تكرّر في مواضع عدّة من القرآن الكريم وبعبارات مختلفة مثل «زيادة»، «ضِعف» و«أضعاف». إذ يقول ﷻ: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[١]، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾[٢]، ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾[٣].
- وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: **«ما من شيء إلّا وله كيل ووزن إلّا الدموع، فإنّ القطرة تطفي بحاراً من نار، فإذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق وجهها قتر ولا ذلة، فإذا فاضت حرمها الله على النار، ولو أنّ باكياً بكى في أمّة لرحموا ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾»**[٤].
- في بعض الروايات، يراد بـ«الزيادة» الدنيا[٥]، وهي في بعض روايات أهل السنّة لقاء الله أو ألطافه سبحانه وتعالى[٦].
- «أحسنوا»، دائرة الإحسان تشمل العقيدة الصالحة، والعمل الصالح، والقول الصالح.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٠.
(٢) سورة النساء: الآية ١٧٣.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٦١.
(٤) تفسير نور الثقلين.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) تفسير الدرّ المنثور.

التعاليم:

١ ـ الانتهال من الألطاف الإلٰهيّة خاصّ بالمحسنين، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

٢ ـ الله تبارك وتعالى يثيب الإنسان على عمله الصالح وكذلك يكافئه، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

٣ ـ سوف ينال المحسنون في يوم القيامة أحسن الثواب، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

٤ ـ لا عذر لمن يلجأون إلى غير الله، لأنّه سبحانه وتعالى يدعو ﴿يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾، ويرشد ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، ويثيب ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾، ويزيد ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، وهذه الزيادة غاية في الأهمية[١].

٥ ـ الإحسان في هذه الدنيا سريع وزائل، لكنّه سوف يستتبع حياة خالدة في الجنّة، ﴿أَحْسَنُوا۟... هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

- عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾: **«هؤلاء أهل البدع والشهوات»**[٢].

- **«ليل مُظلم»**، هو الليل الذي ينعدم فيه ضياء القمر، ويحدث هذا مرّة في كلّ شهر. وفي مقابل ذلك يقال: **«ليل مُقمِر»** أي ساطع بنور القمر، وهو عندما يكون القمر فيه بدراً.

- بقرينة آيات من قبيل ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾[٣]، و﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[٤]، يمكن

---

(١) كلمة «زيادة» جاءت في صيغة التنكير للدلالة على العظمة.

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) سورة عبس: الآيات ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٠٦.

القول إنّ عبارة الآية ﴿أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ تشير إلى الكفّار.

علاوة على أنّ «السيئات» تحتوي على ألف ولام الاستغراق فهي تشمل جميع السيئات وعلى رأسها، بالطبع، الكفر.

التعاليم:

١ ـ الإنسان يرتكب المعصية مختاراً لا مكرهاً، ﴿كَسَبُوا۟﴾.

٢ ـ معاملة الله تعالى للمسيئين بالعدل، ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾.

٣ ـ الدنيا دار عمل، والآخرة دار ثواب، ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟... جَزَآءُ﴾.

٤ ـ الترغيب يجب أن يسبق الترهيب والعقاب. يقول ﷻ عن المحسنين: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وعن المسيئين: ﴿سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾.

٥ ـ اسوداد الوجه والقتر هو للكفّار لا للمؤمنين المسيئين، ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾.

٦ ـ في يوم القيامة، عقوبة، وذلّة، وقتر، ووجوه مسودّة، ﴿سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا... أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ...﴾.

٧ ـ طريق الهروب أو الشفاعة مغلق بوجه الكافرين، ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

□ مرّ علينا في الآية السابقة أن لا مفر أمام المجرمين والكافرين، وهذه الآية تقول إنّه حتى الشفعاء الوهميون سيتبرؤون منهم بدلاً من أن يشفعوا لهم.

التعاليم:

١ ـ لا ننس يوم القيامة وأهواله، ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.

٢ ـ يوم القيامة لا يخصّ البشر وحدهم، بل هو يوم قيامة كلّ الخلائق إذ سيحضر حتى المعبودون الوهميون، ﴿أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾.

٣ ـ يوم القيامة هو يوم الفصل، ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾: (في يوم القيامة يتمّ الفصل بين البشر وذلك من أجل استجوابهم).

٤ ـ في يوم القيامة ستكون الأصنام ذات شعور وستنطق لتتبرأ من معبوداتها أو تتنكّر لهم، ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾.

﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

إشارات:

- في الآية السابقة تنكّر المعبودون لعابديهم إذ قالوا لم تكونوا تعبدوننا، وهنا يقول هؤلاء لقد كنّا عن عبادتكم غافلين، ونستنتج إذن: إنّ أي عبادة يكون المعبود غافلاً عنها ليست عبادة.

- لقد دأب القرآن الكريم في مواضع متعدّدة على ذكر مسألة نفور المعبودين وبراءتهم من المشركين وعملهم، على سبيل المثال ما ورد في الآية ١٧ من سورة الفرقان، والآية ٦٣ من سورة القصص.

التعاليم:

١ ـ في يوم القيامة، ستنطق الأصنام ويُبعث فيها الوعي، ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ يوم القيامة هو يوم حصول كلّ إنسان على صحيفة أعماله في اختبار الدنيا، ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ﴾.

٢ ـ الحساب في يوم القيامة سوف يشمل جميع البشر، ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ﴾.

٣ ـ الله سبحانه وتعالى هو منشأ الوجود ومنتهاه، ﴿وَرُدُّوٓا۟﴾[(١)].

٤ ـ الله تبارك وتعالى هو المولى الحقيقي وكلّ شيء سواه عدم وسراب، ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

- ذكروا كمثال على قدرة الله تعالى على استخراج الميت من الحيّ واستخراج الحيّ من الميّت: خروج الإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، والنبتة من الحبّة، والحبّة من النبتة، والولد الصالح من الوالدين الفاسدين، والولد الفاسد من الوالدين الصالحين.
- يطرح هنا سؤال وهو: لماذا ذكرت الآية الكريمة السمع والبصر من بين جميع أعضاء جسم الإنسان؟ ربّما يعود السبب في ذلك إلى أنّ هاتين الحاسّتين من أهمّ الأعضاء فاعلية وأهميّة، لأنّ دخول البيانات والمعلومات إلى المخ يتمّ عن هاتين القناتين.

التعاليم:

١ ـ طريقة إلقاء السؤال وإثارة مكامن التفكير عند الإنسان والرجوع إلى فطرته، هي من مسؤوليات المعلّمين الإلهيّين، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾.

٢ ـ لقد جعل الله تعالى للسموات والأرض دوراً في ارتزاق الإنسان، ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٣ ـ الرزق، والخلق، والتدبير هي من السنن الإلهيّة الخالدة، «**يرزق، يملك، يخرج، يدبّر**»؛ (صيغة المضارع دليل الاستمرار).

---

(١) تستعمل كلمة «ردّوا» في الحالات التي تكون العودة إلى نقطة البداية.

٤ ـ عالم الخلق يحتاج إلى التدبير في كلّ لحظة، ووحدة التدبير دليل على وحدة الربوبيّة، ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾.

٥ ـ الرزق، والسمع، والبصر، والحياة، والموت، كلّها بيد الله تعالى، وليس لأحد أو شيء سوى الله القدرة أو الحاكمية، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ... فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾.

٦ ـ التدبّر في نعم الله تعالى وقدرته من أحلى طرق معرفة الله وأكثرها عياناً وعمومية وبساطة وعشقاً، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم... فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾.

٧ ـ حتى المشركون يؤمنون في داخلهم بأنّ الله هو خالق الكون، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾.

٨ ـ العقيدة وحدها لا تكفي، بل يلزمها الاقتران بالعمل، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

٩ ـ المعرفة والعلم مقدّمة للتقوى، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ ليس بعد الله الحاكم الرازق الخالق المدبّر (الآية السابقة) من إله آخر، ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾.

٢ ـ الإيمان بربوبيّة غير الله إنّما هو اعتقاد باطل ومحض ضلال، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾.

٣ ـ لا طريق ثالث بين الحق والباطل، فكلّ ما ليس بحقّ فهو باطل، والحياد وعدم الانحياز أمر مرفوض، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾.

٤ ـ يمتلك الإنسان فطرة حقّة، لكنّ الشياطين، والأوهام، وعوامل أخرى هي التي تجنح به إلى الانحراف، ﴿تُصْرَفُونَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣﴾

التعاليم:

١ ـ اختيار الإنسان طريق الفسق، سوف يضمن له العذاب الإلٰهيّ، ﴿حَقَّتْ... عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾.

٢ ـ الفسق والمعصية تحجبان الإيمان وتمهّدان للكفر، ﴿فَسَقُوٓاْ... لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣٤﴾

التعاليم:

١ ـ الله تبارك وتعالى يعلّم نبيّه الكريم ﷺ أسلوب الحوار والجدال مع المشركين، ﴿قُلْ﴾.

٢ ـ لا وجود لشريك الله إلّا في أوهام البشر، ﴿شُرَكَآئِكُم﴾.

٣ ـ الوجود حادث (ليس قديماً)، ﴿يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾.

٤ ـ معيار العبادة أمران: الأوّل القدرة على الخلق والإحداث، والثاني القدرة على إعادة الخلق، ﴿يَبْدَؤُاْ... ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

٥ ـ الوجود يسير نحو الموت والفناء، فمصيره هو الموت والعدم، ﴿يَبْدَؤُاْ... ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

٦ ـ القيامة والمعاد جسمانيّان مثل الدنيا، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

٧ ـ توهّم وجود شركاء لله دليل على الحمق واللاعقلانية، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٥﴾

إشارات:

□ أشارت الآية السابقة إلى موضوعات المبدأ والمعاد وخلق الوجود، وهنا تتطرّق

الآية الكريمة إلى مسألة النبوّة، والإمامة، وهداية البشرية.

□ الهداية نوعان: الأولى، إراءة الطريق، والثاني الإيصال إلى الهدف. النوع الأول هو من عمل الأنبياء، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[١]، أمّا الهداية بالمعنى الثاني فهي محصورة بالله تعالى ومن اختصاصه وحده جلّ شأنه، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[٢].

□ العبارتان ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ و﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ معناهما واحد[٣].

□ جاء في روايات متواترة رواها الفريقان أنّ رسول الله ﷺ قال: «**الحقّ مع عليّ وعليّ مع الحقّ**»[٤].

التعاليم:

١ ـ الإرشاد والهداية من شؤون الربوبيّة، ﴿اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾، (أساس العبادة القدرة على الهداية).

٢ ـ الهداية الصحيحة يلزمها العلم الواسع المنزّه عن الخطأ، والقدرة، والمحبّة، والهدف. لذا، لا قدرة لأحد على الهداية سوى الله والذين جعلهم هداة للناس. كيف يمكن للأصنام والطواغيت أن تهدي؟ ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾.

٣ ـ الجدير بالاتّباع هو الذي يهدي بالحقّ، ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾.

٤ ـ مبدأ النبوّة والإمامة وطاعة المعصوم هو مبدأ عقلاني، ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾

إشارات:

□ القيمة الحقيقية هي للعلم، وكذلك للظنّ القوي والاطمئنان إذا ما بُنيا على

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.
(٢) سورة القصص، الآية ٥٦.
(٣) الميزان في تفسير القرآن.
(٤) إحقاق الحق، ج ٥، ص٢٨ و٦٣٥.

أساس صحيح ومتين، كما يحصل مع الفقيه الذي يستنبط من ظاهر الآيات والروايات لمعرفة حكم الله (في المسائل الفرعية طبعاً). بيد أنّ الظنّ في العقيدة لا قيمة له إذا كان نابعاً من تقليد الأجداد أو التعصّب الجاهلي.

التعاليم:

١ ـ الأكثرية ليست دائماً دليل حقّ، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾.

٢ ـ أعداء النبي ﷺ لا منطق لهم، ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾.

٣ ـ ليس للشرك أساس علمي، ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم... وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾؟

٤ ـ في ما يتعلّق بالعقائد والمعارف يجب التمسّك بالعلم لا الظنّ، ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ﴾

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

التعاليم:

١ ـ إنّ جامعيّة القرآن ومضمونه من الإحكام والإتقان بحيث لا تليق به كلّ آراء التحريف والنسبة لغير الله، ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾.

٢ ـ الكتب السماوية يصدّق بعضها بعضاً. وهي تختلف عن بعضها في الإجمال والتفصيل لا أكثر، ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

٣ ـ القرآن، سبيل إلى الرشد والتربية، ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ... مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

إشارات:

❑ لقد أكّد القرآن الكريم في آيات عدّة على إعجازه وعجز الإنس والجنّ على أن

يأتوا بمثله، بل وتحدّاهم أن يأتوا ولو بآية واحدة، من هذه الآيات التي ذكرت هذا الموضوع الآية ١٣ من سورة هود. من ناحية ثانية، فإنّه على الرغم من ظهور ملايين الأعداء على مرّ القرون الذين بذلوا، وما زالوا، كلّ ما في وسعهم لإضعاف القرآن وهزيمة الإسلام، إلّا أنّ صوت التحدّي القرآني لم يخفت حتى الآن، ولا يزال ذلك التحدّي قائماً إلى يوم القيامة ولكن دون مجيب.

مزايا القرآن الكريم

□ ولمّا كان الحديث عن التحدّي القرآني، نجد من المناسب أن نقف هنا عند بعض المزايا الخاصّة بهذه المعجزة الربّانية الخالدة:

١ ـ **ذو معارف سامية وعميقة وعباراته قصيرة:** فمثلاً، يمثّل للعلاقة بين الزوج والزوجة بالقول: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[1]، أو ضعف ووهن القوى غير الإلهيّة ببيت العنكبوت ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾[2]، أو بيانه عجز الإنسان عن أن يخلق ذبابة واحدة، ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾[3].

٢ ـ **حلاوة الكلام وسحره:** وخير دليل على ذلك أنّه لو تُلي آلاف المرّات فلن يُملّ، بل سيكتشف المرء في كلّ مرّة معنى جديداً.

٣ ـ **إيقاع الكلام ولحنه:** إنّ لكلمات القرآن لحناً وإيقاعاً خاصّاً وفريداً، ويتبيّن هذا جليّاً إذا ما وضعنا آية قرآنية أو أكثر إلى جوار كلام العرب أو الروايات، حينئذٍ سنلحظ بوضوح تميّزها عن سائر الكلام.

٤ ـ **جامعيّته وشموليّته:** فهو يتنقّل من البراهين إلى الأمثال، ومن الدنيا إلى الآخرة، وكذلك يتناول القضايا بمختلف مشاربها الأسرية، والقانونية، والسياسيّة، والعسكرية، والأخلاقيّة، والتاريخية... إلخ.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٧.
(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤١.
(٣) سورة الحج: الآية ٧٣.

٥ ـ **نظرته الواقعية**: لا يبني القرآن الكريم مضمونه على الحدس والظنّ، فحتى قصصه تستند إلى الواقع.

٦ ـ **عالميّته**: يمتح الناس من معارفه أينما كانوا وعلى مختلف مستوياتهم، إلّا أنّه ليس بكتاب متخصّص.

٧ ـ **كتاب أبدي وخالد**: فكلّما تقادم عمر البشرية والعلوم، برزت أسرار جديدة من ثنايا القرآن الكريم.

٨ ـ **التطوّر المتعاظم**: على الرغم من أنّ القرآن الكريم كان له النصيب الأكبر من الأعداء والمؤامرات، إلّا أنّه في المقابل حقّق أكبر انتشار منذ نزوله حتى الآن.

٩ ـ **المعجزة في اليد**: هذه المعجزة الخالدة هي في متناول الجميع، معجزة من نمط الحديث والكلمة.

١٠ ـ إنّه معجزة وكتاب تشريع وقوانين على حدّ سواء.

١١ ـ لقد صدر عن شخص لم يتعلّم حرفاً وعاش في منطقة محرومة ونائية.

١٢ ـ لم ينقص منه شيء ولم يزد عليه، فهو منزّه عن أيّ تحريف.

التعاليم:

١ ـ يطرح القرآن الكريم أسهل الطرق لإثبات إعجازه وهي دعوة الناس للإتيان بسورة مثله، ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾.

٢ ـ ليس القرآن كلّه، بل حتى سورة واحدة منه تعتبر معجزة، ﴿بِسُورَةٍ﴾.

٣ ـ لقد خفّض القرآن الكريم سقف التحدّي من الإتيان بالقرآن كلّه إلى سورة واحدة مثله، ﴿بِسُورَةٍ﴾.

٤ ـ التحدّي القرآني لا يختصّ بزمان ومكان معيّنين، بل هو تحدٍّ مفتوح يمتدّ أمده إلى يوم القيامة ويشمل جميع أرجاء الأرض، ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ تحدّي القرآن ليس لعوام الناس، بل هو لجميع الحقوقيين، والأدباء،

والعباقرة... إلخ، ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٦ ـ لم يحدّد هذا التحدّي طبيعة الإمكانات وعدد الأشخاص، ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ هذا التحدّي ينطوي أيضاً على استثارة للمشاعر، ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

إشارات:

□ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنّ الله خصّ عباده بآيتين من كتابه، أن لا يقولوا حتى يعلموا، ولا يردّوا ما لم يعلموا**»، وقال عزّ وجلّ: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾[(١)]، ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾[(٢)].

□ ينقل عبد العظيم الحسني عن الإمام الجواد عليه السلام عن الإمام علي عليه السلام قوله: «**قَالَ: قُلْتُ أَرْبَعاً أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَصْدِيقِي بِهَا فِي كِتَابِهِ**»[(٣)].

١ ـ قلت: المرء مخبوءٌ تحت لسانه فإذا تكلّم ظهر، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾[(٤)].

٢ ـ قلت: فمن جهل شيئاً عاداه، فأنزل الله ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾.

٣ ـ وقلت: قدر أو قيمة كلّ امرئ ما يحسن، فأنزل الله في قصة طالوت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾[(٥)].

٤ ـ وقلت: القتل يقلّ القتل، فأنزل الله ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[(٦)].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٩.
(٢) تفسير مجمع البيان.
(٣) بحار الأنوار، ج١، ص ١٦٦.
(٤) سورة محمد: الآية ٣٠.
(٥) سورة البقرة: الآية ٢٤٧.
(٦) سورة البقرة: الآية ١٧٩؛ الكافي، ج١، ص ١٦٦.

التعاليم:

١ ـ لقد كذّب المخالفون بالقرآن دون أن يحيطوا به علماً، ﴿كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ﴾.

٢ ـ لا يجوز أن نردّ شيئاً لمجرّد أنّنا نجهله، ﴿كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ﴾.

٣ ـ العلم العام والإجمالي ليس له تأثير يذكر، ذلك أنّ سبب نورانيّة الإنسان هو الإحاطة العلمية، ﴿لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾.

٤ ـ معارضة الأنبياء على مرّ التاريخ كان سببها، على الأغلب، الجهل، ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٥ ـ لا بدّ من قراءة التاريخ وتعرّف مصير المناوئين للأنبياء، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤٠﴾

التعاليم:

١ ـ الإنسان مخيّر لا مُسيّر، ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾.

٢ ـ لا ينبغي للقائد أن يتوقع إيمان كلّ الناس وعملهم بشريعته، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾

٣ ـ عدم الإيمان والفساد متلازمان. فالمعصية تحجب الإيمان، وكذلك عدم الإيمان يكون دافعاً للفساد، ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ... بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

٤ ـ الإنسان في عين الله تعالى، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ
وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١﴾

التعاليم:

١ ـ لا يمكن إكراه الناس على الإيمان، فمسؤولية الأنبياء هي الهداية والإرشاد لا الإكراه، ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل...﴾.

٢ ـ يجب أن يتوقّع القائد تكذيب فئة من الناس له، ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ...﴾.

٣ ـ يجب أن لا نشعر بالإحباط إزاء تكذيب المكذّبين، لأنّنا سنصيب ثواب الإرشاد والهداية، وفي المقابل، سينال المعارضون جزاء تكذيبهم ولجاجهم، وبالتالي سنكون نحن الفائزين في هذه الصفقة، ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾.

٤ ـ كان النبي الكريم ﷺ يتصدّى بحزم للمكذّبين، ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾.

٥ ـ مسائل الربح والخسارة لأيّ شخص تخصّه هو وحده، وبالتالي تعود عليه بالضرر أو بالنفع، ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾.

٦ ـ الإسلام دين منطق وأخلاق، لا دين مهادنة مع الكفّار. فإذا لم ينصاعوا للحقّ، فلنعلن براءتنا من سلوكهم ومعتقداتهم، ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ... وَأَنَا بَرِيءٌ﴾.

٧ ـ إبداء الرضا بأعمال الآخرين يعني مشاركتهم ثوابها أو عقابها، ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ... وَأَنَا بَرِيءٌ﴾؛ (القول إنّ كلّ شخص مسؤول عن عمله يعني أنّنا غير راضين عن أعمال بعضنا البعض).

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢)﴾

التعاليم:

١ ـ ليس كلّ المستمعين يمتلكون حسن نيّة، أحياناً يسعى اللجوجون والمعاندون إلى تكرار الاستماع من أجل التهرّب واختلاق الأعذار، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ...﴾.

٢ ـ أحياناً يصل اعتلال قلب الإنسان إلى درجة لا يفيد في علاجه حتى كلام النبي الأكرم ﷺ، ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾.

٣ ـ الاستعداد لقبول الهداية عامل مهمّ في هداية الإنسان، ولا تكفي البيّنات وحدها ولا القائد المُلهم، ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٤ ـ الاستماع (سواء أكان بشكل مباشر أم غير مباشر) غير مهم في الهداية، المهمّ هو التعقّل والقبول القلبي، ﴿يَسْتَمِعُونَ... لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

إشارات:

- فريق سوف يُحشر في يوم القيامة أعمى، وهذا العماء هو عماء القلب وفقدان البصيرة ونسيان آيات الله تعالى في الحياة الدنيا، وتجدهم كأنّهم عميٌ، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ... قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[١].
- يقول الإمام الهادي عليه السلام: «... **فمن زعم أنّه مجبر على المعاصي فقد أحال بذنبه على الله، وقد ظلمه في عقوبته ومن ظلم الله فقد كذّب كتابه ومن كذّب كتابه فقد لزمه الكفر باجتماع الأمة**»؛ والآية (٤٤) تكذّب ذلك[٢].

التعاليم:

١ ـ ليست كلّ نظرة تنطوي على بصيرة، وليس كلّ ناظر ينجذب صوب الحقيقة، ﴿يَنظُرُ... لَا يُبْصِرُونَ﴾.

٢ ـ حتى الأنبياء لا يمكنهم التأثير فيمن عميت بصيرته، ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾.

٣ ـ أولئك الذين لا تقودهم النظرة إلى الحقّ، عمي، ﴿يَنظُرُ... لَا يُبْصِرُونَ﴾.

٤ ـ لقد بعث الله تبارك وتعالى بأحسن دين وأفضل كتاب وأشرف نبي لهداية الناس، فإن لم يهتدوا بعد كلّ ذلك فقد ظلموا أنفسهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ... أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

إشارات:

- إنّ يوم القيامة عظيم إلى درجة أنّ الحياة الدنيا تبدو سريعة جداً بالمقارنة به.

---

(١) سورة طه: الآيات ١٢٤ - ١٢٦. (٢) بحار الأنوار، ج ٥، ص ٧١.

هذه الحقيقة جاءت على ذكرها آيات أخرى منها:

- ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾[(١)].
- ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(٢)].
- ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾[(٣)].
- ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[(٤)].
- ﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[(٥)].

□ إنّ قصر عمر الدنيا إمّا أن يكون بسبب سرعة انقضائها، أو بسبب عدم اغتنام الفرصة واستغلال الوقت المتاح، أو من خلال مقارنتها بعمر الآخرة، أو لجهة أنّ البشر في عالم البرزخ أشبه بالنيام، وإذا استيقظوا شعروا كأنّ الزمان كان قصيراً.

وعلى أيّ حال، فإنّ متاع الدنيا مقارنة بالآخرة، قليل جداً، وأمده قصير كأنّه لا يعدو ساعة بحساب الزمن.

التعاليم:

١ ـ الحياة الدنيا مقارنة بيوم البعث قليلة جداً، ﴿سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾.

٢ ـ في يوم القيامة يتعرّف الناس بعضهم إلى بعض، ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾.

٣ ـ الخاسرون الحقيقيون هم الذين كذّبوا بيوم القيامة وحُرموا النعيم الأبدي الخالد، ورضوا بالملذات الدنيوية. في حين يتمتّع المؤمنون بالنعم الإلٰهيّة في الدنيا وكذلك لهم نصيب منها في الآخرة، ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾.

---

(١) سورة النازعات: الآية ٤٦.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٥٢.
(٣) سورة طه: الآية ١٠٣.
(٤) سورة المؤمنون: الآية ١١٣.
(٥) سورة الروم: الآية ٥٤.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

إشارات:

- ذاق الكافرون العذاب في معارك بدر وحنين والأحزاب وفتح مكّة، وبعد رحلة النبي الأكرم ﷺ أيضاً كان العذاب الإلٰهيّ جارياً عليهم.
- تأخير عذاب المشركين ينطوي على أمرين، الأمر الأول هو، قلق الرسول الأعظم ﷺ، والأمر الثاني تحجّج المشركين الذين كانوا يقولون: أين هذا العذاب الموعود الذي تقولون؟ (وسيأتي ذكر ذلك بعد آيتين) وتبيّن هذه الآية أنّ الحكمة وراء تأخير العذاب عن الكافرين من أجل النبي الأكرم ﷺ وغيره من الناس؛ إذ تقول الآية: إنّ مردّ الناس جميعاً إلينا، ونحن الشهود على أعمالهم، لذا، لا يفرح المشركون بالحجج والأعذار التي يطلقونها.
- يقول الإمام علي عليه السلام: «**اتّقوا معاصي الله في الخلوات فإنّ الشاهد هو الحاكم**»[(١)].

التعاليم:

١ ـ سوف يحاسب الله تعالى الكافرين ويعذّبهم على أفعالهم، إن في هذا الزمان، أو في زمان آخر؛ لذا لا يغتمّ المسلمون لتأخّر القضاء الإلٰهيّ، ولا ييأسوا أو يبتئسوا، ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ... أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾.

٢ ـ وفاة النبي الأعظم ﷺ لن يؤثّر في حكم الله تعالى في ما يتعلّق بعذاب الكافرين، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾.

٣ ـ مردّ الجميع إلى الله تعالى، ولا قدرة لأحد على الفرار من محكمة العدل الإلٰهيّة، ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾.

٤ ـ الله تبارك وتعالى هو الشاهد على أعمالنا، ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٣، ص٣٦٤.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

إشارات:

❑ اعتاد الكافرون الاستهزاء بالأنبياء سائلين متى ينزل العذاب الإلٰهيّ إن كنتم صادقين؟! وهذا السؤال الساخر كان بمثابة نوع من رفع معنويات أتباعهم ممّن يخضعون لهم، ولكن، متى كان حدوث أمر ما يقتضي العلم بزمن حدوثه؟!

❑ **سؤال**: إذا كان لكلّ قوم رسول، إذن لماذا انقطعت الرسالة؟

الجواب هو: المراد بالرسول ليس شخص النبي الكريم ﷺ بل دعوته ورسالته، إن مباشرة أو بالواسطة، وإلّا لكان من الضروري في هذه الحالة وجود نبيّ في كلّ منطقة!

❑ حضور الأنبياء في أوساط الناس والقضاء العادل أمور تتعلّق بهذه الدنيا، وكذلك بالآخرة على حدّ سواء، إذ طرح هذا الموضوع في الآية ٩٦ من سورة الزمر.

❑عن الإمام الباقر عليه السلام: «**أنبياء الله يقضون بالقسط**»[(١)].

التعاليم:

١ ـ من السنن الإلٰهيّة أن لا تخلو أمّة من رسول، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾.

٢ ـ تاريخ الدين مرتبط بتاريخ البشرية، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾، وفي آية أخرى نقرأ ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[(٢)].

٣ ـ العذاب الإلٰهيّ (المذكور في الآية السابقة) يأتي بعد إتمام الحجّة وإرسال المرسلين، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾.

٤ ـ نشر القسط والعدل في المجتمع يتيسّر في ظلّ بعثة الأنبياء، ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾.

---

(١) تفسير الصافي.
(٢) سورة فاطر: الآية ٢٤.

٥ ـ في يوم القيامة تحضر كلّ أمّة مع نبيّها، ثمّ يُقضى بينهم بالعدل، ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ﴾؛ (في آية أخرى يقول عزّ من قائل: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾[١].

٦ ـ إنكار يوم القيامة والوعود الإلٰهيّة نهج اعتاد على اتّباعه الكافرون، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن....﴾.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٤٩﴾

إشارات:

- تخبرنا الآية السابقة، عن أن لكلّ أمّة رسول، وهنا تقول الآية: إنّ لكلّ أمّة أجلاً. ربّما أمكن القول: إنّ أجل كلّ أمّة (شقاءً أم سعادة) مرتبط بتبعيّتهم رسولهم أو انصرافهم عنه.
- **سؤال**: إذا كان لكلّ أمّة أجل، إذن، يجب أن ينطبق ذلك على أمّة الإسلام أيضاً أليس كذلك؟

الجواب: المراد بالأمّة هنا هو الجماعة أو العصبة لا الدين، إذن، لا تعارض لمفهوم الأجل مع الخاتمية، وبالتالي لا ضرورة لتغيير الدين في كلّ فترة.

التعاليم:

١ ـ لا يملك أيّ شخص، بما فيهم الأنبياء، أيّ قوّة أو ملكيّة من تلقاء نفسه، ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾.

٢ ـ قدرة الأنبياء والأولياء قبس من القدرة الإلٰهيّة[٢]، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٦٩.

(٢) في تفسير المراغي، ورد شرح مفصّل في تفنيد موضوع التوسّل، بالاستناد إلى عبارة ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ﴾، بينما تمّ غضّ النظر عن عبارة ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾!!

٣ ـ قول ﴿لَآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾ دليل صدق النبي الكريم ﷺ.

٤ ـ تحديد موعد عذاب الكفّار بيد الله وحده، ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ... قُل لَّآ أَمۡلِكُ﴾

٥ ـ المجتمع، كالفرد، يمرّ بحالات مختلفة من السعادة، والشقاوة، والرشد، والغيّ، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾؛ (انتهاء الآجال أحياناً يكون بالهلاك أو الفناء وأحياناً أخرى بذهاب القوة والعزّة).

٦ ـ لا نغترّ بالحكومة والسلطة الدنيوية فهي ليست خالدة، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾.

٧ ـ إمهال الأمم من السنن الإلٰهيّة، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾.

٨ ـ آجال الأمم تجري طبقاً للسنن الإلٰهيّة، فلا تقديم ولا تأخير؛ لذا لا حاجة لاستعجالها، ﴿فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ...﴾.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ٥١﴾

إشارات:

□ عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: **«فهذا عذاب ينزل في آخر الزمان على فسقة أهل القبلة وهم يجحدون نزول العذاب عليهم»**[١].

التعاليم:

١ ـ العذاب الإلٰهيّ ينزل بغتة، ولا يعرف ليلاً أو نهاراً، ﴿بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا﴾.

٢ ـ العاقل باحتماله وقوع العذاب، يجب عليه أن يتحوّط له لا أن يستعجله، ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ﴾.

٣ ـ حينما ينزل عذاب الله على المجرمين بغتة، ﴿بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ يُغلق حينئذٍ باب النجاة عليهم، ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

٤ ـ لا أثر للإيمان بعد وقوع العذاب ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾.

٥ ـ لا ينفكّ المشركون من استعجال نزول العذاب الإلٰهيّ، ﴿كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٥٢﴾

إشارات:

□ المقصود بالعذاب في الآية السابقة هو العذاب الإلٰهيّ الذي ينزل في الدنيا، وفي هذه الآية يقصد به عذاب النشور، ولذلك قال ﷻ: ﴿ذُوقُواْ﴾ ولم يقل: «يذوقون».

التعاليم:

١ ـ مناوئو الأنبياء ظالمون، ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ (في ضوء الآية السابقة).

٢ ـ العذاب الإلٰهيّ بالنسبة إلى فريق من المجرمين عذاب خالد، ﴿عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾.

٣ ـ عذاب الآخرة هو عذاب نفسي وجسماني في آنٍ معاً، ﴿قِيلَ... ذُوقُواْ﴾.

٤ ـ العذاب يكون طبقاً لميزان العدل الإلٰهيّ، ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾.

٥ ـ الإنسان مخيّر لا مُكره على العمل صالحاً أم طالحاً، ﴿تَكۡسِبُونَ﴾.

﴿۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾

إشارات:

□ مضمون هذه الآية شبيه بالآية ٨ من سورة الطور ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾.

التعاليم:

١ ـ الوعد الإلٰهيّ قطعي وحتمي، ﴿إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ (القَسَم والأداة إنّ واللام في «لحقّ» كلّها دلائل على التوكيد والقطع).

٢ ـ ينبغي على القائد أن يرفع الشكوك التي تساور الأمّة، ﴿قُلْ﴾.

٣ ـ يجب أن يكون الكلام قاطعاً في قبال الشك والتردّد، ﴿إِى وَرَبِّىٓ﴾.

٤ ـ أحياناً يكون القَسَم لرفع الشك، والتردّد، والاضطراب عند الناس ضرورياً، ﴿إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾.

٥ ـ لا تستطيع أيّ قوّة في نظام الوجود الوقوف بوجه الإرادة الإلٰهيّة، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾

□ طرحت مسألة الافتداء من أجل الخلاص من العذاب في آيات عدّة منها ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦٓ﴾[1].

كما جاء في سورة المعارج ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾[2].

التعاليم:

١ ـ في يوم القيامة ليس للمجرم مفرّ من العذاب، فلا فدية بأحد أو بمال، ﴿وَلَوْ...﴾.

٢ ـ حبّ النفس من أقوى الغرائز لدى الإنسان، فهو مستعدّ أن يفتدي نفسه بجميع الوجود، ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾.

٣ ـ يخفي المجرم ندمه وحسرته في نفسه لئلا يتعرّض للشماتة[3]، ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾.

(١) سورة الرعد: الآية ١٨؛ سورة الزمر: الآية ٤٧.
(٢) سورة المعارج: الآيات ١١ ـ ١٥.
(٣) تفسير الصافي.

٤ ـ في يوم القيامة، يعبّر المجرم عن ندمه في صور مختلفة كأن يقول: يا ليتني...، أو يعضّ على يديه، أو يكتم ندمه في داخله، ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾.

٥ ـ زعماء الشرك يسرّون الندامة في يوم القيامة، حتى لا يفتضحوا أمام أتباعهم[1]. ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾.

٦ ـ في محكمة العدل الإلٰهيّة، لن تنفع القوّة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ ولا الثروة، ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ...﴾.

٧ ـ قد يُظلم الإنسان في الدنيا بسبب غلطة من القاضي، ولكن، في يوم القيامة، لا مجال للخطأ ولن يُظلم أحد، ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

٨ ـ يجب ممارسة العدالة حتى في معاقبة الظالم، ﴿ظَلَمَتۡ... لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٥٦﴾

التعاليم:

١ ـ العلم وحده غير كافٍ، بل يلزم التذكير بالمعارف والمعتقدات واستحضارها، ﴿أَلَآ﴾.

٢ ـ لمّا كان الله تعالى مالك الوجود، فالكفّار لا يملكون شيئاً لكي يفتدوا أنفسهم به؛ (في ضوء الآية السابقة).

٣ ـ مالكيّته على الوجود دليل على قدرته على تنجيز وعوده، ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ... إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾.

٤ ـ مُبدئ الوجود وحده القادر على أن يحيي ويميت، ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ... يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

٥ ـ الحياة والموت وعاقبة جميع الأمور إلى الله تعالى ومردّها إليه، ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

إشارات:

- «**مَّوْعِظَةٌ**» من «الوعظ» وهو زجر مقترن بتخويف[(١)].
- ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ بمعنى تطهير الروح والقلب من الأدران الروحية ذلك أنّ أمراض الروح أشدّ من أمراض الجسم، وأنّ معجزة القرآن تتمثّل في هذه النقطة وهي شفاء الأمراض الروحية.
- يقول النبي الكريم ﷺ: «**إذا التبسَتْ عليكم الفِتن كاللّيل المُظلم فعليكم بالقرآن فإنّه شافع مشفّع ...**»[(٢)].
- ونقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**شفاء لما في الصدور من الأمراض الخواطر ومشبّهات الأمور**»[(٣)].
- كأنّ الآية تشير إلى المراحل الأربع في التربية والتكامل وهي:

أ) مرحلة الوعظ والنصيحة بالنسبة للأعمال الظاهرة، ﴿مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

ب) مرحلة تهذيب الروح وتطهيرها من الأدران والرذائل الأخلاقية، ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

ج) مرحلة الوصول إلى الهدف، ﴿وَهُدًى﴾.

د) مرحلة الانتهال من الرحمة الإلٰهيّة، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ نزول الكتاب بما فيه من موعظة وشفاء وهداية ورحمة هو من شؤون الربوبيّة الإلٰهيّة، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

---

(١) مفردات الراغب.

(٢) بحار الأنوار، ج ٩٢، ص١٧.

(٣) تفسير نور الثقلين.

٢ ـ القرآن شفاء كلّ سقم، وعلينا أن نستلهم شفاء الأمراض الروحية من مدرسة القرآن الكريم، لا من المذاهب الشرقيّة أو الغربية، ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

٣ ـ القرآن موعظة لكلّ الناس، بيد أنّ أهل الحقّ فقط تشملهم هداية الله ورحمته، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ... وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

إشارات:

□ لمّا كان القرآن الكريم شفاء، وموعظة، ورحمة، كما جاء في الآية السابقة، فإنّ ظاهر هذه الآية يدلّ على أنّ المراد بالفضل والرحمة هو التمسّك بعرى القرآن، وفي هذا يُروى عن الإمام علي عليه السلام: «**إنَّهُ يُنادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيامَةِ: أَلَا إِنَّ كُلَّ حارِثٍ مُبْتَلىً فِي حَرْثِهِ وعَاقِبَةِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرآنِ؛ فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلى أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَاسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ**»[(١)].

وعن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «**مَن هداه الله للإسلام وعلّمه القرآن ثمّ شكا الفاقة كتب الله الفاقة بين عينيه إلى يوم القيامة**» ثمّ تلا هذه الآية[(٢)].

وأيضاً عنه صلى الله عليه وآله: «**إن أردتم عيش السّعداء، وموت الشهداء، والنجاة يوم الحسرة، والظلّ يوم الحرور، والهدى يوم الضلالة، فادرسوا القرآن فإنّه كلام الرحمن، وحِرزٌ من الشيطان، ورجحان في الميزان**»[(٣)].

□ وقد فسّرت بعض الروايات الفضل والرحمة في الآية الكريمة بالنبوّة والإمامة[(٤)]. وفي روايات أخرى فسّر الفضل بالنعم الإلٰهيّة العامة، والرحمة بالنعم الإلٰهيّة الخاصّة[(٥)].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.
(٢) تفسير نور الثقلين.
(٣) بحار الأنوار، ج ٨٩، ص١٩.
(٤) تفسير نور الثقلين.
(٥) الميزان في تفسير القرآن.

□ وعن النبي ﷺ أنّه قال: **«فضل الله: نبوة نبيكم، ورحمته: ولاية علي بن أبي طالب، فبذلك، قال: بالنبوة والولاية، فليفرحوا: يعني الشيعة، هو خير ممّا يجمعون: يعني مخالفيهم من الأهل والمال والولد في دار الدنيا»**[١].

التعاليم:

١ ـ كفى بنا فخراً أن يكون لنا كتاب مثل القرآن الكريم فيه شفاء وموعظة وهدى ورحمة، وهو أرقى من كلّ القوانين الوضعيّة، ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾.

٢ ـ فلنفرح بنعمة الولاية، لا بالمال والجاه، ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾.

٣ ـ يقول صاحب التفسير الكبير: إذا حصلت اللذات الروحانية فإنّه يجب على العاقل أن لا يفرح بها من حيث هي هي، بل يجب أن يفرح بها من حيث إنّها من الله تعالى وبفضل الله وبرحمته، فلهذا السبب قال الصدّيقون: من فرح بنعمة الله من حيث إنها تلك النعمة فهو مشرك، أما من فرح بنعمة الله من حيث إنّها من الله كان فرحه بالله، وذلك هو غاية الكمال ونهاية السعادة فقوله سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ يعني: فليفرحوا بتلك النعم لا من حيث هي هي، بل من حيث إنّها بفضل الله وبرحمة الله، فهذه أسرار عالية اشتملت عليها هذه الألفاظ التي ظهرت من عالم الوحي والتنزيل[٢].

٤ ـ النعمة الوحيدة التي ينبغي للإنسان أن يفرح بها هي نعمة القرآن الكريم، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ... فَلْيَفْرَحُواْ...﴾؛ (تقدُّم ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ يدلّ على الحصر).

٥ ـ أحياناً تتسبّب النعم الماديّة في الفتنة والفساد وهي، بعد، زائلة، بينما النعم المعنوية باقية وهي مدعاة للرشد والرقي، ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

٦ ـ النعم المعنوية أرقى من جميع النعم الماديّة، ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ (من انتهل من فيض القرآن، لا ينبغي أن يحزنه فقره وغنى الآخرين).

---

(١) تفسير الصافي.
(٢) التفسير الكبير، الفخر الرازي.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

إشارات:

□ من أمثلة التحريم غير المنطقي للمشركين ما ذُكر في الآية ١٠٣ من سورة المائدة:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾، إذ كان هؤلاء يخصّصون سهماً من محاصيلهم الزراعية للمعابد والأوثان ويحرّمونه على أنفسهم، أو كانوا يحرّمون ما في بطون الحيوانات على النساء ويحلُّون لهنّ الميتة، ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾[1]، لكنّ القرآن الكريم اعتبر كلّ ذلك افتراء على الله، ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

التعاليم:

١ ـ الأصل في الطعام هو الحليّة، إلّا ما ثبتت حرمته عن طريق الوحي، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم﴾.

٢ ـ الرزق ينزل من عند الله تبارك وتعالى، ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾.

٣ ـ ينبغي أن لا نتقدّم على أحكام الشريعة، فكما إنّه لا يجوز تحريم ما لم يثبت تحريمه، كذلك لا يجوز تحليل ما ثبت تحريمه في الشريعة، ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾.

٤ ـ التشريع بيد الله وحده، ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾.

٥ ـ أولئك الذين لهم ولاية تشريعية، بإمكانهم أن يحلّوا أو يحرّموا بإذن الله، ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾.

٦ ـ ابتداع الشرائع ونسبتها إلى الله معصية وافتراء، ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا... عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٣٩.

٧ ـ القرآن الكريم يسفّه العادات والتقاليد الخاطئة التي لا تستلهم من الوحي ولا تكون بإذن الله، ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠﴾

إشارات:

- وعن أبي الأحوص الجشمي قال: رآني النبي ﷺ وعليَّ أطمار فقال: «**هل لك من مال**»؟ قلت: نعم، قال: «**من أيّ المال**»؟ قلت: من كل ما آتى الله ﷻ من الإبل والشاه، قال: «**فلتر نعمته وكرامته عليك فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده، فإنه من الجمال الذي يحبه، وذلك من شكره على نعمه وهو جمال باطن فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة والجمال الباطن بالشكر عليها**»[1].

- لا إفراط ولا تفريط في التمتّع بالنعم الإلٰهيّة، فلا انغماس كامل في الشهوات والمادّيات، ولا تصوّف وهجر للنعم وحرمان النفس من الملذّات الحلال، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

التعاليم:

١ ـ الافتراء على الله تعالى يستتبع عقوبة؛ لذا ينبغي أن لا نغترّ بالمهلة التي منحنا الله تعالى إيّاها في هذه الدنيا، ونغفل عن محكمة يوم القيامة، ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ...﴾.

٢ ـ تحريم النعم التي أحلّها الله تعالى، فيها حرمان دنيوي وخزي وعذاب في يوم القيامة، ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ... يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

---

(١) تفسير المراغي.

٣ ـ النعم هي فضل ومنّة من الله تعالى، وليس استحقاقاً لنا؛ لذا فلنشكر الله عليها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ... لَا يَشْكُرُونَ﴾.

٤ ـ تحريم ما أحلّ الله تعالى ينطوي على نوع من الجحود، ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

إشارات:

- قوله: ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فيه إشارة إلى علم الله الواسع بجميع الكائنات، وهو يشمل أعمال الإنسان وكذلك الأشياء الصغيرة والكبيرة في السماء والأرض.
- عن الإمام الصادق عليه السلام: «**كان رسول الله ﷺ إذا قرأ هذه الآية بكى بكاءً شديداً**»[1].

التعاليم:

١ ـ كلّ أعمال النبي الكريم ﷺ مهمّة، ذلك لأنّه قدوة وأسوة؛ (والتعبير بكلمة شأن، دلالة على أهميّة العمل)، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾.

٢ ـ حتى رسول الله ﷺ عليه شهود يتابعونه، ﴿وَمَا تَكُونُ... إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

٣ ـ الله تبارك وتعالى شاهد على أفكار البشر ﴿شَأْنٍ﴾، وعلى أقوالهم ﴿تَتْلُواْ﴾، وعلى أعمالهم على حدّ سواء، ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

٤ ـ تلاوة القرآن الكريم ترقى إلى منزلة الرسالة وجميع أعمال الناس. (تبيّن الآية أنّ الله تعالى شاهد على ثلاثة أمور هي: جميع أمور النبي الكريم ﷺ،

(١) تفسير مجمع البيان.

جميع أعمال الناس، وتلاوة القرآن، وتُظهر هذه العبارة أهميّة تلاوة القرآن الكريم).

٥ ـ الكون في حضرة الله تبارك وتعالى، وهو الشاهد على أعمالنا؛ لذا فإنّ المهلة التي منحنا إيّاها لا هي عن غفلة ولا عن جهل بأمورنا، ﴿كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

٦ ـ الله تعالى والملائكة شهود على أعمال البشر، ﴿كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

٧ ـ إدراك الإنسان بأنّ الله شاهد على أعماله، باعث له على الخجل والحياء منه سبحانه، ﴿شُهُودًا﴾.

٨ ـ علم الله تعالى واحد بالنسبة إلى الأمور قريبها وبعيدها، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، ﴿مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ... فِى ٱلسَّمَآءِ... أَصْغَرُ... أَكْبَرُ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

إشارات:

- تشرح هاتان الآيتان حال أولياء الله، الذين يحملون شعار ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا...﴾[1]، وثمرة هذا الخوف هو التقوى، وثمرة التقوى أنّهم ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[2].

- عدم الخوف على أولياء الله يشمل الدنيا والآخرة على حدّ سواء، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

- روي عن رسول الله ﷺ قوله: «**إنّ أولياء الله سكتوا فكان سكوتهم ذكراً، ونظروا فكان نظرهم عبرة، ونطقوا فكان نطقهم حكمة، ومشوا فكان مشيهم بين الناس بركة، لولا الآجال التي كتبت عليهم لم تقر أرواحهم في أجسادهم**

(١) سورة الإنسان: الآية ١٠. (٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٣.

خوفاً من العذاب وشوقاً إلى الثواب»[١].

□ وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: «**إنّ الله أخفى وليّه في عباده فلا تستصغرنّ عبداً من عبيد اللّهِ فربّما يكونُ وليّه وأنتَ لا تعلم»**[٢].

التعاليم:

١ ـ من كان وليّ الله كان الله تعالى وليّه[٣]، ﴿إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

٢ ـ من كان لديه خوف من الله، لن يخاف أحداً غيره، ﴿إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ (لا يخشى الحساب من كانت له يد بيضاء).

٣ ـ أولياء الله أمامهم مستقبل مشرق لا يشوبه خوف أو حزن، ﴿إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٤ ـ الإيمان والتقوى خصلتان متأصّلتان في أولياء الله تعالى، ﴿ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

٥ ـ الإيمان والتقوى الدائمان سببان لرفع الخوف والقلق من الإنسان ويجعلانه، كذلك، من أولياء الله، ﴿إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ... ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

إشارات:

□ بشارة أهل الإيمان والتقوى في هذه الدنيا تحصل عن طريق المنام والرؤيا الصادقة والإلهام الإلٰهيّ ونزول الطمأنينة والسكينة عليهم، وفشل المؤامرات التي تحاك ضدّهم، واستجابة دعواتهم، ولقائهم بالمعصومين أثناء الاحتضار، أمّا في الآخرة فبشارتهم هي الحظوة بالنعم الإلٰهيّة.

---

(١) تفسير الصافي. (٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) الآيات ٢٥٧ سورة البقرة: الآية ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، و٦٨ من سورة آل عمران ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ و١٩ من سورة الجاثية ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

أتى رسول الله ﷺ رجل من أهل البادية له جسم وجمال، فقال: يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﷻ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۚ﴾، فقال: «**أما قوله** ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهي الرؤيا الحسنة يراها المؤمن فيبشّر بها في دنياه، وأمّا قوله ﷻ: ﴿وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ **فإنّها بشارة المؤمن يبشّر بها عند موته أنّ الله ﷻ قد غفر لك ولمن يحملك إلى قبرك**»[1] وفي رواية عن أبان بن عثمان عن عقبة أنّه سمع أبا عبد الله الإمام الصادق عليه السلام يقول: «**إنّ الرجل إذا وقعت نفسه في صدره يرى**»، قلت: جعلت فداك وما يرى؟ قال: «**يرى رسول الله ﷺ فيقول له رسول الله ﷺ: أنا رسول الله أبشر، ثم يرى علي بن أبي طالب عليه السلام فيقول له: أنا علي بن ابي طالب الذي كنت تحبه تحب أن أنفعك اليوم؟**» قال: قلت له: أيكون أحد من الناس يرى هذا ثم يرجع إلى الدنيا؟ قال: «**إذا رأى هذا أبداً مات وأعظم ذلك**»[2].

□ آيات أخرى في القرآن الكريم تضمّنت بشارات الله تبارك وتعالى لأوليائه في الدنيا، وهي تشير بوضوح إلى أنّهم فائزون في هذه الدنيا أيضاً وذلك لأنّهم:

١ ـ مطمئنون، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[3].

٢ ـ متوكّلون على الله، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[4].

٣ ـ يحظون بالمدد الإلهيّ، ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ﴾[5].

٤ ـ منتصرون دائماً، ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ﴾[6].

٥ ـ يمتلكون الوعي والنور، ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[7].

٦ ـ لا تُغلق كلّ الأبواب بوجههم، ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[8].

---

(١) تفسير نور الثقلين.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) سورة الرعد: الآية ٢٨.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٢٢.
(٥) سورة الأحزاب: الآية ٩.
(٦) سورة التوبة: الآية ٥٢.
(٧) سورة الأنفال: الآية ٢٩.
(٨) سورة الطلاق: الآية ٢.

٧ ـ لا يجدون عملهم هباء، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾(١).

٨ ـ لا يخشون اللوم، ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾(٢).

٩ ـ لا يخشون الناس، ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾(٣).

١٠ ـ لا يخشون الطواغيت، ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾(٤).

١١ ـ لا يُبتلون بالحيرة، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ﴾(٥).

١٢ ـ محبوبون، ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾(٦).

١٣ ـ يخلّدون أعمالهم الفانية بأن يخلعوا عليها صبغة إلٰهيّة، ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾(٧).

التعاليم:

١ ـ أولياء الله وحدهم لهم الدنيا والآخرة معاً، ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

٢ ـ وعود الله قطعية وحتميّة، ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ... لَا تَبْدِيلَ﴾.

٣ ـ الفوز الأكبر نصيب من امتلك دائماً الإيمان والتقوى، ﴿ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ... ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

إشارات:

□ لقد نسب الكفّار إلى النبي الأكرم ﷺ صفات الشاعر والكاهن والساحر والمجنون، بل كانوا يقولون تارة: لا فضل له علينا، فهو بشر مثلنا، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾(٨)، وتارةً أخرى: إنّ فريقاً أعانه على صياغة هذا الكلام

---

(١) سورة الزلزال: الآية ٧.

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

(٤) سورة طه: الآية ٧٢.

(٥) سورة يونس: الآية ٩.

(٦) سورة مريم: الآية ٩٦.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

(٨) سورة إبراهيم: الآية ١٠.

(القرآن) ولقّنه إياه ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾[(١)]، وأحياناً: نحن أيضاً قادرون على أن نأتي بمثل هذا القرآن ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ﴾[(٢)]، وأخرى: إنّما كلامه من أساطير الأوّلين، ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[(٣)].

وحول أتباع النبي الكريم ﷺ كان الكفّار يقولون: ما هؤلاء الذين اتّبعوك إلّا حثالة القوم وأراذلهم، ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾[(٤)]؛ إلّا أنّ إرادة الله قضت أن يعزّ النبي والمؤمنين في إزاء كلّ هذه الإساءات.

□ «العزّة» هي المنعة. وهي صفة لله تبارك وتعالى ولنبيّه الكريم ﷺ وللمؤمنين، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[(٥)]، وكذلك للدين والعقيدة، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾[(٦)].

التعاليم:

١ ـ الهدف من دعاية العدوّ الإساءة إلى الدين الإسلامي والأمّة الإسلاميّة، لكنّ الله تعالى يعزّي نبيّه الكريم ﷺ بالقول إنّهم لن ينالوا مرادهم، ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾.

٢ ـ يجب على المؤمن ألّا يقع تحت تأثير الدعاية المسمومة والمغرضة للكفّار وأن يشعر بالوهن والضعف، ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾.

٣ ـ الله تعالى ناصرٌ أولياءه، وقد ضمن نصرة دينه وأنبيائه[(٧)] ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ﴾.

٤ ـ العزّة بيد الله تعالى، وهي لا تُخدَش بأقوال هذا وذاك، ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ﴾.

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٤.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٣١.
(٣) سورة النحل: الآية ٢٤.
(٤) سورة هود: الآية ٢٧.
(٥) سورة المنافقون: الآية ٨.
(٦) سورة فصّلت: الآية ٤١.
(٧) وفي آية أخرى نقرأ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ سورة المجادلة: الآية ٢١.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

إشارات:

□ ربّما كانت العبارة ﴿وَمَا يَتَّبِعُ...﴾ بمثابة سؤال، وعبارة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ...﴾ جوابها، فيكون المعنى: أولئك الذين نسوا الله ويتّبعون شركاء وهميين، ماذا يتّبعون؟ لا شيء سوى الظنّ! أو قد تكون أداة النفي «ما»، عطفاً على «مَن»، بمعنى: حتى الذين يتّبعونهم ظنّاً منهم أنّهم شركاء لله، إنّما هم مملوكون لله.

التعاليم:

١ ـ المالكية المطلقة لله تعالى، دليل على التوحيد والعزّة الإلٰهيّة التامّة، ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ... إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٢ ـ كلّ شيء ملك لله تعالى، فكيف تشركون مع الله المالك مملوكه؟ ﴿لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾.

٣ ـ توجد في السموات مخلوقات عاقلة. («مَن» تقال للكائن العاقل).

٤ ـ ليس للمشركين منطق أو قاعدة علمية يستندون إليها، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

٥ ـ يسعى المشركون وراء أوهامهم وظنونهم، لا وراء شركاء الله، فالله تعالى ليس له شركاء. إذن، هؤلاء يكذبون، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

إشارات:

□ أشارت الآية السابقة إلى مالكيّة الله تعالى، وهنا تتحدّث عن تدبيره وحكمته في نظام الكون.

□ يطرح القرآن الكريم موضوع الحصول على السكينة الروحية عبر أوجه مختلفة

مثل: تلاوة القرآن، التهجّد، التسبيح، القنوت، وإحياء الليالي بالعبادات[١]، أمّا السكينة البدنية فتتمّ عبر النوم والراحة، ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[٢].

التعاليم:

١ ـ خلق الليل والنهار جاء وفقاً للتدبير الإلٰهيّ الحكيم وبهدف استفادة الإنسان وسكنه، ﴿جَعَلَ... لِتَسۡكُنُواْ﴾.

٢ ـ لقد جعل الله تعالى الليل للسكينة والراحة، سواء أكانت سكينة روحية أم جسمية، ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾.

﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٨﴾

إشارات:

- «**اتّخاذ الولد**»، يعني تبنّي المرء الولدَ، وهو غير الولادة الحقيقيّة، فالمشركون كانوا يظنّون أنّ الملائكة بنات الله، والمسيحيون قالوا: إنّ المسيح هو ابن الله، وكذلك قال اليهود بشأن عزير.
- جاء في القرآن الكريم أنّ عزيز مصر قال لزوجته زليخا بشأن النبي يوسف عليه السلام: ﴿نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾[٣]، وقالت آسيه لزوجها فرعون بشأن النبي موسى عليه السلام: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾[٤].

التعاليم:

١ ـ هل يشعر الله بالوحدة حتى يتّخذ ولداً يؤنس وحدته؟ أم يحتاج إلى وريث

---

(١) السور: آل عمران: الآية ١١٣؛ الإسراء: الآية ٧٩؛ طه: الآية ١٣٠؛ الزمر: الآية ٩؛ والمزمّل: الآية ٢.

(٢) سورة الروم: الآية ٢٣.

(٣) سورة يوسف: الآية ٢١.

(٤) سورة القصص: الآية ٩.

لكي يرثه؟ أم تراه ضعيفاً يحتاج إلى من يعينه، أم إنّه يحتاج إلى بقاء نوعه فيضطرّ إلى اتّخاذ الولد؟ تعالى الله عن ذلك كلّه، فهو الغنيّ عن كلّ شيء، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾.

٢ ـ لا بدّ للمعتقدات الدينيّة من أن تقترن بالاستدلال، ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾.

٣ ـ لا قيمة للكلام إذا لم يقترن بالأدلة والعلم، ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ... مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

إشارات:

□ «مَتاع» و«مُتعة»، تقال للتمتّع لمدّة قصيرة، تنبيهاً أنّ تمتّع الإنسان بنعم الدنيا قصير، من هنا فإنّ القرآن الكريم يعبّر عن ذلك بـ«المتاع».

□ **سؤال**: نحن نقول: إنّ المفترين لا يفلحون، إذن كيف نفسّر تمتّعهم برفاهية ورخاء أكبر في الحياة الدنيا؟

الجواب: هذه الرفاهية مؤقتة ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾، بينما سينالون جزاءهم في الآخرة عندما يرجعون إلى الله تعالى.

التعاليم:

١ ـ أولئك الذين يستشفعون بمن يعتقدون أنّهم أبناء الله لن يحققوا مرادهم، ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا... لَا يُفْلِحُونَ﴾.

٢ ـ لا قيمة للمتاع المؤقت إذا استتبع عذاباً خالداً، ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا... نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾.

٣ ـ لذائذ الدنيا ومتاعها سريعة وزائلة، ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾.

٤ ـ ذكر المعاد من العوامل الرادعة للانحراف والمعصية، ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾.

٥ ـ الكذب والافتراء على الله تعالى عبر مختلف البدع، والتحريفات، والتفسير بالرأي، ونسبة الأبناء إلى الله، كلّه كفر، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١)﴾

إشارات:

- تبيّن الآية ثبات النبي نوح عليه السلام واتكاءه على المدد الإلٰهيّ وعدم خشيته من التهديدات ومؤامرات العدوّ.
- روي أنّ الإمام الحسين قد تلا هذه الآية على جند الكوفة في ظهيرة عاشوراء في كربلاء[1].

التعاليم:

١ ـ إطلاع الناس على الأخبار والملاحم المهمّة والمفيدة في التاريخ وبيان الحكمة منها، هي من مسؤوليات القادة الإلٰهيّين، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ﴾.

٢ ـ الأنبياء من الناس ومعهم؛ ولذلك يظلّ تعاملهم مع الأعداء عاطفياً حتى آخر لحظة، ﴿يَا قَوْمِ﴾.

٣ ـ ما لم يكن الفؤاد مهيّأً، لن تنفع معه حتى تذكرة الأنبياء، إذ سيكون نصحهم ثقيلاً، ﴿كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي﴾.

٤ ـ الإيمان بالهدف هو من أعظم أركان الصمود والمقاومة عند الأنبياء، ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي... فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾.

---

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام.

٥ ـ كان الأنبياء يدعون مخالفيهم إلى المبارزة، ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾.

٦ ـ كان الأنبياء، بعد التوكّل على الله، يوبّخون القوى المعادية ويعتبرونها قوى خاوية، وفي المقابل، ينفخون روح الشجاعة في المؤمنين[1]، ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ...﴾.

٧ ـ التقييم الصحيح وتجميع القوات واتّخاذ القرار الحاسم هي من الأصول الرئيسة في المبارزة، ﴿أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾.

٨ ـ الأنبياء لا يخشون الشهادة، ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

إشارات:

- نسبة كبيرة من القلق تنشأ بسبب المحافظة على النفس أو المال. الآية السابقة تحدّثت عن عدم خشية الأنبياء من مؤامرات الأعداء التي تستهدف حياتهم الشخصيّة، وهنا تبيّن الآية عدم اهتمام الأنبياء بما يسبغه عليهم الناس من مال وتكريم.

التعاليم:

١ ـ قبول الناس أو رفضهم دعوات الأنبياء لا يترتّب عليه أيّ أثر مادّي، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾.

٢ ـ الداعية الناجح والمؤثّر هو الذي لا يطمع في أموال الناس ويعلن ذلك على رؤوس الأشهاد، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾.

٣ ـ لا ينتظر الأنبياء أيّ جائزة من الناس، لا أموالاً ولا خدمات ولا أيّ شيء من هذا القبيل، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾.

---

(١) تلاوة هذه الآيات في مكّة في فترة كانوا يشكّلون فيها أقلية مستضعفة تدلّ على الروح العالية والشجاعة الفائقة التي كان النبي الكريم ﷺ يتحلّى بها.

٤ ـ لو أعرض جميع الناس عن الدين، فلن يؤثّر ذلك على القائد الإلٰهيّ، لأنّه أسلم لدين الله تعالى، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ... أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

٥ ـ من يؤمن بالثواب الأخروي، سينتزع من قلبه بسهولة جوائز الدنيا، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٦ ـ مهمّة جميع الأنبياء كانت التسليم أمام الحقّ، ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

٧ ـ من يريد أن يدفع إلى التسليم لله تعالى، يجب عليه أوّلاً أن يسلم لله، ﴿وَأُمِرْتُ... مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

٨ ـ صحيح أنّ الناس اليوم معرضون، لكنّ التاريخ لا يخلو من عباد مؤمنين ومسلمين لله، فعليك الالتحاق بهم، ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

إشارات:

- أصحاب النبي نوح عليه السلام كانوا ثمانين نفراً، وكان عدد الكفّار كبيراً، ولكن بفضل المدد الإلٰهيّ، أُبيد الكفّار عن بكرة أبيهم، وورث المؤمنون الأرض من بعدهم[1].
- تسلّط الآية الضوء على حسن عاقبة المؤمنين وهلاك المخالفين دعوةَ الأنبياء.

التعاليم:

١ ـ الإيمان وحده غير كافٍ، بل لا بدّ من ملازمة القادة الإلٰهيّين واتّباعهم لكي نصل إلى شاطئ الأمان. تقول الآية: ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ بدلاً من «آمنوا به».

٢ ـ ثمرة الإيمان والثبات هي النجاة والحكومة، ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ... وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان.

٣ ـ في نهاية المطاف، النصر لأهل الإيمان، والعار لأهل الكفر والشرك، ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ... وَأَغْرَقْنَا﴾.

٤ ـ من السنن الإلٰهيّة الإمهال ثمّ نزول العذاب والغضب على العصاة، ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾.

٥ ـ نتيجة الإصرار على الكفر والسير في طريق الضلال، هي الهلاك، ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾.

٦ ـ في البدء، إتمام الحجّة، والإنذار، والتذكير، ومن ثمّ نزول العذاب والغضب، ﴿وَأَغْرَقْنَا... عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

٧ ـ التاريخ المفيد والبنّاء هو الذي يمنح أنصار الحقّ الأمان والاطمئنان، ويسلبهما من أهل الباطل، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

٨ ـ معرفة التاريخ وأسباب تطوّر الأمم أو اندثارها، ضرورية لتعيين وجهة الحركات، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ إرسال الرسل والأنبياء تترى كانت سنّة إلٰهيّة، ﴿بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا﴾.

(لقد أرسل الله تبارك وتعالى أنبياءً في الفترة الممتدة بين عصر النبي نوح والنبي موسى عليهما السلام).

٢ ـ كلّ الأنبياء جاؤوا بالمعجزات، ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٣ ـ كلّ الأنبياء كان لهم مناوئون، ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾.

٤ ـ الإنسان مخيّر، وليس أدلّ على ذلك من أنّه يرى المعجزة ويسمع بالعذاب الإلٰهيّ، ومع ذلك يعصي، ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾.

٥ ـ الاستكبار والاعتداء، تمهيد لأن يطبع الله تعالى على القلوب، ﴿نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

٦ ـ أولئك الذين لا يؤمنون على الرغم من مشاهدتهم المعجزاتِ، ظالمون، ﴿كَذَّبُوا... الْمُعْتَدِينَ﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

إشارات:

□ «المَلأ» هم أشراف الناس، أو جماعة يجتمعون على رأي، فيملأون العيون رواءً ومنظراً، والنفوس بهاءً وجلالاً، ومن أمثلة الملأ: أهل القصور والبلاط الملتفّون حول فرعون. لقد قسّم فرعون المجتمع المصري إلى طائفتين: الأقباط وهم السكّان المترفون، والأسباط، وهم الفقراء المحرومون، فجعل الطائفة الأولى سكّان القصور، والثانية عبيداً رقيقاً، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾[١].

□ المعصية الكبرى لفرعون هي ادّعاء الألوهيّة ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[٢]، وقتل الأطفال الأبرياء، واستحياء النساء لاسترقاقهن، ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾[٣].

التعاليم:

١ ـ مواجهة الطاغوت المسؤولية الأولى للأنبياء، ذلك أنّ محاربة أصل الفساد أهمّ من محاربة مسبّباته وإفرازاته، ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾.

٢ ـ لمّا كان نسيج المجتمع في ذلك العصر قوميّاً وقبليّاً، كان الأنبياء يذهبون إلى الأقوام لدعوتهم، ولكن عندما كانوا يواجهون نظاماً وتشكيلات كانوا يتوجّهون بدعوتهم إلى القواعد والجذور[٤]، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾.

---

(١) سورة القصص: الآية ٤.

(٢) سورة النازعات: الآية ٢٤.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٢٧.

(٤) استعمل القرآن الكريم عبارة «إلى قومهم» حول مجموعة من الأنبياء، ولكن بالنسبة إلى النبي موسى عليه السلام استعمل عبارة ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾.

٣ ـ قوّة الطواغيت مستمدّة من أنصارهم والمقرّبين منهم، فهم في داخلهم خاوون، ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾.

٤ ـ كانت للأنبياء آيات ومعاجز، ﴿بعثنا... بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

٥ ـ لطالما وقف الفراعنة والطواغيت بوجه الأنبياء، ﴿بعثنا... فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾.

٦ ـ أولئك الذين جُبلوا على المعصية، لا يستجيبون لدعوات الأنبياء بسهولة، ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦﴾

التعاليم:

١ ـ لا يفتّش الناس عن الحقّ، بل على أصحاب الحقّ أن يفتّشوا عن الناس، ﴿جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾.

٢ ـ الحقّ هو الذات الإلٰهيّة المقدّسة، وكلّ الأنبياء، والشرائع الإلٰهيّة، والمعاجز، وكلّ ما نُسب إلى الله تعالى، ﴿جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾.

٣ ـ الأنبياء لهم ارتباط مباشر بالله تعالى؛ إذ يفيض سبحانه عليهم بالمعاجز والشرائع، ﴿عِندِنَا﴾.

٤ ـ لا بدّ للداعية والقائد من أن يعلما بأنّه توجد في المجتمع، دائماً، فئة مخالفة لدعوتهم الإصلاحية، ﴿قَالُوٓا۟﴾.

٥ ـ رميُ الأنبياء بتهمة السحر في تلك العصور كان من أمضى الأسلحة، وأسهلها، وأكثرها شيوعاً، ﴿لَسِحْرٌ﴾.

٦ ـ روح التمرّد والطغيان عند الإنسان هو منبع الافتراءات والتّهم، ﴿وَكَانُوا۟... مُّجْرِمِينَ... إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ...﴾.

٧ ـ معارضو الأنبياء كانوا الأكثر إصراراً واعتراضاً[1]، ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

---

(1) الجملة الاسمية والحرف إنّ وحرف اللام كلّها تفيد التوكيد.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾

إشارات:

- إنّ السحرة، في العادة، هم أناس أشرار، يسعون وراء الشهرة والمال، من هنا نجد وصم الأنبياء من قبل أعدائهم بهذه الصفة من أجل الإساءة إليهم وتشويه صورتهم أمام أقوامهم. والجدير بالإشارة هو أنّ الفقه قد حرّم السحر، إذ يقول الإمام الخمينيّ (رحمه الله) في فتواه بتحريم السحر، وتعليمه، وتعلّمه، والمال الذي يأتي عن طريقه، وكذلك حرّم في فتواه أعمال الشعوذة التي يقوم بها الإنسان من خلال إجراء بعض الحركات الخارقة في عيون الناس والتي تعتمد على المهارة وخفّة اليد[1].

التعاليم:

١ ـ لقد أخبر النبي موسى عليه السلام عن انتصاره وهزيمة المفترين، ﴿قَالَ مُوسَىٰ...﴾.
٢ ـ كان الأعداء يصفون الحقّ بالسّحر والأنبياء بالسحرة، ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ... أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾.
٣ ـ لا يفلح الساحر بسبب استغفاله الناس وممارسته أساليب غير مشروعة بهدف كسب الشهرة، ﴿وَلَا يُفْلِحُ﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

إشارات:

- احترام الأجداد والإحسان بالوالدين شيء، والتبعيّة والتقليد الأعمى لهم شيء آخر. لا ينبغي القبول بعادات الأسلاف ومعتقداتهم دونما برهان أو استدلال، والإصرار عليها من باب التعصّب.

---

(١) تحرير الوسيلة، ج١، ص٤٩٨.

التعاليم:

١ ـ لطالما كان للثورات الثقافيّة والتحوّلات الفكرية آثار وانعكاسات على المجتمع، ﴿لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا﴾.

٢ ـ عمل الأسلاف يترك تأثيره على الأجيال اللّاحقة، ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾.

٣ ـ حكم الفراعنة كان يقوم على المعتقدات الخرافية للأسلاف، ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾.

٤ ـ احترام تراث الأسلاف والمحافظة عليه يشكّل، أحياناً، أداة لرفض دعوة الأنبياء وعقبة في طريق حركتهم، ﴿ءَابَآءَنَا﴾.

٥ ـ تقليد الأسلاف تقليداً أعمى لا يستند إلى دليل أو منطق، إنّما هو تقليد باطل، ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾.

٦ ـ لا يجوز التشبّث بأيّ عمل باطل بذريعة المحافظة على التراث الفكري والدفاع عن الأسلاف، ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾.

٧ ـ الطواغيت طلاب مناصب، من هذا الباب يصمون الجهود الإصلاحية للمصلحين أيضاً بهذا الوصف، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾.

٨ ـ لا بدّ للمصلحين من أن يكونوا مستعدّين لسماع افتراءات الظالمين واتّهاماتهم، ﴿قَالُوٓا۟... وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾
فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾

إشارات:

- لقد سعى فرعون إلى التصدّي لدعوة النبي موسى عليه السلام عبر الاستعانة بالسّحرة الماهرين.

- كان للسّحرة وسائل وأدوات من قبيل الحبال والعصيّ.. إلخ، وكانوا يغمسونها في مواد كيمياوية خاصّة فتبدو وكأنّها تتحرّك أو تتراقص حينما يعرّضونها لأشعة الشمس.

التعاليم:

١ ـ يحاول الطواغيت من خلال الدعاية والجلبة أن يقفوا بوجه حركة الأنبياء، ﴿ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾.

٢ ـ يسخّر الطواغيت كلّ إمكاناتهم وقدراتهم من أجل قمع المناوئين، ﴿ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

٣ ـ يلجأ الطواغيت أحياناً إلى شراء ذمم المفكّرين والعلماء وتسخيرهم من أجل تحقيق مآربهم، ﴿جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾.

٤ ـ من خصال الأنبياء التصدّي والكفاح، ﴿أَلۡقُواْ﴾.

٥ ـ كلام الأنبياء حازم وقاطع لأنّهم مؤمنون بهدفهم وواثقون من نزول المدد الإلٰهيّ، ﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١﴾

التعاليم:

١ ـ إنّ للباطل جولة، وإنّ للحقّ دولة، ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾.

٢ ـ الله تعالى يصلح عمل المؤمنين، ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾[1]، ولا يصلح عمل المفسدين، ﴿لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

٣ ـ الساحر مفسد والسحر فساد، إذن، يجب التصدّي له، ﴿عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

---

(١) سورة محمد: الآية ٢.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

إشارات:

□ درج القرآن الكريم على إطلاق لفظة «**كلمة**» على الشرائع والسنن وكل ما يتسبّب في تحقّق الإرادة الإلٰهيّة.

التعاليم:

١ ـ نصرة الحقّ وإحقاقه، هي من الوعود والسنن الإلٰهيّة، ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾.

٢ ـ إحقاق الحقّ يتطلّب وسائل وأدوات، ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

٣ ـ لا تأثير لإرادة المستكبرين والمجرمين في الحيلولة دون تحقّق نصرة الحقّ، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

إشارات:

□ نقرأ في آيات القرآن الكريم، عبارة «**آمن به**»، وأحياناً «**آمن معه**» أو «**آمن له**»، والحقيقة أنّ لكلّ منها خصوصيّة معيّنة، فـ«**آمن به**» تعني الإيمان، و«**آمن له**» تعني التسليم.

التعاليم:

١ ـ يجب أن يقترن الإيمان بالتسليم والطاعة، ﴿ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾.

٢ ـ الاستعداد للتحوّل الفكري والجنوح نحو الحقّ، أكبر عند الشباب، لأنّ لهم قلوباً طاهرة، وتعلّقهم بالمال والجاه أقل، ﴿ءَامَنَ... ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾.

٣ ـ لم يكن النبي الكريم ﷺ وحده الذي عانى الصعاب في سبيل دعوته، وعدم إيمان قومه بدعوته، ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ .

٤ ـ أحياناً يضلّ الكبار، ويهتدي الشباب إلى الحقّ، ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾.

٥ ـ يبدو أنّ الشباب المؤمن كان يخاف من فرعون وكذلك من الملأ من قومه الذين كانوا خاضعين ومتحفّظين وجبناء، الآية تقول: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ لا «ملئه».

٦ ـ النظام الفرعوني لا يستطيع أن يحول دون الإيمان الباطني، ﴿ءَامَنَ... عَلَىٰ خَوْفٍ﴾.

٧ ـ الإيمان الراسخ لا يهتزّ أبداً في البيئة الملوّثة، والمرعبة، والنظام الفاسد، والاقتصاد العفن، والدعاية المسمومة، ﴿ءَامَنَ... عَلَىٰ خَوْفٍ﴾.

٨ ـ يزخر النظام الفرعوني بالاستبداد والتعسّف، ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾.

٩ ـ نظام التعذيب والاستبداد هو نظام فرعوني، ﴿يَفْتِنَهُمْ﴾.

١٠ ـ جذور الفساد عند الإنسان تكمن في نظرته الاستعلائية، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

١١ ـ النظام المسرف هو نظام فرعوني، ﴿لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ ينبغي على القائد أن يشحن الأمّة بالروح المعنوية العالية، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ﴾.

٢ ـ لا ينفصم الإيمان عن التوكّل، ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾.

٣ ـ التسليم لرضا الله وقضائه، أسمى مرتبة من الإيمان[1]، ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ جاءت بعد ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم﴾؛ فتأمّل.

٤ ـ يجب التغلّب على المشاكل والصعاب بالتوكّل على الله تعالى والتسليم له، ﴿تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾.

---

(١) ربّما يكون المراد بالإيمان هو الإيمان بالله تعالى، والمراد من التسليم طاعة موسى.

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

إشارات:

- ربّما يكون المقصود بـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، زعماء بني إسرائيل الذين أطاعوا فرعون من أجل الحفاظ على مصالحهم وترفهم، أمّا ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فهم أتباع فرعون. إذن، فإنّ طلب الذريّة المؤمنة تعني اتّقاء شرّ أعداء الداخل والخارج.
- من يتوكّل على الله، فإنّ الله يحبّه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1]، وهو يكفيه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ التوكّل أوّلاً ثمّ الدعاء، ﴿تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا﴾.

٢ ـ بالإيمان والتوكّل على الله والدعاء نتّقي شرّ الظالمين، ﴿تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا﴾ ﴿وَنَجِّنَا﴾.

٣ ـ آل فرعون مسرفون، وظالمون، وكافرون[3]. الإسراف مدعاة للظلم، والظلم مدعاة للكفر، «**الْمُسْرِفِينَ، فالظَّالِمِينَ، فالْكَافِرِينَ**».

٤ ـ يجب أوّلاً الدعاء لكي يحفظ الله لنا هويّتنا الدينية، ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ ثمّ الدعاء للصحة والسلامة الشخصيّة، ﴿وَنَجِّنَا﴾، لأنّه لو تمكّن الأعداء من الغلبة علينا، فإنّ نهج الظلم والكفر سوف يسود، وسيذلّ المؤمنون ويُبتلون.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.
(٢) سورة الطلاق: الآية ٣.
(٣) في ضوء الآية ٨٣.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

إشارات:

- «**القبلة**»، تعني في الأصل حالة التقابل، مضافاً إلى معناها المعروف وهو جهة الكعبة المشرّفة، أي، بناء البيوت لجهة القبلة. وربّما كان معنى الآية هو: ما دام حكم فرعون قائماً، وأنّه مصمّم على إبادتكم، فعليكم أن تقيموا طقوس العبادة في بيوتكم. ونظير ذلك كان في السنوات الثلاث الأولى من بعثة النبي الأكرم ﷺ.
- البشارة الأعظم للمؤمنين الرازحين تحت حكم فرعون هي استجابة دعائهم، وخلاصهم من ظلم فرعون وفتنته.

التعاليم:

١ ـ المسكن هو أحد النعم الإلٰهيّة، ﴿وَأَوْحَيْنَآ... أَن تَبَوَّءَا﴾.

٢ ـ من الضروري للزعماء الدينيين أن يهتمّوا بالقضايا المادّية والرفاهية لأمّتهم، ﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾.

٣ ـ يجب فصل الأحياء السكنية للمؤمنين عن أحياء الكفّار، ليكون ذلك تمهيداً لعزّة المؤمنين، وقدرتهم، واستقلالهم، ﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾.

٤ ـ تاريخ بناء المدن حتى عصر النبي موسى ؑ أمر قطعي، ﴿تَبَوَّءَا... بُيُوتًا﴾.

٥ ـ يجب أن تنسجم العمارة الإسلاميّة مع الأهداف الدينية، وأن تأخذ بالحسبان جهة القبلة، ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾.

٦ ـ بناء البيت ينبغي أن يأخذ شكلاً يتيح معه إقامة الطقوس الدينيّة والصلاة بصورة عملية، ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾.

٧ ـ بيت الإنسان المتديّن يجب أن يكون مصلّى، ﴿بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾.

٨ ـ البيوت المتقابلة مناسبة أكثر من حيث التمركز والمحافظة والإشراف والأنس، ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾.

٩ ـ فلنمنع الغرباء من النفوذ في محلّتنا ومجتمعنا، ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾.

١٠ ـ الصلاة على رأس الأولويات في شرائع جميع الأنبياء، فقد كانت حبل النجاة، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٨٨﴾

إشارات:

□ قطع جريان النفط، وإغلاق الطرق التجارية والعسكرية، وإحراق مخازن العتاد للعدو، من أمثلة ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾.

التعاليم:

١ ـ لكلمة ﴿رَبَّنَآ﴾ دور مهم وكبير في الدعاء. لقد تكرّرت ﴿رَبَّنَآ﴾ ثلاث مرات في الآية.

٢ ـ كلّ ما يملكه البشر، أيّاً كانوا، فهو من الله تعالى، ﴿ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ﴾.

٣ ـ المال والثروة ليسا دليلاً على المحبة والقرب عند الله، ﴿ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ...﴾.

٤ ـ الكفر عائق دون السعادة، ﴿ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ... زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

٥ ـ المظاهر المادّية للمستكبرين لن تدوم سوى أيّاماً معدودة في هذه الدنيا، ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

٦ ـ الطواغيت مضلّون لأنفسهم ولغيرهم على حدّ سواء، ﴿لِيُضِلُّواْ﴾.

٧ ـ دعاء الأنبياء على الآخرين ليس من باب الأحقاد الشخصيّة، بل من أجل صون الدين والأمّة، ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾.

٨ ـ وجود الثروة والمال عند غير الصالحين يسبّب الانحراف والغفلة، والفقر أيضاً يفتح باب الكفر، ﴿وَأَمْوَٰلًا... لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾.

٩ ـ إذا دعونا، فلا ننس الدعاء السياسيّ على الأعداء، ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ...﴾.

١٠ ـ عندما لا يفعل الاستدلال والمعجزة الأثر المطلوب، يأتي دور الدعاء على العدو ولعنه، ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ...﴾.

١١ ـ لن يؤمن العتاة وقساة القلوب بالحقّ ما لم يسلّط عليهم القهر والغضب الإلٰهيّ، ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

إشارات:

- ذكرت الآية السابقة مسألة دعاء موسى وهارون عليهما السلام على آل فرعون، وقد استُجيبت دعوتهما في هذه الآية. جاء في الروايات عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «**دعا موسى وأمّن هارون عليهما السلام وأمّنت الملائكة فقال الله تعالى:** ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾، **ومن غزا في سبيل الله استجيبت له كما استجيبت لكما يوم القيامة**»، والدليل على ذلك كلمة ﴿رَبَّنَآ﴾[1].

- وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**بين قول الله عزّ وجلّ:** ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ **وبين أخذ فرعون، أربعون عاماً**»[2].

التعاليم:

١ ـ دعاء الأنبياء مستجاب، ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

٢ ـ استجابة دعاء موسى دليل على صحّة طلبه المتمثّل بهلاك آل فرعون، ﴿أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.　(٢) المصدر نفسه.

٣ ـ حتى بعد استجابة الدعاء يلزم الصبر والاستقامة، ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾.

٤ ـ على القادة الإلهيّين أن يواجهوا الأفكار الجاهلية بصلابة وحزم، لأنّ التهاون في هذه الحالة دليل جهل، ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٥ ـ اتّباع أهل العلم أمر جائز، ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

إشارات:

- المراد بـ «البَحر» هنا نهر النيل وقد سمّي بالبحر لعظمته. والعبور من هذا النهر كان بإرادة الله تعالى عندما أمر موسى عليه السلام بأن يضرب بعصاه النهر فانفلق وانشقّ وظهرت اليابسة فعبر موسى ومن معه إلى الضفة الأخرى.
- لا قيمة للتوبة والإيمان عندما تحضر الإنسان الوفاة، إذ يقول ﷻ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾[1]، إذن، توبة المجرمين عند الاحتضار وندمهم غير مقبول.

التعاليم:

١ ـ ونحن نحارب الطواغيت فلنتوكّل على الله فهو سبحانه لا يتركنا وحدنا، ﴿وَجَٰوَزْنَا...﴾.

٢ ـ كلّ الأمور في نظام الكون تجري بإرادة الله تعالى، ﴿وَجَٰوَزْنَا... أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾.

٣ ـ في نهاية المطاف، سوف يُستجاب دعاء الأنبياء، ﴿أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾.

٤ ـ لقد أراد فرعون أن يقضي على موسى[2]، فقُضي عليه، ﴿أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾؛

---

(١) سورة النساء: الآية ١٨.

(٢) ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ سورة الإسراء: الآية ١٠٣.

(﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾).

٥ ـ سوف يأتي يوم على المستكبرين يصبحون لا حول لهم فيه ولا قوة، ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾

٦ ـ المستكبرون، كفرعون، في لحظة الموت يؤمنون، ولكن، سبق السيف العذل، ﴿ءَامَنتُ﴾.

٧ ـ الصدمات ومصائب التاريخ تزيح حجب الغفلة، ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾.

٨ ـ القوى غير الإلٰهيّة، بيوت عنكبوت ليس إلّا، سوف تستسلم يوماً ما، ﴿قَالَ... وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

إشارات:

□ عن: إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْهَمَدَانِيُّ قَالَ قُلْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا عليه السلام لِأَيِّ عِلَّةٍ أَغْرَقَ اللَّهُ عزّ وجلّ فِرْعَوْنَ وَقَدْ آمَنَ بِهِ وَأَقَرَّ بِتَوْحِيدِهِ قَالَ «.... **وَقَدْ كَانَ فِرْعَوْنُ مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ فِي الْحَدِيدِ وَقَدْ لَبِسَهُ عَلَى بَدَنِهِ فَلَمَّا أُغْرِقَ أَلْقَاهُ اللَّهُ عَلَى نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ بِبَدَنِهِ لِتَكُونَ لِمَنْ بَعْدَهُ عَلَامَةً فَيَرَوْنَهُ مَعَ تَثَقُّلِهِ بِالْحَدِيدِ عَلَى مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ وَسَبِيلُ الثَّقِيلِ أَنْ يَرْسُبَ وَلَا يَرْتَفِعَ وَكَانَ ذَلِكَ آيَةً وَعَلَامَةً**»[1].

التعاليم:

١ ـ القرآن الكريم يخبر عن الغيب وحوادث المستقبل. (بعد عشرات القرون لا تزال مومياء الفرعون تعرض في متاحف القاهرة)، ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾.

٢ ـ لا بدّ من استلهام الدروس والعبر من هلاك الطواغيت وسقوطهم، ﴿ءَايَةً﴾.

٣ ـ علينا أن نحافظ على الآثار ودلائل القدرة الإلٰهيّة والمدد الغيبي، ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

---

(١) عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ٧٨.

٤ ـ أكثر الناس لا يتعظون بدروس التاريخ وحوادثه، ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ... لَغَٰفِلُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

إشارات:

□ في الأدب القرآني، وردت كلمة «صِدق» أحياناً بعد بعض الكلمات لتعطي معنى الجيّد والجدير والمناسب مثل ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾[١]، ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾، ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾[٢]، ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾[٣]، ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾[٤]، ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾[٥] و﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾؛ بمعنى أنّ الصدق المطابق للواقع يشكّل قيمة لكلّ شيء يضاف إليه.

يقصد هنا بالمبوّأ، المنزل الصالح لسكنى بني إسرائيل من حيث المناخ المعتدل ووفور النعم، أعني، بلاد الشام وفلسطين. و«مبوّأ صدق» يعني المنزل الصالح حقّاً كما يجب أن يكون. فالمنطقة التي نزل فيها بنو إسرائيل كانت تتوافر فيها كلّ الشروط المناسبة للحياة، وأرضهم كانت في أعلى درجات الخصوبة والنماء وهو ما تبيّنه الآية ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

التعاليم:

١ ـ توافر السكن المناسب، هو أحد النعم الإلهيّة، وموضع رضا الأديان السماوية، ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾.

٢ ـ نهضات الأنبياء تأخذ بعين الاعتبار الأبعاد الروحية إلى جانب الأبعاد المادّيّة لحياة الناس ومعيشتهم، ﴿بَوَّأْنَا... وَرَزَقْنَٰهُم﴾.

٣ ـ عادة ما تشهد المجتمعات التي تحدث فيها ثورات وتحوّلات موجة من الغلاء والقحط، فيختلّ التوازن الاقتصادي لتلك المجتمعات، بيد أنّ الله سبحانه

---

(١) سورة يونس: الآية ٢.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٠.
(٣) سورة مريم: الآية ٥٠.
(٤) سورة الأحقاف: الآية ١٦.
(٥) سورة القمر: الآية ٥٥.

وتعالى نجّى بني إسرائيل من هذه الأزمات بعد القضاء على حكم آل فرعون، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم﴾.

٤ ـ التفرقة تذهب بجميع النعم الإلٰهيّة، ﴿بَوَّأْنَا... وَرَزَقْنَٰهُم... ٱخْتَلَفُوا۟﴾.

٥ ـ أسباب الخلافات ليست دائماً مادّية، أحياناً تكون نابعة من الأهواء والنزوات، ﴿بَوَّأْنَا... وَرَزَقْنَٰهُم... ٱخْتَلَفُوا۟﴾.

٦ ـ العلم وحده لا ينجي، ﴿ٱخْتَلَفُوا۟... جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾.

٧ ـ معظم انتقادات القرآن الكريم تنصبّ على الاختلافات التي تحدث بعد العلم والوعي، ﴿جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾

إشارات:

- نُقِل عن الإمام علي الهادي عليه السلام أنّه قال: «**أمّا قوله ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ فإنّ المخاطب بذلك رسول الله ﷺ ولم يكن في شكّ ممّا أنزل الله عزّ وجلّ، ولكن قالت الجهلة: كيف لا يبعث إلينا نبياً من الملائكة إنّه لم يفرّق بينه وبين غيره في الاستغناء عن المأكل، والمشرب، والمشي في الأسواق، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيه ﷺ: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ بم حضر من الجهلة هل بعث الله رسولاً قبلك إلّا وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ولك بهم أسوة**»[1].

- يقول الفخر الرازي في التفسير الكبير: فإن قيل: إذا كان مذهبكم أنّ هذه الكتب قد دخلها التحريف والتغيير، فكيف يمكن التعويل عليها. قلنا: إنّهم إنّما حرّفوها بسبب إخفاء الآيات الدالّة على نبوّة محمّد عليه الصلاة والسلام فإن بقيت فيها آيات دالة على نبوّته كان ذلك من أقوى الدلائل على صحّة نبوّة

---

(١) تفسير نور الثقلين.

محمّد عليه الصلاة والسلام، لأنّها لمّا بقيت مع توفّر دواعيهم على إزالتها دلّ ذلك على أنها كانت في غاية الظهور[١].

القرآن بين السؤال والجواب

□ **سؤال**: كيف تنسب الآية الكريمة الشكّ إلى النبي الكريم ﷺ ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ... فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؟ هذا في الوقت الذي لم يخطر ببال النبي الكريم ﷺ شكّ؟ بل إنّ العقل لا يقبل أن يعتريه شكّ في الوحي؟

الجواب:

١ ـ كلمة «إنّ» افتراضية، ولا تدلّ على الوقوع الحتمي، على سبيل المثال مثل ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾[٢]، والحال أنّ هذا محال على الله تبارك وتعالى، والآية الكريمة ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ تنفي هذا نفياً قاطعاً.

٢ ـ الآية ١٠٤ من هذه السورة تنقل خطاب النبي الكريم ﷺ إلى قومه ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾، إذن، لم يكن الشك يتعلّق بالرسول الكريم ﷺ، وإلّا لما تحدّاهم. كما إنّ القرآن الكريم يقول: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾[٣].

٣ ـ أحياناً يكون ظاهر الخطاب القرآني موجّهاً إلى النبي الكريم ﷺ لكنّه، في الحقيقة، يعني به الآخرين، كما في هذه الآية الكريمة ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا...﴾[٤]، هذا في الوقت الذي نعلم أنّ الرسول الأعظم ﷺ يتيم الأبوين منذ الصغر، وحين نزول هذه الآية لم يكن له والدان أصلاً لكي يتحدّث القرآن الكريم عن شيخوختهما. إذن، فالآية هي من باب «إيّاك أعني واسمعي يا جارة»، كذلك الحال في القضايا الإصلاحية والتربوية، فإنّ الخطاب أحياناً يكون موجّهاً إلى كبار الشخصيات، لكنّ المعني به هم الآخرون.

---

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي.
(٢) سورة مريم: الآية ٩١.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.
(٤) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

التعاليم:

١ ـ من الضرورة بمكان إزالة الشك والريبة من المعتقدات، ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾.

٢ ـ حين يعرض الشكّ، يجب مراجعة العلماء من أجل رفعه، ﴿فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَٰبَ﴾؛ إذن، فكلام العالِم حجّة.

٣ ـ الكتب السماوية يصدّق بعضها بعضاً، ﴿يَقْرَءُونَ الْكِتَٰبَ﴾.

٤ ـ من أهل الكتاب من ينطق بالحقّ، ﴿فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَٰبَ﴾.

٥ ـ لا بدّ للقائد من أن يتّصف بالحزم وألّا يسمح لأيّ شكّ وريبة أن تعتريه، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

٦ ـ الفضل ما شهدت به الأعداء، فهل مع اعتراف الأعداء بالحقّ لديكم أيّ شك؟! ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾

إشارات:

- نهت الآية السابقة عن الشكّ والريبة في القرآن، أمّا النهي في هذه الآية فهو عن التكذيب بالآيات. ومعلوم أنّه إذا لم يُرفع الشكّ، فمآل ذلك هو التكذيب لا محالة.

- النقاش والأسئلة المطروحة بشأن الآية السابقة تصدق بشأن هذه الآية أيضاً، ذلك أنّ التكذيب، بطبيعة الحال، أسوأ من الشك. توجد آيات وأحاديث عدّة تتحدّث عن يقين النبي الكريم ﷺ. إذن، فالناس هم المعنيون، في حقيقة الأمر، بالنهي، وليس النبي، إذ كيف يمكن لمن انتهل البشر من يقينه حتى وصلوا إلى مرتبة اليقين، أن ينفذ الشك والريبة في نفسه؟!

- على الرغم من عصمة النبي الأكرم ﷺ، إلّا أنّ خطاب العديد من الآيات يتّسم بالتحذير والتنبيه، ليصل هذا التحذير إلى الناس عن طريق النبي، فيتّعظوا

ويعوا الدرس، ومن تلك الآيات ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[(١)] ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[(٢)]، و﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾[(٣)].

التعاليم:

١ ـ الله تعالى يوجّه التحذير والنُّذُر إلى نبيّه أيضاً، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾.

٢ ـ التفريط بكنز الإيمان وبالتبعيّة للأنبياء خسران كبير، ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾
وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

إشارات:

□ إذا ما تأمّلنا العبارة ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ في الآية ٩٧ والعبارة ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ في الآية التالية (٩٨) فستتبيّن أنّ المقصود بـ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هو العذاب الإلٰهيّ.

التعاليم:

١ ـ العذاب الإلٰهيّ هو استحقاق الكافرين[(٤)]، ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾.

٢ ـ حرمان الكفّار من الإيمان بسبب تكذيبهم ولجاجهم هو من مقتضيات الربوبيّة ومن السنن الإلٰهيّة، ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

٣ ـ لا نتوقّع أن يؤمن جميع الناس، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾.

٤ ـ حين يرى الطغاة العذاب الإلٰهيّ بأمّ أعينهم، يؤمنون، ولكن بعد فوات الأوان، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ... حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤.

(٢) سورة القصص: الآية ٨٦.

(٣) سورة القصص: الآية ٨٧.

(٤) وفي آية أخرى نقرأ ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (سورة يس: الآية ٧٠).

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

إشارات:

❑ يستوقفنا هنا أنّ هذه السورة المباركة سردت قصّة النبي نوح والنبي موسى ﷺ بالتفصيل، في حين أنّها وعبر نصف آية مرّت مرور الكرام على قصّة توبة قوم النبي يونس ﷺ، هذا في الوقت الذي تحمل السورة اسم النبي يونس ﷺ، ولعلّ تفسير ذلك هو الحسّاسية والأهميّة الشديدة التي تنطوي عليها توبة قوم النبي يونس ﷺ الذين بادروا في آخر لحظة إلى التوبة والإنابة، وقد قبل الله تعالى توبتهم.

❑ وعن الإمام الصادق ﷺ أنّه قال: «**إنّ يونس بن متى بعثه الله إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة، وكان رجلاً تعتريه الحدّة، وكان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم، عاجزاً عمّا حُمل من ثقلِ حملِ أوقارِ النبوة وأعلامها، وأنّه تفسّخ تحتها كما يتفسخ الجذع تحت حمله، وأنّه أقام فيهم يدعوهم إلى الإيمان بالله والتصديق به واتّباعه ثلاثاً وثلاثين سنة، فلم يؤمن به ولم يتبعه من قومه إلّا رجلان أحدهما حكيم والآخر عابد، فلما رأى يونس أنّ قومه لا يجيبونه ولا يؤمنون ضجر وعرف من نفسه قلّة الصبر فشكا ذلك إلى ربّه، وكان في ما شكا أن قال: يا ربّ إنّك بعثتني إلى قومي ولي ثلاثون سنة، فلبثت فيهم أدعوهم إلى الإيمان بك، والتصديق برسالتي، وأخوّفهم عذابك ونقمتك ثلاثاً وثلاثين سنة فكذّبوني، ولم يؤمنوا بي، وجحدوا نبوتي، واستخفوا برسالتي، وقد تواعدوني وخفت أن يقتلوني؛ فأنزل عليهم عذابك فإنّهم قوم لا يؤمنون، فلمّا رأى الرجل الحكيم ذلك ذهب إلى قوم يونس فصرخ بأعلى صوته في رأس الجبل: أن يا قوم قد أنكرتم عذاب الله وقد أوحى الله إلى نبيّه أنّ العذاب ينزل عليكم في شوال وسط الشهر، وأنّ الله لن يخلف وعده رسله، فانظروا ماذا أنتم صانعون؟ فأفزعهم كلامه فوقع في قلوبهم تحقيق نزول**

العذاب فأجفلوا نحو الرجل الحكيم وقالوا له: ماذا أنت مشيرٌ به علينا؟ فقال لهم: فإنّي أرى لكم وأشير عليكم أن تنظروا وتعمدوا إذا طلع الفجر يوم الأربعاء في وسط الشهر أن تعزلوا الأطفال عن الأمهات في أسفل الجبل في طريق الأودية، وتقفوا النساء في سفح الجبل ويكون هذا كلّه قبل طلوع الشمس، فعجّوا عجيج الكبير منكم والصغير بالصراخ والبكاء والتضرّع إلى الله والتوبة إليه والاستغفار له، فأجمع رأي القوم جميعاً على أن يفعلوا ما أشار به عليهم، ولما أن زالت الشمس، وفتحت أبواب السماء، وسكن غضب الرب تعالى رحمهم الرحمن فاستجاب دعاءهم، وقبل توبتهم، وأقالهم عثرتهم. عندما عاد النبي يونس ﷺ إلى قومه لا يشكّ أنّ العذاب قد نزل بهم جميعاً فأقبل ناحية القرية ينظر خبرهم، فوجدهم مطمئنين لم يمسسهم سوء، فسأل عن الخبر فشرحوا له القصة»[1].

التعاليم:

١ ـ بإمكان الإنسان أن يصون نفسه حتى لو كان على حافة الهاوية، ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾.

٢ ـ الإيمان والتوبة في الوقت المناسب، كفيلان برفع العذاب الإلٰهيّ، ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا﴾.

(من بين جميع الأقوام التي كذّبت رسلها، وحدهم قوم يونس الذين حظوا بتوفيق التوبة في الوقت المناسب وآمنوا قبل فوات الأوان).

٣ ـ مصير الإنسان بيده هو، ﴿ءَامَنُوا كَشَفْنَا﴾.

٤ ـ سرّ سعادة الإنسان في الدنيا هو الإيمان، ﴿ءَامَنُوا... وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾.

٥ ـ الدعاء والتضرّع إلى الله، يرفع البلاء ويستجلب السعادة معاً. (في ضوء سبب نزول الآية)، ﴿كَشَفْنَا... وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾.

(١) تفسير مجمع البيان؛ تفسير الصافي.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

إشارات:

- الله تعالى قادر وحكيم، يستخدم قدرته بما لا يتعارض مع حكمته، ولمّا اقتضت حكمته أن يكون الناس مخيّرين، لذلك، فهو لا يستخدم قدرته لإجبارهم على الإيمان أبداً.

كان المشركون يقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾[1]، لذا، فإنّ إرادته قضت أن نشرك به، ونحن مكرهون على شركه! هذه الآية يمكن أن تقدّم جواباً لكلامهم وهو، إذا كانت إرادة الله تقضي على الإكراه، فلماذا لا يكون هذا الإكراه باتجاه الإيمان والهداية وليس باتجاه الانحراف والشرك!؟

التعاليم:

١ ـ الإيمان يقوم على الاختيار لا الإكراه والإجبار، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ﴾.

٢ ـ كان النبي الكريم ﷺ ومن منطلق الحرص والحنوّ على المشركين يصرّ على إيمانهم، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الناس ليسوا مكرهين على الإيمان (طبقاً لقول الآية السابقة)، وليسوا مكرهين على الإيمان بدون الهداية والتوفيق الإلٰهيّ[2]، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ الكفر رجس ونجس، ﴿ٱلرِّجْسَ﴾.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٨.

(٢) «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين»، بحار الأنوار، ج ٤، ص ١٩٧.

٣ ـ اللطف الإلٰهيّ وتوفيق الإيمان يشمل أهل العقل والتعقّل، ومن لا يتعقّل بملء إرادته واختياره، فسيناله غضب إلهي، ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٤ ـ العقل السليم يفتح طريق الإيمان، وعدم الإيمان دليل على عدم التعقّل، ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾

إشارات:

- جاء في الآية السابقة أنّ عدم التعقّل هو دليل كفر، وهنا تقول الآية إنّ التفكّر والتدبّر هو طريق الإيمان.
- **«نُذُر»** هو جمع **«نَذير»** بمعنى النبيّ، أو جمع **«إِنذار»**، وهو التحذير والتنبيه.

التعاليم:

١ ـ التفكّر والتدبّر في الخلق، أفضل وأبسط وأعمّ طريق للوصول إلى معرفة الله تعالى، ﴿ٱنظُرُوا۟﴾.

٢ ـ المطلوب هو المشاهدة القيّمة والمؤثّرة في اتّخاذ القرار الحرّ، لا محض المشاهدة وانعكاس الصور الفيزيائية للأشياء في مرآة العقل البشري، ﴿ٱنظُرُوا۟...﴾.

٣ ـ الآيات الإلٰهيّة والنُذُر إنّما تؤثّر في الإنسان نقيّ الفطرة غير اللجوج، ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ...﴾.

٤ ـ الإنسان مخيّر في اختيار الدين، لذلك تراه، أحياناً، يقف بوجه الأنبياء والكتب السماوية ويتنكّر لآيات الله في الكون ويعرض عن الإيمان، ﴿قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾

التعاليم:

١ ـ سنّة الله تعالى وشريعته إزاء جميع الناس واحدة، ﴿مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾.

٢ ـ تاريخ الأسلاف عبرة للآتين، ﴿خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾.

٣ ـ لا نغترّ بالمهلة الإلٰهيّة، ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾.

٤ ـ عاقبة اللادينية، الضلال، ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾.

٥ ـ أحياناً، دفع لجاج الناس الأنبياء إلى اليأس، لدرجة أنّهم كانوا يعلنون جهاراً عن يأسهم، ﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾

إشارات:

□ **سؤال:** لقد ثبت بالتجربة الملموسة أنّه عند بروز الفتنة، يحترق الأخضر واليابس معاً، وقد ورد التحذير من ذلك في الآية ٢٥ من سورة الأنفال ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾، فكيف، إذن، نوفّق بينها وبين الآية التي نحن بصددها ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾؟

الجواب هو: إنّ عذاب الله يشمل المؤمنين أيضاً عندما يكون هؤلاء بين ظهراني الكفّار والمجرمين ويتّخذون موقفاً متخاذلاً، لكنّهم إذا عملوا طبقاً لمسؤوليتهم الإلٰهيّة، أعني، العمل بفريضة النهي عن المنكر، فإنّ الله ينجيهم عندما يدلهمّ الخطر.

التعاليم:

١ ـ الله تعالى لا يشمل الأنبياء والمؤمنين بعذابه، ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا... نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

٢ ـ من السنن الإلٰهيّة وكذلك من جملة الحقوق التي للمؤمن على الله أن ينجيه من العذاب والخطر عند وقوعه، ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣ ـ وعد النجاة والخلاص أفضل ظهير للحركات الإلٰهيّة، ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٤ ـ العاقبة للمؤمنين، ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا تجعلوا شكوك الآخرين تثير فيكم الريبة. الحزم هو شرط القائد، ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ...﴾.

٢ ـ أيّ استسلام، أو تنازل، أو مداهنة، أو مرونة مع الكفّار ممنوع، يجب علينا أن نؤيّس معسكر الكفر، ﴿فَلَآ أَعْبُدُ...﴾.

٣ ـ لا يتورّع العدوّ عن استمالة الجميع بما فيهم قادة الإسلام، لذا، علينا أن نعلن صراحة براءتنا وعدم استسلامنا، ﴿فَلَآ أَعْبُدُ...﴾ .

٤ ـ إنّما يستحقّ العبادة من يملك الموت والحياة، ﴿أَعْبُدُ... ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾.

٥ ـ من المعلوم أنّ الموت والحياة بيد الله تعالى، لكنّ الآية هنا تذكر الموت فقط، وذلك لأنّه كفى بالموت عبرة وموعظة، ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾.

٦ ـ اعتقد المشركون أنّ معبوديهم عقلاء. (الاسم الموصول «الذين» يستعمل في حالة الجمع للعاقل).

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

إشارات:

- «حَنيف»، تعني المستقيم الذي لا عوج فيه، لا يميناً ولا يساراً.

التعاليم:

١ ـ التديّن يتطلّب الإرادة والهمّة والحب، ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾.

٢ ـ الدين الإسلامي شريعة منزّهة عن أيّ تحريف، ﴿حَنِيفًا﴾.

٣ ـ المسلم الحقّ، هو الذي لا يدنّسه شرك بعد أن تطهّر بالإسلام، ولا يميل إلى الطواغيت، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٤ ـ العاقل يعمل إمّا لربح أو لرفع خطر أو دفع ضرر. والأصنام لا نفع من ورائها ولا قدرة لها على دفع ضرر. إذن، الشرك هو نوع من الحماقة، ﴿وَلَا تَدْعُ... مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

٥ ـ الشرك ظلم، والمشرك ظالم، ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

إشارات:

- نلاحظ أنّه في كشف الضرر ورد تعبير ﴿إِلَّا هُوَ﴾ لكنّه لم يرد في حالة ردّ الخير، وفي تفسير ذلك يقول صاحب روح المعاني: ولعل ذكره الإرادة مع الخير والمسّ مع الضرّ مع تلازم الأمرين، لأنّ ما يريده سبحانه يصيب، وما يصيب لا يكون إلّا بإرادته تعالى للإيذان بأنّ الخير مقصود لله تعالى بالذات والضرّ إنّما يقع جزاء على الأعمال وليس مقصوداً بالذات(١).

ولنا في القرآن الكريم خير دليل إذ يقول عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٢)، بمعنى أنّ تغيير النعم متعلّق بعمل الإنسان نفسه(٣).

---

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) سورة الرعد: الآية ١١.

(٣) في دعاء كميل نقرأ «اللّهم اغفر لي الذنوب الّتي تغيّر النعم».

التعاليم:

١ ـ الخير والشرّ كلاهما بيد الله تعالى، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ... وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾.

٢ ـ ليس بالضرورة كلّ مكروه شرّ، أحياناً يكون الغرض من الحوادث الأليمة إيقاظ الفطرة أو اختبار الإنسان. تقول الآية الكريمة: ﴿بِضُرٍّ﴾ لا: «بشرّ».

٣ ـ هدف الله تعالى هو إيصال الخير. من هنا فإنّه بالنسبة إلى الخير يقول: ﴿يُرِدْكَ﴾؛ أي استعمل مفهوم الإرادة، فيما استعمل تعبير ﴿يَمْسَسْكَ﴾ في حال الضرر[1].

٤ ـ ما يصيب الإنسان من خير فهو من فضل الله تعالى، وليس استحقاق الإنسان، ﴿لِفَضْلِهِۦ﴾.

٥ ـ إرادة الله تقوم على الحكمة، ومشيئته تجد معناها باقترانها بالحكمة، ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾

التعاليم:

١ ـ ما ينزل من عند الله (مثل القرآن الكريم وتعاليم الأنبياء) هو حقّ ومن شؤون الربوبيّة، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢ ـ الهدف من بعثة الأنبياء ونزول الكتب السماوية، إصلاح جميع البشر وتربيتهم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ... مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٣ ـ لقد أتمّ الله تعالى الحجّة على خلقه، ولا عذر لنا في عدم الإيمان بالحقّ، ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾.

---

(١) تفسير روح المعاني.

٤ ـ هدايتنا لا تنفع الله في شيء، إنّما النفع والضرر من الهداية والضلال يعود علينا وحدنا، ﴿لِنَفْسِهِۦ﴾.

٥ ـ الإنسان مخيّر، وهو الذي يصنع عاقبته، حتى الأنبياء لا يملكون إكراه الناس على الإيمان، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

٦ ـ مسؤولية الأنبياء الدعوة والإرشاد، لا الإكراه والإجبار، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

التعاليم:

١ ـ سواء آمن الناس أم كفروا، يجب علينا ألّا نترك الوحي والأحكام الإلْهيّة، ﴿وَٱتَّبِعْ...﴾.

٢ ـ الأنبياء يتّبعون أوامر الوحي، ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ﴾.

٣ ـ اتّباع الوحي يلزمه الصبر، ﴿وَٱتَّبِعْ... وَٱصْبِرْ﴾.

٤ ـ على القائد أن يتحلّى بالصبر والجلد، ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾.

٥ ـ العلم شرط العمل، ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ﴾، والاستقامة شرط النصر، ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾.

٦ ـ الله تبارك وتعالى هو خير الحاكمين، فلا نغتمّ للمستقبل، ﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

«والحَمدُ للّه ربّ العالمين»

الفهرس

سورة الأعراف .... ٥ ـ ٢٤٣

سورة الأنفال .... ٢٤٥ ـ ٣٤٨

سورة التوبة .... ٣٤٩ ـ ٥٠٤

سورة يونس .... ٥٠٥ ـ ٥٩٩